

١٠ - سورة يونس

(السورة العاشرة في المصحف وآياتها ١٠٩ عند الجمهور وعند الشامي ١١٠)

هي مكية نزلت بعد سورة الاسراء (بني اسرائيل) وقبل سورة هود . وما رواه ابن مردويه من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس من كونها مدنية غلط يخالف للروايات الكثيرة عنه وعن غيره بل للاجماع الذي يؤيده موضوع السورة من أولها إلى آخرها فهو يدور على اثبات اصول التوحيد وهدم الشرك واثبات الرسالة والبعث والجزاء ودفع الشبهات عنها وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين الاصلية التي هي موضوع السور المكية ، وعثمان بن عطاء ضعيف متروك لا يحتج بروايته فيما يحتمل الصواب فكيف ينظر اليها في مثل هذه المسألة ، ولكن الرواة لم يتركوها متردما وقال السيوطي في الاتفاق : استثنى منها (فان كنت في شك) الآيتين ٩٤ و ٩٥ - وقوله (٤٠ ومنهم من يؤمن به) الآية قيل نزلت في اليهود ، وقيل من أولها إلى رأس أربعين مكي والباقي مدني حكاه ابن الفرس والسخاوي في جمال القراء اه وأقول ان موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية ، وهو مما لم تثبت به رواية . وكون المراد بالذين يقرؤون الكتاب (في الآية ٩٤) اليهود لا يقتضي أن تكون نزلت في المدينة . ويأينه من وجهين (أحدهما) أن المراد بالشرطية فيها الفرض لا وقوع الشك حقيقة ولذلك قال ﷺ « لا أشك ولا أسأل » وهو مرسل يؤيده قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري كما سيأتي في تفسيرها (وثانيهما) ان هذا المعنى نزل في سور مكية أخرى كقوله تعالى في سورة الاسراء (فأسأل بني اسرائيل اذ جاءهم)

وقوله في سورتي النحل والانبياء (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ووجه مناسبتها لما قبلها أن تلك ختمت بذكر رسالة النبي ﷺ وهذه افتتحت بها ، وإن جل تلك في بيان أحوال المنافقين ومنه ما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه عند نزول القرآن كآيات ١٢٤ - ١٢٧ وهذه في أحوال الكفار ومنها ما كانوا يقولونه في القرآن كآيات ١٥ و١٦ و١٧ و ٣٧ - ٤٠ .

واعلم أن التناسب الذي يوجد بين السور ليس سببا في هذا الترتيب الذي بينهما ، فرب سورتين بينهما أقوى التناسب في موضوع الآيات ومسائلها يفصل بينهما تارة ويجمع بينهما أخرى فمن الاول الفصل بين سورتي الهمزة واللمب وموضوعهما واحد . والفصل بين السور المبدوءة بالتسبيح بسورة المنافقين . ويقابلها من الوجه الثاني الوصل بين سور الطواسين وسور آل حاتم وبين سورتي المرسلات والنبأ وسورتي التكوير والانفطار ، وربما يقال ان التناسب بين أكثر السور الملكية أقوى منه بينها وبين السور المدنية ومن حكمة الفصل بين القوية التناسب في المعاني كالمكية التي موضوع أكثرها العقائد والاصول العامة والزواج الصاعدة والمدنية التي موضوع أكثرها الاحكام العملية أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن بالترتيب وأنأى به عن المال ، وأدعى له إلى التدبر ، فهذه الحكمة تشبه حكمة تفريق مقاصد القرآن في السورة الواحدة من عقائد وقواعد ، وأحكام عمالية ، وحكم أدبية ، وترغيب وترهيب ، وبشارات ونذر ، وأمثال وقصص ، والعمدة في كل ذلك التوقيف والاتباع وهاءنذا أشرع في تفسير السورة ملتزما فيها القصد والاختصار في كل ما سبق له بيان مفصل في تفسير السور السابقة ولا سيما السورتين المكييتين من السور الطول : الانعام والاعراف : وإنما أبسط القول فيما لم أبسطه فيه تمام البسط من قبل ، وأهمه في هذه السورة مسألة الوحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الرَّاءُ، تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ

﴿الر﴾ تقرأ هذه الحروف الثلاث بأسمائها ساكنة غير معربة هكذا: ألف، لام، را. والحرف الأخير غير مهموز. وفائدة النطاق بها وبأمثالها هكذا تنبيه الذين تتلى عليهم السورة لما بعدها لاجل العناية بفهمه حتى لا يفوتهم من سماعه شيء. وهي أقوى في هذا التنبيه من حرف الهاء الموضوع له في اسم الإشارة «ومن كلمة «ألا» الافتتاحية، وقد فصلنا هذه المسألة في أول تفسير سورة الاعراف»

﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي تلك الآيات البعيدة الشأو، الرفيعة الشأن، التي تألفت منها هذه السورة، أو القرآن كله، هي آيات الكتاب الموصوف بالحكمة في معانيه، والاحكام في مبانيه، الحقيق بهداية متدبره وإعنيه.

﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ الاستعظام للتعجب من عجب الكفار واستنكار إنكارهم للوحي إلى رجل من جنسهم، والوحي الاعلام الخفي.

(١) زعم بعض ملاحدة مصر أن هذه الاحرف كانت تكتب في بعض مصاحف الصحابة رمزاً لاصحابها فادخلت في القرآن عند كتابة المصاحف الرسمية ظناً منها من السور. وفي هذا الزعم أكبر جرأة على الافتراء والافتجار ورد النقل المتواتر بدون أدنى شبهة غير وسوسة الشيطان، وعداوة الرحمن،

الخاص لامرىء بما يخفى على غيره - اي أكلن إبحاؤنا إلى رجل من الناس أمراً
نكرّاً اتخذوه أعجوبة ينظمون ينظمون باستغرابها؟ كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع
اختصاص الله إياه بما شاء من العلم . والمراد بالناس كفار مكة ومن تبعهم في إنكار
نبوة محمد ﷺ ، وعبر عنهم بالناس لأن هذه الشبهة على الرسالة قد سبقتهم اليها
أقوام الانبياء قبله كما تقدم في قصة نوح وهود من سورة الاعراف (٧: ٦٢ و ٦٨)
أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟ وهذا المعنى مكرر في القرآن
وقد دحضنا هذه الشبهة في آخر تفسير سورة الانعام ^١ ﴿ أن أنذر الناس ﴾
«أن» هذه مفسرة لما قبلها ، والانذار الاعلام بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد
الدين المقترن بالتخويف من عاقبة الكفر والمعاصي ، أي أوحينا اليه بأن أنذر الناس كافة
﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ التبشير مقابل الانذار ،
أي الاعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء على الايمان والعمل الصالح . والمعنى
وبشر الذين آمنوا منهم خاصة بأن لهم قدم صدق عند ربهم يحجزهم به في الآخرة -
والصدق في اصل اللغة ضد الكذب ثم أطلق على الايمان وصدق النية والوفاء
وسائر مواقف الفضائل ، ومنه في التنزيل : مقعد صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج
صدق ، وقدم صدق . والقدم ههنا السابقة والتقدم . قال البيضاوي : سابقة
ومنزلة رفيعة سميت قدماً لأن السبق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد ،
وإضافتها إلى الصدق لتحقيقها ، والتنبيه على انهم إنما يناولونها بصدق القول والنية
﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون (ساحر)
يعنون النبي ﷺ ، والباقون (لسحر) ويعنون به القرآن ، وكلا من القولين
قد قالوا ، وكل من القولين يشير الى إثبات رسالته ﷺ فان قولهم ان القرآن سحر
جاء به ساحر يتضمن اعترافهم بانها فوق المعهود والمعلوم للبشر في عالم الاسباب
المقدورة لهم . وتأكيده قولهم بالجملة الاسمية وإن واللام وبوصف السحر أو الساحر

بالمبين الظاهر يفيد الحصر كقول أونيد (إن هذا الإسحر يؤثر) يعني القرآن .
وسموه سحراً لأنه خارق للعادة بقوة تأثيره في القلوب وجذبه للنفوس الى الايمان
وحماها على احتقار الحياة ولذاتها في سبيل الله ، حتى انه يفرق بين المرء وأخيه ،
وأمه وأبيه ، وزوجه وبنيه ، وفصيلته التي تؤويه ، وتمنعه وتحميه . وانما السحر
ما كان باسباب خفية خاصة ببعض الناس يتعلمها بعضهم من بعض ، وهي إما حيل
وشعوذة ، وإما خواص طبيعية علمية مجهولة للجاهل ، وأما تأثير قوى النفس
وتوجيه الارادة . وكلها من الامور المشتركة بين الكثيرين من العارفين بها (١)
وقد استبان لعامة العرب ثم غيرهم من شعوب العجم أن القرآن ليس بسحر يؤثر
بالعلم والصناعة ، بل هو مجموعة علوم عالية في العقائد والآداب والتشريع والاجماع
مرقية للعقول ، مزكية للانفس ، مصلحة للناس ، وانه معجز للبشر في اسلوبه
ونظمه ومعانيه وهدايته وتشريعه وإخباره بالغيب (٢) وأن محمداً ﷺ مبلغ له ،
ولم يكن ليقدر على شيء منه ، وقد عجز عنه غيره ، فثبت انه نبي الله ورسوله ،
وان ما جاء به وحي منه تعالى .

وقد بينا حقيقة الوحي لغة وشرعا وإثباته لنبينا ﷺ في مواضع منها ما في بحث
دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ وهو في (ص ٢١٦ - ٢٢٤ ج ١ تفسير) ومنها
تفسير (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح) الآية وهو في (ص ٦٧ ج ٦ تفسير)
ومنها رد شبهات الكفار عليه في سورة الانعام (ص ٣٠٩ - ٣٢٠ ج ٧ تفسير)
ومنها في خلاصتها (ص ٢٧٤ - ٢٨٠ ج ٨) ومنها تحقيق القول في مسألة الكلام
الالهي بمناسبة تكليم الله لموسى عليه السلام (ص ١٧٨ - ١٩١ ج ٩) وبقي علينا
بسط القول في نبوة محمد مع مثبتي الوحي ونفاته ، وشبهة النفاة لعالم الغيب عليها
وتصويرهم للوحي اليه بغير صورته ، فنعقد له الفصل التالي :

(١) راجع حقيقة السحر في ص ٣٩٩-٤٠٥ ج ١ تفسير

(٢) راجع إعجاز القرآن ص ١٩٠ - ٢١٥ ج ١ تفسير

فصل في اقامة الحجّة على مثبتي الوحي ونفاته

(في اثبات نبوة محمد ﷺ)

الكلام في الوحي لمحمد ﷺ مع مثبتي الوحي

أما الفريق الاول فهم أهل الكتاب ، وان من اطلع على كتبهم المقدسة المعبر عنها بكتب العهدين العتيق والجديد وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية علم علماً عقلياً وجدانياً انه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك كتب وحي من الله ، وان الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله وان محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي ، ولا نحوي أن يجحد نحو سيبويه وابن جني ، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرضي والبحري ، بل كما لا يستطيع بصير أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، والله در البوصيري حيث قال :

الله أكبر ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبيلاً

لا تذكروا الكتب السوائف عنده طلع الصباح فاطني القنديل

وقد صرح بهذا المعنى علماء الافرنج الذين نشؤا في النصرانية وأحاطوا بها علماً وخبراً ثم عرفوا الاسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة . وهاك شهادة حديثة لعالم مستشرق منهم

كتب الاستاذ أدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبيا صادقا كما كان انبياء بني اسرائيل في القديم ، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى اليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الالهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الانبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم

ذلك الإلهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية اللذين يحدثان في العقل البشري المرآئي والتجليات والوحي والاحوال الروحية التي من بابها « اه
فهذا العالم الاوربي المستقل الفكر يقول ان كل ما كان به انبياء بني اسرائيل
انبياء كان ثابتا لمحمد . ونحن نقول ان جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي
اكل شكلا وموضوعا وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه ، وأما ما فسر
به هذه الخصائص فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه
في القسم الثاني من هذا الفصل

وقد لخص هذا العالم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب إسلامية
مدعنا لصحة روايتها . وفصلها بعهده العالم المستشرق الفرنسي أميل درمنغام^(١) في كتابه
(حياة محمد) مدعنا لصحة الرواية ولموضوعها مفصلا لتأثير نبوته في إصلاح البشر
عتمنيا الاتفاق بين المسلمين والنصارى أسفا للشقاق بينهم

واننا ننقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن احد علماء
الافرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ وهو الدكتور جورج بوست
الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليفني عليها الباحث المستقل
العقل حكمه في نبوة انبياء بني اسرائيل ووحيمهم ونبوة محمد رسول الله وخاتم
النبیین والوحي الذي انزل عليه

تعريف الوحي عندهم

جاء في تفسير كلمة «وحي» من قاموس الكتاب المقدس ما نصه مع حذف رموز الشواهد:
« تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أوشعب . وجاء في (حز ١٢ : ١)
« هذا الوحي هو الرئيس » اي انه آية لأشعب . وعلى العموم يراد بالوحي الإلهام . وعلى
ذلك يقال « ان كل الكتاب هو موحى به من الله » والوحي بهذا المعنى هو حلول روح

(١) يكتب هذا الاسم في مجلة السياسة (درمنجم) بالجيم المصرية حيث ينشر فيها
كتاباه (حياة محمد) مترجما بالعربية . وانما اخترنا كتابته بالعين لكتاب جاء نا من المؤلف
بالعربية كتب فيه امضاءه (اميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الاول من مجلد المنار الثلاثين

الله في روح الكتاب الملمهين وذلك على انواع (١) إفادتهم بحقائق روحية او حوادث مستقبلية لم يكن يمكنهم التوصل اليها إلا به (٢) ارشادهم الى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاها او تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال « تكلم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » وهنا لا يفقد المتكلم او الكاتب شيئا من شخصيته وانما يؤثر فيه الروح الالهي بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق ارشاده تعالى . ولهذا نرى في كل مؤلف من الكتاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ومنطت التأليف وما شابه ذلك وفي شرح هذا التعليم دقة. وقد اختلف العلماء فيما اوردوه من شرحه ، غير ان جميع المسيحيين يتفقون على ان الله قد اوحى لأوائل الكتاب ليدونوا إرادته ويفيدوا الانسان ما يجب عليه من الايمان والعمل لكي ينال الخلاص الابدي » اهـ

تعريف النبوة والانبياء عندهم

وجاء في تفسير « نبي أنبياء نبوة » منه ما نصه :

« النبوة لفظة تفيد معنى الاخبار عن الله وعن الامور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمي هارون نبيا لانه كان الخبر والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته . أما انبياء العهد القديم فكانوا يفادون بالشريعة الموسوية ، وينبئون بمجيء المسيح . ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في ايام صموئيل أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الانبياء فاشتهر من ثم صموئيل باحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب وتأسست أيضا مدارس أخرى للانبياء في بيت ايل وأربحا والجلجال وأما كن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى ابا اوسيدا ، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الانبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرتمون ويلعبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الانبياء وبني الانبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين او طوافين يضافون عند الاتقياء

« ويظهر ان كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الانباء بما سيأتي ، انما اقتص هذه الخصوصية اناس منهم كان الله يقيمهم وقتنا دون آخر حسب مشيئته ، وبعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة . على ان بعض الانبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحية ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كما موسى مثلاً فإنه كان راعياً وجاني حمير . اما النبوة فكانت على انواع مختلفة كالا حلام والرؤى والتبليغ . وأحياناً كثيرة كان الانبياء يرون الامور المستقبلية بدون تمييز ازميتها فكانت تقترب في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الاشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ، وكانتصار اسكندر ذي القرنين بآتيان المسيح ، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميس بيوم الحشر . ومن هذا القبيل اقتران خراب اورشليم بحوادث يوم المدينونة .

« وقد ارسل الله الانبياء الملهمين ليعانوا مشيئته وليصالحوا الشؤون الدينية وعلى الاخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم : وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وارشادهم الى سبيل الحق . وكان لهم دخل عظيم في الامور السياسية اه بنصه

مايرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الالهام بحلول روح الله في روح الملهم فهو تحكم للنصارى لا يعرفه ولا يعترف به أنبياء بني اسرائيل ولا علماءهم . ولا يمكنهم إثباته ولا دفع ما يورد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلف فيما كتبه أولئك الملهمون وما خالفوا فيه الواقع ، وقد أشار الى ذلك بقوله : ان في شرح ذلك التعليم دقة وان العلماء اختلفوا في شرحه الخ ، ومن حل فيه روح الله صار الها اذ المسيح لم يكن الها عند النصارى الا بهذا الحل فكيف يقع في مثل ما ذكر ويتخلف وحيه او يخالف الواقع ؟ وأما كلامه في النبوة والانبياء فيؤخذ منه ما يأتي :

« ١ » ان أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل ما يؤثر في الانفس ويحرك الشعور

والوجدان ، ويشير روا كد الخيال ، فلا غرو أن يكون عزرا ونحميا من أعظم أنبيائهم ساقين من سقاة الخمر الملك بابل (ارتحششتا) ومغنين له ، وان يكونا قد استعانا بتأثير غذائهما في نفسه على سماحه لهما بالعودة بقومهما الى وطنهما واقامة دينهما فيه فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم موادها في المدارس ويستعان على الاقتناع بها بالتخيلات الشعرية والاطلمات الكلامية ، والمؤثرات الغنائية والموسيقية . والمعلومات المكتسبة . فإين هي من نبوة محمد الأبي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً ، وقد جاء بأعظم مما جاءوا به كلهم ؟

« ٢ » ان كثيراً من هؤلاء الانبياء وأولادهم كانوا متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفاً عند الاقبياء المحبين لرجال الدين كما هو المهود من دراویش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين ، ومن المعلوم أن هؤلاء هم الذين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقولون ، ويسلمون لهم ما يدعون ، ويذيعون عنهم كل ما يقبلون منهم ، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الانبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبار المعاصي ، وان من أخبار الصوفية والنسك والسياح عند المسلمين من تفضل سيرتهم سيرة هؤلاء الانبياء في كتبهم ، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم الى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه ، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها

« ٣ » أشهر أنواع نبوتهم الاحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة وكلها تقع لغيرهم ، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي كان له صور أعلى منها سببها بعد . والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والافكار في تعبيرها مذاهب شتى قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الانبياء كرويا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام ، ورؤياه هو في صغره

« ٤ » ان نبوة الاخبار عن الامور المستقبلية وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى كانت أحيانا كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها فكان بعضها يختلط ببعض فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه كما يعهد في كل عصر من أخبار العرافين والمنجمين ، بله الروحانيين المكشفين ،

فمنها ما ظهر خلافه كما أشار إليه ولم يشرحه ولكن التاريخ شرحه . وكان أعظم نبوات هؤلاء الأنبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وملاك إسرائيل ثم إخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لاجل دينونة العالم وأنه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله . وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله

فأني تضاهي هذه الاخبار (النبوات) وهي كعاملت أنباء القرآن الكثيرة بالمعانيات كالذي بيناه في خلاصة تفسير السورة السابقة مما وقع من المنافقين وما هو في سورة الفتح . وقوله تعالى في أول سورة الروم (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين) الآية ، وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتخون بعده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر وسيؤولون على ملك كسرى وقيصر حتى أنه سمي كسرى عصره باسمه كإرواء البخاري عن عدي بن حاتم الخ ؟ هذا ما يقال بالاجمال في أحد موضوعي النبوة وهو الاخبار عما سيكون في مستقبل الزمان ، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل ، وأعصى على إنكار المرتابين ، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية ، وسأذكر ما يتأوله به الجاحدون للنبوة والوحي في بيان بطلان شبهتهم وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الاعظم أي عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فالنظر فيه من وجهين (أحدهما) ما ذكره من كونه لا يمكن أن يصل إليه عقل من جاء به وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية فيتعين أن يكون بوحي من الله (وثانيهما) أن يكون ما فيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره ، فيتعين أن يكون وحياً

فأما الأول الخاص بشخص الرسول فإن العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام فانه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وأن قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم وعلوم التشريع والفلسفة ، حتى إن مكة عاصمة بلادهم وقاعدتهم

دينهم، ومثوى كبرائهم ورؤسائهم، ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل، والشرع العام العادل، لا يمكن أن يكون مكتسباً ولا أن يكون مستنبطاً بعقله وفكره كما بيناه من قبل، وسندفع ما يرد من الشبهة عليه في القسم الثاني من هذا الفصل

ويرى نجاح هذا أن موسى أعظم أولئك الأنبياء في عمله وفي شريعته وفي هدايته قد نشأ في أعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الأرض وأرقاه تشريعاً وعاملاً وحكمة وفناً وصناعة، وهو بيت فرعون مصر، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستعبدين مستذابين، تذبذب أبناؤهم وتستحي نساؤهم، تمهداً لفتائهم ومحوهم من الأرض، ثم أنه مكث بضعة سنين عند حميه في مدين وكان نبياً - أو كاهناً كما يقولون - فمن ثم يرى منكرو الوحي أن ما جاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشئ في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي أن شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة حمورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الألمان في حفائر العراق أنه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله تعالى كما شرحنا ذلك في مجلد المنار السادس وذكرنا خلاصته في تفسير سورة التوبة (٩: ٣٠) وهو في [ص ٤٨ ج ١٠] وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك أنه إن لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحياً من الله تعالى، ولم ينقل أن حمورابي ادعى أن شريعته وحي من الله تعالى ثم يري الناظر سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها، وأنهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يذكر أحدهم مع محمد، ويرى أيضاً أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا نبأ غيبي - بل يرى أن عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً وأعلامهم ذكراً، وأجلهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعاً لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روحي أدبي لجوهر اليهود المادي على ظواهر ألفاظها، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا أنه لا يكسر على رجل مثله ذكي

الفطرة ذكي العقل ناشيء في حجر الشريعة اليهودية، والمذنية الرومانية، والحكمة اليونانية، غلب عليه الزهد والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الادبية، ونحن المسلمين لا نقول هذا وإنما يقوله الماديون والملمحدون والعقليون وألوف منهم يذهبون إلى المذاهب النصرانية

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل المفكر غير المقلد لدين من الاديان أن عقائد الاسلام من توحيد الله وتزبيها عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل العقائية والعلمية الكونية، ومن بيان هداية رسله، ومن عباداته وآدابه الزكية للنفس المرقية للعقل، ومن تشريعه العادل وحكمه الشوري الرقي للاجتماع البشري - كل ذلك أرقى مما في التوراة والانجيل ومما أثر كتب العهد القديم والجديد، بل هو الاصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال، ويشهد بهذا علماء الافرنج وقد شرحناه من وجهة نظرنا وجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير [آخرها ص ٣٥٩ ج ١٠ تفسير]

ومن نظر في قصة آدم ونوح وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الانبياء في سائر أسفار العهد القديم، ثم قرأ هذه القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الانبياء العظام، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خالق البشر والانتقام منهم، ووصف الانبياء ايضا بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوء، من حيث يجد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه، ومن وصف انبيائه ورسله بالكمال وأحسن الاعمال، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها إيماناً وهدى، فأخبار الانبياء في كتب العهدين تشبه بستانا فيه كثير من الشجر والعشب والشوك، والثمار والازهار والحشرات، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك الازهار، والعسل المشتار من تلك الثمار، ويرى فيه رياضاً أخرى جمعت جمال الكون كلمة ونُدع هنا ذكر ما كتبه علماء الافرنج الاحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والانجيل) لآحد علماء الانكليز، وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ، والقرآن خال من مثل ذلك

(صد الكنيسة عن الاسلام وبغية عوجا)

ان رجال الكنيسة لم يجدوا ما يصدون به اتباعها عن الاسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية وكاد يقضي على النصرانية في الشرق ثم امتد نوره إلى الغرب الا تأليف الكتب ونظم الاشعار والاغاني في ذم الاسلام ونبيه وكتابه بالافك والبهتان وفحش الكلام الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين اكذب البشر واشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون ، ويتمتعون بما ينظمون وينشدون ، حتى اذا ما اطاع بعضهم على كتب الاسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوا قبح الفضائح ، كما ترى في كتاب (الاسلام خواطر وسوانح) للكونت دي كاستري وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للموسيو درمنغام وهذان الكتابان افرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين ، وقد صرحا كخبرهما بان كنيستهم هي البادية بالظلم والعدوان ، والافك والبهتان ، وبأدب المسلمين في الدفاع (*)

(*) قال موسيو درمنغام ما ترجمته العربية بقول الدكتور محمد بك حسين هيكل : لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى اكبر الخلاف . فن المجادلين الذين نظميون الذين أوقروا الاسلام احتراماً من غير أن يكفوا أنفسهم فيما خلا جان داسين - مؤنة دراسته ولم يجارب الكتاب والنظامون (يعني الشعراء) مسلمي الاندلس الا بأسخف المثالب . فقد زعموا محمداً ليس نياق (؟) وزعموه متهاكاً على الله وزعموه ساحراً وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق بل زعموه قسا رومانياً مغيباً ان لم ينتخب لكرسي البابوية .. وحسبه بعضهم الها زائفاً « يقرب له عباده الضحايا البشرية » وان جدير دنو جن نفيه وهو رجل جد ليدكر أن محمداً مات في نوبة سكر بين (كذا) وان جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير وذلك ليقسر السبب الذي من أجله حرم الحمر وحرم لحم ذلك الحيوان . . . وذهبت الاغنيات الى حد أن جعلت محمداً أصناماً من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية براقي (معابد أصنام) ملأى بالتماثيل والصور . وقد تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم «ماحوم» مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق قبل على مقدم من النسيفساء وأما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحيطون الاوثان الاسلامية فتزعم أن مسلمي الاندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وملاهوم (هو ما حوم ويعنون به محمد) وأبولون . وتحسب « قصة محمد » ان الاسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج . وقد ظلت حياة الاحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فنند رودلف دلوهم الى وقتنا الحاضر . قام نيكولا دكين وفيفس ومراتشي وهو تنجرو بيليا نلار ويريدو وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال . والاسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الفر) كلها وأنه من عمل الشيطان والمسلمين بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيج من السفخات . اه المراد منه على كثرته وابهام في ترجمته ، وهو قليل من اسرافهم

ولما ظهرت طائفة البروتستان وغلب مذهبها في شعوب الانجولوسكسون
والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الاصلاحية لما انعكس على أوربة من نور الاسلام،
لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجميلوا فيه بشيء
من النزاهة والادب، والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافتراءهم وسوء
آدابهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الاسلام من أحرار علماءهم اصرح
قولا، ولعلمهم أكثر من اللاتين عدداً، وكذلك الذين اهتموا به، وسبب ذلك
أن الحرية والاستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين يذشرون الاسلام
في أوربة والولايات المتحدة الامير كانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو
الانكليزي في كتابه الحياة الزوجية

مسألة الآيات والعجائب أي الخوارق

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية
على اختلاف مذاهبها، وفيما يدعونه من مجرد محمد ﷺ من لباسها، وهي قد
أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لاله، وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة
به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي ايد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان
إقبال أحرار الافرنج عليه أكثر، واهتدأ بهم به أعم وأسرع، لأن أساسه قد بني
على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الافراد، وترقية مصالح
الاجتماع، وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن، وأمية محمد
عليه الصلاة والسلام، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان

كفالك بالعالم في الامي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

واما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها
وفي صحتها وفي دلالتها. وأمثال هذه الامور تقع من اناس كثيرين في كل زمان
والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن المهددين العتيق
والجد يدعون مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر،
وسنبين ما جاء به الاسلام فيها من الفصل

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه :
 « عجيبة: حادثة تحدث بقوة الهية خارقة لمجرى العادة الطبيعية لاثبات ارسالية من جرت على يده اوفيه . والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لاضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعة لا بما كستها ، وهي اظهار نظام اعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي ، ولنا في فعل الارادة مثال يظهر لنا حقيقة امر العجائب اذ بها نرفع اليد وبذلك نوقف ناموس الثقل . ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويمد مدارها . ويحصره لانها عوامل لمشيئته . ويناط فعل العجائب بالله وحده او بمن سمح له بذلك . « واذا آمننا بالاله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بإمكان العجائب وكانت العجيبة الاولى خليفة الكون من العدم بارادته تعالى . اما المسيح فاقنومه عجيبة ادبية عظيمة ، وعجائبه لم تكن الا اظهار هذا الاقنوم واعماله ، واذا آمننا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه . اما الشيطان فعجائبه كذابه « ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيرا ما يستشهد المسيحي بعجائبه لاثبات لاهوته وكونه المسيح ، وكان يفعلها لتجديد الله ولمنفعة نفوس الناس وابدا انهم ، وكان يفعلها ظاهراً امام جماهير اصحابه واعدائه ولم ينكرها اعداؤه غير انهم نسبوها لبعازبول (١) وسواء امتحنها بالشهادة من الخارج وبما نسبتها الى ارساليته الالهية ظهرت لكل من كان خالياً من الغرض صحيحة . فاذا لم نسلم بصحتها التزمنا ان نقول بان مقرريها كذابون الامر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسول

« وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطراب اليها (٢) ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الادبية الخاصة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير انه يمكن لله تعالى ان يجددها في اي وقت شاء « اه
 ثم وضع المؤلف جدولاً احصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم

﴿ ١ ﴾ اي الى الشيطان والاناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آتفا
 ﴿ ٢ ﴾ هذا مذهب البروتستانت واما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر

وعمودة على قوم لوط الى «خلاص يونان» (يونس) بواسطة حوت «فبلغت ٦٧ عجيبة ووقفي عليه بمجدول العجائب المقرورة بحياة المسيح من الحبل به «بفعل الروح القدس» الى «الصعود إلى السماء» فبلغت ٣٧ . وعزز الجدواين بثالث في «العجائب التي جرت في عصر الرسل» اي الذين بشوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من «انسكاب الروح القدس يوم الخمسين» الى «شفاء أي بوبليوس وغيره» فكانت عشرين . وقد صرح بان يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب انه صنع عجائب

بحث في عجائب المسيح عليه السلام

اقول : ان ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة شفاء مرضى ومجانين لا يستهم الشياطين وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم وما بقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء الى خمر وسحب الشبكة في بحر الجليل ، واشباع خمسة آلاف مرة واربعة آلاف مرة أخرى ، وضرب التينة العقيمة بما أيدسها ، وقيامه المسيح وصيد السمك والصعود . وانا نلخص رواية الاناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ونذكر ما يقوله فيها منكمرو العجائب الميت الاول شاب من مدينة نايين كان محمولا في جنازة وأمه تبكي فاستوقف النعش وقال له : أيها الشاب لك أقول قم . فجلس وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه (لوقا ١١: ١٦) الثاني صببية ماتت فقال له أبوها وكان رئيساً : ابنتي الآن ماتت لكن تعال فضع يدك عليها فتحيا . فجاء بيت الرئيس ووجد المزمسين والجمع يضعجون فقال لهم « تنحوا فان الصبية لم تمت لكنها نائمة » فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (مت ٩: ١٨ - ٢٤)

فنفكرو العجائب يقولون ان كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل وان كثيراً من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن الناس انهم ماتوا . ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب أحد الاطباء شهادة بموته . وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضاً بأن الصبية لم تكن ميتة أخذنا بظاهر قوله عليه السلام

وأما الثالث فهو « ليعازر » حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه : مرض في قريتهم « بيت عنيا » فأرسلنا إلى المسيح قائليين « هو ذا الذي تحبه مريض » فكث يومين وحضر فوجد أنه مات منذ أربعة أيام فلاقتهم مرثا وقالت : يا سيد لو كنت هنا لميت أخي ، ثم دعت أختها مريم فلما رآته خرت عند رجله قائلة كما قالت مرثا وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للبكاء ، فلما رآها تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون « انزعج بالروح واضطرب » وقال « أين وضعتموه ؟ » فدلوه عليه فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر ، فأمر برفع الحجر فرفعوه « ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : ابها الاب أشكرك لأنك سمعت لي ، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني » ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم « ليعازر ! هلم خارجا » فخرج الميت ويده ورجلاه مربوطتان بأقطة ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب . اه ماخصاً من الفصل ١١ من الإنجيل يوحنا

أتدري أيها القارىء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية ؟ انني سمعت طبيباً سوريا بروتستانتياً يقول انها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبتيه وحبيبه لاقناع اليهود بنبوته . وحاشاه عليه السلام . وانما ننقل هذا لنبين أن النصارى لا يستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلاً عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الألوهية ، كما فهم الذين شاهدوها ، لانه ليس لها أسانيد متصلة إلى كاتبها ، ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها ، دع قول المنكرين باحتمال الاحتيال والتلبيس أو المصادفة فيها ، أو عدم اياها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة

واذا كان اعظمها وهو احياء الميت يحتمل مذكروا من التأويل فما القول في شفاء المرضى واخراج الشياطين الذي يكثّر وقوع مثله في كل زمان والاطباء كلهم يقولون ان ما يدعي العوام من دخول الشياطين في اجساد الناس ما هو الا امراض عصبية تشفى بالمعالجة او بالوهم والاعتقاد . ودونها مسألة الحجر والسّمك ويدس التينة

آية نبوة محمد عقلية علمية وسائر آياته الكونية

هذا وان مارواه المحدثون بالاسانيد المتصلة نارة وبالمرسلة اخرى من الايات الكونية التي اكرم الله تعالى بها رسوله محمدًا ﷺ هي اكثر من كل مارواه الانجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقيها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لان البشر قد بدءوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي (كما بيناه في تفسير سورة البقرة) ليربي البشر على الترقى في هذا الاستقلال، إلى ما هم مستعدون له من الكمال

هذا الفصل بين النبوات الخاصة بالماضية، والنبوة العامة بالآقية، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله « ما من الانبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض)

وقص الله تعالى علينا في كتابه ان المشركين اقترحوا الايات الكونية (العجائب) على رسوله فاحتج عليهم بالقرآن في جملته وبما فيه من اخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدياته وعلومه وإعجازه، وعدم استطاعة احد ولا جماعة ولا العالم كله على الاتيان بمثله (١٧ : ٨٨ قل انن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لاقامه الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعدداً واستعداداً بالسلاح والطعام وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الاحزاب إذ تألب المشركون واليهود

على المسلمين وأحاطوا بمد يدهم الله بغضبتهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال من تلك الآيات شفاء المرضى وإبصار الأعمى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في هذه الغزوة وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنه تسخير الله السحاب لاسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسبخ في الرمل بيدرو لم يصب المشركين من غيثها شيء . ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفذ ماء الجيش في الصحراء والحرب شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرس من كرشه ليعتصروه ويبلوا به أسننتهم على قلة الرواحل معهم ، وكان يقل من يجد من عصاراته ما يشربه شرباً ، فقال أبو بكر يا رسول الله ان الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعها حتى كانت السماء قد سكبت لهم مأملاً ما معهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم

تأثير المعجائب في الافراد والامم

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين استحقوا بحجودها عذاب الله في الدنيا والآخرة ، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للايمان . بهاء ان فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى ، وإن أكثر بني اسرائيل لم يعقلوها ، وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها . وقال اليهود في المسيح لولا انه رئيس الشياطين لما اخرج الشيطان من الانسان . وقالوا ان ابليس أو بعزبول يفعل اكبر من فعله ، وما كان اكثرهم مؤمنين . وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في ابان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ : اننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه .

وقد كان اكثر من آمن بتلك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت انفسهم لما لا يعقلون له سبباً وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فلا تي به مظهر للخالق سبحانه ان لم يكن هو الخالق نفسه ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام انه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة

يونس :س ١٠ . الاسلام هو الدين الوحيد الذي ثبت كتابه وتاريخه بالتواتر ١٦٦

ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى ٢٤ : ٢٤)
وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عدداً كثيراً منهم وأسماء بعضهم . وأقول :
ان منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند ، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي
آخر يريد اظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام ونقلوا عن المسيح أنه قال : « الحق
اقول لكم ليس كل نبي مقبولاً في وطنه » وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير
هدايته في الناس لا الآيات والعجائب فقال « من ثمارهم تعرفونهم » ولم يظهر
بعده - ولا قبله - نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ
ولا احد يصدق عليه قوله في انجيل يوحنا (١٦ : ١٢) ان لي أموراً كثيرة ايضاً
ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأمامي جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق
فهو يرشدكم الى جميع الحق) الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس الى جميع الحق في
الدين من توحيد وتشريع وحكمة وتاديب غير محمد رسول الله وخاتم النبيين
ومن استقرأ تواريخ الامم علم ان أهل الملل الوثنية اكثر اعتماداً على العجائب
من أهل الأديان السماوية ، ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الأولياء
والقديسين ، اكثر مما نقلوا عن الانبياء المرسلين ، وان اكثر المصدقين بها من الخرافيين

ثبوت نبوة محمد بنفسها واثباتها لغيرها

وجملة القول ان نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أي بالبرهان العلمي والعقلي
الذي لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية ، وان هذا البرهان قائم ماثلاً للعقول
والحواس في كل زمان ، وانه لا يمكن اثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ
وهذا القرآن الذي جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من
اطوار النوع البشري هو شهادته لها . فان الكتب التي نقلتها لا يمكن اثبات عزوها الى
من عزيت اليهم ، اذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواتر
ولا آحاداً ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه وتناقضه ،
وتعارضه ، ولا اثبات صحة التراجم التي نقلت بها ، كما قلنا آنفاً وبنائه بالتفصيل مراراً
الكتاب الالهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواتراً عن جاء به بطريقي
« تفسير القرآن الحكيم » « ٢١ » « الجزء الحادي عشر »

الحفظ والكتابة معا هو القرآن ، والنبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الاسانيد حفظا وكتابة هو محمد (ص) فالدين الوحيد الذي يمكن للعلماء المستقلين في الفهم والرأي ان يعقلوه وينبؤوا عليه حكمهم هو الاسلام . وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الاديان السابقة لثبوت قضاياء الاجمالية بالتواتر العنوي ، فهو انه وجد في جميع ام الحضارة القديمة دعاة الى عبادة الله تعالى وإلى العمل الصالح وإلى ترك الشرور والرزائل منهم انبياء مبلغون عن الله تعالى بمبشرين ومنذرين ، كما انه وجد فيهم حكماء ينبئون ارشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس ، وأمور خاصة بأهلها وبزمانهم ، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم واذ كان الاسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فاننا نذكر هنا شبهة علماء الافرنج للماديين ومقلداتهم عليه ، بدمقدمة في شهادتهم الاجمالية له ، تمهيداً لدحض الشبهة ، وهووض الحجة ، فنقول :

(درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ)

درس علماء الافرنج تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل ، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلّوها فلها ونقشوها بالمناقشة ، وقرأوا القرآن بلغته وقرأوا ما ترجمه بأقوامهم ، وكانوا على علم محيط بكتب المهديين القديم والجديد ، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية ، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الاسلام والنبي والقرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفاً ، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية :

- ✽ ان محمداً كان سليم الفطرة ، كامل العقل ، كريم الاخلاق ، صادق
- ✽ الحديث ، عفيف النفس ، قنوعاً بالقليل من الرزق ، غير طموح بالمال ولا
- ✽ جنوح الى الملك ، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر ، والمباراة في تحبير
- ✽ الخطب وقرض الشعر ، وكان يمت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات
- ✽ الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية ، كالخمر والميسر

﴿ وأكل أموال الناس بالباطل ، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته وبقينه بعد ﴾
 ﴿ النبوة جزموا بأنه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من ﴾
 ﴿ رؤية ملك الوحي ، وأقر أنه إياه هذا القرآن ، وإنبأته بأنه رسول من الله ﴾
 ﴿ هداية قومه فساثر الناس ﴾

وزادهم ثقة بصدقه ان كان أول الناس إيمانا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره ، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة ، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبدا له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حرا ، ثم أن كان الذين آمنوا به من اعظم العرب حرية واستقلالاً في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر فاما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحا خالدة من هؤلاء الا فرنج فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على علم وبرهان ، وهم يزيدون عاما بعد عام ، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالاسلام ، وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التي لا ريب في صحتها وثبوتها ، وبتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل ، الذي لا يؤمن بما وراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب قدحوا زناد الفكر ، واستثوروا به نظريات الفلاسفة ، فلاح لهم منه سقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجملها الاستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفاً وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه ههنا .

(شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الالهي)

(وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ)

خلاصة رأي هؤلاء الماديين أن الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى اليه لا من الخارج ، ذلك أن نفسه العالية ، وسريره الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية ، يكون لها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الرؤى والاحوال الروحية ، فيتصور ما يعتقده وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون واسطة ، أو يتمثل له رجل يلقيه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك ، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في الیقظة

كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الانبياء ، فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقي في روعه أو ملك ألقاه على سمعه فهو خبر صادق عنده

يقول هؤلاء الماديون: نحن لانشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ، وإنما نقول ان منبع ذلك من نفسه ، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس ، فان هذا شيء لم يثبت عندنا وجوده كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالحال ، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت

ويضربون مثلاً لهذا الوحي قصة جان دارك الفتاة الافرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمان ، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قدسرت شبهته الى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقتلدون هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها . واني أفتتح الكلام في ابطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على جان دارك فقد ألقى الى سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه

(شبهة على الوحي)

حضرة الاستاذ الرشيد

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت الى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده - حيث وقع اختياري عليها - وقرأت في بابي (حاجة البشر الى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيباً معقولاً ، غير ان الحاجة الى الشيء لا تستلزم وقوعه ، وكذا إمكانه وعدم استحالة عقله لا يقتضي حصوله . ثم ما ذكر بعد من أن حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلال الاعمال وبوقوع الخبر للناس على يديه هو دليل نبوته وتأيد بعثته ، فليس شيئاً ، فانه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته صادقاً في دعوته - اعني معتقداً في نفسه - سبباً في نهوض أمته ، ولا يكون كل ذلك مدعاة الى الاعتقاد به والتسليم له

ولقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي اذ كانت مقهورة للانكليز

ان بنتا تدعى (جان دارك) من اهل النساء سيرة واسلمهن نية اعتقدت وهي في بيت اهلها بعيدة عن التكاليف السياسية انها مرسله من عند الله لا تقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي فأخلصت في الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها الى رئاسة جيش صغير وغلبت به العدو فعلا، ثم ماتت غب نصرتها موة الابطال من الرجال، إذ خذلها قومها، ووقعت في يد عدوها فألقوها في النارية، فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اما يعبق نشره وتضوع رياه. وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرفي بعيداً. فهل نجزم لذلك ان تلك البنت نبيه مرسله ?? ربما تذهبون الى ان عملها لا يذكر مقارنة بما اتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول هل هناك من ميزان نزن به الاعمال النافعة لنعلم ان كانت وصلت الى الدرجة التي يجب معها ان نصديق دعوة صاحبها ؟ وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلا على ان يكون اكبر الناس فعلا وأبقاهم أثرا واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك الى التيقن من رسالته ؟ اظن أن هذا كله مضافا لغيره يدعو الى الترحيح ولا يستلزم اليقين ابدا. على انني أنتظر ان تجدوا في قلبي هذا خطأ تقنعوني به أو تزيدوني ايضا حين تكشف به الحجاب وتناولون به الثواب. هذا واني اعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسي ولكنهم يتحفظون في الكتان، ويسألون الكتب خشية سؤال الانسان، ولكنني لا اجد في السؤال عارا، وكل عقل يخطيء ويصيب، ويزل ويستقيم (احذقواكم)

﴿ جواب المنار ﴾

لقد سرنا من السائل انه على تمكن الشبهة من نفسه لم يدع لها تمام الازعان، فيسترسل في تعدي حدود الدين الى فضاء الاهواء والشهوات التي تفسد الارواح والاجسام، بل أطاع شعور الدين الفطري، ولجأ الى البحث في الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم بما يكشف الشبهة، ويقم الحججة، وان كثيرا من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند اول قذعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم، لانهم شبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة، ويرون الدين صادراً لهم عن

الانهاك والاسترسال فيها ، فهم يحاولون إماتة شعوره الفطري ، كما مات
النشوء في الجهل برهانه الكسبي

أرى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر
في المقاصد والنتائج ، لذلك نراه مسلما بالمقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما ، فإذا
هو عاد الى مبحث (حاجة البشر الى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله وأنه أقام الكون
على أساس الحكمة البالغة والنظام الكامل فاني ارجو له أن يقتنع . ثم اني آنست
منه انه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) او لعله قرأه ولم يتدبره ، فانه لم يذكر
البرهان على نفس الرسالة ويبني الشبهة عليه وانما بناها على جزء من أجزاء المقدمات ،
وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام . واني اكشف له شبهته أولا فأبين
انها لم تصب موضعها ثم أعود الى رأيي في الموضوع

ان [جان درك] التي اشتبه عليه امرها بوحى الانبياء لم تقم بدعوة الى دين
او مذهب تدعي ان فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين ،
ولم تأت بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس
ليؤمنوا بها . وانما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين وحرركته
مزعجات السياسة ، فتحرك ، فنفّر ، فصادف مساعدة من الحكومة ، واستعداداً
من الامة للخروج من الدل الذي كانت فيه ، وكان التحمس الذي حرركته سببا
للهجمة الصادقة على العدو وخذلانه . وما اسهل تبييج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه
المؤثرات وبما هو أضعف منها ، فان نابليون الاول كان يسوقهم الى الموت مختارين
بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الاهرام

وأذكر السائل الفطن بأنه لم يوافق الصواب في إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها
فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف (العربية للبستاني) ما نصه :

« كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعي المواشي وركوب الخيل الى العين
ومنها الى البيت ، وكان الناس في جوارد ورمري [اي بلدها] متمسكين بالخرافات ،
ويعيلون الى حزب اورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا ، وكانت جان

تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع تحب ان تتأمل في قصص العذراء وعلى الاكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت ، وهي ان احدى العذارى مستخلص فرنسا من أعدائها . ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الغائقة الطبيعية وتتكلم عن اصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها : ثم بعد ذلك يبضع سنين خيل لها انها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها . ثم اوقع البرغنيور تعديا على القرية التي ولدت فيها فتوى ذلك اعتقادها بصحة ما خيل لها « ثم ذكر بعد ذلك توسلها الى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الانكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان ، وانها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة اسبوع ، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر انها بعد ذلك زالت خيالاتها الحماسية ، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت

فمن ملخص القصة يعلم ان ما كان منها انما هو تهيج عصبي سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها من نشأت بينهم مع معونة التحمس الديني والاعتقاد بالخرافات الدينية التي كانت ذاتة في زمنها . وهذا شيء عادي معروف السبب وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر كمحمد احمد السوداني والباب (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها ابعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين ، وان كانت اسباب النهضة متقاربة فان هذين كانا كأمثالها يدعوان الى شيء (ملفق) يزعمان انه اصلاح للبشر في الجملة

أين هذه النبوة العصبية القصيرة الزمن ، المعروفة السبب ، التي لادعوة فيها الى علم ولا إصلاح اجتماعي إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الانسان والحيوان الاعجم ، التي لاحجة تعمدتها ، ولا معجزة تؤيدها ، التي اشتعلت بنفخة وطفئت بنفخة ؟ أين هي من دعوة الانبياء التي بين الاستاذ الامام انها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري ، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدرس الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فسار الانسان بذلك إلى كماله ، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى . وأين دليلها من أدلة

النبوة وأين أثرها من أثر النبوة؟ إن الأمم التي ارتقت بما أرشدها إليه تعليم الوحي إنما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وإن فرنسا لم ترتق بإرشاد (جان درك) وتعليمها، وإنما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستتوات أمته بسبب ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها وحكمة حكمائها وصنع صناعاتها، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشد إليه، فلا يقال إن ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد، وعمرها ومدنها، وإن عد سبباً بعيداً فهو شبيه بالسبب الطبيعي، كهبوب ريح تهيج البحر فيفرق الأسطول وتنتصر الأمة

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفت، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأنارت الأرجاء، ولا يزال نورها وإن يزال متألق السناء، أي يتم قضى سن الصبا وسن الشباب هادئاً ساكناً لا يعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم ديني، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله صيحة «انكم على ضلال مبين» فاتبعون أهدمكم الصراط المستقيم» فأصاح وهو الأمي أديان البشر عائدتها وآدابها وشرائعها، وقلب نظام الأرض فدخلت بتعليمه في طور جديد؟ لاجرم أن الفرق بين الحالين عظيم إذا أمعن النظر فيه العاقل

لاسعة في جواب سؤال لتقرير الدليل على النبوة وإنما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الامالي الدينية في المنار لاسيما الدرس الذي عنوانه (الآيات البينات، على صدق النبوات) وإن كان يصدق على رسالة التوحيد المثل «كل الصيد في جوف الفرا» فإن بقي عنده شبهة فلاولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع، فإن المشافهة أقوى بيانا، وأنصع برهاناً، ونحن نعهده بأن نكتم أمره وإن أبى فليكتب إلينا ما يظن له من الشبهة على مافي الرسالة والامالي من الاستبدال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو أن يكون مقنعاً، على أن المشافهة أولى كما هو معقول وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشبهين والرتابين اهـ

هذا وان ما بينه الاستاذ الامام في اثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العليم الحكيم الفاعل المختار الا أن يقبله ويذعن له ، فانه بين أن الوحي والرسالة بالملئى الذي قرره لازم عقلي لعله تعالى وحكمته وكونه هو (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم الامن أوتي نصيبا من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد ، ونصيبا آخر من بلاغة اللغة العربية . وان نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن اثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة وهو ما قهر عقول علماء الافرنج على تصديق دعوته ، وحمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتي ونقفي عليه باثبات بطلانه

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل أميل درمنغام الشبهة التي اجملها مونتغيه بما لم نر مثله لغيره من كتاب الافرنج حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين ، فان كان حكيما السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية : انكم فصلتم قيصراً من رفاق العهد القديم وألبستموها للمسيح عليه السلام - فحين نقول لهم انكم فصلتم قيصراً آخر مما فهمتم من تاريخ الاسلام لا من نصوصه وحاولتم خلعها على محمد ﷺ ، وانني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام وما بلغني عن كل احد منهم ، ثم أكر عليها بالنقض والدحض فأقول : (١) قالوا ان محمداً قد لقي بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام ، وقالوا انه كان نسطوريا من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث . وان محمداً لا بد أن يكون علمه عقيدته ، وقالوا في بحيرا ايضا انه كان عالما فلكيا ، منجما وحاسبا ساحرا ، وانه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنباءه بأن سيكون هاديا لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي . بل سمعنا من بعض الرهبان انه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته ، وان محمداً ما حرم الحجر إلا لانه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران ، وأمثال هذا من الافتراء والبهتان ، وكل ما عرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية ان النبي ﷺ لما خرج مع غمه أبي طالب الى الشام وهو ابن تسع سنين .

وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قریش ورأى سحابة تظله من الشمس وذكر
أعمه انه سيكون له شأن وحذره عليه من اليهود - وفي المسألة روايات أخرى
بمعناها ضعيفة الاسانيد إلا رواية للترمذي ليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن،
وليس في شيء منها انه عليه السلام سمع من بحيرا شيئا من عقيدته أو دينه

(٢) قالوا ان ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد
أقارب خديجة - يوهون القارى انه عليه السلام اخذ عنه شيئا من علم اهل الكتاب -
والذي صح من خبر ورقة هذا هو مارواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن
خديجة أخذته عليه السلام عقب إخباره إياها برؤية الملك في حراء إلى ورقة هذا وأخبرته خبره
وكان شيخا قد عمي ولم يلبث بعد ذلك أن توفي ولم يثبت ان النبي عليه السلام رآه قبل ذلك
(وسأذكر نص الحديث في آخر هذا المبحث) وقد استقصى المحدثون والمؤرخون
كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده وبما لم يصح له سند كدأبهم في كل ماله
علاقة بالنبي عليه السلام والاسلام فلم يذكر احد منهم انه عرف عنه دعوة إلى النصرانية
او كتابة فيها . وإنما ورد في بعضها انه قال حين علم من خديجة خبر محمد : انه هو النبي
المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم . وفي بعضها انه عاش حتى رأى بلالا
يعذبه المشركون ليرجع عن الاسلام ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة للحديث عائشة
الصحيح انه كان عند بدء الوحي اعشى ولم ينشب أي لم يلبث أن مات ، وقد كان
تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها وقد كان هذا بعد بدء
الوحي بثلاث سنين - وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط
الروايات عليه فيها وعدم اطلاعه على مادون في كتب الحديث منها . وإنما كان هم
المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا انه كان صحابيا أم لا ، فان الصحابي هو من اتى النبي
عليه السلام بعد البعثة مؤمنا به ، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الانجيل لنقلوه
(٣) ذكر وأما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الاسلام وتنصر
بعض فصحاء العرب وشعراهم كقس بن ساعدة الايادي وأمية بن أبي الصلت
وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء اهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي
يشر به موسى وعيسى وغيرهما من الانبياء . وقد نشرنا بعض ما نقل عنهم في

التوراة والانجيل وكتب النبوات في تفسير (١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي
الاي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) من سورة الاعراف
فأما قس فقد مات قبل البعثة . وروي ان النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن
طويل يخاطب الناس في سوق عكاظ على جمل له اوراق ، بكلام له موفق ، قال فيه :
ان الله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه ، ونبياً قد أظلمكم زمانه ، وأدرككم اوانه ،
فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه . والروايات في هذا ضعيفة ، وتعددتها
يدل على أن لها أصلاً

وأما أمية بن أبي الصلت الثقيفي فهو شاعر مشهور . قال ابو عبيدة اتفقت
العرب على ان أمية أشعر ثقيف ، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قل : كان أمية
في الجاهلية نظر الكتب وقرأها وأبس المسوخ تعبداً وكان يذكر ابراهيم واسماعيل
والحنيفية ، وحرم الخمر وتجنب الاوثان وطمع في النبوة لانه قرأ في الكتب ان نبيا
يبعث بالحجاز فرجا أن يكون هو ، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم . وهو الذي
رأى قتلى بدر (المشركين) بالتصيدة التي أولها

ماذا يبدر والعقد قمل من مرازمة ججاجح

وفي المرأة عن ابن هشام انه كان آمن بالنبي ﷺ فقدم الحجاز لياخذ
عاله من الطائف وبهاجر فعلم بغزوة بدر وقتل صناديد قريش فيها فجدع أنف
ناقته وشق ثوبه وبكى لان فيهم ابني خاله وعاد إلى الطائف ومات فيها . وصح
ان النبي ﷺ استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال «كاد ان يسلم»
ولكنه كان حنيفيا على ملة ابراهيم ولم يتنصر ومن شعره

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور

(٤) إسلام سلمان الفارسي (رض) كان فارسيا مجوسيا فتنصر على يد بعض
الرهبان وصحب غير واحد من عبادهم وسمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبي
الذي بشر به عيسى والانبياء من العرب فقصده بلاد العرب وبيع لبعض يهود
يترب ظلاماً وعدواناً ولم ير النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فأسلم وكتب سيده . وفي
قصته روايات متعارضة هذا هو المراد منها لدرمنغام وغيره

(٥) ذكروا ما كان من رحلة تجار قریش في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منهما كلما مروا بدیر أو صومعة الرهبان ، وكان هؤلاء النصرارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب

(٦) زعم درمنغام انه كان يوجد بمكة نفسها اناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخذما لان رؤساء قریش لم يكونوا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم . وكان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء»!! وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لاتصل الى مسامع رؤساء قریش وعظماهم أو ما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة. ولكنه ذكر ان اباسفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الامر

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الافرنج لتعليل ماظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة على طريقتهم في الاستنباط وما يسمونه النقد التحليلي، ويقرنون بها مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفادهم منها من تأثير وعبرة، فنلخصها مضمومة الى ما قبلها مع الامام بنقدها

(٧) قال درمنغام في كفالة أبي طالب لمحمد بعد وفاة جده: انه لم يكن غنياً فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته (يوم القارىء ان أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هنالك مدارس يعلم فيها النشء بالاجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له — ثم قال)

« وانكته كان يستصحبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الابعاد المتناهية وتحقق عيابه الجبلتان بمدين ووادي القرى وديار نمود وتستمتع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبيها . ويقال انه في إحدى هذه الرحلات الى الشام التقى بالراهب ببحيرا في جوار مدينة بصرى وأن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه . وفي الشام عرف محمد احبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناواة الفرس من عباد النار لهم وانتظار الواقعة بهم »

كل ما ذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله ومبتدعات رأيه الا مسألة بحيرا الراهب فأصلها ما ذكرنا، وكأنه لم يحفل باثباتها لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه الى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته . ثم سافر اليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة ولم يتجاوز سوق بصرى في المرتين . والقوافل التي تذهب الى الشام لم تكن تمر بمدن وهي في ارض سيناء . ولم تكن هذه القوافل تضع شيئاً من وقتها للبحث مع العرب او الاعراب في طريقها عن أنبيائها والتاريخ القديم لبلادها ، ولم يعرف عن تجارها انهم كانوا يعنون بقاء اخبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم ، فن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الامم والتواريخ والكتب والاديان ويعني بقاء رؤسائها والبحث معهم ؟ انما اخترع هذا لانه لا يستطيع تعليل ما جاء في القرآن من قصص الرسل إلا به وكذلك الانباء يظلب الروم للفرس كما سيأتي . وسرى ما نفند به تعليله وتحليله وتركيبه على تقدير صحة ما زعمه كله

(٨) ثم ذكر درمنغام أن العرب ولاسيا أهل مكة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعدما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع بالذات من السكر والفسري وغير ذلك ، وان التاريخ يشهد بان محمداً كان براهم ولم يكن يشاركهم في ذلك لافقره وضيق ذات يده قال « لكن نفس محمد كانت شغفة بان ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكان حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقاً وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التي تجلت من بعد آثارها ، وما زال يغمر العالم سلطانها ، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح اليه أهل مكة إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق اليها الاستكناه . ما تدل هذه المظاهر عليه وما يحدث الموهوبين به »

هذا الخبر من مخترعات درمنغام فمحمد لم يكن شغوفاً بان يرى ما يفعله فساق قومه من فسق وفجور ، ولأن يسمع ذلك ، ولا يتحرى أن يعرفه ، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهومهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت

الشمس فلم ير ولم يسمع شيئاً ، وقد بطل بهذا ما علل به الخبر على ما فيه من المدح المتضمن لدسيستين (احدهما) أن أنداده في قریش كانوا متعلمين وكان هو محروماً مما لقنوه من العلم وكان حرمانه هذا يزيد شغفاً بالبحث والاستطلاع (والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحاً إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ما تدل عليه هذه المظاهر ، فهذه مدحة غرضه منها تعليل ما أتفق في نفسه بعد ذلك من الوحي ، وسترى بطلانه

(٩) ثم ذكر درمنقام مسألة أبناء النبي ﷺ والقاسم والطيب والظاهر وهو يشك في وجودهم ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لا تدل على وجود ولد له بهذا الاسم وأنه إن صح أنهم ولدوا فقد ماتوا في المهد ، والتحقيق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكنى به وأنه مات طفلاً وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وإن الطيب والظاهر لقبان للقاسم . ولكن درمنقام قد كبر مسألة موت هؤلاء الأولاد الذين يشك في وجودهم ، وبنى عليها حكماً ، وأثار وهماً ، قال بعد أن زعم أن محمداً تبنى زيد بن حارثة لأنه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً :

« فمن حق المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ماهي جديدة بأن تركه في حياته وفي تفكيره من أثر . والامر كذلك بنوع خاص أن كان محمد أمياً ، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) تصرفه عن التأثير بعبر الحوادث ودروسها ، وحوادث أليلة ك وفاة أبنائه جديدة بأن تستوقف تفكيره وأن تلفته في كل واحدة منها لما كانت خديجة تقرب به إلى اصنام الكعبة وتنحرف لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى تريد أن تقتدي نفسها من ألم الشكل فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور »

« والامر كان كذلك لاريب أن كانت عبادة الاصنام قد بدأت تنزعزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة اليها من الروم ومن اليمن متخطية اليها من خليج العرب (البحر الاحمر) من بلاد الحبشة »

غرض درمنقام من تكبير المصيبة بموت الابناء المشكوك في ولادتهم هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة الى الاصنام بالقرابين لينقذوها من

مصيبة الشكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة إيمانها وإيمان بعلمها بعبادتها الذي كان سببه تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجمع ذلك من الأسباب التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ - والحق أنه ما تبني زيدا إلا لأنه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حراماً والده وعمه عندما جاء مكة لافتدائه بالمال فقال لها «ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء» ثم دعا فساءله عن أبيه وعمه فعر فها قال «فأما من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترها» فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً. أنت مني بمكان الأب والعم. فقالا ويحك يا زيد أختار العبودية على الحرية وعلى أهلك وعمك وأهل بيتك؟ قال قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجير فقال «اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأثرته» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما. فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالاسلام. روى ابن سعد ونحوه في سيرة ابن اسحق هذا وإن محمداً لم يكن جزوا عند موت ولد ولا غيره بل كان أصبر الصابرين، وإن خديجة لم تياس بموت القاسم من الله أن يمن عليها بولد آخر، ولم تنحر للأصنام شيئاً. وإن اللات كانت صخرة في الطائف تعبدها ثقيف ولم تكن من أصنام قريش، والعزى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش وكنانة وغطفان، ومناة كانت صنماً في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة. وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد - وزعم أنه سببه انتشار النصرانية - جديراً بأن يمنع خديجة وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم إلى الحنيفية ملة إبراهيم أن تهجر إلى هذه الأصنام لتنحر لها وتتقرب إليها لترزقها غلاماً، فإن لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر بعلمها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والأصنام من طفولته. كما يعترف درمنغام - ولكن أتباع الهوى ينسي صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه (١٠) زعم درمنغام أن ما ذكره من تغفل النصرانية في بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت إلى زيادة إيمانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث أو التحنف وفرع على ذلك قوله :

«وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف، وأن

كان يجد فيها الوسيلة الى ما برح شوقه يشتد اليه من نشدان المعرفة واستلهاهم ما في الكون من اسبابها ، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل اليه ليضي أياما بالغار طويلة في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة »

وأقول: ان روايات المحدثين تفيد انه حجب اليه التحنث في غار حراء في العام الذي جاء فيه الوحي وكان هو يحمل الزاد وما كان أحد يحمله اليه ، وما ذكره ابن اسحاق من تعبده فيه في شهر رمضان كل سنة انما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي وهما وصل در مقام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له فأرعى تخياله العنان ، ونزع من جواده اللجام ، ونخسه بالهزاز ، فعدابه سباحاً ، وجح به جحاً ، وقدحت حوافره له قدحا ، وأثارت له نفعاً ، وأذن لشاعريته الفرنسية أن تصف محمداً عند ذلك الغار بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل ، وما تسفحه به شمس النهار ، وما تصور أنه كان يراه في تلك القنة من الجبل من صحارى وقفار ، وخيام وآبار ، ورعاة تهش على غنمها حيث لأشجار ، حتى ذكر البحار على بعد البحار وقد أتنن التخيّل الشعري ، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضعي ، ثم قال مصوراً لما يبتغيه من مشاهداته ^{صلواته} ^{عليه} ^{وسلم}

« وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الإنسان أنه يسمع بصيص ضوءها وكأنه نغم نار موقدة
« حقا ! ان في السماء لشارات المدركين . وفي العالم غيب بل العالم غيب كله . لكن ! ألا يكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى ، وأن يرهف أذنه ليسمع ؟ ليرى حقاً ، وليسمع الكلم الخالد ! لكن للناس عيوناً لا تروى وآذاناً لا تسمع .. أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى . وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا الى قلب خالص ونفس مخلصه وفؤاد مليء إيماناً ؟

« ومحمد في ريب من حكمة الناس فهو لا يريد أن يعرف إلا الحق الخالص الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل ، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق ، والحق ليس فيما يرى حوله ، حياة القرشيين ليست حقاً ، وربما الرايين ونهب البدو وهو

الخلعاء وكل ماإلي ذلك لا شيء من الحق فيه. والاصنام المحيطة بالكمة ليست حقاً وهبل الاله الطوبل الذقن الكثير العطور والملابس ليس آلهها حقاً « إذن فاين الحق وماهو »

« وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متتالية وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه، وينسى طعامه، وينسى كل ما في الحياة، لان هذا الذي يرى في الحياة ليس حقاً. وهناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ماوعى، فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازوراراً : وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الاحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها. وفي الصحراء ساعات لحييها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللآلء، وساعات صفوها البديع إذ تنكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي، وفي البحر وموجه وفي كل ماوراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود - في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شفاف الحجب الى مكنون سره

قال درمنغام : فلما كانت سنة ٦١٠ او نحوها كانت الحال النفسية التي يعاينها محمد على أشدها فقد أبهظت عاتقه المعقدة بأن أمراً جوهرياً ينقصه وينقص قومه، وان الناس نسوا هذا الامر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته، وخشي الناس الجن والاشباح والبوارح وأهملوا الحقيقة العليا، وعلمهم لم ينكروها ولكنهم نسوها نسياناً هو موت الروح . وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ومن كل كائن ليس مظهرراً للكائن الواحد

ولقد عرف ان المسيحيين في الشام ومكة لهم دين اوحى به، وان اقواما غيرهم نزلت عليهم كلمة الله وانهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من انبياء اوحى اليهم به، وكلمة ضل الناس بعثت السماء اليهم نبياً يهديهم الى الصراط المستقيم ويذكرهم « تفسير القرآن الحكيم » « ٢٣ » « الجزء الحادي عشر »

بالحقيقة الخالدة . وهذا الدين الذي جاء به الانبياء في كل الازمان دين واحد ، وكلما افسده الناس جاءهم رسول من السماء يقوم عوجهم . وقد كان الشعب العربي يومئذ في اشد تيهاء الضلال . أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم الى الحق ؟ »

« وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس ، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقا ، وجعل يقضي الاسابيع ومعه قليل من الزاد وروحه تزداد بالصوم والسهو والادمان على تقليب فكرته صقلا وحدة . ونسي النهار والليل والحلم واليقظة ، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثيا في الغار ، أو مستلقيا في الشمس ، أو ساررا بخطى واسعة في طرق الصحراء الحجرية ، وكأنه يسمع الاصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالاته

« وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره فأسر بمخاوفه الى خديجة فطمأنته وجملت تحدته بأنه الامين وان الجن لا يمكن أن تقترب منه . وفيما هو يوما نائما بالغار جاءه ملك فقال له اقرأ ، قال « ما أنا بقاريء » وكان هذا أول الوحي وأول النبوة

« وهنا تبدأ حياة وحدة روحية قوية غاية القوة ، حياة تأخذ بالابصار والالباب ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية »

أقول ان كل ما هنا من خبر أو جله فهو غير صحيح ، فمن أين علم هذا الافرنسي أن محمدا نسي الليل والنهار ، والحلم واليقظة ، وأنه كان يقضي الساعات الطوال جاثيا في الغار أو مستلقيا في الشمس الخ وأنه قضى ستة أشهر في هذه الحال — قد افترى في الاخبار ليستنبط منها انه صار صلوات الله عليه مغلوبا على عقله ، غائبا عن حسه . واننا ننقل هنا أصح الاخبار في خبر تحمسه في الغار الى ايام ذوات العدد — من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها — لتفنيد مفترياته وللإستغناء بها عما نقله من الحاط في صفة الوحي من الفصل الآتي — وهو ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما . وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه

— باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ﷺ —

افتتح الباب بل الكتاب كله بروايته لحديث « انما الاعمال بالنيات » ثم قال : حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي^(١) قال رسول الله ﷺ « أحيا نا يأتيني مثل صلصلة الجرس^(٢) وهو أشده علي فيفصم^(٣) عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً^(٤) فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها ، ولقد

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الاعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة منها الرؤيا الصادقة والنث في الروح والالهام وإلقاء الملك ، وله معنى خاص هو أحد الاقسام الثلاثة للتكليم الالهي الوارد في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء إنه علي حكيم) وهذا الحديث فيه وصف القسم الاول وذ كر الثالث ، وأما الثاني وهو الكلام الالهي من وراء حجاب بدون واسطة فقد ثبت للنبي (ص) في ليلة الاسراء والمعراج ولموسى عليها الصلاة والسلام . وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التثريعي ، والرؤيا الصادقة والالهام مما وقع ويقع لغير الانبياء (٢) المراد من التشبيه أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتدركة التي تسمع من الجلال وجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف والاقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحدا منهم في حال سماعه . وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لأنها كما قال الحكيم ابن خلدون انسلاخ من البشرية الجسمية واتصال بالمكيمة الروحانية والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسمية (٣) يفصم وزان يضرب يثفك وينجلي

(٤) أي يظهر بصفة رجل ومثاله ، وذلك أن الملك روح عاقل مرید له قوة التصرف في المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريد ها وار علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصرف بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينهما بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهر بائية ، والملك يتصرف في الكهر بائية كما يشاء ، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى (١٤٣:٧) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) — راجع ص ١٦٢ — ١٦٧ ج ٩ تفسير

وأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتهفصد عرقاً (١)
حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة
ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدى به رسول الله ﷺ من
الوحي الرؤيا الصالحة في النوم (٢) فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح،
ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (٣) - وهو التعبد - الليالي ذوات
العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى
جاءه الحق (٤) وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقاريء (٥) قال

(١) كان من هذه الشدة عليه ما قاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد : حتى إن
راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على
فخذ زيد بن ثابت فتقلت عليه حتى كادت ترضها اهـ

(٢) أكثر الرؤى أضعاف أحلام لها أسباب تثيرها في خيال الناس، والرؤيا الصالحة
عبارة عن نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لا درا كما بما يكون وقت النوم من
صفائها بعدم اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والأفكار، ورؤيا
الأنبياء قبل وحي التشريع تمهيد وتأسيس للنفس تقوي استعدادها لتلقى الكلام الإلهي
(٣) أصل التحنث اتقاء الحنث أي الذنب أو مقلوب التحنّف وهو اتباع

الخفية ملة إبراهيم : وهو رواية ابن هشام . وقوله وهو التعبد ، جملة تفسيرية لراوي
الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث والليالي ظرف متعلق بـتحنث
(٤) وفي رواية نحوه الحق أي بغته والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام

الله تعالى ، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة ،
وفي سيرة ابن هشام أن جبريل جاءه في المنام ، وهي من مراسيل عمرو بن عبيد وهو
ثقة وله صحة ولكن رواية الصحيحين المسندة هي المعتمدة ، وجمع بعضهم بين
الروایتين بأنه رآه أولاً في المنام فاستقرأه ثم رآه في اليقظة ، ولو وقع هذا في المنام لزال
خوفه ورعبه (ص) بمجرد اليقظة ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده

(٥) الظاهر أن الأمر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف - أي كن قارئاً ، ولذلك
قال له في الثالثة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أين كن قارئاً باسمه ومن قبله وبإقداره إياك على
القراءة لا بحولك وقوتك فهو يعلم أنك أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة
أما وقد شاء ربك - الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، وهو الحيوان المنوي
أو أول ما تتحول إليه نطفة الزوجين بعد العلق فجعله بشراً سوياً يسمع ويبصر
ويعقل - أن يجعلك قارئاً لما يوحى إليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئاً

فأخذني فغطني (١) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم) (٢) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر « لقد خشيت على نفسي » (٣) فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً (٤) إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري

(١) فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط فقالوا أي ضمني وعصرتني وفي رواية الطبري للحديث فغطني بالمشاة الفوقية وعليها ابن هشام وهي بمعنى غطني واصل معناها الغمس في الماء وضيق النفس وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي (ص) حتى يقوى على الاتصال بالملك والفهم منه

(٢) اختصره هنا وزاد في التفسير (الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم)

(٣) اختلف العلماء في خوفه (ص) على نفسه فقيل خشي الجنون وإن يكون

مارآه من الجن وقد أنكره ورد القاض أبو بكر بن العربي ووافق الحافظ ابن حجر ولكن الحافظ قال أنه روي من عدة طرق أقول وهو الظاهر مما أجابته به خديجة واستشكل بأن الوحي يكون مقترباً بعلم قطعي بأنه من الله وإن الملقن له من الملائكة وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف الملك له وإعلامه إياه بذلك عند تلقينه الأمر بالتبليغ وإنما كان ظهور الملك له هي المرة لأجل الإيناس والاعداد لتلقي وحي الأحكام، والأمر فيه بالقراءة للتكوين للتكليف، والأمر كان من تكليف بالإطاعة. وقيل أنه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب ونم أقوال أخرى متشككة. وهو على كل حال يدل على أنه (ص) لم يفهم من هذه الرؤية أنه صار نبياً ولا أن الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام ويؤيد ذلك مسألة ورقة

(٤) الخزي الذل والهوان واخزاه أذله وإهانته. والكل بالفتح المتعب (بفتح العين) ومن هو عالة على غيره، وحمله إعطاؤه راحلة يركبها أو حمل انتقاله، وتكسب بفتح التاء وضمها لغة ورواية، والمعدوم المتقود ولا يظهر معناه إلا بتكلف وقال الخطابي الصواب المعدم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه، والإعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل أعمال البر والنجدة والمروءة فيما عدا الباطل

الضيف وتعين على نوائب الحق . فانظلمت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب (١) وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى ، فقال له ورقة هذا الناموس (٢) الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعا . ليتي أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ أوخرجني هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً ثم لم ينشب ورقة أن توفي (٣)

(١) وفي رواية التفسير يكتب من الانجيل بالعبرية ، وفي معناها رواية مسلم : فكان يكتب الكتاب العربي . ولا تنافي بين الروايات اذ كان يعرف اللغتين وورقة ابن عم خديجة ، واما قولها له اسمع من ابن أخيك فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم (٢) الناموس في اللغة صاحب السر والمراد به امين الوحي جبريل وقوله نزل على موسى ولم يقل وعيسى لان الشبه بين الوحي الى موسى ومحمد عليهما السلام انهما لأن كلا منهما اوتي شريعة تامة مستقلة في عبادتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية وعيسى عليه السلام كان تابعا لشريعة التوراة وناسخا لبعض الاحكام التي يقتضيها الاصلاح ومبشرا بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وفي بعض الروايات الضعيفة ان ورقة قال ناموس عيسى وفي رواية اخرى حسنة الاسناد في دلائل النبوة لابي نعيم ان خديجة جاءت ورقة وحدها اولافذكرت له الخبر فقال لها : لئن كنت صدقتني انه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو اسرائيل ابناهم اه والناموس واحد على كل حال . ولكن رواية الصحيحين « فانظلمت به » تدل على التعقيب اي انها ذهبت به عقب تعديها بما رأى (٣) لم ينشب بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي (ص) ولكن في سيرة ابن اسحاق وبعده غيره أن ورقة كان يمر ببلا وهو يمدب ، ومقتضاه انه أدرك زمن البعثة واضطهاد المشركين للمؤمنين . والمعتمد ما في الصحيح من انه توفي عقب هذا الحديث بقليل

وفتر الوحي (١)

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الانصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه «بيننا أنا ماش إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) فحفي الوحي وتابع (٢) اهـ

(وأقول) أخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها أن أولها أول ما أنزل مطلقاً وفي البعض الآخر أنها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتالي هنا وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية الملك بقوله «فجثت منه

(١) فتر الوحي انقطع موقفاً ليعود - وكانت فترة الوحي ثلاث سنين - وهي ما بين بدئته بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بالإنذار للناس (٢) أي انصل مدة النبيلع كلها وهي عشرون سنة ولكنه كان نجوماً متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة ، وتارة تنزل الآيات المتفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى . وقد اختلط الامر في هذا على درمنعام فظن أنها هي التي نزلت بعد فترة الوحي ، والمروي انه نزل قبلها بضع سور . وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جنيد بن سفيان أن النبي (ص) اشتكى (أي وجع) فلم يقدّم ليلتين أو ثلاثاً (أي إلى سجدته وتلاوته) فقالت امرأة يا محمد اني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله عز وجل (والضحى والليل إذا سجى) ما ودعك ربك وما قلى (اهـ) تقرأ ودعك بالتشديد والتخفيف ومعناها واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر البغض، أي ما تركك ربك وما أبغضك - وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لب و بنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم . وكان هذا بعد نزول سورة (تبت بداً أبي لب) وروى ابن جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي (ص) فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة اني أرى ربك قد قلاك بما يرى من جزعك فنزلت - ومعارضة رواية الصحيحين لها أنه الرواية المرسلّة تسقط اعتبارها وإن جهم الحافظ يذهب بأن خديجة قالت ما قالت توجماً ، وحالة الخطيب قالته شمانية

رعباً» وفي رواية أخرى «لجئثت منه حتى هويت الى الارض» أي فزعت وخفت وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن والمشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة وبمدها بقية سورة المدثر . وقال مجاهد أول ما نزل سورة (ن والقلم) وهو غلط وروي عن علي كرم الله وجهه أن أول ما نزل سورة الفاتحة واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب ويمكن أن يراد أنها أول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني ثم بالامر بالتبليغ الاجمالي وتلاها فرض الصلاة ونزل سورة المزمل أنزلت في وقت واحد

(بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ)

هنا نذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا انه استفاده من اسفاره، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها ، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي وكيف كان بدؤه وقترته ، ثم كيف أمر ﷺ بتبليغه ودعوة الناس الى الحق وكيف حي وتتابع

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه الى العقل ، ثم أقفي عليه بما ينقضه من اساسه بادلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول

يقولون ان عقل محمد الهبولاني قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام كما أدرك ذلك أفراد آخرون من قومه — آمنا وصدقنا — وان فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الاموال بالربا والقمار — آمنا وصدقنا — وان فقره وفقر عمه (ابي طالب) الذي كفله صغيرا قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات ، من السكر والتسري وعزف القيان — الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه —

وانه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات - لا مانع من ذلك - وانه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة - نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات الى النور - هذا لم يصح عندنا ولا يضرننا - وان تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع - هذا مبني على ما قبله فهو معقول غير منقول - وانه كان قد سمع ان الله سيبعث نبياً مثل أولئك الانبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء - وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بان يكون هو ذلك النبي الذي آنأه - وهذا استنباط لهم مما قبله وسيأتي ما فيه - ونتيجة ما تقدم أنه توسل الى ذلك بالانقطاع الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه في خلوته بغار حراء فقوي هنالك ايمانه ، وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكره ، وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير الى الآيات البينات في ملكوت السموات والارض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام الساري في كل موجود ، بما صار به اهلاله لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور ، وما زال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتأمل ، ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن انه هو النبي المنتظر ، الذي يبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المزامية ، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقيه الوحي في اليقظة . وأما المعلومات التي جاءت في هذا الوحي فهي مستمدة الاصل من تلك المعلومات التي ذكرناها ، ومما هداه اليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح ، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء ، وأنها خطاب الخالق عز وجل بواسطة الناموس الاكبر ملك الوحي جبريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام

وقال أحد ملاحدة المصريين إن سولون الحكيم اليوناني وضع قانونا وشريعة لقومه فليس بدعا في العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً ، وسأين فساد هذا الرأي

(تفنيد تصويرهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه)

(الوجه الاول) ان اكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة ، أو دعاوي باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل التسليم بالنتيجة

مثال ذلك زعمهم ان محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهرهم على الروم ، ليوهموا الناس ان ما جاء في أول سورة الروم من الانباء بالمسألة وبان الروم سيفعلون الفرس بعد ذلك — هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام . وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل . فأما التاريخ فانه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الاخيرة الى الشام باربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة . ثم ان التاريخ أنبأنا ان دولة الروم كانت محتلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو ان تعود لها الكرة والغلب على الفرس . حتى ان أهل مكة أنفسهم هزئوا بالخبر وراهن أبو بكر أحدكم على ذلك وأجازره النبي ﷺ فربح الرهان . وأما العقل فانه يحكم بان مثل عمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بان الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين — لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الاخبار غير الموثوق بها . وقد صح ان انتصار الروم حصل سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فاذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين وان كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد في التفسير والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع . والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين) ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً — هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة . وأنباء الوحي والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين ، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته الى الشام بارض مدين وحديثه مع أهلها ، الذي أرادوا به ان يجعلوه أصلا لما جاء في القرآن من أخبارها والخبر باطل كما بيناه عند نقلنا إياه في المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يكون ماسمعه في الطريق من أناس مجهولين ومعارفهم لا يوثق بها أصلا للوحي الذي جاءه في قصة موسى وفي قصة شعيب علمها السلام

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئا او عاشرهم لنقل ذلك اتباعه الذين لم يتركوا شيئا علم عنه اوقيل فيه ولو لم يثبت الا ودونوه ووكلا أمر صحته أو عدمها الى اسناده

(الوجه الثالث) لو وقع ما ذكر لا تحذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتاجون بها على ان ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى ، فانهم كانوا يوردون عليه ما هو اضعف واسخف من هذه الشبهة وهو انه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده احيانا يشاهد صنعته فاتهموه بانه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله (١٦ : ١٠٣) ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر. لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين)

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في انه ﷺ لم يكن يعرف شيئا من اخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي ، وهم متفقون معنا على انه ﷺ لم يكن يكذب على احد فضلا عن الكذب على الله عز وجل ، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل ، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل وبقيته بكل ما أوحاه اليه

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص (٢٨ : ٤٤) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ٤٥ ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين) وقوله بعد قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩) تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) ونحوها في قصة يونس من سورته

(الوجه الخامس) انه لم يرد في الاخبار الصحيحة ولا الضعيفة ان محمداً ﷺ

كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لانهم ماتوا كواً شديداً بلغهم عنه إلا ودونوه كما رووا مثله عن أمية بن أبي الصلت

(الوجه السادس) ان حديث بدء الوحي الذي أثبتته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في انه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلافه وتعبده في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفسك المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعداده تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة ، وفكرته الوقادة في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ، في بيان أصول الايمان ، وتوحيد الديان ، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الاوثان ، وإنذار رؤوس الكفر والطغيان ، ماسيلقون في الدنيا من الخزي والنكال ، وفي الآخرة من عذاب النار ، كسور الفصل ولا سيما [ق والقرآن المجيد] والذاريات والطور والنجم والقمر . ثم الحاقة والنبأ — او في سورة من السور الوسطى التي تقررهم بالحجج ، وتأخذهم بالعبر ، وتضرب لهم المثل بسنن الله في الرسل ، كسور الانبياء والحج والمؤمنون ، ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ، ولم يدعهم الى شيء ، ولا تحدث الى اهل بيته ولا إلى أصدقائه بمسألة من مسائل الاصلاح الديني الذي توجهت اليه نفسه ، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه ، اذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه ، وناهيك بألصق الناس به خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته ، وأبي بكر الصديق الذي عاشه طول عمره — فهذا السكوت وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه ، واستعداده لعلومه من التلقي والاختبار الذي توهموه

(الوجه الثامن) ان مانقل من ترتيب نزول الوحي بعد ذلك موافقاً لما جريات الوقائع والحوادث يؤيد ذلك ، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر عقب قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن — فقد أراد ابو جهل أن يقول فيه قولاً يبلغ قومه انه منكرك له وانه كاره له ، بعد ان علم انه تحرى استماعه من محمد ﷺ واعجب به . قال له الوليد وماذا اقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله للحلاية ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمنير أعلاه ، مشرق اسفله (١) وانه ليعلو وما يعلو ، وانه ليحطم ماتحته . قال ابو جهل لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . فقال دعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يا ثرثه عن غيره ، فنزل الآيات (٧٤ : ١١ ذرني ومن خلقت وحيداً) الخ رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخاري

(الوجه التاسع) ان هذه المعلومات الحمديّة التي تصورها هؤلاء المخالون لمسألة الوحي قليلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن وان القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يمر به مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الارض ويهودها ، دع الاعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام

وان القرآن نزل مصداقاً لمكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الاصل من وحي الله الى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم — ونزل أيضاً همينا عليها أي رقيباً وحاكماً كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (٦) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى انهم أوتوا نصيباً من الكتاب (٥١: ٤٤) ونسوا نصيباً أو حظاً آخر منه وانهم عرفوا وغيروا وبدلوا (١٣: ٦) وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والاحكام والاخبار ، ومثل هذه الاحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان ، فأفضوها على محمد في رحلته التجارية الى الشام ، سواء أكان عند

١. وفي رواية : وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق.

بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والميسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أملاً، وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الانجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبو كريف) كأنجيل طفولة المسيح وأنجيل برنابا أم لا ، فمحمد لم يعتقد في الشام ولا في مكة مجعاً مسيحياً كجامع الكنيسة للترجيح بين الانجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضهم دون بعض

ان وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعو هذه الاخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال ، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الانجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الجلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ ؟ وقد صرح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » يعني فيما سكت عنه القرآن اثلاً يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا ، ويكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا

(العاشر) إن في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به ، كخالفه سفر الخروج فيمن تبنت موسى فنيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته - وفيما قرره من عزو صنع العجل الذي عبده بنو اسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري واثباته لانكار هارون عليهم فيه وغير ذلك ،

بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الالهية ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه

ورويدكم أيها المفتاتون ، الذين يقولون مالا يعلمون ، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون ، وأكبر مما تتصورون وتصورون ، وإن محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون ، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله لانه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة ، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليوناني الذي شبه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا في مصرنا ، مع بعد الشبه بين أمي نشأ بين الاميين ، وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة

وسياسة ، ودخل في كل أمور الامة والدولة (١)

القول الحق في استعداد محمد ﴿ص﴾ للنبو١٩٩

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورضائه، هو أنه خلقه كامل الفطرة ، ليبعثه بدين الفطرة ، وأنه خلقه كامل العقل الاستعدادي الهيولاني، ليبعثه بدين العقل والنظر العلمي، وأنه كمله بمعالي الاخلاق ، ليبعثه متممًا لمكارم الاخلاق ، وأنه بفض اليه الوثنية وخرافات اهلها وذرائلهم من صغر سنه، وحبب اليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية ، او منكرات الوحشية ، كسفك الدماء والبغي على الناس ، او المطاعم الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل - ليبعثه مصلحًا لما فسد من أنفس الناس، ومزكيًا لهم بالتأسي به، وجعله المثل البشري الاعلى، لتنفيذ ما يوحى اليه من الشرع الاعلى ، فكان من عفته أن سأل من سني شبابه خمسًا وعشرين سنة مع زوجه خديجة كانت في ١٥ منها عجوزًا يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس اليه، وظل يذكرها ويفضلها على جميع من زوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت صاحبه الصديق على جمالها وحدثتها وذكاها وكال استعدادها للتبليغ عنه — وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق فكان على شجاعته

١) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من انسياء بسترافوس آخر ملوك اثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الاعمال الادارية والعسكرية وقيادة الجيش . وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق.م «ارخونا» اي رئيسا على الامة باجماع احزابها كلهم وقدره سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه «زراكوت» من قبله فوضع لهم نظاما جديدا قررت الحكومة والامة اتخاذه دستوراً متبعاً مدة عشرين سنين. فسولون كان في قانونه متقدما ومجددا لقانون اعظم امة من امم الحكمة والحضارة نشأ فيها فكان متعلما وفيلسوفاً راحكاً وقائداً ورئيساً، أيقاس عليه محمد ﴿ص﴾ الامي الذي لم يقرأ سطوراً ولم يركب كتاباً، ولا تولى عملاً ادارياً ولا سياسياً، ثم إن ما جاء به لم يكن قانوناً موضعياً منقحاً لقوانين أخرى قبله ، بل كان اصلاحاً لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم واحكامهم وحرورهم الخ ؟ تأمل ايها القارئ الى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم !!

الكاملة يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عايه وعليهم لاجل صدمهم عن دينهم ، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا منهم (هو أبي بن خلف) كان موطننا نفسه على قتله عليه السلام فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع فلم يجد عليه السلام بداً من قتله قطعته في ترقوته من خال الدرع والمغفر ، وظل طول عمره وبعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر القشف وشطف العيش على نعمته ، مع إباحة شرعه لا كل الطيبات ونهيه لمن كان يتركها تدينا ، ويرقع ثوبه ويخصف نعله ، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد ، وكان يأكل ما وجد لا يعيب طعاما قط ، إلا أنه كان لا يشرب إلا الماء العذب النقي

وأكل الله تعالى استعداده الذاتي « لا الكسبي » للبعثة بأكمال دين النبيين والمرسلين ، والتشريع الكافي الكافل لإصلاح جميع البشر الى يوم الدين ، وجعله حجة على جميع العالمين ، بأن أنشأه كأكثر قومه أمياً وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الاميين ومن أهل الكتاب ، حتى انه لم يجعل له أدنى عناية بما يفاخر به قومه من فصاحة اللسان ، وقوة البيان ، من شعر وخطابة ، ومفاخرة ومنافرة ، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي لظهار بلاغتهم وبراعتهم ، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم ، ولوجود الحكمة في شعرهم ، فكان من الغريب أن يزهد في مشاركتهم فيه بنفسه ، وفي روايته لما عساه يسمعه منه ، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال « ان كاد ليسلم » وقال « آه شعره وكفر قلبه » وقال « أن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر حكمة » رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس ، وأما قوله « أن من البيان لسحرا » فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر

قلنا إن استعداد محمد عليه السلام للنبوة والرسالة فطري لم يكن فيه شيء من كسبه يعلم ولا عمل إنساني ولا نفسي ، ولم يرو عنه انه كان يرجوها كما روي عن أمية ابن أبي الصلت ، بل روي عن خديجة (رض) انها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته وما قاله بحيرا الراهب فيه تعلق أملها بأن يكون

هو النبي الذي يتحدثون عنه ، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها الى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفاً ، فان قيل انه يقويه حلفها بالله ان الله تعالى لا يخزيه أبداً ، قلنا انها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله ، ورأت انها في حاجة الى استفتاء ابن عمه امية في شأنه .

واما اختلاؤه عليه السلام وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في انه كان عملاً كسليماً مقوياً لذلك الاستعداد الفطري ، ولذلك الاستعداد السليبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم ، ولكنه لم يكن يقصد الاستعداد للنبوة ، لانه لو كان لاجلها لاعتقد حين رأى الملك او عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ، ولم يخف منه على نفسه ، وانما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحت اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها الى الانس بالله تعالى ، والرجاء في هدايته الى المخرج منها ، كما بسطه شيخنا الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى (ووجدك ضالاً فهدى) وما يفسره من قوله عز وجل في سورة الشورى (٤٢ : ٥١) وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا . وانك لتهدي الى صراط مستقيم * ٥٢ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) وألم به في رسالة التوحيد المأما مختصراً مفيداً ، فقال رحمه الله تعالى : «من السنن المعروفة أن يتما فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخاطبه لاسيما ان كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينهيه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الامر فيه على جاري السنن للشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (١) ولكن الامر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فمأجلته طهارة العقيدة ، كما بادرة

(١) كامية بن أبي الصلت وعمرو بن قنيل

حسن الخلقة ، وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك ضالاً فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ان ذلك هو الافك المبين ، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص. وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين، وارشاد للضالين ، وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته اه

(أقول) وجملة القول ان استعداد محمد ﷺ للنبوته والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريم كرامة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية ، والآداب الوراثية والعادات المكتسبة ، الى ان تحلى فيها الوحي الالهي باكمل معانيه ، وابلغ مبانيه ، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله الى اقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم ، وجعل بعثة خاتم النبيين به للبشر عامة دائمة لا يحتاجون بعدها الى وحي آخر، فكان في فطرته السليمة وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذي تلوته عليك من آخر سورة الشورى — هو مضرب المثل في قوله تعالى في سورة النور (٢٤ : ٣٥) الله نور السموات والارض مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

فزيت مصباح المعارف المحمدية، يوقد من زيتونة لا شرقية ولا غربية، ولا يهودية ، ولا نصرانية ، بل هي الهية علوية

هذا ما نراه كافياً لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده، ويتلوه ما هو أقوى دليلاً ، واقوم قِيلاً ، وهو تفنيده بموضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالدة ، وحجته الناهضة ، وهو القرآن العظيم

آية الله الكبرى - القرآن العظيم

﴿ القرآن الكريم ، القرآن الحكيم ، القرآن المجيد ، الكتاب العزيز ﴾

الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

هو كتاب لا كالكتب ، هو آية لا كالأيات ، هو معجزة لا كالمعجزات ، هو نور لا كالأنوار ، هو سر لا كالأسرار ، هو كلام لا كالكلام ، هو كلام الله الحي القيوم الذي ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض ، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه إلا تبليغه للناس ليهدوا به ، فهو معجز للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته ، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ومعارفه ، وفصاحته وبلاغته ، وهو (ص) لم يكن عالماً ولا بليغاً ممتازاً إلا به ، بل فيه آيات صريحة في معانيه على بعض اجتهاده كفاء امرئ بدر (راجع ص ٨٣ و ٩٤ و ٦٤ و ٤٧٣ ج ١٠ تفسير)

قد بينت في تفسير آية التحدي بالقرآن من سورة البقرة (٢ : ٢٣) أهم وجوه الإعجاز اللفظي والمعنوي بالأجمال والابحاز ، وأعود هنا إلى الكلام في علوم القرآن المصلحة للبشر بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل ، وهو القدر الذي يعلم منه أن هذه العلوم أعلى من كل ما حفظه التاريخ عن جميع الأنبياء والحكماء ، وواضعي الشرائع والقوانين ، وساسة الشعوب والأمم

فمن كان يؤمن بأن للعالم رباً عالماً حكماً رحيماً يريد فاعلاماً مختاراً فلا مندوحة له ولا مناص من الإيمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم أنبيائه المرسلين رحمة بهم ليهدوا به إلى تكميل فطرتهم ، وتزكية أنفسهم ، وإصلاح مجتمعاتهم من المفاسد التي كانت عامة لجميع أممهم ، فيكون اتباع محمد فرضاً إلهياً لازماً عالماً كما قال تعالى (٧ : ١٥٨) قل يأيها الناس اني رسول الله اليكم

جميعا الذي له ملك السموات والارض لا إله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله
ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)

ومن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العالم الحكيم فلا مندوحة له عن الجزم
بأن محمداً أكل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء
المهادين المهديين ، ويكون الواجب بمقتضى العقل ان يعترف له هؤلاء بأنه سيد
البشر على الاطلاق وأولاهم بالاتباع بعنوان (سيد البشر وحكيمهم الاعظم)

واننا رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون
القرآن في الجملة يعترفون بهذا قولاً وكتابة (منهم) الاستاذ مولانا انكليزي
المشهور ، ومنهم ذلك الفيلسوف الطبيب السوري الكائن ليكي الذشاة الذي رأى في
مجلة النار بعض المناقب المحمدية فكتب لنا كتاباً يقول في اوله : أنت تنظر الى
محمد كنبي فتراه عظيماً ، وأنا أنظر اليه كرجل فأعده اعظم وذكر ابياتاً في وصفه
ووصف القرآن وما فيه من محكم الآيات ، المانعة لمن عقلها من تقييد العمران
بالعادات ، وإصلاحه للبشر بحكمة بيانه وقوة بنانه ، وختمها بقوله :

بيانه أربى على أهل النهى وبسيفه أنهى على الهامات
من دونه الا بطل في كل الورى من سابق أو حاضر أو آت

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون ، ولكن
الجاحدين لوجود رب مدبر للعالمين قائلون ، وان محمداً ﷺ لحجة عليهم في
نشأته وتربيته وما علم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع ، ثم بما جاء به في سن
الكهولة من هذه العلوم المصلحة لجميع شؤون البشر في كل زمان إذا عقلوها واهتدوا
بها ، وإسناده إياها الى الوحي الالهي ، فهو ﷺ بمزاياه هذه حجة وبرهان على
وجود الرب الخالق الحكيم بل مجموعة حجج عقلية وطبيعية - وهاك أيها القارئ
ما أرفه اليك من قواعد تلك العلوم الاصلاحية بعد تمهيد وجيز في أسلوب القرآن
وحكمة جعل تلك العلوم الكلية متفرقة في سورته بأسلوبه الغريب العجيب ، وهذا المعنى
قد بيناه من قبل وإنما نعيد مع زيادة مفيدة وإيضاح اقتداء بأسلوب القرآن نفسه في
تكرار المعنى الواحد في المواقع المقتضية له من إيجاز أو إسهاب ، وتفصيل أو إجمال

(أسلوب القرآن الخاص وحكمته وإعجازه به)

لو أن عقائد الاسلام المنزلة في القرآن من الايمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء ودار الثواب ودار العقاب جمعت وحدها مرتبة في ثلاث سور أو اربع أو خمس مثلا ككتب العقائد المدونة — ولو ان عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والذكاة والاذكار وضع كل منها في بضع سور أيضا ككتب الفقه المصنعة — ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة ، وما يقابلها من الرذائل والاعمال المحرمة والمكروهة ، أفردت هي وما يقتضيه الترغيب والترهيب من المواعظ والنذير والأمثال الباعثة لشعوري الخوف والرجاء في بضع سور أخرى ككتب الاخلاق والآداب المؤلفة — ولو ان قواعد التشريعية وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية رتب في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية — ثم لو ان قصص النبيين المرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الالهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ — لو أن كل ماذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها اصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخي الذي لا يعلم احد مرتبه أو كتب العلم والفقه والقوانين لفقد القرآن بذلك اعظم مزايا هدايته المتصودة بالقصد الاول للغاية التي انتهت اليها ، وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للقليل من سورة كثيرا من مسائل الايمان والفضائل والاحكام والحكم المنبثة في جميع السور لان السورة الواحدة لا يوجد فيها في هذا الترتيب إلا مقصد واحد من تلك المقاصد ، وقد يكون أحكام الطلاق أو الحيض فهو يتعبد بها ولا شك انه يعلمها ، وأما سورة المنزلة ففي كل منها حتى أقصرها عدة مسائل من الهداية قترى في سورتي الفيل وقريش (المتعلقة اخداها بالآخرى حتى في الاعماب) ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتنا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته بما من عليهم من عنايته بحفظ البيت الذي هو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم وتأمين تجارتهم وحياتهم — ولقد بهذا الترتيب أخص أنواع إعجازه أيضا

يعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين ،
العليم الحكيم الرحيم ، وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها في السور
الكثيرة ، الطويلة منها والقصيرة ، بالناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة
المؤثرة في القلوب ، الحركة للشعور ، النافية للسامة والملل من المواظبة على ترتيلها
ينفثت نظمه الخاص به وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التلغني الذي يحدث في
القلب وجدان الخشوع ، وخشية الاجلال للرب المعبود ، والرجاء في رضوانه ورحمته ،
والخوف من عقوبته ، والاعتبار بسننه في خلقه ، بما لا نظير له في كلام البشر من
خطابة ولا شعر ولا رجز ولا مسجع ، فهذا الأسلوب الرفيع في النظم البديع ، وبلاغة
التعبير السنيعة ، كان كما ورد في وصفه : لا تبلى جديته ولا تخلقه كثرة التردد وحكمة
ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل وهالك بيبانه بالإجمال

الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن في البشر

القرآن كتاب أنزل على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل
صحيح النفس طاهر الاخلاق لم تملكه تقاليد دينية ولا أهواء دنيوية ، لأجل إحداث
ثورة وانقلاب كبير في العرب فسائر الامم يكتسح من العالم الانساني مادنس
فطرته من رجس الشرك والوثنية الذي هبط بهذا الانسان من أفقه الأعلى في عالم
الارض إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات ، وما أفسد عقله وذهب
باستقلال فكره من البدع الكنسية ، والتقاليد المذهبية ، التي أحالت توحيد
الانبياء الأولين شركا وحقهم باطلا ، وهدايتهم غواية - وما أفسد بأسه ، وأذل
نفسه ، وسلبه إرادته ، من استبداد الملوك الظالمين ، والرؤساء القاهرين ، ثورة تحرر
العقل البشري والارادة الانسانية من رق المتنحلين لانفسهم صفة الربوبية أو النياية
عنها في التحكم في الناس واستدلالهم ، فيكون كل امرئ اهتدى به حرا كريماً
في نفسه ، عبد اخلاصا لربه واليه ، يوجه قواه العقلية والبدنية الى تكميل نفسه وجنسه
مثل هذه الثورة الانسانية لا يمكن أن تحدث الا على قاعدة القرآن في قوله
تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم) وكيف يكون تغيير الاقوام

لما بأنفسهم من العقائد والاخلاق والصفات ، التي طبعها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة ؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتاباً تعليمياً جافاً ككتب الفنون يقول فيه انكم ايها الناس ضالون فاسدون ، ومضلون مفسدون ، فاعملوا بهذا الكتاب تهتدوا وتصلحوا ، أو قانوناً مدنياً يقول في مقدمته نفذوا هذا القانون تحفظ حقوقكم ، وتعز أمتكم وتقو دولتكم ؟ أتى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين ، وإهمال قوانين حكائهم المصلحين ، (كما فعل المسلمون المتأخرون) وإنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها ، وأنى لمحمد فعل هذا في الامة العربية وقد بعث بالحجة والبرهان ، فريداً وحيداً لأعصبة له من قومه ولا سلطان ؟ على انه جاء بأعدل الأصول التي تبني عليها امته قوانينها عند تكوين دولتها في الاحوال الملائمة لها كما يعلم مما يأتي كلا ان هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به وهو تأثير هذا القرآن في الامة العربية التي كانت أشد الاعم البدوية والمدنية استعداداً فطرياً لظهور الاسلام فيها بالاقناع كما ينهه بالتفصيل في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريباً ذلك بان من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر ، والعمل بمقتضى المعرفة وان خالف مقتضى الاهواء والشهوات ، والتقاليد والعادات ، ان مجرد البيان والاعلام والامر والنهي لا يكفي في الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل ، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر اذا عارض المقتضى العلمي لهما ما أشرنا اليه آنفاً من الموانع النفسية والعملية ، إلا في بعض الافراد من الناس دون الجماعات والاقوام . بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس وضد آثارها عنهما بالعمل ، أنه يتوقف على صيرورة الايمان بهما ادعائاً وجدانياً حاكماً على القلب ، راجحاً على ما يخالفه من رغب ورهب وألم وأمل ، وإنما يكون هذا في الاحداث بالتربية العلمية العملية والاسوة الحسنة لهم فيمن ينشؤون بينهم من الوالدين والاقربين والمعاشرين وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الايمان بالحق المطلق والخير العام ادعائاً

وجداننا لجمهورهم إلا بالاسلوب الذي نزل به القرآن فقلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وجوهرها إلى ضدها علما وعملا بما لم يعد له نظير في البشر ، فكان القرآن آية خارقة المعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره ، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه

واعتبر هذا ببني اسرائيل سلالة النبيين ، فإن كل مارأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام ، ثم مارأوه في برية سيناء مدة التيه منها ، ومن عناية الله تعالى بهم ، ومن سماهم كلام الله تعالى بأذانهم في هيب النار المشتعلة على ماترويه توراههم - ولم يثبت عندنا التكليم الا لنبيهم - لم يتغير به ما كان بانفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتهما وانتهى أخلاقها ، فقد عذبوا موسى عذابا نكرا ، وعاندوه في كل ما كان يأمرهم به ، وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاتهم له ، حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة ، وهو كناية عن البلادة والعناد ، وعصل الطباع المانع من الانقياد ، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالا عند الخروج من مصر ومن ولد في التيه أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة ، وأن يعملوا بها ، ويجاهدوا في سبيلها ، وانما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام

فأين بنو اسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره في رسوخهم في الايمان ، وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم بإهم ليفتنوهم عن دينهم ، ثم في مجاهدتهم لهم عند الامكان بعد الهجرة ، ومجاهدة اعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في عهده ﷺ وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة التيه ، وكان ذهب نصفها في الدعوة وتبليغ الدين للأفراد بمكة ، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد

ثم تأمل ما كان من تدفقهم هم انفسهم كالسيل الآتي على الاقطار من نواحي الجزيرة كلها ، والظهور على ملكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الارض وإزالة الشرك والظلم منها ، ونشر التوحيد والحق والعدل فيها ، ودخول الامم في دين الله

أفواجا مختارين اهتداء بهم ، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين ، حتى فتحواهم وتلاميذهم نصف كرة الارض في زهاء نصف قرن ، أو ثلاثة أرباعها في ثلاثة أرباعه وكانوا مضرب انثال في الرحمة والعدل وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب

وأنى يبلغ الشعب الذي وصفه به في كتابه بالشعب الصلب الرقبة رتبة الذين وصفهم رب العالمين بقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الآيات ، فكان عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين الذي طبع وشب على الشدة والقسوة يطبخ الطعام هو وزوجه ليلا لامرأة فقيرة تلدوابعها حاضر لا يساعدها اذ لم يكن يعلم انه أمير المؤمنين لاجرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الاسلوب الذي نراه في المصحف فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله (٢٥ : ٥٢ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) ثم كان به يربي المؤمنين ويزكيهم ، ويهديته والتأسي بمبلغه ﷺ ربوا الامم وهذبوها ، وقلما يقرؤه احد كما كانوا يقرءون ، إلا ويهتدي به كما كانوا يمتدون ، على تفاوت في الاستعداد النفسي والافوي واختلاف الزمان لا يخفى . ولو كان القرآن بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غير ما بآ نفس العرب فغيروا به أئم العجم ، في كانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله (٣ : ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

ولم يكن عندهم شيء من العلم بسياسة الامم وإدارتها إلا هذا القرآن ، والاسوة الحسنة بمبلغه ومنفذة الاول عليه الصلاة والسلام ، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم الا اذا عادوا الى هدايته ، وتجديد ثورته ، ولعنة الله على من يصدونهم عنه زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة مبيته ، بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحبي الايمان وينهض الهمم ، ويزكي الانفس ويبعث على العمل

(فعل القرآن في أنفس العرب المستعدة له نوعان)

بيان ذلك ان فعل القرآن في أنفس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم قد كان على نوعين أولهما جذبته الناس الى الاسلام، وثانيهما تركيتهم وتغيير كل ما كان بانفسهم من جهل وفساد الى ضده، حتى اعقب ما أعقب من الاصلاح في العالم كله. وهالك التفصيل الذي يحتمله المقام لذلك.

بيننا مرارا ان الله تعالى قد أعد الامة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أرادهم من الاصلاح العام للبشر بكونهم كانوا اقرب الامم الى سلامة الفطرة، وأرقام لغة وأقوامهم استقلالاً في العقل والارادة، لعدم وجود ملوك مستبدين ورؤساء دين أولي سلطان روحي يتحكمون في عقائدهم وأفكارهم ويسخرونهم لشهواتهم فلما بعث فيهم محمد ﷺ بهذا القرآن الداعي الى الحق والى صراط مستقيم كانوا على أتم الاستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم في التمتع بالثروة الواسعة والعظمة الكاذبة والشهوات الفاتنة والسرف في الترف، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الاديان فيها من المسكنة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد ابراهيم واسماعيل - قرأوا ان هذا الدين يسلمهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والموالي، وأنه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آباءهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الانعام - فوجهوا كل قواهم ونفوذهم الى صد محمد عن دعوته ولو بتملكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب، حتى التويل والتلميح، فقد أجاب عنه ابا طالب لما عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » حينئذ أجمعوا أمرهم على ضده عن تبليغها بالقوة، والحيولة بينه وبين جاهل الناس في الاسواق والجماع والبيت الحرام، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية، الا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة او

جوار أو ذمة ، فهؤلاء الرؤساء المترفون المترفون المتكبرون كانوا أعلم الناس بصدق محمد وفيهم نزل قوله تعالى (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فقد كابروا الحق بغيا واستكبارا للحرص على رياستهم وشهواتهم ، وكانوا اجدر العرب بقبول دعوة القرآن (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) كفرعون وقارون وهامان

فعل القرآن في مشركي العرب

قلنا ان فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين : فعله في المشركين ، وفعله في المؤمنين ، فالأول تأثير روعة بلاغته ودهشة نظمه وأسلوبه ، الجاذب لهم دعوته والاعان به ، اذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها ، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لابي جهل التي اعترف فيها بانه الحق الذي يعلو ولا يعلى ، والذي يحطم ما تحته ، (راجع ص ١٨٩) وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه ، وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله ووجدانه ، وبعد أن فكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، كما يعلم من سورة الدثر وسبب نزول قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيداً) الآيات منها وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته ، على ما كان من نهيمهم عنه ونأيهم عنه ، وتواصيهم وتقاسمهم لا يسمعون له ، ثم كانوا يتسلاون فرادى مستخفين ، ويتلاقون في الطريق متلاومين ، وهذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق (رض) من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ليلاً لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب الى الاسلام ، وعللوا ذلك بانه يغتن عليهم نساءهم وأولادهم ، فاتخذ مسجداً له بقاء داره فطفق النساء والاولاد الناشئون ينسلون إلى بيته ليلاً لاستماع القرآن ، فنهاه أشرف المشركين بان العلة لا تزال ، وانهم يخشون أن يغلبهم نساءهم وأولادهم على الاسلام ، وكانوا ألجأوه إلى الهجرة فهاجر فلقى في طرقة ابن الدغنة سيد قومه

فسأله سبب هجرته فأخبره الخبر وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الاسلام فأجابه وأعادته إلى مكة بجواره ، فعاد إلى قراءته ، وعاد النساء والنسب الحديث إلى الاستماع له ، حتى اضطر المشركون ابن الدغنة إلى اقناعه بترك رفع صوته بالقرآن وأورد عليه جواره ، فرد أبو بكر جواره اكتفاء بجوار الله تعالى ، وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة وأوردناه بطوله في تفسير آية الغار (ص ٤٣٦ من الجزء العاشر) بل هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي (ص) بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعهم ، وعلى توأصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسا فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية إن محمداً لم يأت بأية على نبوته كآيات موسى وعيسى وقال في الرد عليهم : إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أوها متألها فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الإيمان ما لم تفعله جميع آيات الانبياء الاولين (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة ، لما كان لتأثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة . كان كل ما يطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس . قال تعالى مخاطباً له (٦ : ١٩ قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لا أنذركم به ومن باغ) أي وأنذره كل من بلغه من غيركم من الناس . وقال في آخر سورة النحل (٢٧ : ٩١) إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين (٩٢) وأن أتلو القرآن : فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المذنبين (٩٣) وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) ان رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس إلى الاسلام بوقعه في أنفسهم ما لم يعرفه غيرهم ، وعرفوا أنه ليس للجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والمكابرة ، فقال لهم عمه أبو طالب من أول الامر : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه » ففعلوا . وكان من ثباته على بث الدعوة واحتمال الأذى ما أفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الايذاء له ولمن يؤمن به ، ثم اجماع الرأي على قتله ، حتى

أَجْزَمُوا إِلَى الْهَجْرَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ . ثُمَّ صَارُوا يَقَاتِلُونَهُ فِي دَارِ هَجْرَتِهِ وَمَاجُوهَا ، وَيَنْصُرُهُ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، إِلَى أَنْ اضْطُرُّوا إِلَى عَقْدِ الصَّلَاحِ مَعَهُ فِي الْحَدِيثِ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ
 وَكَانَ أَمْرُ شُرُوطِ الصَّلَاحِ السَّامِحِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَخَالِطَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِي كَانَ سَبَبَ سَمَاعِهِمْ
 لِلْقُرْآنِ ، وَدُخُولِهِمْ بِتَأْثِيرِهِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَكَانَ انْتِشَارُ الْإِسْلَامِ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ
 بِإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، أَضْعَافَ انْتِشَارِهِ فِي سِتِّ عَشْرَةِ سَنَةٍ مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ

فعل القرآن في أنفس المؤمنين

كَانَ كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ يَلْقَنُ مَازِلَ مِنَ الْقُرْآنِ - لِيُعْبَدَ اللَّهُ
 بِتِلَاوَتِهِ - وَيَعْلَمَ الصَّلَاةَ وَلَمْ يَفْرَضْ فِي مَكَّةَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ غَيْرُهَا ، فَيَرْتَلُ مَا يَحْفَظُهُ
 فِي صَلَاتِهِ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ إِذْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ التَّهَجُّدَ بِاللَّيْلِ مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ
 قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الزَّمَلِ - الَّتِي قِيلَ إِنَّهَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ بَعْدَ قُرْآنِ الْوَحْيِ وَبَعْدَهَا
 الْمَدْثَرُ وَقِيلَ بِالْعَكْسِ - وَتَقْدِمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ (يَا أَيُّهَا الزَّمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا *
 نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا *) ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهَا (إِنْ
 رَبُّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنَصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ
 وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلَّمَ أَنْ لَنْ تَحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ)
 أَيِّ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَعْذَارَ الْمَانِعَةَ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهَا مَا كَانَ مِنْهَا
 فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ كَالْمَرَضِ وَالسَّفَرِ ، وَمَا سَيَكُونُ بَعْدَ سِنِينَ وَهُوَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَمَا وَرَدَ فِي صِفَةِ الصَّحَابَةِ (رَضِ) أَنْ الَّذِي كَانَ يَمُرُّ بِيُوتِهِمْ لَيْلًا يَسْمَعُ مِنْهَا
 مِثْلَ دَوِيِّ النَّحْلِ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ غَلَبَ بَعْضُهُمْ فَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ حَتَّى
 شَكَا مِنْهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَهَاجَمَ النَّبِيُّ (ص) عَنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ هُوَ يَصِلِي فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ثَلَاثَ
 عَشْرَةَ رَكْعَةً يُوْتِرُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، وَمَا قَبْلَهَا مِثْنَى مِثْنَى ، وَكَانَ هُوَ يَطِيلُ فِيهِنَّ حَتَّى
 تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَرْفَعًا وَمَسَلِيًّا (طه) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
 الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

فَتَرَبَّيَّةِ الصَّحَابَةِ الَّتِي غَيَّرَتْ كُلَّ مَا كَانَ بِأَنفُسِهِمْ مِنْ مَفَاسِدِ الْجَاهِلِيَّةِ وَزَكَّتْهَا
 تَمَلُّكُ التَّزْكِيَةِ الَّتِي أَشْرَفْنَا بِهَا أَنْفَعًا وَأَحْدَثَتْ أَعْظَمَ ثَوْرَةٍ رُوحِيَّةٍ أَجْمَاعِيَّةٍ فِي التَّارِيخِ

إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة وتدبره ، وربما كان احدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها ، وكانوا يقرؤنه مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ، وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنی وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه ، وسننه في خلقه وأفعاله في تدبير ملكه ، ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع ، وتغيير الاوضاع ، بل امكانت تلاوته تمل فتترك ، فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع اعجازه اللغوي ، وتأثيره الروحي ، ومن ارتاب في هذا فلي نظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه ويحاول كتابتها نفسها أو مثلها بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى ، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالاجمال الموجز تارة وببعض التفصيل تارة وبالاطناب فيه أخرى ، - كالاختبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سور المفصل (كالذاريات والقمر والحاقة) وفيما فوقها (كالمؤمنون والشعراء والنمل) وفيما هو أطول منها (كالاعراف وهود) - ثم لينظر مايفضي اليه عجزه من السخرية

وقد بين بعض علماء الاجتماع في هذا العصر ان تكرار الدعوات الدينية والسياسية والاجتماعية هي التي تثير الجماعات وتدعهم إلى الانهماك والتفاني فيها دعاءً ، وما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا ، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والاقوام فوق مايعلمه حكماء عصرنا وسائر الاعصار ، وإنما القرآن كلامه ، وليس فيه من التكرار ، الا ماله أكبر الشأن في انقلاب الافكار ، وتحويل ما في الانفس من العقائد والاخلاق إلى خير منها ، وهو ما لا يمكن احداث الانقلاب الاصلاحى بدونها كما تعلم من التفصيل الآتي

﴿ مقاصد القرآن ، في ترقية نوع الانسان ، وما فيه من التكرار ﴾

ان مقاصد القرآن من اصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم وادخالهم في طور الرشاد وتحقيق اخوتهم الانسانية ووحدهم وترقية عقولهم وتزكية أنفسهم منها ما يكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مرارا قليلة ، ومنها ما لا نحصل

الغاية منه إلا بتكراره مرارا كثيرة لاجل أن يجتث من أعماق الانفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويفرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الفرس بما ينميه حتى يؤتي أكله وينبع عمره، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة، ومنها ما لا يمكن كاله إلا بالتدريج، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكنائية والقرآن كتاب تربوية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في كتب الفنون والقوانين، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) واننا نذكر هنا اصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ما جاء به محمد (ص) هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله جميع الانبياء والحكماء والحكام فهو برهان على أنه من عند الله تعالى لامن فيض استعداده الشخصي، وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ونبين حكمة القرآن، وما امتاز به في كل نوع منها بالاجمال لان التفصيل لا يتم الا اذا يسر الله لنا ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر الى ذلك المقصد وكون القرآن وفي بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه

(النوع الاول من مقاصده الاصلاح الديني لاركان الدين الثلاثة)

ان اركان الدين الاساسية التي بعث بها جميع رسل الله تعالى وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المدينة بقوله (٢٢: ٢) ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهاك الكلام على كل منها بالابحاز

(الركن الاول للدين الايمان بالله تعالى)

فالركن الاول الاعظم من هذه الاركان وهو الايمان بالله تعالى - قد ضل فيه جميع الافوام والأئمة حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود جعلوا الله كالانسان يستعب ويندم على ما فعل كخلقه للانسان لانه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله ، « او مثل الآلهة » وزعموا انه كان يظهر في شكل الانسان حتى إنه صارع اسرائيل ولم يقدر على التغلب منه حتى باركه فأطلقه ، وعبدوا ابعلا وغيره من الاصنام . والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، فغمر الشرك بالله هذه الارض بطوفاته ، ووطئت الوثنية على أهلها ، حتى صارت كنائس النصارى كلها كل الوثنية الاولى مخلوعة بالصور والتماثيل المعبودة - على أن عقيدة التثليث والصلب والغداء هي عقيدة الهنود في كرشنه وثالوثه في جملتها وتفصيلها ، وهي مدعومة بالسفسة خيالية غير معقولة وبنظام يقوم بتنفيذ الملوك والقيصرة ، ويبدل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربى عليه الاحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهانا ، فهذه معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الافكار والقلوب ما كان ليتم باقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل ، بل لا بد فيه من دحض الشبهات وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والخطابية بالعبارة المختلفة وضرب الامثال ، لذلك كان أكثر المسائل تكرارا في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتماد أن كل ما سواه من الموجودات سواء في كونهم مدسكا وعبيداً له لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد ولا لانفسهم إلا فيما سخره من الاسباب المشتركة بين الخلق كما شرحناه مرارا .

واما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني فليس سببه كثرة المشركين بربوبيته تعالى ، بل سببه إقامة الحجة به على بطلان شرك العباد بغير الله تعالى لأجل التقرب اليه بأولئك الاولياء وابتغاء شفاعتهم عنده ، فشر الشرك وأعرقه في الكفروا كثره في ضعفاء العقول انما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة اليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الاسباب ، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة ،

بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لأنه روح العبادة ومغها ، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله ، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي
بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى ، وبعضها نهي عن دعاء غيره مطلقا ،
ومنها حجج على بطلان الشرك أو على إثبات التوحيد ، ومنها أمثال تصور كلا منهما
بالصور الثلاثة المؤثرة ، ومنها إخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب ، وإن
كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبده له ، وإن أفضالهم وخيارهم كاللائكة والأنبياء
يدعونه هو ويبتغون الوسيلة إليه ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وأنهم يوم القيامة
يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله - وأمثال ذلك مما يطول تلخيصه
ونم أنواع أخرى من آيات الإيمان بالله تعالى تغذي التوحيد وتساعد بأهله
درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتوله في حبه من التميز والتقدس
والتسبيح ، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام
الطهارة والنساء والأرث والأموال ، وبحكم الخلق والتدبير لأمور العالم ، وسننه في طباع
البشر وفي شؤونهم الاجتماعية . ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من رحمة
وعلم وحكمة وقدرة ومشيدة وحلم وعفو ومغفرة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن
الأمر بالتوكل عليه والخوف منه والرجاء في فضله الخ ونهايك بما سرد منها سردا
لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها فيه كما تراه في خاتمة سورة الحشر
فتأملها ، وفي فاتحة سورة الحديد (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز
الحكيم * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) ومنها استمد
الأولياء العارفين والأئمة الربانيون تلك الكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار
خلقه ، بعد أن تربوا بكثرة ذكره ، وتلاوة كتابه

بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول طهر الله
عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية ، وزكاها بالاخلاق
العالية والفضائل السامية ، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه و صار
يرتل في عبادته ويتدبر آياته ، حتى إذا دب في الأمة ديب الجهل بلغة القرآن وقل
« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٧ » « الجزء الحادي عشر »

تدبره واعتمد المسلمون في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ضعف التوحيد واتبعوا سنن من قبلهم شهراً بشهر وذراعاً بذراع اعتقاداً وعملاً، وتأولوا وجدلاً، فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة على التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم كما هو مشاهد ومعلوم

على أن بعض المتكلمين والصوفية قد باعوا في التوحيد حتى أنكر بعضهم تأثير الاسباب في مسبباتها، وقال بعضهم بوحدة الوجود، وانتهى بهم ذلك إلى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء، بيد أن الاولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم اليه النظر العقلي، أو رياضة النفس وما تشعره من الشعور الوجداني، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لاحظ لهم من القرآن ولأمن البرهان ولا من الوجدان، وإنما يتبعون العوام ويتأولون لهم بكلام أمثالهم من المصنفين الجاهلين. ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتزيه كما يجب - وهي سورة الاخلاص - لما وجد الشرك إلى أنفسهم سبيلاً

قد كان توحيد المسلمين الاولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم، وأعلى هممهم، وكأهم بعزة النفس، وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل، ومكنتهم من فتح البلاد وسياسة الأمم، واعتاقها من رق الكنية والاحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحي والعقلي، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم، وإقامة دعائم الحضارة، وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الارض، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير: ان ملكة الفنون لم يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال، أولها جيل التقليد وثانيها جيل الخضرمة وثالثها جيل الاستقلال والاجتهاد - قال: إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الاول الذي بدؤوا فيه بمزاوتها

وأقول ان سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد، وتوطين انفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً، وقد خفي كل هذا على سلاطينهم بعد ذهاب الخلافة الإسلامية وزوال النهضة العربية

وتحول السلطان الى الاعاجم الذين لم يكن لهم من الاسلام الا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن

(الركن الثاني من اركان الدين عقيدة البعث والجزاء)

وأما الركن الثاني وهو الايمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الاعمال، فقد كان جل مشركي العرب ينكرونه اشد الانكار، ولا يكل الايمان بالله تعالى ويكون باعثاً الامة على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان بدونه ، وكان أهل الكتاب وغيرهم من الملل التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم أو حرقوا واستحوذت عليهم الوثنية يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء على الاعمال ، ولكن ايمانهم هذا قد شابه الفساد ببناؤه على بدع ذهبت بحل فائدته في إصلاح الناس ، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين وخلف النصراني وجود الخلد الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويقدمهم بنفسه ، وهو الاقنوم الثاني من الثالوث الالهي الذي هو عين الاول والثالث ، وكل واحد منهما عين الآخر . وكل ما يقوله النصراني في فداء المسيح للبشر وغير ذلك فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنه في اللفظ والفحوى كما تقدم ، لا يختلفان إلا في الاسمين كرشنه ويسوع .

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب اسرائيل ومحابة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة ويسمونهم الى اسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين ، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان فساد الايمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الاول وهو الايمان بالله تعالى ومعرفة محتاجا إلى الإصلاح مثله

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح ، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الانسان من جعل سعادته وشقاؤه منوطين بايمانه

وعمله ، اللذين هما من كسبه وسعيه لا من عمل غيره ، وان الجزء على الكفر والمعاصي يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب ، والجزء على الايمان والاعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بمشرا أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة

ومدار كل ذلك قاعدة قوله تعالى (ونفس وما سواها * فأنهها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) أي إن الله الذي خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل ، قد جعلها بالهام الفطرة والعريضة مستعدة للفجور الذي يرد بها ويدسها ، والتقوى التي تنجيها وتعليها ، ومتمكنة من كل منها بإرادتها ، والترجيح بين خواطرها ومطالبها ، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر ، فبقدر طهارة النفس وأثر تزيينها بالايمان ومكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة ، والصد بالصد : فالجزء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني الذي يزكي النفس او يدسها ويدنسها ، وهذا هو الحق الذي يثبتته من عرف حقيقة الانسان ، وحكمة الديان ، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الاديان

فاذا علمت ما كان من انكار مشركي العرب للبعث والجزء ، ومن فساد ايمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكمله للايمان بالله تعالى ، وان تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الانسان عن الباطل والشر والظلم والبغي ، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر - علمت أن ذلك ما كان ليفعل فعله العاجل في شعب كبير الا بتكراره في القرآن بالاساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان ، وتقريب البعيد من الاذهان ، تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الامثال ، وقد تكرر في آيات يذنبات ، علمها تبلغ المثات ، ومن اعجازه انها لا تمل ولا تسأم الايمان بالبعث والجزء وهو الركن الثاني في جميع الاديان ، من لوازم الركن الأول وهو الايمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العيب في أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله (أنفسبتم أنما خلقناكم عبثاً

وأنكم إلينا لا ترجعون) وقوله (أبحسب الانسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني عني * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والانثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فكفر الانسان بهذا الركن من أركان الايمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه ، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم ، وتفضيله على أهل عالمه (الارض) حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه ، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذي وعده بمصيره اليه ، وجهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل ، وجهله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم ، الدال على انه خلق الحياة لا حدها ولا نهاية ، - ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله ، احتقاره لنفسه باعتقاده انه خلق عبثاً لا لحكمة بالغة ، وأن وجوده في الارض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنقصر بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام ، وانه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من افراده بظلمه ، وكل عادل بعدله وفضله ، وأذ كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الافراد ، تعين أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعادل العام

ومما جاء في القرآن مخالفاً لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء ان الانسان في الحياة الآخرة يكون انساناً كما كان في الدنيا إلا أن أصحاب الأنفس الزكية والارواح العالية يكونون أكل أرواحاً وأجساداً مما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا ، وأصحاب الأنفس الخبيثة والارواح السافلة يكونون انقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا ، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الأقدمين أن الأديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد

ولو كان البعث للارواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك الذات الروحية والذات الجثمانية ويتحقق بحكم الله (جمع حكمه) وأمرار صنعه فيها معاً ، من حيث حرم الحيوان والنبات من الاولى والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم للذات الجسدية

وتسميتها بالحوانية مع شغف أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصاً في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها حتى يصرفه اشتغالها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان - وأصل هذا الإفراط والتفريط غلو الهنود في احتقار الجسد وتربية النفس بالرياضة وتمذيب الجسد وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصليب والفداء والتثليث على أنهم نقلوا ان المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم : اني من الآن لأشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبى . (متى ٢٦ : ٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك . وجاء الاسلام بالاعتدال فأعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملاً في إنسانيته . وقد بينا كل ما يتعلق بهذه المسألة من جميع أطرافها العلمية والدينية وكشف شبهاتها في تفسير سورة الانعام التي هي اجمع سور القرآن لمسائل الايمان بالله وتوحيده والبعث والرسالة ودحض شبهات المشركين عليها (ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ تفسير) ويؤخذ مما ورد من الآيات والاحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ان القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الاجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة ، والتخاطب بالكلام بين اهل الجنة وأهل النار - وان ترقى البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الانسان بعد أن كان الماديون المللحدون يعدون مثل قوله تعالى (٧ : ٤٤) ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم : ان لعنة الله على الظالمين) من تخيلات محمد صلوات الله وسلامه عليه - وهما نحن أولاً ، نخاطب من مصر اهل عواصم اوربة بالة التليفون ، ونسمع خطبهم ومعازفهم بالة الراديو ، وسنراهم ويروننا بالة التليفزيون مع التخاطب حينما يعم انتشارها وأما علماء الروح من الافرنج وغيرهم فقد قرروا ان الارواح البشرية قادرة على التشكل في أجساد تأخذها من مادة الكون كما يقول الصوفية . وهذه مسألة او مسائل قد شرحتها من قبل في هذا التفسير وإنما نذكرها هنا بالاجمال ردّاً على من زعموا ان القرآن مستمد من كتب اليهود والنصارى ومن عقل محمد ﷺ وإلهاماته الروحية

ويناسب هذا ما جاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي بدء ما يجب الايمان به من عقيدة البعث والجزاء ولم يوجد له اصل عند اهل الكتاب ولا غيرهم ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذكائه او نظرياته العقلية. وجلته ان قارعة والظاهر انها كوكب - تفرع الارض وتصحها صخا وترجها رجا فتكون هباء (غباراً رقيقاً) منبثا في الفضاء . وحينئذ يختل ما يسمى في عرف العلماء بالاجاذبية العامة فتتناثر الكواكب الخ وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال احد من علماء الكون ولا من علماء الدين فلا يمكن أن يقال ان محمداً ﷺ سمعه من احد في بلده او في سفره ، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره ، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تتدحض زعم القائلين بالوحي النفسي . وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه

(الركن الثالث للدين العمل الصالح)

وأما الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل وهو العمل الصالح فهو مكرر في القرآن في سور كثيرة لاصلاح ما أفسده البشر فيه بمجعله تقليديا غير مركز للنفس ولا مصلح لشؤون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الاصل الذي يتبعه غيره ، ولولا الحاجة الى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر كافية في الاصلاح العلمي العملي على قصرها ، كسورة الاخلاص في الركن الاول الاعتقادي ، وكل منهما تكتب في سطر واحد فهما من معجزات ايجاز القرآن وهدايته

ثم ان العمل الصالح من لوازم الايمان بالله في الدرجة الاولى لأن من عرف الله عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الايمان بالجزاء على الاعمال في الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء في الثواب ويدخل في الاعمال الصالحة العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى ، وسائر أعمال البر التي يرضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم واكرام اليتامى والمساكين . ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الاسراء

(١٧ : ٢٣) وقضى ربك - الى قوله ٣٩ ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة (الخ وهي اجمع واعظم من الوصايا العشر التي في التوراة . وآيات سورة الانعام (١٥١ : ٦) قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم) الخ - وغير ذلك مما ينفع الناس من الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصي الضارة بالابدان والاموال والاعراض والعقول والاديان ، واثارها الاكبر اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان . ويضادها مملكة التقوى فهي اسم جامع لما بقي النفس من كل ما يدنسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا والآخرة ، ولهذا تذكر في المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها ، وقد فصلنا هذا في (ص ٦٤٨ ج ٩ تفسير) ولا حاجة الى التطويل بالشواهد على ما في القرآن منها وسنة القرآن في الارشاد إلى الاعمال الصالحة بيان أصولها ومجامعها وتكرار التذكير بها بالاجمال ، وأكثر ما يبحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا والاجتماعية المثلى ، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى ، كور الامر بهما في آيات كثيرة وبين أهم منافعهما بقوله (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر) وقوله (ان الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات وقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها)

ولم يذكر ما يحفظ بالعمل والافتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج بل لم يذكر منها إلا ما لذكره فائدة خاصة . وذكرت فيه احكام الصيام في موضع واحد ، ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود ، ولا انصاب الزكاة في كل نوع مما تجب فيه . لان كل هذا يؤخذ من بيان الرسول ويحفظ بالعمل وليس في ذكره تزكية للنفس ولا تغذية للإيمان

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل

واذكر فضيلتين من فضائله يزعم النصارى أن ماهو ما ثور عندهم فيها أكمل وأفضل مما جاء به الاسلام (الاولى) قول المسيح عليه السلام : أحبوا اعداءكم باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى من أساء اليكم . ومن ضربك على خدك الايمن

فأدركه الايسر » ومن المعلوم بالبدهة أن امتثال هذه الاوامر يتعذر على غير الاذلة المستعبدين من الناس، وأنه قد يكون من أكبر المفاسد باغراء الاقوياء بالضعفاء الخاضعين ، وانك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين . أمثال هذه الاوامر لاتأتي في دين الفطرة العام لان امتثالها من غير المستطاع ، والله تعالى يقول (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة . قال تعالى (٤٢ : ٤٠) جزاء سيئة سيئة مثلها . فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين (٤١) ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤٢) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبنفون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٣) ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور) ولا يخفى ان العفو والمغفرة للمسيء انما تكون من القادر على الانتصار لنفسه ، وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه ، فيكون شبيها لاستبدال المودة بالعداوة ، في مكان الاغراء بالتعدي ودوام الظلم ، ولذلك قال (٤١ : ٢٤) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٢٥) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) فانظر كيف بين مراتب النكال ودرجاته من العدل والفضل ، وكيف استدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل ، أفليس هذا الاصلاح الاعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين ، دليلا على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين ؟ بلى وانا على ذلك من الشاهدين ، ولا يجحد إلا من سغه نفسه في مكان من الجاهلين

(الثانية) مباغة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والامر ببر كما وذم الغنى حتى جعل دخول الجمل في ثقب الابرة أيسر من دخول الغنى ملكوت السموات . ونقول ان هذه المسألة وسابقتها انما كانتا اصلا حامو قنًا لاسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم . والغلو يقاوم موقنًا بضده ، وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان . وأما الاسلام فهو دين البشر العام الدائم فلا يقرر فيه إلا ما هو لمصاحبة الناس . كلهم في دينهم ودنياهم . وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الاسراف .

والظنانيان ، وذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء - ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه ، وانفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس ويعزز الملة ويقوي الامة ، ويكون عوناً لها على حفظ حقيقتها واستقلالها - فهذه المسألة وما قبلها مما أكمل الله تعالى به الدين ، نأياً أوحاه من كتابه إلى محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وما كان لرجل أي ولا متعلم أن يصل بعقله إلى أمثل هذا الاصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر ، ولكن كتب الحكماء والفلاسفة أيضاً ، فمثل الاقرب إلى العقل أن يكون بوحى من الله عز وجل أم من نفس محمد (ص) وعلى ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلداتهم على الفضائل وعمل الخير الدينية يلحون فيها بالسنتهم ولا يعقلون فسادها ، وهي أن السكالم البشري أن يعمل الانسان الخير لذاته أو لانه خير لا لعله ، ويعبدون من أكبر العال أن يعمل رجاء في ثواب الآخرة أو خوفاً من عقابها ، ومعنى هذا أن كانوا يقيمون ان من يقصد بعمل الخير والبر ما أرشد اليه الاسلام من تزكية نفسه وترقية روحه بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي السكالم المطلق الاعلى — وأهلاً لجوارحه في دار كرامته يكون ناقصاً ، وأما يكون كاملاً اذا خرج عن طبعه ، وقصد النفع بعمله لغيره دون نفسه ، ودون ارضاء ربه ، ومن ذا الذي يحد حقيقة هذا الخير للبشر ويجهدهم عليه ؟

وجملة القول أن أر كان الدين الثلاثة ماثورة عن جميع الامم القديمة وذلك دلائل على أن اصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل ، وأنه كان قد دب اليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها ، فجاء محمد النبي الامي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصلح ما كان من فسادها الذي جعلها غير كفلة لاسعاده البشر الأخدين بها ، من شوب الايمان بالله بالشرك والتشبيه بالخلق ، وجعل الجزاء بالمحاباة والغداء ، لا بالحق والعدل ، وجعل العبادات تقاليد كاللعب والاهو ، غير مشمرة لتزكية النفس ، ولا راجحة في ميزان العقل ، وعبادات الاسلام وآدابه كلها معقولة مكاملة لفطرة الانسان وانما نقفي على هذا ببيان القرآن لما جهله البشر من أمر النبوة ووظائف الرسل . ثم نعود إلى بيان ما في وحي القرآن من قواعد الاصلاح العام الدائم للبشر الدال على كونه من عند الله لا من معارف محمد (ص) النابعة من نفسه

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

﴿ بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل ﴾

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفراداً من بقايا الخنفاء في الحجاز وغيره ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها وقليل ما هم ، وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى ببعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب اسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما اعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الانبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في القسم الاول من هذا البحث ، ووافقتهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الانبياء من رسل المسيح وغيرهم وعبودهم أيضاً ، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكاره إياه في وقت الشدة ، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه ، وأنه قال لهم « كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أرباباً من دون الله تعالى بأن يحلّوهم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحریم (١) وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله ، وعموم رحمته وفضله ، ومفسدات نوع الانسان ، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ، وأثبت بعثة الرسل والمندرين لجميع شعوبه بقوله (١٦ : ٣٦) ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقوله (٣٥ : ٢٤) إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وان من أمة إلا خلا فيها نذير) وكرم الانسان بجمل التشريع الديني

من حقوق الله وحده ، وانما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الاقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته فقد أبطل ما يحلهم الناس من ربوبية التشريع ، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين ، وبذلك تحرر الانسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الامم المتدنية ولا سيما النصارى

واضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الاصلاح في كثير من السور بالتصريح بان الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى اليهم ، وبانهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى اليهم ، قال تعالى خاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف (١٨ : ١١٠) قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما اهلکم إله واحد) الآية وقال في جماعتهم من وسطها (٥٦) وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) ومثلها في سورة الانعام (٦ : ٤٨) وفي معناها آيات أخرى - بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل والتنفيذ ، وبانهم لا يملكون للناس ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا هداية ولا نجاة من العقاب على مخالفة شرع الله وسننه في خلقه في الدنيا ولا في الآخرة . وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى (١٨٧ : ٧) قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن انما الانذير وبشير لقوم يؤمنون) وسياقي نظيرها في الآية ٤٩ من هذه السورة التي نفسرها ، وقد بين ذلك النبي ﷺ باقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لا يدع لنا ذيل الآيات سبيلا . حتى فطن لذلك بعض علماء الافرنج الاحرار فقال ان محمداً لما رأى خزي النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بان يقولوا « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

وأما مسألة الشفاعة التي كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعا وانه لا يشفع عنده أحد إلا باذنه (٢٨ : ٢١) يعلم

ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٩) ومن يقل منهم أي إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين) وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيره مرارا (ومنه ان الشفاعة الثابتة في الاحاديث غير الشفاعة الوثنية المنفية في القرآن) . وقد كرر هذه المسألة دون تكرار ما قبلها لانها فرع لها فالاقناع بها اهل

فأنت ترى ان القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله ما لا ينصرهم ولا ينجيهم، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء اهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على اقوامهم ؟ أم هو تابع من نفسه وهو يقتضي ان ما ينبع منها اعلی من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا إنما هي من وحي الله تعالى له

الايمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما بينه القرآن في مسألة الانبياء والرسل أنه يجب الايمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الايمان، وان الايمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم، لان اضافتهم الى الله تعالى وحده ووظيفتهم في ارشاد المكلفين تبليغ رسالته وشرعه واحدة . قال تعالى في خواتيم سورة البقرة (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين احد من رسله) وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الايمان هو الكفر حق الكفر ، وأن الايمان بالجميع بغير تفرقة هو الايمان حق الايمان وهو في الآيات (٤ : ١٥٠ - ١٥٢) وهذا مبني على الايمان بان دين الله تعالى الذي ارسل به جميع رسله واحد في مقاصده من هداية البشر واصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والاخرة، وانما تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الاقوام ومقتضيات الزمان والمكان . فالايمان ببعضهم دون بعض اتباع للهوى في الايمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به لانه عين الكفر

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون اهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بالانبياء بني اسرائيل وابيهم وجدهم على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونها بها

واما المسلمون فيؤمنون بان رب العالمين ارسل في كل الامم رسلا هادين مهديين يؤمنون بهم اجمالا وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلا، فقد كرم الاسلام بهذا نوع الانسان، ومهد به السبيل للالفة والاخوة الانسانية العامة التي نبينها بعد ومن المعلوم ببداهة العقل وبنص القرآن ان بعض الانبياء افضل من بعض بتخصيص الله تعالى وبما كان لكل من نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جدا . قال الله تعالى (٢: ٢٥٢) تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه برح القدس ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية ان محمدا خاتم النبيين الذي اكمل الله به الدين، وارسله رحمة للعالمين، هو الذي رفعه الله عليهم كلهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالاجمال وفصلناه في هذا البحث أقصد التفصيل

وانك لتجد مع هذا انه ﷺ قال لا اتباعه « لا تفضلوا بين انبياء الله » قاله انكارا على رجل من المسلمين لطم يهوديا لانه قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فشكاه الى النبي ﷺ فغضب غضبا شديدا على صاحبه المسلم وقاله - وبين مزية لموسى عليها الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال « ولا اقول ان احدا افضل من يونس ابن متى » والحديث رواه الشيخان في الصحيحين . وفي روايات أخرى للبخاري « لا تخيروا بين الانبياء » وفي بعضها « لا تخيروني على موسى » والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تمييز احد من الانبياء عليهم السلام ومن التعادي بين الناس ومن الغلو فيه ﷺ والا فهو قد قال في تعليل نهيه عن سؤال اهل الكتاب عن شيء « والله لو كان موسى حيا بين اظهركم ما حل له الا أن يتبعني » رواه ابو يعلى من حديث جابر .

فصل في الايات الكونية التي ايد الله بها رسله

(وما يشبه بعضها من الكرامات، وما يشبه بها من خوارق العادات،

وضلال الماديين والخرافيين فيها)

تكلمنا في القسم الأول من هذا البحث في آيات الانبياء التي تسميها
النصارى بالعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات ، ويعدهونها قسما من
خوارق العادات التي جعلوها عدة أقسام ، وتقول هنا كلمة وجيزة في إصلاح
الاسلام لضلال البشر فيها ، والصعود بهم أعلى مراتق الايمان ، اللائق بطور الرشد
العقلي لنوع الانسان ، والعلم الواسع بسنن الاكوان ، الذي منحوه برسالة محمد
خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، فنقول :

آيات الله نوعان

آيات الله تعالى في خلقه نوعان : (النوع الأول) الآيات الجارية على سننه
تعالى في نظام الخلق والتسكين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته
وارادته ، وإحاطة علمه وحكمته ، وسعة فضله ورحمته ، (والنوع الثاني) الآيات
الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهي أقلها وربما كانت أدلها عند أكثر
الناس على اختياره عز وجل في جميع ما خلق وما يخلق ، وكون قدرته ومشيئته غير
مقيدين بسنن الخلق التي قام بها نظام الكون ، فالسنن مقتضى حكمته واتقانه لكل
شيء خلقه ، وقد يأتي بما يخالفها الحكمة أخرى من حكمه البالغة ، ولولا هذا الاختيار لكان
العالم كالات التي تتحرك بنظام دقيق لاعلم لها ولا إرادة ولا اختيار فيه ، كآلة
الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار ، وآلات البواخر والمعامل
الكبيرة ، والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة
لوجود يعبرون عن هذا النظام بنظرية (الميكانيكية) وهم يتكلفون اختراع العلل

والاسباب لكل ما يرويه مخالفاً لسننه المعروفة ، ويسمون هذه الامور المخالفة لها بفلمات الطبيعية ، ويقسمون ما لم يظهر لهم تعليله على ما اقتضوا بتعليل له وان لم يقيم عليه دليل يثبت به ، ويقولون ان ما لم يظهر لنا اليوم فلا بد أن يظهر لنا أو لمن بعدنا غداً
سبح الله في عالم الشهادة وعالم الغيب

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الاكبر ، وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي باذن الله تعالى وتسخيره ، نعمتقد أن الله تعالى سننا في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة ، وان الانسان هو حلقة الاتصال بين العالمين فجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة وروحه من عالم الغيب ، وأنه مادام في عالم الجسد المادي فان جميع مداركه تكون مشغولة من المادة وسننها وحاجاته الشخصية والنوعية منها بما يحجبه عن عالم الروح الغيبي حتى روحه المتمم لحقيقته ، وانما يكون الظهور والسلطان للروح على الجسد في الحياة الآخرة ، الا من اصطفى الله تعالى من رسله وأنبيائه فاعدهم بفضله ورحمته للاتصال بملائكته والتلقي عنهم ، وأظهرهم على ما شاء من غيبه ليباغوا عبادته عنه مأمراً به الغيب قسمان حقيقي وإضافي

الغيب ما غاب عنه الناس وهو قسمان : غيب حقيقي لا يعلمه الا الله ، وغيب إضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لاسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي ، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لانه من خصائص النبوة غير المكتسبة (١)
ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أو توابصياً من الاشراف على ذلك العالم بانكشاف ما لا حجاب ، وإدراك ما لشيء من تلك الانوار ، كان بها إيمانهم برسولهم فوق إيمان أهل البرهان ، وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه قال : لو كشف الحجاب ما زددت يقينا

(١) يراجع تحقيق هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحة ٤٢١ و ٤٥٦ و ٤٦٩ من جزء التفسير السابع وملخصه في ص ٥١٣ من الجزء التاسع

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة ، أو معالجة النفس بأنواع من الرياضة ، أو من طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد ، أو من سلطان ارادة قوية على ارادة ضعيفة ، تصرفها عن حسها ، وتوجه قواها النفسية الى ماشاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها — قد يكون هؤلاء الافراد في بعض الاحوال من قوة الروح ما يلحقون به بعض الاشياء أو الاشخاص البعيدة عنهم ، وتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم ، فيخبرون بها فتقع كما أخبروا

الخوارق الحقيقية والصورية عند الأمم

إن الامور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة ، أو الخارقة للعادات المألوفة ، منقولة عن جميع الأمم في جميع العصور نقلاً متواتراً في جنبه دون افراد وقائعه ، وليست كلها خوارق حقيقية ، فإن منها ماله أسباب مجهولة للمجهور ، وإن منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص ، وإن منها لما هو من خصائص قوى النفس وتأثير أقباء الارادة في ضعفائها ، ويدخل في هذين المكشوفة في بعض الامور والتنويم المغناطيسي ، وشفاء بعض المرضى ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ومنها بعض أنواع العمى والفالج ، فإن من الناس من يفقد بصره بمرض يطرأ على أعصاب عينية وهما صحيحتان تلعان في وجهه ، أو يغشاهما بياض عارض مع بقاء طبقاتها صحيحة ، وليس منه الكمى والعمى الذي يقع بطمس العينين وغورهما كالذي أبرأه المسيح عليه السلام باذن الله تعالى . وقد بينا هذه الانواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الاعراف (١) وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليلها في المجلد الثاني من المنار وأتممناها في المجلد السادس منه

إن عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الأمم وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل يفترون بما عندهم منها ، ويخضعون

للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أمواهم فيسلمونها، ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهم كونها ، ولا سيما إذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه من كرامات الاولياء وعجائب القديسين ، ويقل تصديق هذا والالتقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التوارخ وما عند جميع الامم من ذلك، على أنه لا يزال كثيراً في جميع بلاد أوربة وأمريكا ولعله دون ما في بلاد الشرق ولا سيما القرى وهج الزنوج وغيرهم بيد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الاعمال الصناعية الغريبة لا كسب لأحد من البشر ولا صنع لهم فيها ، وإن ما أيد به رسله منها لم يكن بكسبهم ولا عملهم ولا تأثيرهم ، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها . ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى ، فولى مدبراً ولم يعقب لشدة خوفه منها ، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه ؟ ألم تقرأ قوله لحمد ﷺ (وما رميت أذمرت ولكن الله رمى ؟) ألم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجب مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا) وقوله (قل إنما الآيات عند الله) وما في معناها .

جهل هذا الاصل المحكم من عقائد الاسلام أدعياء العلم من سدنة القبور المعبودة وغيرهم فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية، وإن الانبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاؤوا ، ويفرون الناس باتيان قبورهم ولو بشد الرجال اليها لدعائهم والاستغاثة بهم عند نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم وكسب أمثالهم من البشر بالاسباب العادية كالأطباء مثلاً ، وبالتقرب اليهم بالندور والقرايين كما كان المشركون يتقربون الى آلهتهم من الاصنام وغيرها ، وهم يأكلونها سحتاً حراماً ، ويخبرونهم بأن دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم ، حتى قال بعضهم انهم يخرجون من قبورهم بجسادهم ويقولون قضاء الحاجات ، وكشف الكربات، ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات . وقال بعضهم في كتاب مطبوع ان فلانا من الاقطاب يميت ويحيي ، ويسعد ويشقي ، ويعقر ويغني

الفرق بين المعجزة والكرامة

ان الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات الا لتكون حجة لهم على اقوامهم يهدي بها المستعد للهداية ، وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة ، وذلك لا يكون الا باظهارها فهو واجب لان تمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا لتبليغها ، وما كان الانبياء يدعون الله تعالى بشي من خوارق العادات غير حجة الرسالة الا لضرورة كالاستسقاء وكان خاتمهم وأكردهم على الله تعالى يصير هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والمطش ولا يدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك الا نادراً ، وقد سأله المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها . فشكت اليه أنها تتكشف عند النبوة وأن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها واستجاب الله دعاءه .

والأصل في الكرامة الاخفاء والكمائن ، وكثيراً ما يكون ظهورها فتنة للناس ، وما كان أهلها يظهرون ما لهم كسب فيه منها كالمكاشفة إلا لضرورة ، وقد صرح بهذا العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافاً للمشهور بين العامة

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية (الحجة الثانية) قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة ، فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة . والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهي انما تقترن بكمال اتباع النبي من الولي - وأيضاً فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار ، والكرامة مبيتها على الاخفاء ، ولا تظهر إلا على الذرة والخصوص ، لإعلى الكثرة والعموم ، وأيضاً فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيري وهو الصحيح اهـ ثم قال

(الحجة الرابعة) قالوا لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الانبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولي سرّاً فان من أصول معظم جماعتكم أن الاولياء لا يظهرون الكرامات ولا يدعون بها ، وإنما تظهر سرّاً وراء ستور ، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ،

ويكون ظهورها سرّاً مستمراً بحيث لا يتحقق بحكم المعتاد ، فإذا ظهر نبي وتحدث بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة ، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه ؟ وأيضا تكرّر الكرامة يلحقها بالمعتاد في حق الأولياء وذلك يصدم عن تصحيح النظر في المعجزة إذا ظهر نبي في زمنهم »

وقال في الجواب : لا أمتنا وجهان الاول منع توالي الكرامات واستمرارها حتى نصير في حكم العوائد وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ما ذكره . والثاني — وهو لمعظم أمتنا — قالوا إنه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات اهـ من مجلد النار الثاني

وأقول إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والاصول على منع توالي الكرامات وتكرارها ، ومنع اظهارها ، وقال الشيخ محي الدين بن عربي ان ما يتكرر لا يكون كرامة لانه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات ، وقال الشيخ أحمد الرفاعي ان الاولياء يسترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض ، فأين هذه الاقوال مما عليه الدجالون الخرافيون وسدنة القبور المعتمدة من زعمهم أن الكرامة الواحدة تتكرر لاولياء كثيرين من الاحياء والاموات مرارا كثيرة وكأها ظاهرة ذائعة شائعة ، بل صناعة ذات بضاعة رابحة ؟

الكافرون بالآيات صنفان : مكذبون ومشركون وعلاج كل منهما

الكافرون بآيات الله تعالى صنفان : صنف يكذبها كلها ولا يؤمنون بشيء منها ، وصنف يشرك بالله غيره فيها ، فينحلله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه ، ويشرع للناس ان يعبدوا هؤلاء الاغيار بدعائهم من دونه واستغاثتهم فيما لا يقدر عليه غيره ، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك لحبته لهم وجاههم عنده ، ومعناه انه سبحانه هو الذي أشركهم معه فأعطاهم هذا التصرف في عبادته ، وإنما يتحامون ألفاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها ، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل ، ونبيه المرسل ، ولكنهم يحرفون

آيات الكتاب فيحتجون بها على جهلهم ، فيذكرون ان الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب ، وما كان رزقها من فعلها ، ولا يدري أحد كيف سخره الله لها ، وروي انه كان يتسخير بعض الناس لها ، ووحيه إلى أم موسى وما هو من فعلها . وقد قيل بذوتها

وان افساد هؤلاء الخرافيين للبشر في دينهم وديارهم لاشد من افساد المنكرين لآيات المكذبين بها ، بأنهم أكبر أسباب هذا الانكار والتكذيب بزعمهم أن الانبياء ومن دونهم من الصالحين يتصرفون في الخلق بما يخالف سنن الله تعالى فيه أو يبدلها بغيرها ويحوّلها عما وضعت له ، وزعمهم أن الله هو الذي دعا الناس إلى هذا الاعتقاد وجعله أساس دينه ، فكذبوا بالدين من أساسه ، فتكون فتنهم شاملة لفريق الكفار بالآيات - فريق المكذبين وفريق المشركين ، وهو مع هذا قول على الله بغير علم ، واقتراء على الله بكونه شرعاً لم يأذن به الله ، وهو أشد أنواع الكفر بالله ، لأن ضرره متعدد بما فيه من اضرار الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة (١)

علاج خرافة تصرف الاولياء في الكون

أما الذين يشركون بالله في عبادته بحبلهم لآياته وتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم ، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآيات القرآن ، دون نظريات كتب الكلام ، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشراً اختصهم الله تعالى بوحيه لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل ، وحصر اختصاصهم بالتعليم والارشاد تبشيراً والاداراً ، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة ، ولم يؤتهم من التصرف الفعلي في خلقه ما يقدرون به على هداية أقرب الناس وأحبهم اليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولي القربى ، فوالد ابراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافراً عدواً لله ورسوله وخليله ، وولد نوح أول الرسل إلى الاعم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى له بحمله في السفينة فكان من الكافرين المغرقين ، وكان ابولهب عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادقين عنه المؤذين له ، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد بها

(١) راجع تحقيق هذا المعنى في ص ٣٩٧-٤٠١ ج ٩ من التفسير

المؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلها في أحد من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة « لا إله إلا الله » ليشهده بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) رواه مسلم في صحيحه ، وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى (٦ : ٧٤) وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر (الآيات (١)) ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الانعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يحسن أن يراجعه من يحب استيفاء هذا الموضوع (٢) وإذا كان الانبياء المرسلون لم يؤثروا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤثروا الاولياء وغيرهم

المنكرون للمعجزات وشبهة الخوارق الكسبية عليها

وأما المنكرون لها فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم ، فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرها من النبيين (ع . م) ولا يسمعون صحة تواترها ، إذ يقيسون نقلهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخيل ، ويحتجون على ذلك بأن يوسفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح (ع . م) لم ينقل للناس أخبار عجائبه التي تقصها الاناجيل التي ألفت بعده ، ويعلمونها على تقدير صحة النقل بما يعلمون به الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر ، فإن لم يستطيعوا تعليلها قالوا انه لا بد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوها كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الايام (٣) من أخبار سانجي الافرنج في الهند حادثة لفقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هاردياس وقعت في سنة ١٨٤٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهراجا رانجيت سنج أمير بنجاب وعرض

عليه أن يريه بعض كراماته، وكان المهر اجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء الفقراء فسأله عما يريد اظهاره فقال انه يدفن أربعين يوما ثم يعود اليهم حياً ، فاحضر المهر اجا نفراً من أطباء الانكليز والفرنسيين وأمرأء بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفّفنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه - كما أوصاهم - وخطوا عليه الكفن ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهر اجا عليه ختمه ، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقفلوا بابها ووضع المهر اجا ختمه بالشمع على قفلها ، وأمر اثنين من رجال حرسه الامناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتتهما، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الاوربيين والبنجابيين وحاشية المهر اجا .

ولما تمت الاربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهر اجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان ، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد ، ثم فتحوا باب الحجرة وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فاذا هو كما وصفه أحد أولئك من الانجليز . قال : لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلاً على إحدى الكتفين فحسنتي أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ امد بعيد ، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فأنحى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال انه لم يجد أثراً للنبض البتة ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ

ثم نفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد اخراجه فغسل الجسم بالماء الحار فرد على الاوصال لينها السابق بالتدريج، وأزيل القطن والشمع عن الاذنين والانف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة في الجسد المسجى، وتقلصت الاعصاب والاطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الاعضاء إلى حالتها الاولى، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العينين وعاد اليهما لونهما الطبيعي، فلما رأى الفقير المهر اجا شاخصاً اليه دهشاً متحيراً قال له « رأيت يامولاي صدق قولتي وفعلتي ؟ وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يتحدث الحاضرين أحسن حديث وبطرفهم بما يحير العقول . اه

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة ، وهي أعجب من رواية الانجيل لموت ليعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه (ع.م) وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضا من بعض الوجوه فإن الفقير الهندي قد سد أنفه ولف في كفن ووضع في تابوت دفن تحت الارض فحبل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة ، وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف باب به إلى الشمال مهب الهواء اللطيف وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم ، فتلطف هواء من حيث لا تصيبهم ، وإنما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثتهم فيه ، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين ان قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) الآية - حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم فإن كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها (قل الله أعلم بما لبثوا) والله أعلم بكل حال على كل حال ، وإن خفي سر آياته على خلقه ولا شيء من الامرين بمحال. وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر .

ولكن ماجرى للفقير الهندي مخالف لسنة الحياة العامة في الناس فإذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لآبدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كاملة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك ، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء انكار كل ما يخالف السنن العامة قاعدة عامة ، ولا سيما فعل الخالق عز وجل لما هو خالق كل شيء بقدرته ، ووضع نظام السنن والاسباب بمشيئته ، وأكثر منكري الخوارق يؤمنون به ، وإنما يشكرون وقوع شيء مخالف لسنة بانه مناف لحكمته ، ومن ذا الذي أحاط بحكمه أو بسننه علما ؟ وإنما الذي يقضي به العقل أن لا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الاسباب العامة إلا إذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ؛ وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم ، وقد ثبت في هذا العصر من خواص

يونس : ص ١٠ الخوارق كدبية وحقيقية ، والمعجزات : تكمونية وروحانية ٢٢٢

الكهرباء وغيرهما لو قيل لعقلاء الناس وحكماهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات ،
لحكموا على مدعي امكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات ، كما قلنا من قبل
الفرق بين الخوارق الكسبية والحقيقية

وجملة القول ان أسرار هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقه عز وجل - وإنه قد
وجد في كل عصر وقائع غريبة تعد من هذه الأسرار الجارية على غير نظام السنن
الالهية في الخلق ، بحسب ما يترأى للجمهور بادي الرأي ، وان ما يقتضيه الجمهور
المولع بالغرائب منها ما هو كذب محض ، ومنه ماله أسباب علمية أو صناعية
خفية يحجبها الاكثرون ، ومنه ما يظن انه من خوارق العادات وليس منها ، ومنه
ما سببه الوهم ككشفاء بعض الامراض ، أو الخداع البصر بالتخييل الذي يحدقه
المشعوذون ، ومنه ما فعله سحرة فرعون الذين بقوله تعالى (فاذا حبالهم وعصيهم
يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) ومنه الخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون
استخدام الجن إذ يتكلمون ايلابا بصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم
ان ذلك صوت الجنى ، وقد يتكلمون نهارا من بطونهم من غير أن يجر كواشفهم ،
فلا يوثق بشيء من أخبارهم ولا من نقلهم - ومن الدلائل على كذب المتحيلين
لهذه الغرائب انهم جعلوها وسيلة لمعيشهم الدنيئة ، وانهم لو كانوا صادقين فيها
لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في صحبتهم والاعتداء بهم
المعجزات قسمان : تكمونية وروحانية تشبه الكسبية

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الانبياء كما نطق به القرآن وليكنها
بحسب مظهرها قسمان : قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الاحكام
الاستثنائية في قوانين الحكومات أو ما يكون بارادة سنية من الملوك لمصلحة خاصة
- والله المثل الاعلى - وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية .
أما المأثور من آيات الله التي أيد بها موسى (ع.م) وأثبتها القرآن له كآيات
التسعة بمصر فهي من القسم الاول ، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري ،
وكذلك الآيات الاخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني اسرائيل ومدة التيه

يمل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى (ع. م) إلا ما يأمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آيته الكبرى . ولم يرد لاحد من الانبياء آية كهذه الآيات فضلاً عن دونهم ، ولا هي مما يحتمل أن يكون بسبب من الاسباب التي تكون لاحد من الناس بالرياضة الروحية أو خواص المادة وقواها . وأما المسيح (ع. م) فالآيات التي أيده الله تعالى بها - على كونها خارقة للعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس - قد يظهر فيها أنها كلها أو جلها حدث على سنة الله في عالم الارواح كما كان خلقه كذلك ، فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها - وهو الملك جبريل عليه السلام - كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدره الله عز وجل . فلا غرو أن كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الروحانيين من الانبياء والاولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم . والفرق بينه وبين الروحانيين من صوفية الهندو والمسلمين أن روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل ، وإنها لم تكن بعمل كسبي منه بل من اصل خالق الله عز وجل له بآية منه كما قال (٩١: ٢١) والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين * ٢٣ : ٥٠ وجعلنا ابن مريم وأمه آية) لآيتها هي الحمل به وخلقته بنفخ الروح الالهي ، لا بسبب التلقيح البشري ولا بما قيل من أحمال وجود مادني المذكورة والانوثة في رحمها وأعظم آياته الروحانية التي أثبتتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الاناجيل الاربعة (وروي أنها منصوصة في انجيل الطفولية الذي نبذته المجامع الكنسية قبل البعثة المحمدية ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها هيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيراً باذن الله تعالى ومشيتته . والمروى أنه كان يطير قليلاً ويقع ميتاً . ودون هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة فان توجيهه سيال روحه القوي إلى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سبباً روحانياً لاعادة روحه اليه باذن الله ومشيتته ، كما يمس النور ذبال السراج المنطفيء فاشتعل أو كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الايجابية بالسلك الحامل للكهربائية السلبية بعد انقطاعها فيتألق النور منها . وقد ثبتت عن بعض اطباء هذا العصر إعادة الحياة

الحيوانية الى فاقدها عقب فقدها بعملية جراحية أو معالجة للقلب
ومن دون هذا وذلك شفاء بعض الامراض ولا سيما العصبية سواء
كان سببها مس الشيطان وتلبسه بالجنون كما في الاناجيل أم غيره ، فان الشيطان
روح خبيث لا يستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح
القدس جبريل عليه السلام وانصاه بمن تلبس به، وقد وقع مثل هذا الشيخ الاسلام
ابن تيمية وغيره من الروحانيين وما من مرض عصبي أو غيره إلا وهو ضعف في
الحياة حقيق بأن يزول بانصال هذا الروح بالمصاب به لأنه أعظم أسباب الحياة والقوة
ومن دون هذا وذلك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله (وأنبئكم
بما أنا كون وما تدخرون في بيوتكم) وقد أنبأ غيره من أنبياء بني اسرائيل
وغيرهم بما هو أعظم من هذا من الامور المستقبلية ، وكذا غيرهم من الروحانيين
ولا سيما صالحى أمة محمد ﷺ ولكنهم ادرجات متفاوتة في القوة والضعف ، وطول
المدة وقصرها ، والثقة بالرئي وعدوها ، وإدراك الحاضر الموجود ، والغائب المفقود ، وما
كان في الازمنة الماضية ، وما يأتي في الازمنة المستقبلية ، فأعلاها خاص بالانبياء إذ لم
يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع منذ القرون الاولى كأخبار القرآن
عن الرسل الاواين مع أقوامهم ، أو ما يقع بعد سنين في المستقبل كأخباره عن عود الكرة
للروم على الفرس ، وأخباره ﷺ بفتح الامصار واتباع الامم لامته ، ثم بتدعيمهم عليها
ومن المكاشفات الثابتة في هذا العصر ما يسمونه قراءة الافكار وقد شاهدنا من
فعله ، ومنها مراسلة الافكار

فتبين بهذا وذلك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى (ع م) بمحض قدرته
تعالى دون سنة من سنته الظاهرة في قواه الروحية ، وأن آياته لعيسى (ع م) بخلاف
ذلك . والنوع الاول أدل على قدرة الله تعالى ومشيتته واختياره في أفعاله في نظر
البشر لبعدها عن نظام الاسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم
عبادة بعض الناس للمسيح وللأولياء دون موسى

واتما عبد بعض البشر عبي وآخذوه إلهاء ولم يعبدوا موسى كذلك وآياته أعظم
لأنهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشارك فيها غيره فظنوا

أنه يفعلها بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لخلوله فيه واتحاده به بزعمهم ، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده ، ولم يفتنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه (التوراة) إلا قليلا مما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ما حرم عليهم بظاههم عقوبة لهم ، ومن تحريم ما كانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات

ومثل النصارى في هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لا اعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضر ويحلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الاسباب والمسببات الداخلة عندهم في باب الكرامات ، وهو خاص بالرب تعالى ، ولكنهم لا يطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الاله ولا الخالق ، إذ الاسماء اصطلاحية ، وانما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب أن الرب الخالق هو القادر على النفع والضر لمن شاء وصر فها عن شاء بما يسخره من الاسباب ويدونها ان شاء — وان المخلوق المربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضر بسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه ، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والاعضاء وفي وسائلها ، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار ما لم يعهد مثله لأحد من خلق الله قبلهم لا الانبياء ولا غيرهم ، لان الانبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وإنما بعثوا لهداية الناس الى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها . فمنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتا ، وانما تطلب من أسبابها . وما وراء الاسباب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل . وقد قتل الظالمون بعض الانبياء والاولياء ، وآذوا بعضهم بضر وبمن الايذاء ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم . ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضر عن كل ماعبد ومن عبد من دون الله بالذات أو بالشفاعة عند الله تعالى كما قال (١٠ : ١٨) ويعبدون من دون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) الآية ومثلها آيات ، وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال (٧ : ١٨٨) قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقال

(قل اني لا املك لكم ضرراً ولا رشداً) الآيات . وقد فصلنا هذه المسألة مراراً ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية :

(١) ان الله تعالى قد أنقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت فيه ولا اختلال ، وسنن مطردة ربط فيها الاسباب بالمسببات . فخلقاته العليا والسفلى ، هي مظهر أسمائه وصفاته العلى . ولهذا قال حجة الاسلام الغزالي : ليس في الامكان أبدع مما كان . وهذا النظام المطرد في الاكوان ، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن - هو البرهان الاعظم على وحدانية خالق السموات والارض (لو كان فيها آلهة الا الله لفسدنا)

(٢) ان سنن الله تعالى في ابداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علماً غيره عز وجل . وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكيراً واختباراً وتدبراً وتجربة وتصرفاً ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ، ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيّلون ولا يتوهمون ، وها نحن أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحربية تحلق في الجواء ، حتى تكاد تتجاوز محيط الهواء ، ومراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار ، وترام يتخاطبون من مختلف الاقطار ، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار ، فيسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب ، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيتهم ، قبل أن يسمعها بعض أهل البلد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام (*) وقد يفتخر أحدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بغمزته آلات عظيمة في قارة أخرى في طرفه عين ، وبينهما المهامه الفيج ، والجبال الشاهقة ، ومن دونهما البحار الواسعة ، والجاهلون بهذه السنن الالهية ، والعلوم العملية ، لا يزالون يلجئون في طلب المنافع ودفع المضار من غير طريق الاسباب - التي ضيق الجهل عليهم سبلها - إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والمحجوبين ، ليقضوا لهم حاجتهم ، ويشفوا

(*) روي لنا ان آلة الراديو الناقلة للاصوات من أوربة يصل الكلام الذي تحمله إلى مصر وغيرها فتعكسه الآلات التي فيها ويسمعه أهلها قبل أن يسمعه من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقى فيه

٢٣٨ خضوع كل حادث لنظام العالم وانقطاع المعجزات بختم النبوة التفسير: ج ٩١

مرضاهم ، ويعينونهم على أعدائهم من زوج وقريب وجار ووطني ، وأعدائهم من الأجانب قد سادوا محكومتهم ، واستذلوا أمتهم ، واستأثروا بجل ثروتهم ، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الأولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم ويحكمهم

(٣) ان الاصل في كل ما يحدث في العالم ان يكون جاريا على نظام الاسباب والمسببات ، وسنن الله التي دل عليها العلم ، وأخبرنا الوحي بأنه لا تغيير فيها ولا تبديل لها ولا تحويل ، فكل خبر عن حادث يقع مخالفا لهذا النظام والسنن فالاصل فيه ان يكون كذبا اختلقه الخبر الذي ادعى شهوده أو خدع به ولبس عليه فيه ، فان كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الاسباب الخفية التي يجملها الخبر ، كما حققه علماء الاصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه

(٤) ان آيات الله التي تجري على غير سننه الحكيمية في خلقه لا يمكن العلم بها إلا بدليل قطعي وقد كان من حكمته ان أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لإقامة حجتهم ونحويف المعاندين لهم ، وقد انقطعت هذه الآيات بختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسائته ، وجعل ما أوحاه اليه آية دائمة وهداية عامة لجميع البشر مدة بقائهم في هذه الدنيا وأنزل عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لعلمه تعالى بأنهم لا يحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر ، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه ، وقد تقدم بيان دلالاته العقلية العلمية على كونه من عند الله تعالى

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

(٥) لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ إلى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعو الاديات والنحل الجديدة لما كان ختم النبوة معنى ولذلك ينكر البهائية والقاديانية ختم النبوة وانقطاع الوحي ، ويدعونهم بالبواب والبهاء ، ولغلام احمد القادياني وخلفائه بلا انقطاع ، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع

وقد بين شيخنا الاستاذ الامام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الامم بارتقاء نوع الانسان في الادراك والعقل كارتقاء الافراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة بلغ فيها رشده واستوى ، ووصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية

العليا (هداية القرآن) بعد ان كان لاسبيل إلى إذعانه لتعليم الوحي، إلا ما يدهش حسه ويعمي عقله من آيات الكون

بين في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة ان سمو عقل الانسان وسلطانته على قوى الكون الاعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها، إلا ما عجز عن إدراك سببه ومنشأه فاعتقد انه من قبيل السلطان الغيبي الأعلى لمدير الكون ومسخر الاسباب فيه ، فكان من رحمة الله تعالى به « انه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراد مرشدين ، هادين ، ومميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشر بهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة في الاقتناع بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذي الطامح ، وينذل الجاهل ، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه »

ثم قال في رسالة محمد ﷺ : نبي صدق الانبياء ولكنه لم يأت في الاقتناع برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحجر الخواص ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحام اليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام ، وسلطان البلاغة ، وصحة الدليل ، مبلغ الحجة وآية الحق الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

لا يمكن اثبات معجزات الانبياء إلا بالقرآن

(٦) انه لا يمكن إثبات معجزات الانبياء في هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم ، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها ، بناء على إنكار العلماء الواقفين على كتب الاديان التي قبل الاسلام - حتى كتب اليهود والنصارى - وعلى توارثها التواتر ما ذكر فيها من الآيات والاشباه في كونها خوارق حقيقية ، وحجتها ان التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها ، وهو نقل الجمع الكثير الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدر كونه بالحس وحمله عنهم مثلهم قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل بدون انقطاع ، وإنما يكون استحالة تواطؤهم على

الكذب بأمر أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم بعض فيه . وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به وإذعان النفس له ، وعدم إمكان رده اعتقاداً ووجداناً ، وهذا غير حاصل في آيات الانبياء الاولين عندهم .

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه إلى يوم القيامة ، وكل واقف على تاريخ الاسلام يعلم قطعياً أنه متواتر تواتراً متصلاً في كل عصر ، من عصر الرسول الذي جاء به إلى الآن ، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه وقد شرحتنا شبهتهم عليه وبيننا بطلانها في هذا البحث ، وإذ قد ثبت بذلك كونه وحياً من الله تعالى فقد وجب الايمان بكل ما أثبتته من آياته في خلقه سواء أكانت لتأييد رسله وإقامة حجته أم لا ، وكلما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها ، يجب أن يؤمن بإتقان معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ .

واذ كان لا يجب على مسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلماً في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق في جميع الامم أكثره كذب وبعضه صناعة علم ، أو شعوذة سحر ، وأقله من خواص الارواح البشرية العالية (٧) إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الانبياء المرسلين المعينة قليل جداً .

فما كانت دلالاته قطعية من هذه النصوص فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية ، وينقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية ارتداداً عن الاسلام ، وما كانت دلالاته ظاهرة غير قطعية وجب حمله على ظاهره إن لم يعارضه نص مثله أو أقوى منه ، فان عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالدلالة المعروفة ، والخروج عن ذلك ابتداع

﴿ خلاصة الخلاصة لهذا الفصل ﴾

اننا نؤمن بان الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته و ارادته ، واختياره وحكمته ، وانه « أحسن كل شيء خلقه » كما قال في سورة الم السجدة ، فهو «صنع الله الذي أتقن كل شيء» كما قال في سورة النمل ، وانه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور ، كما قال في سورة الملك، وانه خلقه بنظام وتقدير لاجزأ ولا انفا^(١) كما قال في سورة القمر (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقال في سورة الفرقان (وخالق كل شيء فقدره تقديراً) وقال في سورة الحجر (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون^(٢) وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)

وان له تعالى في نظام التكوين والابداع ، وفيما هدى اليه البشر من نظام الاجتماع ، سذنا مطردة تتصل فيها الاسباب بالمسببات ، لا تبدل ولا تتحول محابة لأحد من الناس ، وانها عامة في عالم الاجسام وعالم الارواح ، وقد ورد ذكر هذه السنن باللفظ في عدة سور

ونؤمن بان له تعالى في خلقه آيات بينات ، وان له في آياته حكما جليلة أو مخفية ، وان مامنحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ماتقدم بيانه من نظام التقدير و سنن التدبير ، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في اثباته وتمحيصه ، وانه لا بد ان يكون وقوعه لحكمة بالغة لا عن خلل ولا عيب ، وان ماخفي علينا من حكمه كسائر ما يخفي علينا من أمور خلقه ، نبحث عنهما لنزاد علما بكماله ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ، ولا نخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا ، وقد ثبت لا علم العلماء منا أن ما نجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم ، ويستحيل أن يحيط البشر به علماً .

- (١) الاثب بضمتين هو الذي يفعل ابتداء من غير سبق تقدير ولا نظام فهو ضد المقدر (٢) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التي اظهرتها العلوم الحديثة في كل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن الدقيق في النسبة المثوية (تفسير القرآن الحكيم) (٣١) (الجزء الحادي عشر)

ونؤمن بان الله تعالى قد منحنا رسلا هدوننا بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس ، وما يستنبطه الفكر منها بادي الرأي ، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب ، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الألوف من السنين ينكرون وجود عالم يكونوا يدركونه بحواسهم من الاجسام وأعراضها ، وبقياسهم ما جهلوا على ما علموا منها .

وقد علمنا من التاريخ ان الايمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الاعمال هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود حتى وصلوا إلى ما وصلوا اليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الاجيال المختلفة ، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب نصيب في ذلك — فهذا الايمان بالاركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر الى علوم وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذي أنكروه ، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها

فتبين لنا بهذا وبما قبله انه كان للبشر بآيات الانبياء ثلاث فوائد هي من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات (الاولى) جعلها دليلاً حسيّاً على اختياره تعالى في جميع أفعاله وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له لا حاكمة عليه ولا مقيدة لارادته وقدرته (الثانية) جعلها دليلاً على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه ونذراً للعاندين لهم من الكفار ، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم أو تقع منهم باستعداد روجي لما كانت آية على صدقهم (الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات ، وضيق نطاق المحال في العقولات ، وإلى ان كون انشيء بعيداً عن الاسباب المعتادة والامور المعهودة والسنن المعروفة ، لا يقتضي أن يكون محالاً يهزم بعدم وقوعه ، وبكذب الخبر به ، مع قيام الدلائل على صدقه ، وإنما غاية أن يكون الاصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدلائل الصحيح وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر ، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية الله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون

ولكن الامر قد انقلب إلى ضده فان كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم

والاعمال اقربة لآيات الرسل وما دعوا اليه من الايمان بالغيب من العقول قد صارت هذه العلوم نفسها سبباً لانكارهم ما كان صعباً لها وموصلاً اليها (وهو الآيات والايمان بالغيب) — لا إنكار امكانه بل إنكار ثبوته بالفعل ، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون باقداره وتوفيقه نظيراً له في القرابة ، وكان ينبغي لهم أن يجعلوه دليلاً عليه مبيناً لحقيقته كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ولكنهم كما أراهم آية من آياته الروحية في أنفسهم او من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة بقياس ما لم يعرفوا على ما عرفوا ، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وإبداعه ، وظلوا على لبسهم ، كالذين طلبوا ان ينزل عليهم ملكاً رسولا فقال فيهم (٦ : ٩٠) ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي لما كانوا لا يمكن لهم أن يدركوا الملك ويتلقوا عنه إلا إذا كان بصورة رجل مثاهم وهو ما استنكروه من كون الرسل بشرأ مثاهم ، ولو جعل الله الملك رجلاً مثاهم لا لبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار كون الرسول بشرأ مثاهم وهكذا يفعلون الآن : ظهرت لهم في عصرنا عدة آيات روحية من المكشفات والتأثير في المادة فشبهوها بما عرفوا من نقل الكلام بالسيال الكهربائي وغير ذلك ، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية من الخالق لا تخضع لعلمهم

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين

ان حرمان هؤلاء العلماء من الايمان بآية الله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم انهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم ، وجميع علماءهم المصلحين وساستهم الدهاقين في حيرة من تلافي هذا الخطر وان يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين ، وهذا ما جاء به محمد خاتم النبيين ، ولأجله أثبت الآيات بكتابه وفي كتابه المبين ، إذ لا يمكن ان يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم ، بقيام الدليل على انه من السلطان الغيبي الالهي الذي فوق استعدادهم ، وسنبين هذا الجمع فيما يأتي من هذا البحث المثبت لا عجز القرآن

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

﴿بيان أن الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال﴾

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كلف البشر بها^(١) مقاومة فطرتهم ، وتعذيب أنفسهم ، ومكابرة عقولهم وبصائرهم ، خضوعاً للرؤساء الذين يلتقونهم بإيها ، فإن انتقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفأثرين ، وإن خالفوهم سرّاً أو جهراً كانوا من الهالكين حتى إذا بعث الله محمداً خاتم النبيين ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويذكهم مما كانوا فيه من الضلال المدين — بين لهم أن دين الله الاسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ، وإن لا سيطرة على روح الانسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وإنما رسل الله هداة مرشدون ، مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا ، ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

(١) الاسلام دين الفطرة

قال الله تعالى (٣٠ : ٣٠) فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله — ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة ، وعن الضلالة إلى الهدى ، وعن الباطل إلى الحق ، ويقابله الزيف وهو الميل عن الحق إلى الباطل الخ وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الانسانية ، الجامعة بين الحياتين : الجسمانية الحيوانية ، والروخانية الملكية ، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما ، وما أودع فيها من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي

(١) الظرف متعلق بالمصدر الذي بعده وفعل التكليف يتعدى بنفسه وعلماء الاصول والفقه يعدونه بالباء

فوق قوى السكون والسنن والاسباب التي قام بهما نظام كل شيء في العالم ، قرب هذا السلطان هو فاطر السموات والارض وما فيها ، والمصدر الذاتي للنفع والضرر المحركين لشعور التعبد الفطري ، وطلب العرفان الغيبي ، فالعبادة الفطرية هي التوجه الوجداني إلى هذا الرب الغيبي في كل ما يعجز الانسان عنه من نفع يحتاج اليه ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضرر يحسه أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بمجوله وقوته ، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفة والوصول اليه مما لانهاية له . وأعني بالانسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه يعده من مقدوره ، ويعد مساعدة غيره له من جنس كسبه ، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر — فتعظيم الفقير للغني بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوي لاستنجاهه واستعدائه على أعدائه ، وخضوع السوق للملك أو الأمير لخوفه منه أو رجائه — لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الأمم ولا ملة من الملل ، وإنما روح العبادة الفطرية ومحها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية التي هي فوق ما يعرفه الانسان ويعقله في عالم الاسباب ، ولا سيما الدعاء عند العجز والشدائد قال ﷺ « الدعاء هو العبادة » ^(١) هكذا بصيغة الحصر أي هو الركن المعنوي الأعظم فيها لانه روحها المفسر برواية « الدعاء مخ العبادة » ^(٢) وكل تعظيم وتقرب قلبي أو عملي لصاحب هذه القدرة والسلطان فهو عبادة له — هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر

وعلى هذا الأصل يبني الدين التعاليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله الى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهداتهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة الدين كما وقع بالفعل ، ولا يقبله البشر بالأذان والوازع النفسي إلا إذا كان الملحق لهم إياه مؤيداً في تبايعه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى والتصرف الذاتي المطلق في جميع العالم ، الذي تخضع له الاسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لها ، وهو الله رب العالمين ، وقد شرحنا هذه الحقيقة مراراً وبيننا في مواضع من

(١) رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير (٢) رواه الترمذي عن انس

التفسير والنامر معني كون الاسلام دين الفطرة، وأنه شرع لتكميل استعداد البشر للرقى في العلم والحكمة، ومعرفة الله عز وجل المعدة إياهم لسعادة الآخرة، فليس فيه شيء يصادمها فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونها، فهو لنوع الانسان كالعقل لأفراده كما حققه شيخنا الاستاذ الامام (٢) الاسلام دين العقل والفكر.

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة « العقل » ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الانسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كالب والنهي ، ولا أسماء التفكير والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل ، ولا ان الدين موجه اليه ، وقائم به وعليه . اما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة ، وأما ذكر أولي الالباب ففي بضع عشرة مرة ، وأما كلمة أولي النهى اي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه بأكثر ما ذكر فعل العقل في قرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون مخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات السكون الدالة على علم الله ومشيتته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى (٢ : ١٦٤) إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون) وبلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الانعام (٦ : ١٥١) ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) وكرر قوله (أفلا تعقلون) أكثر من عشر مرار كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله (١٦ : ١٠) فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة المائدة (٦٧ : ١٠) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وفي معناه قوله تعالى من سورة الاعراف (١٧٩ : ٧) ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والاناس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم

أَذَان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقوله في سورة الحج (٢٢ : ٤٦) أفلم يسيرا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية كذلك آيات النظر العقلي والتفكر والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز، فمن تأملها علم ان أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر، وان الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الانفس ولا تصعد بها في معارج الكمال، يعرفان ذي الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) وقوله (٨ : ٣٠) أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وقوله في صفات العقلاء أولي الالباب (١٩١ : ٣) ويتفكرون في خلق السموات والارض) وقوله بعد نفي علم الغيب والتصرف في خزان الارض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي (٦ : ٧) قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون) وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلان في الارض، من أن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدرة وجوده يكون تفاضلهم فيه . اه وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل على البشر حتى جاء الاسلام فأبطل بكتابته هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية ائمة الغرب من المسلمين ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤوسهم فرموها على أنفسهم ، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم

(٣) الاسلام دين العلم والحكمة

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الاسراء (١٧ : ٣٦) ولا تقف ما ليس لك به علم) قال الراغب : اي لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوي ما ملخصه : ولا تتبع عالم يتعاق به علمك تقليداً او رجحاً بالغيب، ومنه قوله في العلم المأثور في التاريخ (اثتوي بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ومنه قوله تعالى في علوم

البشر المادية (٣٠ : ٦) ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٧ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا الخ وقوله فيها دون العلم الروحي (١٧ : ٨٥) ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)

وقوله في العلم العقلي (٢٢ : ٨) ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منين (الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابله بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين . وقوله في العلم الطبيعي (٣٠ : ٢٢) ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين) بكسر اللام أي علماء الكون ومثله قوله بعد ذكر أخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب (٣٥ : ٢٨) انما يخشى الله من عباده العلماء) الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها

عظم القرآن شأن العلم تعظيماً لا تعلموه عظمة أخرى بقوله تعالى (٣ : ١٨) شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) الآية ، فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته ، وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة ، ويدخل فيها الانبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله (٥٨ : ١١) يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وأمر أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله (وقل رب زدني علماً) ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ماورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى (١٠ : ٣٦) وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، ان الظن لا يغني من الحق شيئاً) ومثله (٥٣ : ٢٧) وما لهم به علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً) وقوله في قول النصارى بصلب المسيح (٤ : ١٥٦) ما لهم به من علم الا اتباع الظن) وبلغ من تعظيمه بشأن العلم والبرهان ان قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال (٧ : ٣٢) قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والانم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) السلطان البرهان : وقال في بر الوالدين الكافرين (٢٩ : ٨) ووصينا الانسان بوالديه حسناً ،

وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) ومعلوم من الدين بالضرورة ان الشرك بالله لا يكون بعلم ولا ببرهان ، لانه ضروري البطلان . وترى تفصيل هذا فيما بعده من تعظيم أمر الحجة والدليل وما يليه من ذم التقليد .
وأما الحكمة فقد قال تعالى في تعظيم شأنها المطلق (٢ : ٢٦٩) يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الالباب) وقال تعالى في بيان مراده من بعثة محمد خاتم النبيين (٦٣ : ٢) هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران . وقال لرسوله ممتناً عليه (٤ : ١١٢) وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) وقال له (١٦ : ١٢٥) ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال له في خاتمة الوصايا بأهمات الفضائل والنهي عن كبائر الرذائل ، مع بيان عللها وما لها من العواقب (١٧ : ٣٩) ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) وقال لسانه رضي الله عنهن (٢٣ : ٣٤) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسله الحكمة ، وامكن أضعافها أقوامهم من بعدهم بالتقاليد والرياسة الدينية ، ونسخها بولس من النصرانية بنص صريح . قال الله تعالى في اليهود (٤ : ٥٤) أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً) فالكتاب أعلى ما يؤت به لى لعباده من نعمه ويليه الحكمة ويليه الملك . وقال في نبيه داود عليه السلام (٢ : ٢٥١) وآتاه الله العلم والحكمة وعلمه مما يشاء) وقال لنبيه عيسى عليه السلام (٦ : ١١٣) وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) وقال (٣١ : ١٢) ولقد آتينا لقمان الحكمة) وذكر من حكمته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعتها ونهيته عن الرذائل معللة بمضارها . فالحكمة أخص من العلم ، هي العلم بالشيء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل ، فهي بمعنى الفلسفة العمالية كعلم النفس والاخلاق وأمرار الخلق ، ويبدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الاسراء (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعتها لما سميت حكمة . ألا ترى انه سعى

فيها المذيرين للآل « إخوان الشياطين » لانهم يفسدون نظام المعيشة بأسرافهم ، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال ، ولذلك قال عقبه (وكان الشيطان لربه كفوراً) ثم قال (٢٩) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعبد ملوماً محسوراً) فمائل الاسراف في الانفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوماً من الناس ومحسوراً في نفسه ، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه ، والمحسور المغموم أيضاً . وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة بوقعه إسرافه في العدم والفقر الخ وحسير البصر كليله وقصيره

ويكثر في القرآن ذكر الغفقه وهو الغفم الدقيق للحقائق الذي يكون به العالم حكيمًا

(٤) الاسلام دين الحجة والبرهان

قال تعالى (٤ : ٧٣) يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً وقال (٢٣ : ١١٧) ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به عند ربه فأنما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون) قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتاج به عند ربه مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان ، وذلك انه تعالى يبعث الامم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم يحضرتهم بالبرهان على ما خالفوه فيه كما قال (٢٨ : ٧٥) ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم ، فعملوا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون)

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والارض من سورة الانبياء (٢١ : ٢٢) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .. ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال (٢٤) أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) الآية ، ومثله في سورة النمل (٢٧ : ٦٤) أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

وقال في سياق محاجة ابراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان

شركهم (٦ : ٨١) وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون (ثم قل في آخره (٨٣) وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي على العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه

ومما جاء فيه البرهان باللفظ السلطان قوله تعالى (٤٠ : ٣٥) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا (الآية ، وفي معناها من هذه السورة (٥٦) ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه (الآية ، وفي عدة سور انه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان مبين)

(٥) الاسلام دين القلب والوجدان والضمير

قال الفيومي في المصباح : ضمير الانسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر ، وقال والقلب من المؤنث معروف - يعني انه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل . اه وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الاعراف (١) وقد ذكر في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية

منها قوله تعالى في سورة ق (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقوله في سورة الشعراء (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) ومدحه لخليله إبراهيم عليه السلام بقوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) وقوله حكاية عنه (ولكن ليطمئن قلبي) وقوله في صفة المؤمنين (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والاخبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيف ، وعبر عن فقدانها للاستعداد للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها اي انها كالتحتوم عليه فلا يدخله شيء جديد

(١) راجع صفحة ٤١٩ من جزء التفسير التاسع

وإذ كان الاسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، منع ما كان عليه النصراني وغيرهم من الاكراه في الدين والاجبار عليه والفتنة والاضطهاد لخالقيهم فيه، والآيات في ذلك كثيرة بينهاها في محلهاء، ومن دلالتها ذم القرآن للتقليد وتضليل أهله

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والجدود

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان يدل على ذم التقليد، وقد ورد في ذمه والنهي على أهله آيات كثيرة. كقوله (٣: ١٧٠) وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) وقوله تعالى (٥: ١٠٤) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) ذمهم من ناحيتين (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقى في العلم والعمل، وليس هذا من شأن الانسان الحي العاقل فان الحياة تقتضي النمو والتوايد، والعقل يطلب المزيد والتجديد (والثانية) أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم، وطريق الاهتمام في العمل ويؤيده قوله (٧: ٢٨) وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة (٤٣: ٢٠) وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علم ان هم الا بخرصون ٢١ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ٢٢ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ٢٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وقد وردت الشواهد على هذا في قصة ابراهيم مع قومه في سور الانبياء والشعراء والصفافات..

فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والاديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمايرهم للوصول الى العلم والهدى في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فان هذا جنائية على الفطرة البشرية. والعقل والفكر

والقلب التي امتاز بها البشر ، وبهذا العلم والهدى امتاز الاسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الأمم أفواجا ، ثم نكس المسلمون على رؤسهم ، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لا بأثرهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم ، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمرهم به ، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم وصاروا حجة على دينهم ، حتى ان أدياء العلم الرسمي فيهم ينكرون أشد الانكار على من يدعونهم الى اتباع كتاب الله وهدى رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم في بلاء وعناء ، نقاسي منهم ما شاء الجهل والجور من استهزاء ، وطعن وبذاء ، وتهكم بلقب « المجتهد » الذي احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الاسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية للدخل الناس المستقلون في العقل والعلم أفواجا حتى يعم الدنيا . لان التعاليم العصرية في جميع مدارس الارض يجرى على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في جميع بلاد الافرنج والبلاد المقلدة لهم . ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الاديان تقليدية يريدونها نظما أدبية واجتماعية للأمم ، فلهذا يرون الاولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي ، وبهذا يمسر علينا أن نقنعهم بامتياز الاسلام على دينهم ، لانه يقل فينا من يقدر على إظهار الاسلام في صورته التي خصه بها القرآن ، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين ، رضوان الله عليهم أجمعين

❦ دحض شبهة ، وإقامة حجة ❦

يتوهم بعض المقلدين ان دعوة المسلمين إلى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال في فهمها التي اشتهر المنار في عصرنا بها ، هي التي جرأت بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الأئمة والانتقاد عليهم وعلى اتباعهم بما هو ابتداء جديد ، واستبدال للفوضى بالتقليد . وهو وهم سببه الجهل بالدين والتاريخ ، فمذاهب الابتداء والاحاد قديمة ، قد نجمت قرونها في خير القرون وعهد أكبر الأئمة ، وكان أشدها إفسادا للدين الدعوة الى اتباع الأئمة المعصومين ، الذين لا يستلون عن الدليل ، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد ذاته في الدين بعد

محمد المعصوم الذي لامعصوم بعده ﷺ ولكن المقلدين لهؤلاء المحرمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بعصاة أئمتهم حتى ملاحدة الباطنية منهم، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم بل بأقوال كل من ينتمي اليهم من أدعياء العلم . وانما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق ، لا في سوق الاستقلال والأخذ بالدلائل - ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لا تساب جميع الدجابين من أهل الطرائق وغيرهم إلى أئمة المذاهب المجتهدين ، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين ، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الأئمة

ان في كتب التفسير والفقه والتصوف وشروح الاحاديث للعلماء المنسوبين إلى الأئمة كثيراً من البدع والخرافات التي يتبرأ منها أئمة الهدى ، وترى علماء الرسوم الجامدين محتجون بذكرها في هذه الكتب على شرعيتها وعلى رد نصوص الكتاب والسنة الصحيحة بها ، وصاحب المنازعة انفراد دون علماء مصر بالرد على هؤلاء ، وعلى الباطنية والبهاية والقاديانية والشيخانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا ، والله الخلد والمنة

(٧) الحرية الشخصية في الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الاسلام هي نتيجة المزايا التي بينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الاكراه فيه وعليه فالاصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة (١٠ : ٩٩) ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ١٠٠ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ١٠١ قل انظروا ماذا في السموات والارض ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سنه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للإيمان وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه ، والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر

ثم قوله تعالى له عند ما أراد أصحابه أنخذمن كان عند بني النضير من أولادهم

عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم (٢: ٢٥٦) لا إكراه في الدين قد تبين (الرشد من الغي) الآية — فأمرهم ﷺ أن يخبروهم فن اختار اليهودية أجلى مع اليهود ولا يكره على الاسلام، ومن اختار الاسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الآية

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الاول لشرعية القتال في الاسلام كما بيناه في تفسير قوله تعالى (٢: ١٩١) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله من سورة البقرة. ثم في تفسير آية ٣٩ من سورة الانفال التي بلفظها مع زيادة (كله) فراجع تفسير هذه الآية في ص ٦٦٥ ج ٩ تفسير. وأما منع رياضة السيطرة الدينية كالمهوددة عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلقائه الراشدين وقد بيناه في الكلام على وظائف الرسل عليهم السلام، وحسبك منها قوله عز وجل لرسوله ﷺ خاتم النبيين (ص) (٨٨: ٢١) فذكر إنما أنت مذكر ٢٢ لست عليهم بمسيطر)

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

(الإصلاح الاجتماعي الانساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثمان)

وحدة الامة - وحدة الجنس البشري - وحدة الدين - وحدة التشريع
بالمساواة في العدل - وحدة الاخوة الروحية والمساواة في التعبد - وحدة الجنسية
السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة

جاء الاسلام والبشر أجناس متفرقون، يتعاودون في الانساب والالوان، واللغات والاطوان والاديان، والمذاهب والمشارب، والشعوب والقبائل، والحكومات والسياسات، يقاتل كل فريق منهم مخالفة في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر، فصاح الاسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الانسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمه عليهم، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية، وبيان أصول الكتاب الالهي وسنة

خاتم النبيين في الجامعة الانسانية ، لا يمكن بسطحها إلا بمصنف كبير ، فنكتفي في هذه الخلاصة الاستطراذية في اثبات الوحي الحمدي ، بسرد الاصول الجامعة في هذا الاصلاح الانساني الداعي إلى جعل الناس ملة واحدة ، ودين واحد، وشرع واحد ، وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما ان جنسهم واحد ، وربه واحد ونبدأ بالاصل الجامع في هذا ونقفي عليه بالاصول والشواهد المفصلة له

﴿ الاصل الاول للجامعة الاسلامية الانسانية وحدة الامة ﴾

قال الله تعالى في سورة الانبياء مخاطباً أمة الاسلام (٢١ : ٩٢) إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)

ثم بين لها في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للامة فقال (٢٣ : ٥١) يأيتها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم (٥٢) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه ، وأما خاتم النبيين فأتمته جميع الناس ، وقد فرض الله عليهم الايمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم كما تقدم ، فالايان بخاتمهم كالايان باولهم وبمن بينها ، فتسلمهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة ، ومثل اختلاف شرائعهم بذسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة أيضاً إلى أن بكل الدين (الاصل الثاني) الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم وشاهده العام قوله تعالى (٤٩ : ١٣) يأيتها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقد بلغ النبي ذلك للامة يوم العيد الاكبر بمنى في حجة الوداع . وهذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف ، وإلى ترك التعادي بالتخالف .

(الاصل الثالث) وحدة الدين بانباع رسول واحد جاء باصول الدين الفطري الذي جاء به غيره من الرسل وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر ، وشاهده الاعم قوله تعالى (٧ : ١٦٨) قل يأيتها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) ولما كان الاسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختيارياً بقوله تعالى (٢ : ٢٥٦) لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

(الاصل الرابع) وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الاسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغني والفقير ، والقوى والضعيف ، وسندكر بعض شواهد في إصلاح التشريع فيه

(الاصل الخامس) الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في اخوته الروحية وعبادته وفي الاجتماع الاجتماعي منها كالصلاة ومناسك الحج ، فلوك المسلمين وأمرؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الافرنج المنتسبين إلى النصرانية يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الاسلام بالضرورة للعمل بها من أول الاسلام الى اليوم قال تعالى (١٠: ٤٩) انما المؤمنون إخوة) وقال في سياق الكلام عن المشر كين المحاربين (١١: ٩) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين)

(الاصل السادس) وحدة الجنسية السياسية الدولية بان تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي متساوية في الحقوق العامة إلا حق الإقامة في جزيرة العرب أو الحجاز فانه خاص بالمسلمين لان للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الاسلام في معابد الملل كلها أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها لا يجوز تغير أهلها دخولها بغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم في هذا سواء

(الاصل السابع) وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة إلا انه يستثنى منه الاحكام الشخصية الدينية فان الاسلام يراعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى علماء ملتهم ، وإذا تحاكموا إلينا فاننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الماسخة لشرائعهم ، والاصل فيه قوله تعالى (٤٢: ٥) فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) وقوله بعد آيات (٤٩) وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) (تفسير القرآن الحكيم) (٣٣) (الجزء الحادي عشر)

(الاصل الثامن) وحدة اللغة ولا يمكن أن يتم الاتحاد والاخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة . وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون له يكون لهم لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ومناهج التعليم والآداب والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية ، وهذه الأمنية قد حققتها الاسلام بمجل لغة الدين والنشرع والحكم لغة لجميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم الى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمها والتعبد بهما والاتحاد باخواتهم فيهما ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر في القرآن بيان كونه كتابا عربيا وحكما عربيا وكرر الامر بتدبره والتفقه فيه والانعاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك ، وكذلك كان الامر في الفتوحات الاسلامية العربية كلها

وقد بينت من قبل وجوب تعلم اللغة العربية في دين الاسلام وكونه مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الامام الشافعي (رض) في رسالته وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ثم خلفاء الامويين والعباسيين الى أن كثر الاعاجم وقل العلم وغلب الجهل فصاروا يكتفون من لغة لدينهم بما فرضه في العبادات من القرآن والاذكار (فراجع ذلك في ص ٣١٠ من جزء التفسير التاسع)

ولقد كان النبي ﷺ يكثر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) وكان يخص بمقتته وإنكاره التفرق في الجنس الذسبي أو اللغة ، أما الاول فمشهور وأما الثاني فيجمعه مع الاول الشاهد الآتي

روى الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال

الحبشي فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟
(يعني هذا المنافق بالرجل النبي ﷺ وان الاوس والخزرج من قومه العرب
ينصرونه لانهم من قومه ، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره ؟)
فقام اليه معاذ بن جبل (رض) فأخذ بتليبيه (أى بما على لبيه ونحوه من الثياب)
ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى
المسجد ثم نودي : ان الصلاة جامعة — وقال ﷺ

« يا أيها الناس ان الرب واحد ، والاب واحد ، وان الدين واحد ،
وايست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية
فهو عربي » فقام معاذ ، فقال فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال « دعه إلى
النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق
والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام ؟
أرأيت لو حافظوا على هذه الاخوة الاسلامية أكانت هذه الغمة من ملاحدة الترك
تجد سبيلا لاجتثاث هذه الدوحة الباسقة من جنة حكم الاسلام ، وامتلاخ هذا
السيف الصارم من غمده ، والخيولة بينه وبين كتاب الله المعصوم المنزل من عند الله
باللغة العربية ، وسنة رسوله المصلح لشعوب البشر وهي بالعربية ، لاجل تكوين
هذا الشعب وما أدغم ويدغم فيه من الشعوب تكوينا جديداً ، برابطة لغة تخلق خلقا
جديداً ، لاجل أن يلحق بالشعوب الاوربية دعاء ، كما يلحق الولد بغير أبيه إصافاً فرياً ،
فيقال ان رجلاً عظيماً جدد أو أوجد شعباً ولغة ودولة وديناً ؟ هيئات هيئات لما يبعثون .
لقد كان هذا الشعب (الترك) قائماً باسم الاسلام على رئاسة روحية يدين لها
أولها زهاء اربعمائة مليون من البشر ، ونواحي من العلم والحكمة ما يحسن به القيامة .
ومن الحزم والعزم ما يعزز به القيادة ، ومن النظام ما يحكم به السياسة ، لا يمكنه أن يسوس
بها الشرق ، ثم يسود بنفوذها الغرب ، كما كان يقصدنا باليونان الكبير لو تم له البقاء في مصر
يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر السكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة .
بأنه خلاف طبيعة البشر ، ويرد عليهم بان توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة

البشر، ان اريد بالبشر جميع أفرادهم، وان الحكماء ما زالوا يسمعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقى بعض اللغات بترقي أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها، ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد، وان القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الانسان تأتي أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد (١١: ١٨) ولو شاء ربك لجلد الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يشهده الخلفاء فيهم — هذا الخلاف الذي جعل أعلم شعوب الارض وأرقاهم في العمران يبذلون في هذا العهد أكثر مما تستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب التي تنذر عمرانهم الخراب والدمار دعا الاسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الامم فكانوا يدخلون فيه أفواجا حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى الهند ولولا ما طرأ عليه من الابتداع ، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد ، وعلى شعوبه من الجهل والفساد ، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الامم ، فمن غرائزهم اختيار الافضل إذا عرفوه قال أحد كبار علماء الالمان في الاستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : انه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لانه هو الذي حول نظام الحكم الاسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب ، ولولا ذلك لمع الاسلام العالم كله ولكننا نحن الالمان وسائر شعوب أوربة عربا مسلمين

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الاصول التي توحد الامم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسي من الوحي النفسي الذي نبع من نفس محمد ﷺ الا في سن الكهولة ففارق بها جميع الانبياء والحكماء أم الا قرب إلى العقل ان تكون بوحى الله تعالى أفاضه عليه ؟؟

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

(تقرير مزايا الاسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات)

(ونلخص اهمها بالاجمال في عشر جمل)

- (١) كونه وسطا جامعاً لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة قال تعالى (١٤٣: ٢) وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) الآية وقد بينا في تفسيرها ان المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود ، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية ، وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم
- (٢) كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالآيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الاخلاق ، ومحاسن الاعمال ، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ، ولا بالشفاعات وخوارق العادات ، وتقدم بيانه
- (٣) كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف وتقدمت شواهد في كونه علما مكلا ومتعا لدين الله على السنة رسلة في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني . وإنما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان التي بينها في المقصد الرابع
- (٤) كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إغئات ، قال الله عز وجل (٢٨٦: ٢) لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقال بلغت حكمته (٢: ٢٢٠) ولو شاء الله لأعتكم) وقال عظمت رأفته (٢: ١٨٥) يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال جلت منته (٢٧: ٢٢) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقال عمت رحمته (٥: ٧) ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) ومن فروع هذا الاصل ان الواجب الذي يشق على المكلف أدائه ويخرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقا كالمرضى الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم — الاول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر ، والثاني لا يقضي

بل يكفر باطعام مسكينين إذا قدر . وأما المحرم فيباح للضرورة بنص القرآن ، وإن كان تحريمه أو النهي عنه لسد ذريعة الفساد فيباح للحاجة كما بيناه في تفسير آيات الربا وآيات الصيام ، وآية محرمات الطعام

وقد بينا مسألة يسر الاسلام العام بالتفصيل في تفسير (١٠٤ : ٥) يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكن تسؤكن من الجزء السابع وجمع في رسالة خاصة . (٥) منع الغلوف في الدين وإبطال جعله تعذيباً للنفوس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الأمر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير (٣١ : ٧) يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ٣٢ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون وقال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) وهو في (١٧١ : ٥) و (٧٧ : ٦) وفي هذا النهي اعتبار المسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر : والاحاديث الصحيحة في نهى المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء مبينة لهذه الآيات وهي مصداق تسمية النبي ﷺ له بالحنيفية السمحة

(٦) قلة تكاليفه وسهولة فهمها وقد كان الاعرابي يجيء النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه فيجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول « أفلح الاعرابي إن صدق » وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له . ولكن الفقهاء أكثروا بالتكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بهامعسراً ، والعمل بها متعذراً (٧) انقسام التكليف إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم . والناس درجات في التقصير والتشمير

والاعتدال ، فيوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات ، قال الله تعالى (٢٢: ٣٥) ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا : فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير)

(٨) نصوص الكتاب وهدي السنة مراعى فيهما درجات البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها ، فالقطعي منها هو العام ، وغير القطعي تتفاوت فيه الافهام ، فيأخذ كل أحد منه بما أداه اليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عند ما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالة على تحريمها دلالة ظنية فتركها بعضهم دون بعض ، وأقر كلا على اجتهاده الى أن نزلت آيتنا المائدة بالتحريم القطعي . قال تعالى (٢٩: ٤٣) وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد ، والاول مذهب الحنفية وأما الثاني وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضاً ، وأما الآيات الظنية الدلالة والاحاديث الآحادية الظنية الرواية أو الدلالة فهي موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده في العبادات والاعمال الشخصية ، وإلى اجتهاد أولي الامر في الاحكام القضائية والمسائل السياسية . وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والمنار

(٩) معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى فليس لاحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا الخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضمر في قلبه وإنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم ، وقد فصلنا هذا في خلاصة تفسير سورة براءة - التوبة (١٠) مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر فليس لاحد فيها رأي شخصي ولا رئاسة ، ومدارها في الباطن على الاخلاص لله تعالى وصحة النية ، والآيات والاحاديث في الامرين كثيرة

المقصد السادس من مقاصد القرآن

(بيان حكم الاسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة)

الاسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لان مجاء به من إصلاح البشر في جميع شؤونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة ، وفيه أصول وقواعد

(القاعدة الأساسية الاولى للحكم الاسلامي)

الحكم في الاسلام للامة ، وشكله شورى ، ورئيسه الامام الاعظم أو (الخليفة) منفذ لشرعه ، والامة هي التي تملك نصبه وعزله ، قال الله تعالى في صفات المؤمنين (٣٨: ٤٢) وأمرهم شورى بينهم) وقال لرسوله ﷺ (١٥٩: ٣) وشاورهم في الامر) وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الامة (١) وقال تعالى (٥٨: ٤) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وأولوا الامر هم أهل الحل والعقد والرأي الخفيف في مصالحها الذين تثق بهم الامة وتبعمهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها (٨٣) وإذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فأولو الامر الذين كانوا مع الرسول وكان الامر يرد اليه واليه في الشؤون العامة الامة من الامن والخوف وغيرهما هم الذين كان ﷺ يستشيرهم في الامور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الاكثر وإن خالف رأيه كاستشارتهم في غزوة أحد في أحد الامرين : الحصار في المدينة أو

الخروج إلى أحد اللقاء المشركين فيه . وكان رأيه ورأي بعض كبار الامة الاول ورأي الجمهور الثاني فنقد رأي الاكثر، ولكنه استشار في مسألة أسرى بدر خواص أولي الامر وعمل برأي أبي بكر ، كما فصلناه في تفسير سورة الانفال

وقد بينت في تفسير الآية الاولى (٥٨:٥) ما تدل عليه من قواعد الحكم الاسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر (١) ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الامة المعبر عنها في الحديث بالجماعة أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفي سائر الاحكام العامة كقوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما في معناها من سورة الانفال والبقرة وآل عمران ومثل قوله تعالى (٤٩:٩) وان طائفتان من المؤمنين أقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداها على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وكذلك خطابه لهم في أحكام الاموال كالغنائم وتخميسها وقسمتها وأحكام النساء وغيرها (وقد بينا هذا كله في مواضعه من التفسير)

وقد صرح كبار النظار من علماء الاصول بان السلطة في الاسلام للامة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم -م اذا اقتضت المصلحة عزلهم ، قال الامام الرازي في تعريف الخلافة : هي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الاشخاص . وقال في القيد الاخير (الذي زاده على من قبله) هو احتراز عن كل الامة اذا عزلوا الامام نفسه . قل العلامة السعد المتفازاني في شرح المقاصد عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الاخير : وكأنه أراد بكل الامة أهل الحل والعقد واعتبر رئاستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الامة اه وقد فصلنا مسألة سلطة لامة في كتابنا (الخلافة أو الامامة العظمى) فهذه القاعدة الاساسية لدولة الاسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررناه

القرآن في عصر كانت فيه جميع الامم مرهقة بحكومات استبدادية استبدتها في أمور دينها ودنياها ، وكان أول منفذ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يقطع بأمر من أمور السياسة والادارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأي والمسكة في الامة ، ليكون قدوة لمن بعده

وتم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون فقال الخليفة الاول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته: أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استعمت فأعينوني ، وإذا زغت فقوموني . وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) من رأى منكم في عوجا فليقومه . فقال له اعرابي لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا ، فقال الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه . وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أوقفها من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان (رض) أمري لأمركم تبع . وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه وكرم وجهه ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر .

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الاسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك في أمم أخرى ، وان جهل ذلك من جهله من الفقهاء

ولكن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن هذا الصراط المستقيم إلا قليلا منهم ، وشايهم علماء الرسوم المنافقون ، وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يحجلون هذه القاعدة الاساسية لحكومة دينهم ، وكان من حسن حظ الافرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقضي في حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز وهو صلاح الدين الايوبي (رح) الذي قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه « ماعسى ان أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما انا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضي لك او عليك » ومعنى عبارة السلطان انه ليس إلا

منفذاً لحكم الشرع - كالشحنة وهو صاحب الشرطة - وأن القضاة مستقفلون بالحكم لانهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس. وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ثم درسوا تاريخ الاسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطنة الامة التي جاء بها الاسلام ، وصاروا يدعونها لانفسهم ، ويعيرون الحكومات الاسلامية باستبدادها ، ثم يجمل الاسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصي ، وصار المسلمون يصدقونهم ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم انه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدكم ، فكان هذا من أسباب ضياع اعظم مزايا الاسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه

(أصول التشريع في الاسلام)

المعروف عند جمهور أهل السنة ان أصول التشريع الاساسية أربعة (١) القرآن المجيد ، والمشهور عند علماء الاصول ان آيات الاحكام العملية فيه من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته ، وعددها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات ، والظاهر انهم يعنون الصريح منها وأكثرها في الامور الدينية لان أكثر أمور الدنيا موكولة إلى عرف الناس واجتهادهم (٢) ماسنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان لكتاب الله تعالى وقالوا أيضا ان أحاديث الاحكام الاصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر (٣) إجماع الامة واتفق الاثمة على الاحتجاج بإجماع الصحابة في الدينيات ، وفي إجماع المجتهدين بعدم تفصيل (٤) اجتهاد الاثمة والامراء والقضاة والقواد في الامور القضائية والسياسية والادارية والحربية ، وخصه بعض الفقهاء بالقياس وأنكر بعضهم القياس وقبده آخرون كما فصلنا ذلك في تفسير آية (١٠١:٥)

وورد في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ » قال أقضي بما في كتاب الله ، قال « فان لم يكن في كتاب الله ؟ » قال فبسنة رسول الله ﷺ قال « فان لم يكن في سنة رسول الله ﷺ » قال أجتهد رأيي لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدره ثم

قال « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله (ص) رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو وفيه مقال وله شواهد ، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقد بيناه في محله وبه أمر عمر (رض) قاضيه شرح في كتابه المشهور في القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الاجماع حتى العرفي عند علماء الاصول - وهو مختلف فيه - على النص .

والاصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » رواه الجماعة كلهم بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فانك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث يريدة . وقال مثل ذلك في إنزالهم على دمة الاميردون دمة الله ورسوله اثنا لمخفرها .

(قواعد الاجتهاد من النصوص)

أحكام الكتاب والسنة منها أحكام خاصة بالاعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع ، والأحكام الخاصة منها ما هو قطعي الرواية والدلالة لا مجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لما نفع شرعي من فوات شرط كدرء حذشبشة أو عذر ضرورة ، وقد أمر عمر (رض) في المجاعة ألا يحدسارق . ومنها ما هو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش كما تقدم قريبا في العبادات والمحرمات .

وأما القواعد العامة فهي ما تجب مراعاته في الأحكام المختلفة ، وأهمها في الاسلام تحري الحق والعدل المطلق العام ، والمساواة في الحقوق والشهادات والأحكام ، وتقرير المصالح ، ودرء المفساد ، ومراعاة العرف بشرطه ، ودرء الحدود بالشبهات وكون الضرورات تبيح المحظورات ، وتقدير الضرورة بقدرها . ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، ونكتفي بالشواهد في العدل والظلم

(نصوص القرآن في ايجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم)

لما كان العدل أساس الاحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم أكد الله تعالى الامر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدنية . قال تعالى (١٦ : ٩٠ ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقال (٤ : ٥٧ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقال (٥ : ١٣٥ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل فإن القوام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالامر وعدم التهاون والتقصير فيه ، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا مصلحة احد ، ولو كانت على انفسهم أو والديهم والأقربين منهم ، وأن لا يجابوا فيها غنياً لغناه تقرباً اليه أو تكريماً له ، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه ، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم أو الشهادة كراهة أن لا يعدلوا فيها لمراعاة من ذكر من الناس ، وأنذرهم عقابه إن لووا ومالوا عن الحق أو أعرضوا عنه

وقال تعالى (٥ : ٨٠ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) فهذه الآية متممة لما قبلها فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها ، وبين القريب والبعيد ، وبين الغني والفقير ، وههنا يأمر بالمساواة فيها بين الانسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم لافرق فيها بين ديني ودنيوي ، فالشنآن والبغض والعداوة وقيل مع الاجتهاد وقد قال (ولا يجرمنكم

شأن قوم على أن لا تعدلوا) لا يحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم او بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل بالمساواة اقرب الى تقوى الله ، وأنذر تارك العدل للشأن بمثل ما انذر به تاركة للمحاربة ، أنذر كلا منهما بأن الله خير بما يعمله لا يخفى عليه منه شيء ، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه ، فيثيبه او يعاقبه على ما يعلم من امره فالعدل هو الميزان في قوله تعالى (٤٢ : ١٧) الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان) وقوله (٥٧ : ٢٥) لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) الآية : فخير الناس من يصد عن الظلم والعدوان هداية القرآن ، ويلهم من يصد عن العدل الذي يقيمه السلطان ، وشرهم من لا علاج له إلا السيف والسنان ، وهو المراد بالحديد فتوام صلاح العالم بالايمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد فيجتنبها المؤمن خوفا من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيهما ، وبالعدل في الاحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ماورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه . فقد ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن اسوأ الذكر ، وقرن في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، وان الجزاء عليه فيها اثر لازم له لزوم المعلوم للعلة والمسبب للسبب ، ون الناس هم الذين يظلمون أنفسهم (ولا يظلم ربك احداً) ومن اثره وعاقبته في الدنيا انه مهلك الامم ومخرّب العمران . قال تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) اي ما كان من شأنه ولا من سنته في نظام الاجتماع ان يهلك الامم بظلم مناهم ، او بشرك به يقع منهم ، وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم ، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم ، كما قال (وتلك القرى اهلكناها لما ظلموا وجعلنا المهلكهم موعداً) وقال في الاحكام (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون) ورد هذا في حكم القصاص ،

(قواعد مراعاة الفضائل في الاحكام والمعاملات)

من استقرأ الاحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والوفاء بالعهود والعقود ، والرحمة والمحبة والمواساة والبر والاحسان ، واجتناب الرذائل من الظلم والعدو ونقض العهود والعقود والسكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت وشره التجارة بالدين والخرافات . وسيأتي الكلام في الإصلاح الحربي والعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الاسلام جميع شرائع الانبياء وقوانين الحكماء والعلماء أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين ، فهل كانت بوحى نبع بعد السكمولة من نفسه ، أم هو كما بلغنا وحي من ربه ؟

المقصد السابع من فقه القرآن

(الارشاد إلى الإصلاح المالي)

(تمهيد) يبين مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق التدين والايمان ، والعمل والادعان ، ومن طريق العقل والبرهان والفكر والوجدان ، ومن طريق الحكم العادل والسلطان ، وما يتعلق منه بالافراد ، وما يتعلق منه بوحدة الانسانية والاجناس ، وبقي ما يتعلق بفقهه في إصلاح المفاصل الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كاله على ما تقدم كاه ومي :- (١) طغيان الثروة ودُّ ولتها (٢) عدوان الحرب وقسوتها (٣) ظلم المرأة واستباحتها (٤) ظلم الضعفة والامسرى وسلب حريتهما ، وهو الرق المطلق — ذلك بان جميع حظوظ الدنيا منوطة بها ، ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل ، والعلم والحكمة والحكم ، وإننا نتكلم عليها بالاجمال ، مبتدئين بالمال ، والآيات فيه تدور على سبعة أقطاب ، فنقول :

(١- القاعدة العامة في المال كونه فتنه واختباراً في الخير والشر)

القاعدة الأساسية للقرآن في المال انه فتنه أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معاش ومصالح اذ هو الوسيلة إلى الاصلاح والافساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه، وكفزه واحتساره، وجعله دولة بين الاغنياء، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس قال الله عز وجل (٣: ١٨٦) تلبسون في أموالكم وأنفسكم) وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده (٢٧: ٤٠) هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر (الآية. وقال (٣٤: ٣٧) وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقر بكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) الآية وقال [٣٠: ٣٩) وما آتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون [وقال [٣: ١٤) زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة الآية وقال تعالى [٨: ٢٨) واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنه وأن الله عنده أجر عظيم [ومثلها في سورة التغابن [٦٤: ١٥) ويليتها الترغيب في الانفاق وقصر الفلاح على الوفاية من شح النفس . وقال تعالى [١٨: ٤٦) المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً [انظر هذا مع قوله تعالى في اول هذه السورة وهي الكهف [٧) إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملاً [والمراد من العمل ما يتعلق بما على الارض من العمران وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه الله بشكره، ثم ماض به من المثل بصاحبي الجنيتين، والمثل للحياة الدنيا ببنات الارض . وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقيه [٥٩: ٧) كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم [والدولة بضم الدال المال المتداول أي لئلا يكون المال محصوراً

في الاغنياء متداولاً بينهم وحدهم . وقال تعالى [٣٤:٩] والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم) الخ الكنز هو المنع من التداول الذي يكون به المال نافعا للناس

والشواهد في فتنه المال في القرآن كثيرة تجدد الكلام عليها في مواضع من هذا التفسير ولا سيما الجزء العاشر منه^(١) فن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بانفاق المال والشقاء بمنه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله [٢ ، ١٩٥] وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة [الآية (٢)] أي ان منع انفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال في الترغيب (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وكذا قوله تعالى من سورة الليل [١١-٦٤٩٢] ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات المال وهي :

(٢ - الآيات في ذم طغيان المال وغروره وصدده عن الحق والخير)

قال تعالى في سورة الملق [كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى] أي حقاً ان الإنسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال . وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والاسلام في أول ظهوره وهي أول ما نزل في ذلك . ومثلها سورة [تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب] الخ ومثلها سورة الهمزة [الذي جمع ما لا وعدده * يحسب أن ماله أخلده] الخ وفي معناها آيات من سورتي المدثر والقلم وغيرها

(٣ - ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في انفاقه)

قال تعالى (١٨٠:٣) ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) وقال (٢ : ٢٦٠) الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الآية . ففسروا الفحشاء بالبخل أي الشيطان

(١) راجع في فهرسه كلمة المال فتنته (٢) ص ١٣ ج ٢ تفسير . طبعة ثانية

٢٧٤ مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل التفسير : ج ١٩

يصدكم عن الانفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذي فحش شره وضرره . وقال بعد الامر بالاحسان بالوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين والجيران (٤ : ٣٥) والله لا يحب كل مختال فخور ٣٦ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل (ومن الشواهد آيات ٩ : ٧٧ و ٧٨ وآية ٤٧ ، ٣٨ وآية ٤ : ١٩ وآية ٢ : ١٨٨ وآية ٤ : ١٦١ وآية ٤ : ١٩ وآية ٤٩ : ٣٤ و ٣٥)

(٤ . مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل الصالح)

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام حكاية عنه [فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً] وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سوره [٥٢ : ١١] وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن [٧٢ : ١٣ - ١٧] والاصل في ذلك كله بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه [٢٠ : ١٢٢ و ١٢٣] الآيات .

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفاً على الامر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام (٩ : ٢٨) وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) أي وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفعه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالاسلام وفتوحه وغناؤه ^١ وكذا قوله للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر [٨ : ١٠٠] إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم] وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء عامة ومن أسلم من أولئك الأسرى بالاسلام ، فجعلهم أغنى الأمم والاقوام ^٢ وقد امتن الله تعالى على نبيه الاعظم بقوله (ووجدك عائلاً فأغنى) وامتن على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك ، وسمى المال الكثير خيراً بقوله في صفات الانسان (وانه لحب الخير لشديد) وقال (٢ : ١٨٠) إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقرابين (الآية)

(١) راجع تفسير الآية في ص ٢٧٧ ج ١٠ تفسير (٢) راجع ص ١٠٠ منه

﴿ ٥ — ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع والاقتصاد فيه ﴾

قال تعالى (٥: ٤) : « ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيام الشيء وقوامه (بالنكسر والفتح) ما يستقيم به ويحفظ ويثبت ، أي جعلها قوام معاشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشداً أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم وقال تعالى في صفات المؤمنين (٦٧: ٢٥) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (الاسراف التبذير والافراط والقتر والقتور والاقتار الاقلال والتضييق في النفقة »

﴿ ٦ — إنفاق المال آية الايمان والوسيلة لحياة الامة وعزة الدولة ﴾

هذا هو القطب الاعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه، وما ذكر قبله وسأئله : وما بعده بيان للعمل به ، وأظهر الشواهد فيه ان الله تعالى جعله هو الفصل بين الاسلام الصحيح المقترب بالاذعان ، المبني على اساس الايمان ، وأن دعوى الايمان بدون شهادته باطلة ، وإن كانت دعوى الاسلام مقبل مطلقاً لأن أحكامه العملية تبنى على الظواهر ، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرائر ، والاصل في هذه المسألة قوله تعالى (٤٩ : ١٤ و ١٥) قالت الأعراب آئنا قتل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الآيتين فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الايمان ، وبلي هذا الشاهد آية البر الناطقة بأن بذل المال على حبه بالاختيار ، أول آيات الايمان ، (١٧٧ : ٣) ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ ومن الآيات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله تعالى (٤ : ٩٥) لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى) اقرأ تنمة الآية وما بعدها . وقال تعالى (٥٧ : ١٠) وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والارض ، لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد

وقالوا ، وكلاً وعد الله الحسنى) والآيات في هذا الموضوع كثيرة ، ويراجع تفصيلها في تفسير الجزء الثاني والجزء العاشر وهذا الجزء [١١] من التفسير ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه ، وبين آدابه ، عشرون آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن يتمثلها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١-٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث ثم راجع في فهرس الجزء العاشر كلمة (المال: الجهاد به اقوى آيات الايمان وقوام الدين والدولة) يرشدك الى عشر صفحات متفرقة فصلنا فيها هذه المسألة

٧ الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح المالي في الاسلام

قد عقدت لتفسير قوله تعالى (٩ : ١٠٣ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فصلاً « في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي للبشر وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان » ولخصت أصول هذا الاصلاح في أربعة عشر أصلاً ، فراجعها فما هي منك ببعيد (ص ٢٧) وموضوع بحثنا في هذا الاستطراد وهو دلائل الوحي الحمدي انه لا يعقل أن يكون محمد النبي الامي الذي عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بعقله أو بوحى من نفسه نفسه إلى هذه الحقائق التي قاقت وعلت جميع الكتب الالهية والبشرية في أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين ، وإنما المعقول أن يكون هذا بوحى منه عز وجل أفاض على خاتم النبيين فلا يحتاجون بعده إلى وحي آخر

المقصد الثامن من فقه القرآن

اصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على مافيه الخير للبشر

التنازع بين الاحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة ، وإفضاء التنازع الى التعادي والافتتال بين الجماعات والاقوام ، ستمن سنن الاجتماع ، وضرورة من ضروراته ، قد تكون وسيلة من وسائل العمران ، فإن كان

التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق ، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم ، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام ، وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح ، كما قال تعالى في الحق والباطل (٢١ : ١٨) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضرب به لها (١٣ : ١٧) فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

وأما التنازع والتعادي والتقاتل على الشهوات الباطلة ، والسلطة الظالمة ، واستعباد القوي للضعيف ، والاستكبار والعنوف في الأرض ، فإن ضرره كبير ، وشره مستطير ، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء ، ويورثهم الحقد ويورث بينهم العداوة والبغضاء ، وقد اشتدت هذه المفاسد في هذا الزمان ، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير ، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخريب والتدمير ، كالعازات السامة ومواد الهدم والتجريق تقذفها الطائرات المحلقة في جو السماء ، على المدائن المكتظة بالآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر ، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لموضع نظام لتقرير السلام ، ودرء مقاسد الخصام ، بمعاهدات يعقدونها ، وأيمان يتقاسمونها ، ثم ينفضون خائبين ، أو ينفضون مأبرموا متأولين ، ويعودون إلى مثله مخادعين

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول بأظهر مما كان في عرب الجاهلية الذين نزل هذا البيان في عهدهم ، كأنه نزل في هؤلاء الأفرنج دون غيرهم ، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه . وذلك قوله تعالى بعد الأمر بالإيفاء بهده ، والنهي عن نقضه (١٦ : ٩٢) ولا تكونوا كآلتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) وألمعني لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كثرأة الخفاء التي تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث (وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى) حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم

(والدخل بالتحريك الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه) لاجل ان تكون أمة أربي من أمة أخرى رجلا ، وأكثر رجحا ومالا ، وأقوى أسنة ونصالا والمراد ان معاهدات الصلح والاتفاق بين الامم يجب أن يقصدها الإصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الاخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به ما ذكر ولو طلبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوها في دين الاسلام ، فهو هودين الحق والعدل والسلام ، وهالك بعض الشواهد على هذا من قواعد الحرب والسلم في آيات القرآن .

(أنعم قواعد الحرب والسلام في دين الاسلام والشواهد عليها من آيات القرآن)

قد استنبطنا من آيات سورة الانفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجملناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة (ص ١٣٦ - ١٤٤ من جزء التفسير العاشر) وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها ، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة ١٣ قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الاسلام - ٢٠ حكما من أحكام الحرب والجزية سردها في خلاصة تفسير هذه السورة (*) ثم أثينا ببضع قواعد منهما ومن غيرها من السور فيما أغردناه من هذا البحث ، لان المقام مقام إيراد الشواهد المجملة على أنواع الإصلاح الاسلامي من القرآن للاستدلال بها على ان جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الامي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد ، إلا قليلا من رعي الغنم في الصبا والتجارة في الشباب . وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الاديان الالهية ، وكتب الحكمة والقوانين البشرية

(القاعدة الاولى في الحرب المفروضة شرعا)

ورد الامر بقتال المعتدين لما سيأتي من درء المفساد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم ، والشاهد عليه قوله تعالى (٢ : ١٩٠) وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقا دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ ، ومن ثم يبيننا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعا ليس فيها شيء من العدوان ،

(القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها)

وهي أن تكون الغاية الايجابية من القتال - بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن - حماية الاديان كلها ، وعبادة المسلمين لله وحده ، ومصالحة البشر ، وإسداء الخير إليهم ، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم ، والشاهد الاول عليه قوله تعالى بعد الاذن الاول بالقتال الدفاعي للمظلومين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق لأجل عبادة الله وحده (٢٢ : ٤٠) ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ٤١ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور)

ذكر في تعليل اذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (أولها) كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم ، ومخرجين نفيا من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم ، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني ، أو الديني والدنيوي (ثانيا) أنه نولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الانبياء كصوامع العباد وبيع النصراني وصلوات اليهود

(كنهائهما) ومساجد المسلمين بظلم عباد الاصنام ومنكري البعث والجزاء ، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الدين في الاسلام وحماية المسلمين لها ولعابداً أهلها وكذلك كان (ثالثها) أن يكون غرضهم من التمكن في الارض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للانفس بنهبها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى ، والمربية للانفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته - وإيتاء الزكاة المصاحبة للامور الاجتماعية والاقتصادية - والامر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس - والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضرر ياحق صاحبه او غيره من الناس

(القاعدة الثالثة — إِشار السِّلْم على الحرب)

هذه القاعدة مبنيّة على القاعدتين اللتين قبلها اذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد ، وان السلم هي الاصل التي يجب أن يكون عنها الناس ، فلهذا أمرنا الله بإشارها على الحرب اذا جنح العدو لها ، ورضي بها ، والشاهد عليه قوله تعالى (٨ : ٦١) وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) فراجع تفسيرها في ص ٦٩ و ١٤٠ من جزء التفسير المباشر

(القاعدة الرابعة الاستعداد التام للحرب لأجل الارهاب المانع منها)

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الامة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ورباط الخيل في كل زمان يحسبه على أن يكون القصد الاول من ذلك إرهاب الاعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الامة أو مصالحها ، أو على أفراد منها أو متاع لها حتى في غير بلادها ، لاجل أن تكون آمنة في عقر دارها ، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها ، وهذا ما يسمى في

عرف هذا العصر بالسلم المساحة أو التسليح السامي ، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعاً فتسكذبها أعمالها ، ولكن الاسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله ديناً مفروضاً ، فقيده به الامر باعداد القوى والمرايطة للقتال ، وذلك قوله عز وجل (٨ : ٦٠) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)

(القاعدة الخامسة الرحمة في الحرب)

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر بالاثخان في الاعداء وأمنوا على أنفسهم ظهروا العدو عليهم فإله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل ، ويكفوا بالاسر ، ثم يخيرهم في الاسارى إما بالن عليهم باطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم ، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ (٤٧ : ٤) فإذا لقيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب ، حتى إذا اشختتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبولوا بهم (بعض) الآية وقد أوردناها وبيننا معناها (في تفسير ٨ ، ٦٧ ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الارض الآية) (راجع تفسيرها في الجزء العاشر)

(القاعدة السادسة الوفاء بالامامات وتحريم الخيانة فيها)

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سرا أو جهرا ، كتحریم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية ، كلاهما من أحكام الاسلام القطعية ، والآيات في ذلك متعددة هيكمة لا تدع مجالا لابطاح نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة (منها) والآيات فيها كثيرة تقدم أهمها في الجزء العاشر من التفسير ^(١)

﴿ القاعدة السابعة الجزية وكونها غاية للقتال لاعلة ﴾

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية (٢٩: ٩) حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) مانصه :

هذه غاية الأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها اذا كان الغلب لنا ، أي قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل الروم فكان سبباً لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم باعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما (ثم قلت)

هذا - وان الجزية في الاسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلاً عن المغارم التي يرهقونهم بها ، وإنما هي جزاء قليل على ما تلزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذي يمنعهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة وأعداهم في تنفيذها . والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ما تقدم آنفاً (١)

ومن تأمل هذه القواعد رأى انه لم يسبق الاسلام إلى مثلها دين من الاديان ، ولا قانون دولي ، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي ، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل . أفليس هذا وحده دليلاً واضحاً لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم ، بأن محمداً العربي الأمي قد استمدّها بوحى منه عز وجل ، وان عقله وذكاؤه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي ؟ فكيف إذا أضفنا إليها ما تقدم وما يأتي من المعارف الالهية والادبية والاجتماعية والانباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ ؟

المقصد التاسع من فقه المرأة

﴿ إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية ﴾

كان النساء قبل الاسلام مظلومات ممتحنات مستعبدات عند جميع الامم وفي جميع شرائعها وقوانينها ، حتى عند أهل الكتاب ، حتى جاء الاسلام ، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فأعطى الله النساء بكتابہ الذي أنزله عليه ، وبسننہ التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل ، جميع الحقوق التي اعطاها للرجال ، إلا ما يتضيه اختلاف طبيعة المرأة وظائفها النسوية من الاحكام ، مع مراعاة تكرمها والرحمة بها والعطف عليها ، حتى كان النبي ﷺ يقول « ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » رواه ابن عساكر من حديث علي (ع.م) .
وانني أشير هنا الى أهم أصول الاصلاح النسوي التي بسطتها بكتاب وسبط في حقوق النساء في الاسلام بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أم الارض اجمالاً بقولي :

« كانت المرأة تشتري وتباع ، كالعبيدة والمتاع ، وكانت تسكره على الزواج وعلى البغاء ، وكانت تورث ولا ترث ، وكانت تملك ولا تملك ، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل ، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بما لها من دونها ، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها انساناً ذات نفس وروح خالدة كالرجل ام لا ؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة ام لا ؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة ، وأن يحكم فيها كالبعير والسكب العقور لمنعها من الضحك والكلام ، لأنها احبولة الشيطان . وكانت اعظم الشرائع تبجح للوالد ببيع ابنته ، وكان بعض العرب يرون ان للاب الحق في قتل بنته بل في وأدّها « دفنها حية » ايضاً . وكان منهم من يرى انه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية »

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الإسلام ما مختصره
 «قد أبطأ الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من الملك
 أو التصديق عليهن في التصرف بما يملكن ، واستبعاد الأزواج المتزوجات منهن
 بأموالهن ، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة ، فشرع الوصية
 والارث لهن كالرجال ، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة
 على المرأة وأولادها وإن كانت غنية ، وأعطاهن حق البيع والشراء والاجارة والهبة
 والصدقة وغير ذلك . ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها
 بالتقاضي وغيره من الاعمال المشروعة ، وإن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة
 بإرادة زوجها في جميع التصرفات المالية ، والعقود القضائية»

وانني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالإنجاز

(١) كان بعض البشر من الأفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو
 من الشياطين لا من نوع الانسان وبعضهم يتكلم في ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم
 قول الله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) الآية وقوله (خلقكم من
 نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وما في معناها

(٢) كان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون
 لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً فجاء الاسلام يخاطب
 بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بلقب المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجته خديجة بنت
 خويلد (رض) وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن ثم بايع الرجال
 بما جاء فيها - ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعاً رسمياً وضع عند امرأة هي
 حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق إلى عهد
 الخليفة الثالث عثمان (رضي الله عنهم) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ
 المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الأمصار لأجل النسخ عنها والاعتماد عليها

(٣) كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع
 الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة - وهذا الزعم أصل لعدم تدينها -

فنزل القرآن يقول (ليس بآمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً) ويقول (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض) الآية وفيها الوعد الصريح بدخول الفريقين جنات تجري من تحتها الأنهار

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمحافل الادبية ، ولا في غيرهما من الامور الاجتماعية والسياسية والارشادات الاصلاحية ، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى (٧١:٦) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الآية ثم قال (٧٢) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم) فراجع تفسيرهما في ص ٥٤١ من جزء التفسير العاشر (٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره من التملك وبعضهم

يضيّق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الاسلام هذا الظلم وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع ، قال الله تعالى (الرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) وقال (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الاميريكية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا ، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية ، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضرباً من استرقاق الرجال للنساء فجعله الاسلام عقداً دينياً مدنياً قضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحلب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والافعة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الانسانية وانتشارها من الوالدين إلى الاولاد ، على ما أرشد

اليه قوله تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشراكة الزوجية للرجل لانه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والاولاد لا تكلف الزوجة منه شيئا ولو كانت أغنى منه ، وزادها المهر فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلاً مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى اذا لم يذكر فيه لزمه فيه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية ، ولها أن يؤجلا بعضه بالتراضي ، على حين ترى بقية الامم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل

وكان أولياء المرأة يجبرونها على الزوج بمن تكره او يعضلونها بالمنع منه مطلقا وإن كان زوجها وطلقتها فحرم الاسلام ذلك ، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته وتقدم بيانها في الجزء الثاني من التفسير

(٨) كان الرجال من العرب وبني اسرائيل وغيرهم من الامم يتخذون من الازواج ماشاءوا غير مقيدين بعدد ، ولا مشترط عليهم فيه العدل ، فقيدهم الاسلام بان لا يزيدوا على أربع ، وان من خاف على نفسه ان لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة ، وانما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والاحصان لانها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع ولا سيما حيث يقل الرجال ويكثر النساء وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب (حقوق النساء في الاسلام) ما هو مقنع لكل عاقل منصف بان ما شرعه الاسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية اذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الاحصان والنفقة

والمعاشره بالمعروف، وكان مشروعا عند اهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله ف جاء الاسلام فيه بالاصلاح الذي لم يسبقه اليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون ، وكان الافرنج يحرمونه ويعيبون الاسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فاسرفوا فيه اسرافا مندرا بفوضى الحياة الزوجية والمحالل وابط الاسرة والعشيرة

جعل الاسلام عقدة النكاح بيد الرجل ويتبعه حق الطلاق لانهم احرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدتها وحلها وكونهم اثبت من النساء جأشا واشد صبرا على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى على هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحسبها على ما يكرهون من نسا ئهم فقل (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) على ان الشريفة تعطي المرأة حق اشتراط جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها اذا شاءت واعطتها حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي اذا وجد سببه من العيوب الخلقية او المرضية كالرجل وكذا اذا عجز الزوج عن النفقة . وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج ، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يفضله للتنفير عنه — إلى غير ذلك من الاحكام التي ينهاها في تفسير الآيات المنزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الاسلام

(١٠) بالغ الاسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، واكد النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب ، ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الاخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الارحام ، بل جعل لكل امرأة فيما شرعا يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولي من اقاربها وجب على أولي الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها

وجملة القول انه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الامم اعطى النساء ما أعطاهن الاسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، فليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم لمحمد النبي الامي المبعوث في الاميين ؟ بل وانا على ذلك من الشاهدين المبرهنين ، واخذ الله رب العالمين

المقصد العاشر من فقه القرآن تحرير الرقبة

ان استرقاق الاقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر ، بل هو معروف في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضا كالحمل ، فاذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فلها قاسر ماسلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المؤونة وخزنها في مخازنها وغير ذلك

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرقيق مشروعا عند الافرنج إلى أن حررت الولايات الاميريكية المتحدة رقيقةها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتلتها انكلترة بأخذ الوسائل لمنع من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر وجنوحا للمساواة بينهم ، فان الاولى لا تزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الاخر الوطني الاصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما ان انكلترة تحتقر الهنود وتستخدمهم ، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوئهم ، وطأمنت من إشفاق كبيرائهم .

فلما ظهر الاسلام ، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام ، كان مما أصلحه من فساد الامم ابطال ظلم الرقيق وإرهاقه ، ووضع الاحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، إذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذرا في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين : فاحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الارقاء المستعبدين .

فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كن بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة الرزق فلا يجدها فيجور الى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان وكذلك جرى في السودان المصري ، فقد جرب المحكام من الانكليزان أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستغنين غيه مكتفين به فلم يمكن ، فاضطروا إلى الاذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة ، بيد انها أن لا تسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم

هداية الاسلام في تحرير الرقيق وأعطاه

قد شرع الله تعالى لإبطال الرق طريقتين: عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل،
وتحرير الرقيق القديم بالتدرج الذي لا ضرر ولا ضرار فيه
(الطريقة الأولى) منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الاقوياء
بالمضعف إلا استرقاق الاسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه
من دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة^(١) وهي
شروط لم تكن قبله مشروعة عند المسلمين، ولا عند أهل الحضارة فضلا عن المشركين
الذين لا شرع لهم ولا قانون، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا
النوع من الاسترقاق كل ما كانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لأولي
الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضائه أو إبطاله بأن خيرهم في أسرى
الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم، وهو نوعان فداء المأل وفداء
الانفس، اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم، وذلك قوله تعالى الذي أوردناه
في قواعد الحرب (فشدوا الوثاق فاما منا بعد^(٢) واما فداء) ولما كنا نخير بين
فيهم بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم، جاز أن يعد هذا أصلا شرعيا لإبطال
استئناف الاسترقاق في الاسلام، فان ظاهر التخيير بين هذين الامرين ان الامر
الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز، لو لم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع
الامم، فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن ارحم
بهم واعدل كما يعلم مما يأتي. ولكن الآية ليست نصا في الحصر، ولا صريحة في
النهي عن الأصل، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقا غير قطعية، فبقى
حكمه محل اجتهاد أولي الامر، اذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقيه، واذا وجدوا
المصلحة في ترحيح المن عليهم بالحرية وهو ابطال اختياري له أو الفداء بهم عملوا به

(١) راجع المقصد الثامن من فقه القرآن ص ٢٧٦ (٢) ص ١٥٣

﴿ الطريقة الثانية ما شرع لتحرير الرقيق الموجود وجوباً وندباً وهو أربعة أنواع ﴾
(النوع الاول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل)

(١) إن الأصل في الإنسان هو الحرية ويترتب عليه أحكام (٢) تحريم الاسترقاق وبطلانه غير ما تقدم بشرطه (٣) الكتابة وهي شراء المملوك نفسه من سيده بمال يكسبه وقد أمر الله بها لمن يبتغيها وأمر بمساعدته عليه بالمال من المالك نفسه (٤) إذا خرج الأرقاء من دار الكفر إلى دار الإسلام يصيرون أحراراً . (٥) من أعتق بعض عبده عتق كله عليه وإن كان البعض الآخر لغيره . فله أحكام (٦) من عذب مملوكه أو مثّل به كأن خصاه أو جبه عتق عليه وزال ملكه عنه (٧) من آذى مملوكه بما دون الثميل والعذاب الشديد فكفارة ذنبه أن يعتقه (٨) التدبير عتق لازم وهو أن يعتق مملوكه بعد موته فله أن يستخدمه مدة حياته ولكن ليس له أن يبيعه لأنه صار حراً بعد موته (٩) إذا ولدت الجارية لسيدها ولداً منه حرم عليه بيعها وهبتها لغيره وتصير حرة بموته لا تورث عنه (١٠) من ملك أحد أقاربه عتق عليه وقد بينا الآيات والاحاديث الدالة على هذه الأحكام في كتاب (الوحي المحمدي) الذي بسطنا به هذا البحث من التفسير

﴿ النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات ﴾

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام (أحدها) واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة أو ثمنها ككفارة قتل النفس خطأ ، وكفارة الظهار وهو تشبيه الرجل زوجته بأمه وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيدته المعروفين في الفقه

(ثانيها) واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف بيمين وحنت فيها فكفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة (ثالثها) مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

﴿ النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود ﴾

جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنص القرآن، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه (انكتابة) ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الالوف وألوف الالوف من الدراهم والدنانير، فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لأمكن تحرير جميع الرقيق في دار الاسلام

﴿ النوع الرابع منها العتق الاختياري نوجه الله تعالى أي ابتغاء مرضاته ﴾

قد ورد في الكتاب والسنة وأثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير، وما يدل على انه من أعظم العبادات وأصول البر آية البر من سورة البقرة (٢ : ١٧٦)

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ « أيما رجل أعتق امرأً مسلماً (١) استغفر الله بكل عضو منه عضواً من النار » متفق عليه من حديث أبي هريرة، وفي رواية « عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال « إيمان بالله وجهاد في سبيله » قلت فأَي الرقاب أفضل؟ قال « اغلّاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » الحديث. ومنها حديث أبي موسى الأشعري الذي رواه الجماعة كلهم إلا مالك « أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران » وفي الصحيح ان أبا هريرة قالما روى قوله ﷺ « للمملوك الصالح أجران » قال والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أي لا أحببت ان أموت وأنا مملوك

﴿ الوصية بالمماليك ﴾

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالمماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والاقربين، ونهى النبي ﷺ عن قول السيد « عبدي وأمتي » وأمره ان (١) اتفق العلماء على شرعية عتق الكافر وانه قرينة وانما اختلفوا في عتقه في الكفارة

يقول «فتاى وفتاى وغلامي» وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون، ويعينوهم على خدمتهم أن كلفوهم ما يعلبهم كما في حديث أبي ذر في الصحيحين وغيرهما وكان يوصي بالنساء وما ملكت الأيمان حتى في مرض موته إلى أن التحق بالرفيق الأعلى ﷺ وسأله ابن عمر كم أعفو عن الخادم؟ قال «أعف عنه كل يوم سبعين مرة» وهذا مبالغة أي كلما أذنب

ولهذا كان المسلمون في الصدر الأول يبالغون في تكريم الرفيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يقصرون في الخدمة. ولعمري الحق أن العبد المملوك في حكم الإسلام الأول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الأحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الأفرنج من غيرهم أو نفوذهم، وإن حكومة الولايات المتحدة لتعامل الجنس الآخر من سكان البلاد الأصليين الذين تمن عليهم بالحرية يغير الأحكام التي تعامل بها الجنس الأبيض حتى أن من اعتدى منهم على امرأة بيضاء يقتل شر قتلة — إن لم تقتله الحكومة قتله الشعب بخلاف العكس، ولا يتسع هذا المقام لتفصيل ذلك والشواهد عليه

خلاصة البحث

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الأنبياء عندنا وعند الفصاري ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي، والكلام في إعجاز القرآن اللغوي والعلمي. وما أحدثه من الانقلاب البشري من كل وجه، ثم أضف إليها هذه العشرة الأنواع من مقاصد القرآن، في إصلاح البشر وتكميل نوع الإنسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والأدبي والاجتماعي والمالي والسياسي، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول في هذا العصر اليها موضحة بأصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل المصالح العامة، ودفع المفاسد القديمة والطارئة، من كل ما سبقها من تعاليم الأنبياء، وفلسفة الحكماء، وقوانين الملوك والحكام، على اختلاف الأعصار، مع العلم القطعي من تاريخ محمد ﷺ أنه كان أمياً يؤثر بطبعه عيشة العزلة فلم يتفق له الاطلاع على كتب الأنبياء، ولا غيرها من الكتب والقوانين،

وانه لم يعرف عنه انه كان يبحث في شيء من العلوم ، ولا انه نطق بشيء من مسائلها . والعلم بأنه انما جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين — وهي سن لم يعرف في استعداد أنفس البشر ومدرجات عقولهم ولا في تاريخهم ان صاحبها يأتنف مثلها انتفاها لم يسبق له البدء بشيء منه في أنف عمره ، وأنفقة شيا به وشرخه ، راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عتلك مضطراً الى الجزم بأن هذا كله فوق استعداد بشر أي أو متعلم وانه وحي من الله تعالى

فإذا فرضنا انه يحتمل أن يكون قد تسرب الى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في أسفاره القليلة ، أو انه فكر في حاجة البشر الى مثلها مما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم ، فهل يعقل أن تكون تلك الغائات الشاردة ، وهذه الخطرات الواردة ، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الامم كلها ، وان تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور الى أن تظهر في سن الكهولة ، بهذه الروعة من البيان ، وسلطان البلاغة على القلوب ، وقوة البرهان في العقول ، فتحدث هذه الثورة في الامة العربية الغيرة لطابعها ، المبدلة لأوضاعها ، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها ، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله ؟ وأعجب من هذا كله ان يظهر في هذا العصر أن أمم العلم والحضارة العجيبة أشد حاجة اليها ممن قبلهم ؟ كلا ان هذا لم يعرف مثله في البشر وإذ قد ثبت هذا فلو اوجب على كل من بلغه من البشر ان يتبعه ويهتدي به لتكامل انسانيته وأعدادها لسعادة الدنيا والآخرة . فإن اعترضته شبهة عليه فليبحث عنها أو لينبذها ، فما كان لما قل ثبت دنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته أو مداواة مرضه اشبهية في بعض مسائله أو خيبة الاطباء في بعض معالجاتهم المرضي وان حاجة البشر الى طب الارواح والاجتماع ، لاشد من حاجتهم الى طب الابدان

قُلْ قَلِيلٌ مِّنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (الانعام : ١٤٩)

« رضيت بالله ربا ، وبلاسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً »

﴿ ونعود الى نسق التفسير باسم الله وحده ﴾

(٣) إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ
بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟

افتتح السورة بذكر آيات الكتاب ، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب ،
وأنكر على الناس عجبهم أن يوحى إليهم من قبل ربهم ، وما لا يعلمون من
الدين الذي فيه سعادتهم ، منذرا من كفر بالعقاب ، ومبشرا من آمن بالثواب ،
وحكى عن الكافرين وصفهم لهذا الكتاب الحكيم والرسول الذي جاء به بالسحر ،
إذ كان كل منهما من خوارق العادات ، وقد وجد في البشر مشعوذون ودجالون
يأتون بعض الخوارق التي لا يعرف الجاهير أسبابها ، فرأوا أن هذا الكتاب
المعجز للبشر بأساويه وبلاغته ، وبعلمه وحكمته ، وبثأثيره في العقول والقلوب ،
يصحح أن يكون أو يوصف بأنه من هذا السحر المعهود وجوده ، المجهول سببه ،
وان هذا الرجل الذي جاء به ولم يعرف عنه قبله شيء من بلاغة القول ، ولا من حكمة
التشريع والعلم ، يصح أن يعد منتحلا للسحر ، ولكن السحر لم يكن في يوم من
الأيام حقائق علمية ولا هداية نافعة كما تقدم ، والسحرة لم يكونوا إلا أناسا من
المتسبين باطلاع الناس على غرائبهم المجهولة لهم ، فأين هذا وذاك من القرآن ومن
جاء به ، من حقائق ساطعة وهو لا يسأل عليها أجرا ، ولا يبتغي بها لنفسه نفعا هي
باقية بنفسها وبآثارها النافعة ، والسحر باطل لا بقاء له ؟ فالمعتين عند العقل أن يكون
ما فيها من العلم على كلام البشر ، والاعجاز الذي قامت به الحجة بالتحدي ، وحيا
من رب العالمين ، ونعمة منه عليهم بهداية الدين ، الذي هو لجللتهم ، كالعقل لا فرادهم ،
ووجب على كل من يؤمن بهذا الرب العلم الحكيم ، البر الرحيم ، أن يؤمن بأن هذا
من حكمته ربوبيته ورحمته بالعالمين ، وإلا كانت صفاته ناقصة بحرمان هذا الانسان ،
من هذا النوع الأعلى من العرفان ، والبيئات من الهدى والفرقان ، ولذلك قفى حكاية
عجبهم وما علاوه به ، من التذكير بالحجة التي تنقضه من أساسه ، فقال عز وجل

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

العرش يدبر الامر﴾ هذه الآية دلائل على تفنيدهم في عجبهم من وحي القرآن ، وبيان للرؤية التي يقتضي كمالها ثبوته وبطلان الشرك ، والخطاب فيها للناس الذين عجبوا أن يوحى إلى رجل منهم ما فيه هدايتهم بأسلوب الالتفات المنية للذهن ، يقول لهم إن ربكم هو الله الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم وهذه الارض التي تعيشون عليها في ستة أزمنة تم في كل يوم منها طور من أطوارها ، فان اليوم في اللغة هو الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه ، وان كان ألوف السنين من أيام هذه الارض الفلكية التي وجدت بعد خلقها ، أي أوجدها كلها بمقادير قدرها فان الخلق في اللغة التقدير ، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز التدبير ، لهذا الملك الكبير ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، وتنزيهه وكاله ، يدبر أمر ملكه ، بما اقتضاه علمه من النظام ، وحكمته من الاحكام ، فالاستواء على العرش بعد خلقهما ، وهو مخلوق له من قبلهما ، شأن من شؤونهما فيما لانعلم كنهيه ولا صفته من تدبير هذا الملك ، وكل يوم هو في شأن ، لا يدرك كنه شؤونه إنس ولا جان ،

والتدبير في أصل اللغة التوفيق بين أوائل الامور ومبادئها ، وأدبارها وعواقبها ، بحيث تكون المبادي مؤدية الى ما يريد من غاياتها ، كما أن تدبر الامر أو القول هو التمسك في دبره وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي اليه . ووجه دلالة هذه الجملة على ما ذكر أن الرب الخالق المدبر لجميع أمور الخلق لا يستنكر من تربيته لعباده وتدبيره لأمرهم أن يفيض ماشاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، ما يهديهم به لما فيه كمالهم وسعادتهم من عبادته وشكره وصلاح أنفسهم ، بل يجب على العاقل العالم بهذا التدبير والتقدير الذي تشهد به آياته تعالى في السموات والارض ، أن يؤمن بأن هذا الوحي منه عز وجل ، إذ هو من كمال تقديره وتدبيره ، ولا يقدر عليه غيره . وقد ذكرنا في تفسير آية الاعراف التي بمعنى هذه الآية (٧: ٤٤) الاختلاف بين علماء الكلام المبتدع وأئمة السلف وأتباعهم من علماء الاثر في مسألة الاستواء على العرش وأشباهاها من آيات علو الخالق تعالى فوق خلقه وسائر صفاته وحققنا أن مذهب السلف هو الحق الجامع بين العقل والعقل

ثم قال ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وهذه الجملة حجة ثانية على منكري الوحي ، في ضمن حقيقة ناقضة لعقيدة الشرك ، ذلك ان مشركي العرب وغيرهم ومقلداتهم من أهل الكتاب كانوا يعتقدون ان معبوداتهم من أولياء الله تعالى وعباده المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله تعالى بما يدفع عنهم الضر ويجلب لهم النفع في الدنيا ، والذين يؤمنون بالآخرة من الفريقين يشترطون لهم الشفاعة في الآخرة بالاولى ، ويسمون الاصنام التي وضعت للذكرى أولئك الاولياء شفعاء أيضا بالتبع ، وسيأتي في (الآية ١٨) من هذه السورة حكاية ما يقولونه في هذه الشفاعة . ويقال في بيان وجه الحجة عليهم فيها : إنكم اذا كنتم تؤمنون بأن الله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم عنده بما يقربكم اليه زلفى ويدفع عنكم الضر ويجلب لكم النفع ، وهو قول منكم على الله تعالى بغير علم ، فما لكم تشكرون وتعجبون أن يوحى تعالى الى من يشاء ويصطفى من هؤلاء العباد من يعلمكم من العلم ما يهديكم الى العمل الموصل الى كل ما تطالبونه من هؤلاء الشفعاء باستحقاق بدون عمل منكم ولا استحقاق لما تطالبون منهم ؟ وأما الحقيقة الناقضة لعقيدة الشرك في الشفاعة فهي انه لا يمكن أن يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى الا من بعد إذنه ، كما قال في سورة البقرة (٢٥٥ : ٢) من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وليس لاحد حق في الاخبار عنه تعالى بمن يشفع عنده ومن يقبل شفاعته الا باعلام منه ، وذلك لا يكون إلا بوحى منه . وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه الا من ارتضاه للشفاعة (١٠٩ : ٢٠) يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وان هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون الا لمن كان الله تعالى راضيا عنه بإيمانه وعمله الصالح كما قال (٢٨ : ٢١) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) مصداقا لقوله (قل لله الشفاعة جميعا)

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ احتجاج بما يؤمنون به من وحدانية الربوبية ، على شركهم في وحدانية الألوهية ، أي ذلك الموصوف بالخلق والتقدير ، والحكمة والتدبير ، والتصرف في أمر الشفاعة يأذن بها لمن شاء فيما شاء هو الله ربكم ، ومتولي أمور العالم ومنها أموركم ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، ولا معه

أحدا ، لا لأجل الشفاعة ولا لأجل مطالب آخر من مطالبكم ، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضراً ، وإنما يملك ذلك ربكم وحده ، وقد هداكم الى أسباب النفع والنفع الكسبية بعقولكم ومشاعركم وسخرها لكم ، وهداكم الى أسباب النفع والضرر الغيبية بوحيه وأقدركم عليها ، وكل ما يطلب من المنافع والمضار فإما يطلب من أسبابه التي سخرها تعالى وبينها لكم ، وما عجز عنه العبد أوجهه من ذلك ، فالواجب عليه أن يدعو الله تعالى وحده فيه ، وهذا هو الركن الاول للدين الالهى . ﴿ أفلا تدكرون ؟ ﴾ أي تجهلون هذا الحق المبين فلا تتذكرون ان الذي خلق السموات والارض وحده ، واستوى على عرش الملك يدبر الامر وحده ، ولا يمكن أن يشفع أحد عنده إلا بأذنه ، هو ربكم الذي يجب أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره ، وهو مقتضى الفطرة ، وما انكاره الا ضرب من الغفلة علاجها التذكير

هذا الاستفهام التعجبي من غفلة المشركين منكري الوحي عن هذه الحقيقة . وهي انه لا يستحق العبادة من الخلق أحد إلا ربهم وخالقهم ومدبر أمورهم بوجه بالاولى الى المؤمنين بالقرآن من القبوريين وعباد الصالحين كيف لا يتذكرون هذه الآيات وأمثالها كلما شعروا بالحاجة الى ما عجزوا عنه بكسبهم من دفع ضرر أو جلب نفع ؟ اذ تراهم يوجهون وجوههم الى قبور المشهورين من الصالحين في بلادهم ، ويشدون الرحال الى ما بعد منها عنهم ، ويتقربون اليها بالنذور ويطوفون بها كما يطوف الحجاج ببیت الله عز وجل ، داعين متضرعين مستغيثين خاشعين ، وهذا من العبادة وروحها وأجلى مظاهرها ، ولا ترى مثله من أحد ممن يصلي منهم في صلاة الجماعة ولا صلاته منفردا في بيته ، على أن أكثرهم لا يصلون ولا يعتدنون أن الصلاة تنفعهم كهذه القبور ، ذلك بأن أكثرهم يجهلون هذه الآيات وأمثالها من القرآن وإنما يتلقون عقائد دينهم بالعمل والقول من آبائهم وأمهاتهم ومعاشرتهم ، وهم قبوريون لا يعرفون ما جاء ولا ملتصدا عند الشدائد والشعور بالحاجة الى السلطان الرباني الغيبي الا هذه القبور ، وأقلهم يتلقون بعض كتب العقائد الكلامية الجافة ممن ألفوا عبادة القبور قبل أن يقرءوها ، وأكثرهم يتأولون لانفسهم وللعوام تلك العبادة ويسمونها بغير اسمها كالتوسل والاستشفاع ، وحجتهم عليها نفس حجة المشركين وأهل الكتاب ، لا فرق الا في بعض الالفاظ وأسماء الاشخاص

(٤) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

هذه الآية بيان للركن الثاني من أركان الدين وهو البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال يقول تعالى ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي إلى ربكم دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعاً بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه لا يتخلف منكم أحد ﴿وعد الله حقاً﴾ أي وعد الله هذا وعداً حقاً لا يخالف ﴿أنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ هذا بيان لتعلق الوعد المؤكد مرتين بدليله، أي أن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق وينشأه عند التكوين ثم يعيده في نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه فالتمثيل بفعل المستقبل (يبدأ) لتصوير الشأن وهو يشمل الماضي والمستقبل، ولفظ الخلق عام يراد به الخاص أولاً وبالذات، بدليل ما قبله وما بعده من السياق، وقد أجمع علماء الكون الماديون منهم والروحانيون على أن الأرض وجميع الأجرام السماوية ما يرى منها بالابصار والآلات المقربة للابعاد وما لا يرى كلها قد وجدت بعد أن لم تكن، وأن كانوا لا يزالون يبحثون في نشأة تكوينها والقوة الأولية المنتصرة في أصل مادتها، كأنهم متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المر تبطة معها في هذا النظام الشمسي الجامع لها، وعلى أن أقرب الأسباب الموافقة لأصول العلم الثابتة أن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية فتبسطها بساً، حتى تكون هباء منبثاً، كما تشير إليه سورة القارعة والواقعة وغيرها فأما بدءه فقد حصل بالفعل وأما إعادته فدليلاً أن القادر على البدء يكون قادراً على الإعادة بالطريق الأولى، كما قال في سورة الروم (٣٠ : ٢٧) وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الآية ومن المسائل المتفق عليها عند علماء الكون في هذا العصر - وهي تقرب إلى العقول عقيدة البعث - أن هذه الأجساد الحية

ينحل منها في كل وقت ما يتبخر في الهواء وما يموت في داخل الجسم ثم يخرج منه، ويحل محل كل ما يزول ويندثر مواد حية جديدة حتى يقضى جسد كل حيوان، فهو يزول في سنين قليلة ويتجدد غيره، فالبدن والاعادة في كل جسد دائماً مادام حياً، وقد فصلنا مسألة البعث بالبيان العلمي في تفسير سورة الانعام (ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨)

﴿ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط﴾ هذا تعاليل للاعادة أي يعيده لأجل جزائهم، والقسط العدل وقال الراغب النصيب من العدل أي ليجزىهم بـعدله وهو عبارة عن إعطاء كل عامل حقه من الثواب الذي جعله الله لعمله بمعنى انه لا يظلم منه شيئاً كما قال في سورة الانبياء (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً) الآية . ولا يمنع ذلك أن يزيدهم ويضاعف لهم كما وعد في آيات أخرى منها قوله (١٧٢: ٤) فيؤفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقوله في هذه السورة (٢٦) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالحسنى هي الجزاء بالقسط المضاد للجور والظلم . والزيادة فضل منه عز وجل . وسأتي فيها أيضاً قوله (٤٧ و ٥٤) وقضى بينهم بالقسط) وقيل ان المراد بـجزئهم بما كانوا عليه من القيام بالقسط وهو الحق والعدل في الأمور كلها الذي هو مقتضى الايمان في قوله تعالى (٢٥: ٥٧) لقد أرسلنا رسالنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقوله (٢٨: ٧) قل امر ربي بالقسط) على أن القسط في الآيتين عام شامل لأمر الدين كلها ، وقيل بل المراد منه الايمان أو التوحيد المقابل لظلم الشرك في قوله تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) والمتبادر الموافق لسائر الآيات الصريحة هو الاول ولا يصح ارادة الثاني الا بالتبع للاول أو الجمع بين المعنيين على القول بأن كل ما يحتمله اللفظ من المعاني المشتركة فيه أو حقيقة ومجازة بمقتضى اللغة من غير مانع من الشرع يكون مراداً منه

﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ الحميم الماء الحار أو الشديد الحرارة الذي يستحم به والعرق، يقال استحم الفرس اذا عرق ، والحمام الذي هو مكان الاستحمام من الاول أو من الثاني . والجملة بيان لجزاء الكافرين في مقابلة جزاء المؤمنين الصالحين على منهج القرآن في الجمع بينهما . والمعنى ان الكافرين لهم من الجزاء شراب من ماء حميم يقطع أمعاءهم

٣٠٠ بلاغة القرآن وكون عقاب الآخرة أثراً طبيعياً للكفر والعمل (يونس: ١٠)

وعذاب شديد الآثم (وهذا من عطف العام على الخاص) ونكمة هذا الخاص ان العرب الذين خوطبوا به أولاً ونزل بلغتهم ولا سيما عرب الحجاز يشعرون بما لا يشعر غيرهم من أوعيد بشرب الماء الحميم والحمران من الماء البارد — وإنما كان لهم هذا الجزاء بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة الى الموت كدعاء غير الله تعالى والنذر لغيره وذبح القرابين لغيره وسائر الاعمال السيئة التي يزينها لهم الكفر ويصد عنها الايمان ، فقوله (والذين كفروا) مقابل لقوله (الذين آمنوا) وقوله (بما كانوا يكفرون) مقابل لقوله (وعملوا الصالحات) لان الذي يتجدد من الكفر أعماله لاعقيدته . على ان العمل بمقتضى العقيدة هو أثرها يزيد بها قوة ورسوخاً واستمراراً ، وسيعاد ذكر جزاء الفريقين بعد آيتين بتفصيل آخر لعمليهما ولعل نكمة اختلاف النظم أو الاسلوب — في جزاء الفريقين وتعليل الرجوع اليه تعالى هنا — هي إفادة ان المقصود بالذات من الرجوع الى الله تعالى هو جزاء المؤمنين الصالحين لانه هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري للذين زكوا أنفسهم في الدنيا بما يكون لهم في الجنة من غلبة سلطان الارواح على الاجساد ، وجعلها تابعة لها في الجمع بين خصائص المادة والروح الذي هو حقيقة الانسانية ، فيلقى الانسان الكامل هنالك من النعيم المادي الخالي من الشوائب والتنفيس الذي عهد به في الدنيا ، ومن النعيم الروحاني المعبر عنه برضوان الله الاكبر كما تقدم في آية سورة التوبة (٧٢) ما يتحقق به فضل الانسانية الجامعة ، على الروحانية الخالصة ، وما أعده تعالى لصاحبها مما لا يعلم كنهه في هذه الحياة أحد كما قال تعالى في سورة ألم السجدة [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين] وما فسرت به في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » رواه البخاري وأعله مقام رؤية الله عز وجل كما شرحناه في تفسير آية سورة الاعراف (٧: ١٤٣) وادناه ماسياً في الآية العاشرة

وأما جزاء الكافرين المفسدين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدسيثهم وتدليسهم لأنفسهم بالكفر والخطايا — وهي لها كأعراض الامراض التي سببها مخالفة سنة الله في حفظ الابدان وصحتها — فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة

(يونس : ١٠) معنى جعل الضوء والنور وكون الشمس ضياءً وهو جمع ضوء . ٣٠١

الالهية في خلق الإنسان، ولكنها مقتضى العدل في المظالم والحقوق، ومقتضى اطراد السنن الحكيمة في ارتباط الاسباب بالمسببات ، والعلل بالمعلولات ، فهو جزاء كما صرح به في آيات أخرى ولكنه ليس المقصود بالذات من الرجوع الى الله عز وجل . وقد سألي رجل من أذكاء الانكليز : هل يلقى بعظمة الله أن يعذب هذا الانسان الضعيف على ذنوبه التي هي مقتضى ضعفه ؟ قلت ان الشريك بالله والكفر بنعمه واقتراف الخطايا المحالفة لشرائعه والوجدان الفطري في الانسان تدنس نفس فاعلمها وتفسدها بما يجعلها غير أهل للنعيم الروحاني الخاص بالانفس الزكية ، فيكون العقاب في الآخرة أثراً طبيعياً لهذا الفساد ، كما يكون المرض أثراً طبيعياً لمخالفة قوانين الصحة ووصايا الطبيب . فقال اذا كان سبب العذاب من الداخل لا من الخارج فهو معقول

(٥) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ

في هاتين الآيتين المتزلزتين إرشاد إلى أنواع كثيرة من آيات الله الكونية الدالة على قدرته على البعث والجزاء وكونه من مقتضى حكمته ، واطراد النظام التام في جميع خلقه ، وهذه الآيات تفصيل لما أجمل في الآية الثالثة في خلق السموات والارض ، واستواء الخالق على عرشه يدبر الامر ، ويقم النظام في الخلق ، التي سبقت للاستدلال على التوحيد وحقبة الوحي

هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ﴿ الضياء اسم مصدر من أضاء يعني : جمع ضوء ، كسياط وسوط وحياض وحوض ، وقرأ ابن كثير (ضياء) على القلب بتقديم لام السكامة على عينها . قال في القاموس وشرحه : (الضوء) هو (النور ويضم) وهما مترادفتان عند أئمة اللغة ، وقيل الضوء أقوى من النور قاله الزمخشري ولذا شبه الله هداه بالنور دون الضوء وإلا لما ضل أحد وتبعه

الطبيعي واستدل بقوله تعالى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وأنكره صاحب الفلك الدائر وسوى بينهما ابن السكيت، وحقق في الكشف أن الضوء فرع النور وهو الشعاع المنتشر، وجزم القاضي زكريا بترادفهما لغة بحسب الوضع، وإن الضوء أبلغ بحسب الاستعمال، وقيل الضوء لما بالذات كالشمس والنار، والنور لما بالعرض والاكتساب من الغير، هذا حاصل ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى. وجمعه أضواء (كالضوء والضياء بكسرهما) لكن في نسخة لسان العرب ضبط الاول بالفتح والثاني بالكسر، وفي التهذيب عن الليث الضوء والضياء ما أضاء لك، ونقل شيخنا عن المحكم أن الضياء يكون جمعا أيضاً، قلت هو قول الزجاج في تفسيره عند قوله تعالى (كلما أضاء لهم مشوا فيه) اهـ

وأقول: يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله تعالى (٧١:٦٦) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا وقوله (٢٥:٦١) وجعل فيها سراجا وقراً منيراً) والسراج ما كان نوره من ذاته. واستبعد بعض المفسرين قول الزجاج إن الضياء في الآية جمع ضوء، لأن المناسب لكون القمر نوراً أن يكون الضياء مفرداً مثله. وجعل هذا المستبعد وأمثاله ما يعلمه الله تعالى من أن شعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي يراها الناس في قوس السحاب فهو سبعة أضواء لا ضوء واحد، فهذا التعبير من مفردات القرآن الكثيرة التي كشف لنا ترقى العلوم الطبيعية والفلكية من المعنى فيها ما كان الناس أو العرب يجهلون في عصر التنزيل كتمعيبه عن كل نوع من النبات بأنه موزون، وتقدم بيانه في مباحث الوحي.

﴿وقدره منازل﴾ التقدير جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة في الزمان أو المكان أو الذوات أو الصفات، قال تعالى (والله يقدر الليل والنهار) وقال في القرى التي كانت بين سبأ والشام (وقدرنا فيها السير) وقال في المقادير العامة (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) والمنازل أماكن النزول جمع منزل، والضمير للقمر كما قال في سورة يس (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) أي قدر له أو قدر سيره في فلكه في منازل ينزل في كل ليلة في واحد منها لا يخطئه ولا يتخطاه وهي ثمانية

(يونس :س ١٠) آيات الله في خلق النيرين والليل والنهار بالحق على البعث ٣٠٣ وعشرون منزلا معروفة تسميها العرب بأسماء نجومها المخاذية لها وهي: الشرطان. البطين. الثريّا. الدبران. الحنقة. الهنعة. الذراع. النثرة. الطرف الجبهة. الزهرة. الصرفة. العواء. السماء الاعزل. الغفر. الزباني. الاكليل. القلب. الشوالة. النعائم. البلدة. سعد الذابح. سعد بلخ. سعد السعود. سعد الاخبية. فرغ الدلو المقدم. فرغ الدلو المؤخر. (ويسميان الفرغ الاول والفرغ الثاني) الرشاء. ويراجع مسميات هذه الاسماء في معاجم اللغة وكتب الفلك من شاء. فهذه المنازل هي التي يرى فيها القمر بالا بصر، ويبقى من الشهر ليلة إن كان ٢٩ وليلتان إن كان ٣٠ يوما يحتجب فيها فلا يرى. ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لأجل أن تعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير المنازل حساب الاوقات من الاشهر والايام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية، فلو لا هذا النظام المشاهد لتعذر على الاميين من أهل البدو والحضر العلم بذلك. لان حساب السنين والشهور الشمسية فن لا يعلم إلا بالدراسة، ولذلك جعل الشرع الاسلامي العام للبدو والحضر شهر الصيام وأشهر الحج وعدة الطلاق ومدة الايلاء وغير ذلك بالحساب القمري الذي يعرفه كل أحد بالمشاهدة، فلا يتوقف على علم في لا يكاد يوجد إلا في بلاد الحضارة. ولعبادتي الصيام والحج حكمة أخرى وهي دورانها في جميع الفصول، فيعبد المسلمون ربهم في جميع الاوقات من حارة وباردة ومعتدلة. وهذا لا يمنع أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسي وله فوائد أخرى، وقد أرشدكم اليه في سورة الرحمن (الشمس والقمر بحسبان) وفي سورة الاسراء (١٧: ١٢) وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وفي هذه الآيات ترغيب في علم الهيئة والجغرافية الفلكية. وقد برع فيها أجدادنا بارشادها

ثم قال ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي ما خلق الله الشمس ذات ضياء.

تفيض أشعتها على كواكبها التابعة انظامها ، فتبث الحرارة والحياة في جميع الاحياء فيهن ، وجعل لكل ضوء منها من الخواص باليس الآخر . ويبصر الناس فيها جميع المبصرات فيقومون بأمور معاشهم وسائر شؤونهم ، وما خلق القمر ذانور مستمد من الشمس تنفع به السيارة في سرائهم وغيرهم ، وقدره منازل يعرف بها جميع الناس السنين والشهور . ما خلق ذلك إلا متلبسا ومقترنا بالحق ، الذي تقتضيه الحكمة العامة لحياة الخلق ، ونظام معاشهم ومنافعهم ، فليس فيه عبث ولا خلل بل ظاهر للبشر في هذا العصر من أسرار الضوء وحكمه ما صار به علما واسعا تحار العقول في نظمه وحكمه ، من أصغر ذراته الى أعظم مجامع نيراته ، فكيف يعقل من هذا الخالق الحكيم ، أن يخلق هذا الانسان في أحسن تقويم ، ويعلمه البيان ، ويعطيه ما لم يعط غيره في عالمه ؛ من الاستعداد لاظهار مالا يحصى من حكمه ، وخواص خلقه ، وسننه في عبادته ، ويجعل مدار سعادته وشقائه على ما أعطاه من علم وإرادة ، ثم يتركه بعد ذلك سدى ، يموت ويفنى ، ثم لا يبعث ولا يعود ، ليجزى المرتقون منه في معارج الكمال من المعارف الالهية والفضائل النفسية والاعمال الصالحة بايمانهم وصفاتهم وأعمالهم ، وليجزى المشركون الخرافيون ، والظالمون المجرمون ، بكفرهم وجرائمهم ومفاسدهم ، واننا نرى كثيرا منهم أنعم في الدنيا معيشة من الصالحين المصلحين ؟ (٦٨ : ٣٥ أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ٣٦ ما لكم كيف تحكمون ؟) (٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟)

﴿ تفصيل الآيات لقوم يعلمون ﴾ استئناف لبيان المنتفعين بهذه الحجج أي تبين الدلائل من حكم خلقنا ، على ما أوحيناه إلى رسولنا من أصول العقائد وأحكام الشرائع ، مفصلة متنوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل ، والفرق بين الحق والباطل ، باستعمال عقولهم في فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق هذين النعيرين وما فيهما من النظام بالحق ، لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الانسان العجيب عبثا ، ولا أن يتركه سدى ، وفي الآية تنويه بفضل العلم وكون

الاسلام دينا علميا لا تقليديا ، ولذلك قفى على هذه الآيات السماوية في الشمس والقمر بآية مذكورة بسائر الآيات السماوية والارضية فقال

﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾ في حدوثهما وتعاقبهما في طولها وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الارض من الشمس والنظام الدقيق لها بحر كتبتها اليومية والسوية ، وطبيعة كل منها وما يصاح فيه من نوم وسكون وعمل ديني ودنيوي ﴿وما خلق الله في السموات والارض﴾ من أنواع الجماد والنبات والحوان ﴿لا آيات لقوم يتقون﴾ أي أنواعا من الدلائل والبيدات على سننه في النظام، وحكمه في الابداع والانتقان ، وفي تشريع العقائد والاحكام ، لقوم يتقون عواقب مخالفة سننه في التكوين ، وسننه في التشريع ، فالافراد الذين يخالفون سنن الصحة البدنية يعرضون ، والشعوب التي تخالف سنن الاجتماع والعمران تخرب بلادها ، وتضعف دولها ، ويغير الله تعالى ما بها بتغييرها ما في أنفسها ، كذلك الافراد الذين يخالفون هدايته الشرعية في تركية الانفس فيدنسونها بالشرك والخرافات ، ويفسدونها بالفواحش والمنكرات ، يجوزون على ذلك كله في الآخرة ، ويجزى بعضهم على بعضها في الدنيا (كما بينا ذلك في مواضع أخرى)

(٧) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٨) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٠) دَعَوْهُمْ فِيهَا بِسُبْحَانِكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

هذه الآيات بيان لحال منكري البعث والغافلين وحال المؤمنين الصالحين

في الدنيا وجزائهما في الآخرة ، فيه تفصيل لما سبق في الآية الرابعة . قال :
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قال الفيومي في المصباح : رجوته أرجوه رجوا
 — على فعول — آملته أو أردته ، قال تعالى (لا يرجون نكاحاً) أي لا يريدونه
 والاسم الرجاء بالمد ، ورجيته أرجيه من باب رعى لغة ، ويستعمل بمعنى الخوف ،
 لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه اه وقال الراغب : الرجاء ظن يقتضي
 حصول ما فيه مسرة ، وقوله تعالى (مالك لا ترجون لله وقاراً؟) قيل مالك لا تخافون؟
 ومثل الزمخشري في الأساس لحقيقة الرجاء بالمغفرة من الله ، والرشد في الولد
 والإحسان من أهل الإحسان ثم قال : ومن الحجاز استعمال الرجاء في معنى الخوف
 والاكثر يقال : لقيت هولاء رجوتهم وما ارتجيتهم . ومثله يشعر . والتحقق أن
 الرجاء الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع ، وأن الخوف توقع ما فيه شر وضر ، فهما
 متقابلان كما قال تعالى (١٧ : ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وما في هذه الآية
 والآيتين ١٩ و ٢٥ من هذه السورة والآية ٢١ من سورة الفرقان من رجاء لقاء
 الله منفياً يحتمل الرجاء والخوف جميعاً لأن لقاء الله تعالى في يوم الحساب مظنة الخوف
 لقوم والرجاء لآخرين ، ولذلك قال في الكافرين (٧٨ : ٢٧) أنهم كانوا لا يرجون
 حساباً) وفسر بعض المحققين الرجاء هنا بمجرد التوقع الذي يشمل ما يسر وما يسوء .
 واللقاء الاستقبال والمواجهة

والعنى أن الذين لا يتوقعون لقاءنا في الآخرة للحساب ، وما يتلوه من الجراء
 على الأعمال ، لا نسكارهم للبعث ، ويلزمه أنهم لا يؤملون لقاء الخالص بالمتقين في دار
 الكرامة ، وخصه بعضهم بلقاء الرؤية ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ بدلا من الآخرة
 فصار كل همهم من الحياة محصوراً فيها وكل عملهم لها كما قال في المتأقلين عن
 النفير للجهاد (١٠ : ٣٨) أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ الآية ﴿واطمأنوا بها﴾
 يسكون نفوسهم وارتياح قلوبهم بشهواتها ولذاتها وزينتها ليأسهم من غيرها
 ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا يتدبرون المنزلة منها على رسولنا وما فيها
 من المواعظ والعبر ، والمعارف والحكم ، ولا يتفكرون في الكونية وما تدل عليه

(يونس : ١٠) هداية الله للمؤمنين الصالحين بإيمانهم وجزاؤه لهم ٣٠٧

من حكمته وسننه في خلقه ، وما يقتضيه كل منهما من الجهاد وصالح الاعمال ، فكانوا بهذه الغفلة كالفريق الاول الذي لا يرجو لقاءنا ، في أن كلا منهما تشغله دنياه عن آخرته فلا يستعد لحسابنا له وما يتلوه من نعيم مقيم أو عذاب أليم ﴿ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ الإشارة باولئك إلى الفريقين أي مأواهم في الآخرة دار العذاب (النار) بما كانوا يكسبون مدة حياتهم الدنياه من الخطايا والذنوب المدنسة لأنفسهم بخرافات الوثنية ، وأعمال الشهوات الحيوانية ، وظلمات المظالم الوحشية ، واستمرارهم عليها الذي دنس أنفسهم وأحاط بها ، فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها . والمأوى في أصل اللغة الملاجئ الذي يأوي اليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو انسان نافع ، كما ترى في استعمال أفعاله في جميع الآيات كقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى * إذ آوى الفتية إلى الكهف * والذين آووا ونصروا * آوى اليه أخاه * أو آوى إلى ركن شديد) الخ إلا لفظ المأوى فإنه أطلق على الجنة في ثلاث آيات وعلى النار في بضع عشرة آية منها آية يونس هذه ، وفي تسمية دار العذاب مأوى معنى دقيق في البلاغة دخیل في أعماقها ، فأنض من جميع أرجائها ، يشعر بأن أولئك المطمئنين بالشهوات ، والعافلين عن الآيات ، ليس لهم مصير يلجؤون اليه بعد هول الحساب ، إلا جهنم دار العذاب ، فويل لمن كانت هذه الدار له كالملجأ والموتل ، إذ لا مأوى له يلجأ اليه بعدها . هذا بيان لجزء الفريق الاول من المكلفين بقسميه والقاري . والسامع له تستشرف نفسه لجزء الفريق الآخر والعلم بسببه وقد بينه بقوله ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا

الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانهم به صراطه المستقيم في كل عمل من أعمالهم التي تزكي أنفسهم وتهذب أخلاقهم ، وصفهم أولا بالإيمان والعمل الصالح الذي هو لازم الإيمان ومغذيته ومكمله بصيغة الماضي لبيان صفتهم وفريقهم المقابل للفريق الذي ذكر قبلهم ، وأخبر بهداية إيمانهم لهم بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار والتجدد ، كما أخبر عن كسب الكفار بهذه الصيغة ، وجعل الإيمان وحده سبب هذه الهداية لأنه هو الباعث النفسي لها ، والمعنى أنه يهديهم الصراط

المستقيم الذي ينتهي بهم إلى دار الجزاء التي قال في بيان حالهم فيها ﴿تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ أي تجري من تحت مقاعد من غرفات تلك الجنات ومن تحت أشجارها ، وتقدم لفظ «جنات النعيم» في سورة المائدة (٦٨٥) ولفظ (تجري من تحتهم الأنهار) في سورة الأعراف (٤٢٧) وأما (تجري من تحتها الأنهار) بمعنى الجنة فقد تقدم مكرراً في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة ، والآية صريحة في معنى الآيات الكثيرة الناطقة بأن دخول الجنة بالإيمان والعمل الصالح معاً ، لأن الإيمان الصحيح بدون الإسلام وهو العمل لا يوجد إلا في حال من يموت عقب إيمانه قبل أن يتمكن من العمل ، ودخول مثل هذا الجنة لا يعارض هذه النصوص العامة للأحوال العادية الغالبة .

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم ، ونحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ في هذه الآية بيان لكلمات ثلاث تمثل حياة أهل الجنة الروحية في عامة أحوالهم من مبادي دعاء ربهم وتغزيه ، وما يدعونه أي يطلبونه من فضله وكرامته ، ومن تحيته تعالى ونحية ملائكته لهم ، ومن تحيتهم فيما بينهم عند تزاوهم أو تلاقحهم ، ومن حمدهم له في خواتيم أقوالهم وأفعالهم ، وهي خير الكلام وأخصره وأعذبه . الدعوى في اللغة الدعاء بمعانيه والدعوى في الشيء والادعاء للشيء ، فالدعاء للناس هو النداء والطلب المعتاد بينهم في دائرة الأسباب المسخرة لهم ، والدعاء التعبدي لله نداؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده الصادر عن الشعور بالحاجة إليه والضرارة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه ، ولا سيما دفع الضرر وجلب النفع مما يعجز عنه العبد عن طريق الأسباب ، للإيمان بأنه سبحانه هو المسخر لها والهادي إليها ، والقادر على تصرفها ، وعلى المن بها من غير طريقها ، والدعوى للشيء تشمل في اللغة تمنيه وقوله وطلبه من مالكه ، وادعاء ملكيته ، وهذه المعاني كلها للفظ الدعوى تصح إرادتها من أهل الجنة إلا الأخير منها . وقول بعض المفسرين وغيرهم إن من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فإن الصيام لا يسمى دعاء لغة ولا شرعاً ، وإنما الدعاء هو مخ العبادة الفطرية ، وأعظم أركان التكليفية

منها ، كما ورد في الحديث ، فكل دعاء شرعي عبادة وما كل عبادة شرعية دعاء .
 والتسبيح تنزيه الله تعالى وتقديسه ، وكلمة (اللهم) نداء له عز وجل أصله يا الله
 والمعنى أنهم يبدؤن كل دعاء وثناء يشاجون به الله عز وجل وهو النعيم
 الروحاني ، وكل طلب لكرامة أو لذة من لذات الجنة وهو النعيم الجسماني ،
 بهذه الكلمة : سبحانك اللهم ، أي تنزيها وتقديسا لك يا الله ، قيل أو بما تدل
 عليه وإن كان بلفظ آخر ، وأن تحيتهم فيها كلمة (سلام) الدالة على السلامة من
 النقص والآثام ، وهي تحية المؤمنين في الدنيا ، وهذه التحية تكون منه عز وجل
 لهم كما قال في سورة الاحزاب (٣٣ : ٤٤) تحيتهم يوم يلقونه سلام) وفي سورة يس
 (٣٦ : ٥٨) سلام قولا من رب رحيم) وتكون من الملائكة لهم عند دخول الجنة
 كما قال في سورة الزمر (٣٩ : ٧٣) وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها
 خالدين) ومثله في سورة النحل (١٦ : ٣٢) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون
 سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وفي كل وقت يدخلون فيه عليهم كما
 قال في سورة الرعد (١٣ : ٢٣) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٤) سلام
 عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وتكون منهم بعضهم لبعض وهو المتبادر من
 قوله تعالى في سورة مريم (١٩ : ٦٢) لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) وفي
 سورة الواقعة (٥٦ : ٢٥) لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ٢٦ إلا قيلاً سلاماً سلاماً)
 فان اللغو والتأثيم من شأن كلام البشر فلما نفى وقوعهما منهم في الجنة واستدرك
 على نفيهما استثناء كلمة « سلام » استثناء منقطعاً ترجيح أن يكون المراد به سلام بعضهم
 على بعض أو عاماً يشمله . والجملة في آيتنا (وتحيتهم فيها سلام) تشمل الانواع
 كلها وإنه لا يحجاز بليغ غفل عنه من نعرف من المفسرين لغفلتهم عن هذه الانواع
 وأما قوله (وأخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) فمعناه ان الحمد له جل ثناؤه
 هو آخر كل حال من أحوال أهل الجنة من دعاء يناجون به الله تعالى ، ومطلب يطلبونه
 من إحسانه وإكرامه ، كما أنه أول ثنائهم عليه عند دخولها كما قال في آخر سورة
 الزمر بعد آية السلام عليهم من الملائكة (٧٤) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده
 وأورثنا الأرض نقبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) وأخر كلام الملائكة

٣١٠ استعجل الناس الشر وكونه تعالى لا يعجله لهم (التفسير : ج ١١)

أيضا وهو قوله بعده (٧٥) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق . وقيل الحمد لله رب العالمين)
 قولي كل قارىء هذه الآية الجامعة وقد فسرناها له هنا بما في معناها من الآيات في السور الأخرى - أن يمثل لنفسه حالة أهل الجنة في هذه الكلمات الثلاث المبينة لتعيمهم الروحاني بقاء الله عز وجل ومناجاته في جميع أطوارهم ، ولما يكون بينهم وبين ملائكته وبين بعضهم مع بعض ، ومنه يعلمون أن معظم نعيم الجنة روحاني فعلمهم أن يستعدوا لها بتزكية أنفسهم ، وترقية أرواحهم ، وأن يعملوا أنهم إن يكونوا أهلا لها بالاتكال على التوسلات بأشخاص الأولياء والتمني لشفاعاتهم (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجزيه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا *) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون تقيرا) (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

ومن التفسير المأثور في الآية ما أخرجه ابن مردويه عن أبي بن كعب مرفوعا عن أهل الجنة « إذا قالوا : سبحانك اللهم - أأنهم ما اشتبوا من الجنة » وروى مثله عن بعض التابعين فالكلمة علامة بين أهل الجنة وخدمهم في إحضار الطعام وغيره فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى . وهذا مما يدخل في عموم ما تقدم سواء أصبحت الرواية أم لا ؟

(١١) وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ، فَبَئِذْ تُدْعَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَافِي طَغْيِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٢)
 وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ . كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

هاتان الآيتان في بيان شأن من شؤون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم في حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر ، وشعورهم فيه بالحاجة إلى الله تعالى والاعتماد على دعائه لا أنفسهم وعليها ، واستعجالهم الأمور قبل أوانها ، وهو تعرض بالمشر كين وحجة على ما يأتون من شرك : وما ينكرون من أمر البعث ، متمم لما قبله ولذلك عطفه عليه

تعميل الشيء تقديمه على أوانه المضروب أو المقدر له أو الموعود به ، والاستعجال به طلب التعجيل ، والمجل من غرائز الانساب القابلة للتأديب والتثقيف كي لا تغطي به فتورده الموارد . قال تعالى (١٧ : ١١) ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) وقال تعالى (٣٧ : ٢١) خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون) فأما استعجاله بالخير والحسنة فلشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، وأما استعجاله بالضر والسيئة فلا يكون لذاته بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز ، وقلما يكون مقصوداً بنفسه إلا للنجاة مما هو شر منه ، كما يفعل اليائسون من الحياة أو النجاة من ذل وخزي أو ألم لا يطاق إذ يتقحمون المهالك أو يخضعون أنفسهم انتحاراً .

قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر يستعجلونه ﴾ الذي يستعجلونه به كاستعجال مشركي مكة رسول الله ﷺ بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم إجمالا بما قصه عليهم في هذه السورة وغيرها من سنة الله تعالى في أقوام الرسل المعاندين وهو عذاب الاستئصال ، وفيما دونه من عذاب الدنيا كخزيهم والتنكيل بهم ونصره عليهم ، أو قيام الساعة ، وعذاب الآخرة . وقد حكى الله تعالى كل ذلك عنهم كقوله (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات) الآية (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة) وتقدم قوله (١٢ : ٨) وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال في الساعة (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) وفي العذاب (يستعجلونك

بالمذاب وان جهنم لمحيطه بالكافرين) وكل هذه الضروب من الاستعجال كانوا يقصدون بها تعجيز الرسول (ص) مبالغة في التكذيب، واستهزاء بالوعيد، وقوله ﴿ استعجلهم بالخير ﴾ معناه كاستعجالهم بالخير الذي يطلبونه لذاته بدعاء الله تعالى أو بمحاولة الاسباب التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿ لقضى اليهم أجلهم ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب الجلة بالبناء للفاعل أي لقضى الله اليهم أجلهم ، وقرأها الجمهور بالبناء للمفعول للعلم بالفاعل. وقضاء الاجل اليهم انتهاءه اليهم باهلا كهم قبل وقته الطبيعي ^(١) كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم . ولكن الله تعالى أرحم بهم من أنفسهم ، وقد بعث رسوله محمداً خاتم النبيين رحمة للعالمين ، بالهداية الدائمة إلى يوم الدين ، وقضى بأن يؤمن به قومه من العرب ، ويحملوا دينه إلى جميع أمة العجم ، وأن يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا بما يكون تأديبا لسايرهم ، بما يدينه بقوله (١٤ : ٩) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية ، ويؤخر سائر الكافرين منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة ، فهو لا يقضى اليهم أجلهم باهلا كهم واستئصالهم ، لان هذا العذاب اذا نزل يكون عاما بل يذرهم وما هم فيه إلى نهاية اجلهم وذلك قوله ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ الطغيان مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان . هذا هو الاصل وطغيان السيل والبحر والدم مستعار منه والعمه (كالتمعب) التردد والتحير في الامر أو في الشر ، والمعنى فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلا للخروج منه لانعجل لهم العذاب في الدنيا باستئصالهم ، حتى يأتي أمر الله تعالى في جماعتهم بنصر رسوله عليهم ، وفي أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض ، وماواهم النار وبئس المصير ، الامن تاب وآمن منهم ، أي هذه سنتنا فيهم لانعجل شيئا قبل أوانه المقدر له بمقتضى علمنا وحكمتنا .

(يونس : ١٠) دعاء الكافر ربه عند الشدة ونسيانه عقب استجوابته له ٣١٣

وفي الآية وجه عام غير خاص بالكافرين تقديره : ولو يجعل الله للناس الشر الذي يستعجلونه بذنوبهم المقتضية له من ظلم وفساد في الارض وفسوق لأهلكهم كما قل في آية أخرى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابرة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) الآية ويدخل في المعنى هنا دعاؤهم على أنفسهم عند اليأس ودعاء بعضهم على بعض عند النصب ، لو يعجله الله لهم لاهلكهم أيضاً (وما دعا الكافرين) برهم أو بنعمه عليهم فيما يخالف شرعه وسننه في خلقه (إلا في ضلال) أي ضياع لا يستجيبه الله لهم ، لحاله ورحمته بهم .

﴿واذا مسَّ الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ هذا بيان لفريضة الانسان العامة وشأنه فيما يمس من الضر ، يعلم منه أن استعجال أولئك الناس بالشر تعجيزاً لنبيهم ومبالغة في تكذيبه إنما هو من طغيانهم الذي خرجوا فيه عن مقتضى طبيعتهم ، فهو يقول إن الانسان إذا أصابه من الضر ما يشعر بشدة ألمه أو خطره من إشراف على غرق وغيره من أوجاع التهلكة ، أو شدة مسغبة أو إعضال داء ، دعانا ملحاً في كشفه عنه في كل حال يكون عليه : دعانا مضطجعا لجنبه ، أو قاعداً في كسر بيته ، أو قائماً على قدميه حاراً في أمره ، فهو لا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ، مادام يشعر بمس الضر ولذعه له ، ويطلب من نفسه المعجز عن النجاة منه ، قدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الانسان فيها أشد عجزاً وأقوى شعوراً بالحاجة إلى ربه فالتى تليها فالتى تليها ، وتم حلقه رابعة هي سعيه لدفع الضر من طريق الاسباب فلم تذكر لأن الانسان غير المؤمن قلما يتذكر ما أودع في فطرته من الايمان بربه ذي السلطان الغيبي الذي هو فوق جميع الاسباب ويشعر بحاجته إلى اللجوء اليه ، ودعائه والاستغاثة به ، إلا عند عجزه عن الاسباب المسخرة له ، والمشركون بالله تعالى أقل الناس تذكراً لذلك ، لانهم عند عجزهم عن الاسباب العامة المعلومة ، يلجئون إلى مظنة الاسباب الموهومة ، وهي الخلقات المعبودة التي يعتقدون أن لها سلطاناً غيبياً فوق الاسباب من جنس سلطان الرب الخالق عز وجل ، إما لذاتها وإما بما لها من المكانة عند الله ، والمثل مضروب هنا لهؤلاء ﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره﴾ كان الظاهر أن

يقال « فاذا كشفنا عنه ضره » إذ هو المناسب للشرط في أول الآية وهو في جنس الانسان ومقتضى طبعه لاني فرد من أفرادہ ، ونكتة هذا التعبير أن يتصور القاريء والسامع للآية كشف الضر بعد الدعاء واقعا مشاهداً من شخص معين ويرى ما يفعل بعده لانه أبلغ في العبرة . أي فلما كشفنا عنه ضره الذي دعانا له في حال شعوره بعجزه عن كشفه بنفسه وبغيره من الاسباب ، مرّ ومضى في شؤونه على ما كان من طريقته في الغفلة عن ربه والكفر به ، كأن الحال لم تتغير عليه ، فلم يدعنا إلى ضر مسه ، ولم نكشف عنه ضره ﴿ كذلك زين للمفسرين ما كانوا يعملون ﴾ أي كذا النحوم من معرفة الله والاخلاص في دعائه وحده في الشدة ونسيانه والكفر به بعد كشفهم زين للمفسرين من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك، حتى بلغ من عنادهم للرسول واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه بالعذاب ، والاسراف رديف الطغيان وأخوه ، وسيأتي مثل هذه الآية بعد عشر آيات بيان أبلغ. وقد أسند التزيين هنا إلى المفعول لانه المقصود بالعبرة دون فاعله. وسبق مثله في آل عمران (١٤:٣) والانعام (٢٢:٦) والتوبة (٣٨:٩) وقد أسند إلى الشيطان في سورة الانعام والانفال ، وأسند إلى الله تعالى في الانعام أيضاً بقوله (١٠٨: زينا لكل أمة عملهم) وبيننا في تفسير هذه نكتة اختلاف الاسناد في كل موضع (راجع ص ٦٦٨ ج ٨ تفسير الطبعة الثانية)

(١٣) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٤) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

بين الله تعالى في الآيتين السابقتين شأنه في الناس وشأنهم معه بمقتضى الطبع البشري وطغيان الشرك والكفر ليعتبر به مشركو مكة وغيرهم ممن يعقله إذ هو من العلم الصحيح المستمد من طبع الانسان وسيرته ، وقفي عليه في هاتين

الآيتين بمصادقه من سيرة الامم الماضية وسنته تعالى فيهم فقال عاطفا
 له على ما قبله ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلك لما ظلموا ﴾ الخطاب لأمة الدعوة
 الحمدية روجه أولا وبالذات إلى قوم النبي ﷺ وأهل وطنه مكة إذ أنزلت السورة
 غيبا فيهم التفات يفيد مزيد التنبيه وتوجيه أذهان المخاطبين لموضوعه، والقرون الامم
 وهو جمع قرن بالفتح ومعناه القوم المقترنون في زمن واحد، وقد ذكر اهلاك
 القرون في آيات عديدة من السور المشكية، وبدأ هذه بتأكيد القسم المدلول عليه
 باللام (ولقد) وصرح بأن سبب هلاكهم وقوع الظلم منهم كما قال في سورة
 الكهف (٦٠: ١٧) وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا (و«لما»
 ظرف يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له، والمراد بالقرى الامم والقرون
 كما تقدم مرارا، وقال في سورة هود (١٠٢: ١١) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى
 وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد) وقد بعث الله الرسل في أهل الحضارة دون الهمج
 واهلاك الله الامم بالظلم نوعا (أحدهما) هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع
 البشري وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الامم، والاستيلاء القوية منها
 على الضعيفة استيلاء موقتا إن كان إفساد الظلم لها عارضا لم يجهز على استعدادها
 للحياة واستعدادتها للاستقلال، كما تقدم في تفسير (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)
 من سورة البقرة^(١) أو دائما إن كانت غير صالحة للحياة حتى تمقرض أو تدغم
 في الغالبية كما قال في سورة الانبياء (١١: ٢١) وكل قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا
 بعدها قوما آخرين) الآيات - وهذا النوع أثر طبيعي للظلم بحسب سنن الله في
 البشر، وهو قسمان ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والاسراف في الشهوات المضعفة
 للإبدان المفسدة للأخلاق، وظلم الحكام الذي يفسد بأس الامة في جهلتها، وهذه
 الستة دائمة في الامم، ولها حدود ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها
 هي آجالها المشار إليها في الآية (٥٩) الآتية وأمثالها

(ثانيها) عذاب الاستئصال للأقوام التي بعث الله تعالى فيها رسلا لها دأبها
 بالامان والعمل الصالح وأعظم أركانها العدل، فعاندوا الرسل فأنذروهم عاقبة

الجحود والعناد بعد مجيء الآيات وهو ما بينه تعالى بقوله ﴿وجاءهم رسالهم بالبينات﴾ الدالة على صدقهم فيما جاؤهم به ﴿وما كانوا يؤمنوا﴾ أي وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لانهم مروا على الكفر واطأنوا به ، وصارت لذاتهم ومصالحهم القومية من الجاه والرياسة والسياسة مقترنة بأعماله الاجرامية من ظلم وفسق وجور ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ تذييل لانهذار مشركي مكة لانهم كانوا مجرمين وتقديره كالذي مر قبله في المسرفين ، وراجع تفسير (٧ : ٣٩) وكذلك نجزي المجرمين) وتفسير (٨٣) فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) من سورة الاعراف

﴿نم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم﴾ الخطاب معطوف على الذي قبله أي ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعد أولئك الاقوام كلهم بما آتيناكم في هذا الدين من أسباب الملك والحكم وقد رناه لكم باتباعه ، إذ كان الرسول الذي به جاءكم هو خاتم النبيين فلا يوجد بعد أمته أمة أخرى لنبي آخر ، والخلائف جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء أي يكون خلفه فيه ، ولقد كان لتلك الامم دول وحكم في الارض ، فملك النصارى واليهود والمجوس ، والوثنيين من قبلهم كالفرعنة والهنود ، فإله يبشر قوم محمد وأمة محمد بأنها ستخلفهم في الارض اذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه ، كما صرح بذلك في قوله (٥٥ : ٢٤) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية ، وقد علل هذا الاستخلاف عند الاخبار الاول به هنا بقوله ﴿لننظر كيف تعملون﴾ أي لنرى ونشاهد أي عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم ، فان هذه الخلافة انما جعلها لكم لاقامة الحق والعدل في الارض ، وتطهيرها من رجس الشرك والفسق ، لا لجرد التمتع ببلدة الملك ، كما قال في أول آيات الاذن لهم بالقتال (٤١ : ٢٢) الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم ، وانه تعالى يكون ناظراً إلى هذه الاعمال لا يغفل عنهم فيها ، حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا انه

باق لهم لذاتهم أو لنسبتهم إلى نبيه ﷺ وانهم يتغلبون من سنته في الظالمين وقد بينها لهم أنفاً وقال في سورة الاعراف (٧: ١٠٠) أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) الآية ، وقد قص علينا فيها ما حذر به قوم موسى عند ما وعدهم على لسانه بآرث الارض التي وعدها آباءهم في إثر ما شكوا اليه من إيذاء قوم فرعون لهم قبل مجيئه وبعده وذلك قوله تعالى حكاية عنه (١٢٩) قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون) وليراجع القارئ تفسير آية الاعراف في الجزء التاسع ، وتفسير قوله تعالى في استخلاف الامم العام من آخر سورة الانعام (وهو الذي جعلكم خلائف في الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) الآية (ص ٢٤٩ ج ٨) . وقد صدق الله وعده ووعد به المسلمين كغيرهم بما تبين به إعجاز كتابه وصدق رسوله ﷺ وكونه ربى أمته بما علمه ربه من هداية الدين وطباع العمران وسنن الاجتماع التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه الاميون ، بل لم تصر علماء مدوناً إلا من بعد نزول القرآن بعدة قرون ، لغفلة علماء المسلمين عما فيه من أصولها وقواعدها الصريحة كهذه الآيات . وقد كان أول من دونها المؤرخ الفقيه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه مؤملاً أن يعنى بها من بعده من العلماء فيأتوا بتوسيع مبادئه من مباحثها ، ولكن العلم والحكم في دولة الاسلام ، كان داخلياً في طور الانحطاط والاضمحلال ، ثم ارتقى الافرنج فيها فترجوا تلك المقدمة بلغاتهم العلمية كلها وأخذوا منها عدة علوم في سنن العمران ، ونحن نأخذها اليوم عنهم غافلين عن هداية القرآن ، لآب علماء السوء المقلدين حججونا عن هدايته بل حرموها على المسلمين استغناء عنه بكتب مذاهبيهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، ولن يكشف عنهم انتقامه حتى يعودوا إلى هدايته التي استخلف بها سلفهم في الارض ، ونحن عاودوا اليها باقامة سنن القرآن ، لنتمن لهم وعده بخلافة الارض إلى آخر الزمان . فبقدر اقامة هذه السنن يكون الملك والسلطان . فمن ذا الذي يقيمها ؟

(١٥) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٦) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَسُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٧) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ

بدأت السورة بالكتاب الحكيم (القرآن) وإنكار المشركون للوحي بشبهتهم المعروفة وسيقت بعدها الآيات في إقامة الحجج عليهم من خلق العالم علويه وسفليه ومن طبيعة الانسان وتاريخه متضمنة لاثبات أهم أركان الدين وهو الوحي والتوحيد والبعث ، وجاءت هذه الآيات الثلاث بعد ذلك في شأن الكتاب نفسه وتنفيذ ما اقترحه المشركون على الرسول فيه وحجته البالغة عليهم في كونه وحيا من الله تعالى

﴿واذا تلى عليهم آياتنا بينات﴾ في الآية التفات عن خطاب هؤلاء الموعوظين إلى الغيبة عنهم وتوجيه له إلى الرسول ﷺ وأسلوب الالتفات في القرآن كثير جداً وفائدته العامة تلوين الكلام بما يجدد الانتباه له والتأمل فيه، وفي كل التفات فائدة خاصة لو أردنا بيان ما نفهمه منها لاطال بنا بحث البلاغة الكلامية، بما يشغل القراء عن الهداية المقصودة بالذات من تفسيرنا. ويظهر في هذه الآية ان نكتة حكاية هذا الاقتراح السخيف بأسلوب الاخبار عن قوم غائبين افادة أمرين (أحدهما) اظهار الاعراض عنهم كأنهم غير حاضرين لانهم لا يستحقون الخطاب به من الله تعالى (ثانيها) تلقيه ﷺ الجواب عنه بما ترى من العبارة البليغة التأثير ، والمعنى واذا تلى على أولئك القوم آياتنا المنزلة حالة كونها بارزة في أعلى عارض البيان، وأظهر مقدمات الوحي والبرهان ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾

وهم من تقدم ذكرهم قريباً - وأعادوا واضعاً إياه موضع الضمير للشعار بعملة القول - أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ أنت بقرآن غير هذا أو بدله *
 لاظهر في سبب قولهم هذا انه ﷺ باعهم أن هذا القرآن من عند الله أو حاه اليه لينذرهم به ، وتحداهم بالاتيان بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا ، وكانوا في ريب من كونه من كونه وحياً من الله للبشر مثلهم كما تقدم في أول السورة ، وفي ريب من كونه من عند محمد ﷺ وهو لم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة ولا في شيء من العلم ، بل كانوا يرونه دون كبار فصاحتهم من بلغاء الشعراء ومصارع الخطباء ، فأرادوا أن يمتحنوه بمطالبعه بالاتيان بقرآن غيره في جملة ما باعهم من سورته في أسلوها ونفثها ودعوتها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم ، حتى إذا قول هذا أو ذلك كانت دعواه انه كلام الله أو حاه اليه منقوضة من أساسها ، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من اليان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم كأسباب السحر لايوحى الله اليه ، وهو ما يزعمه بعض الافرنج ومقلاتهم في عصرنا وقد فندنا في تفسير الآية الأولى من هذه السورة

﴿ قل ما يكون لي أن أبده من تلقاء نفسي ﴾ أي قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأني ولا مما تبيحه لي رسالتي أن أبده من تلقاء نفسي أي بمحض رأيي ومقتضى اجتهادي ، وكلمة تلقاء بكسر التاء مصدر من اللقاء كتيان من البيان وكسر التاء فيهما سماعي والقياس في هذا المصدر فتحها كالتكرار والتطواف والتجوال ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ أي ما اتبع فيه إلا تبايع ما يوحى إلي والاهتداء به ، فإن بدل الله تعالى منه شيئاً بفسخه بآفته عنه ، وما علي إلا البلاغ المحض ، وأقول إذا كان الله لم يعط رسوله الحق في تبديل القرآن فما حكمه تعالى فيمن يبدلونه بأعمالهم المنافية لصدق وعده لاهله وهم يدعون أنهم أهله كالذين قال فيهم (٤٨: ٤٨) يريدون أن يبدلوا كلام الله) أو بترك أحكامهم لمذاهبهم كالذين قال فيهم (فمن بدله بعد ما سمعه فانما يئمه على الذين يبدلونه) ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ هذا تعاليل لمضمون ما قبله ، الذي هو بيان لنفي الشأن الذي قبله أي إني أخاف

إن عصيت ربي أي عصيان كان ، عذاب يوم عظيم الشان ، وهو يوم القيامة ، فكيف اذا عصيته بتبديل كلامه اتباعا لاهوائكم ؟ وقوله (إن عصيت) من باب الغرض ، إذ الشرطية البدوية بان يعبر بها عما شأنه ألا يقع . وهذا جواب عن الشق الثاني من اقترانهم

ثم لقنه الجواب عن الشق الاول مفصولا لأهميته بقوله ﴿ قل لو شاء الله ما تلوثه عليكم ﴾ أي لو شاء الله تعالى أن لا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوثه عليكم فانما أنلوه بأمره تنفيذاً لمشيئته ﴿ ولا أدراكم به ﴾ أي ولو شاء أن لا يدريكم ويعلمكم به بأرسالي اليكم لما ارسلني ولما أدراكم به ، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم الاعلى لتدرووه فتهدوا به وتكونوا بهدايته خلائف الارض ، وقد علم أن هذا انما يكون به لا بقرآن آخر كما قال (٤ : ١٦٦) لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه) وقال (٧ : ٥٢) ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون [راجع تفسير هذه وما بعدها في ج ٨ تفسير] فهو قد أنزله علماً بأن فيه كل ما يحتاجون اليه من الهداية وأسباب السعادة ، وأمرني بتبليغه اليكم ولم يكن لي علم بشيء من ذلك قبله ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ أي فقد مكثت فيما بين ظهرانيكم عمراً طويلاً من قبله وهو أربعون سنة لم أنل عليكم فيه سورة من مثله ، ولا آية تشبه آياته ، لا في العلم والعرفان ، ولا في البلاغة وروعة البيان ﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ ان من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتاباً ، ولم يلقن من أحد علماً ، ولم يتقلد ديناً ، ولم يعرف تشریعاً ، ولم يمارس أساليب البيان ، في أفانين الكلام ، من شعر ونثر ، ولا خطابة ، ولا فخر ، ولا علم وحكم ، لا يمكنه أن يأتي من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز لكم بل هو يعجز جميع الخلق حتى الدارسين لكتب الاديان والحكمة والتاريخ أن يأتوا بمثله ؟ فكيف تقترحون عليّ اذاً أن آتي بقرآن غيره ؟ وسيتحداهم في الآية ٣٨ بسورة مثله

ومما يمتاز به الوحي المحمدي على ما كان قبله أن أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا قبل نبوتهم على شيء من العلم المكتسب كما يمتاز في مباحث الوحي القريبية ، وفاتنا فيها

التذكير بما أوتي بعضهم من العلم والحكم انوهي قبلها أيضاً . قال تعالى في موسى (٣٨: ١٤) ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً) وبلغ الأشد يكون في استكمال الثلاثين وذكر بعد هذا خروجه إلى مدين ونزول الوحي عليه في أثناء عودته منها . وكان موسى على علم بشرائع المصريين ومعارفهم أيضاً ، وقال تعالى في يوسف (١٢: ٢٣) ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً) ولم يقل واستوى فالظاهر انه قبل النبوة أيضاً ، وكان العلم الذي امتاز به يوسف تأويل الاحاديث والرؤى أي الاخبار بما آله . وقال في يحيى (وآتيناه الحكم صبياً) ولم ينقل عن نبينا ﷺ قبل النبوة علم ولا حكم في الامور الالهية إلا حكمه في تنازع زعماء قريش عند بناءهم المكعبة أيهم يضع الحجر الاسود في مكانه من الركن وكادوا يقتتلون فطلع عليهم فقالوا هذا الامين نحكمه ونرضى بحكمه أي لأنه أمين صادق لا يحابي . فحكم بوضعه في ثوب يأخذ سيد كل قبيلة ناحية منه ثم ارتقى هو الى موضعه من الركن فرفعوه اليه فوضعه فيه . والخبر من مراسيل السير لم يرد مرفوعاً وأخرجه البيهقي عن ابن شهاب الزهري وقد عبر عنه بكلمة غلام وفي السيرة الحلبية ان سنه ﷺ كانت عند بناء المكعبة خمساً وثلاثين سنة . هذه حجة عقلية ناهضة ، على بطلان شبهتهم الداحضة ، التي بنوا عليها مطالبة محمد ﷺ بالاتيان بقرآن غير هذا القرآن ، وقد ظهر لعلاء هذا العصر ما أيد دلائلها العلمية فانهم بما حذقوا علم النفس وأخلاق البشر وطباعهم ، وما عرفوا من درجات استعدادهم العلمي والعقلي باستقراء تاريخهم ، قد حققوا أن استعداد الانسان العقلي للعلوم ، واستعداده النفسي للنهوض بالاعمال القومية أو العالمية ، يظهر كل من الاستعدادين فيه من أوائل نشأته ، ويكون في منتهى القوة والظهور بالافعل عند استكمال نموه في العقدین الثاني والثالث من عمره ، فإذا بلغ الخامسة والثلاثين ولم يظهر نبوغه في علم من العلوم التي سبق اشتغاله بها ، ولا النهوض بعمل من الاعمال العامة التي كان استشرف لها ، فإن من المحال أن يظهر منه

شيء من هذا أو ذاك من بعدها جديداً أنفاً^{١١} ويكون فيه نابغاً ناجحاً ، وقد قدمنا في مباحث اثبات (الوحي الحمدي) أن هذا القرآن مشتمل على تمحيص الحقائق في جميع العلوم والمعارف الدينية والتشريعية التي يتوقف عليها صلاح جميع البشر ، وأن الرسول الذي أنزله الله عليه قام بتنفيذ هذا الاصلاح بما غير وجه الارض ، وقلب أحوال أكثر أممها فحولها إلى خير منها ، وأن ذلك كله كان بعد أربعين سنة قضاها في الامية . فهذا العلم الجديد الذي أيد حجة القرآن العقلية في هذا العصر له في علوم القرآن نظائر أشربنا إلى بعضها آنفاً ، وبيدنا كثيراً منها في تفسيرنا هذا ، وهو مما يمتاز به على جميع التفاسير بفضل الله تعالى ، وإن كان أكثر المسلمين غافلين عنه تبعاً لغفلتهم عن القرآن نفسه ، وعدم شعورهم بالحاجة إلى هدايته ، بصددعاة التقليد المعممين إياهم عنه ، ومن الغريب أن ترى أساطين المفسرين لم يفهموا من الآية أن فيها جواباً عن الشق الاول من اقتراح المشركين وهو الاتيان بقرآن آخر ، وقد هدانا الله تعالى إليه مع برهانه بفضل ، وكم ترك الاول للآخر !!

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ هذه تنمة الرد على اقتراح المشركين فانه رد عليهم أولاً ببيان حقيقة الامر الواقع ، وهو أن تبديل القرآن ليس من شأن الرسول في نفسه ، ولا مما أذن الله له به ، بل يعاقبه عليه أشد العقاب في الآخرة إن فرض وقوعه منه لانه كلامه الخاص به وثباتاً باقامة الحجة العقلية على أنه كلام الله وأنه ليس في استطاعته [ص] الاتيان بمثله ، ثم عزز هاتين الحججتين بثلاثة أدبية وهي ان شر أنواع الظلم والاجرام في البشر شيثان أحدهما افتراء الكذب على الله ، وهو ما اقترحوه عليه بجهودهم ، وثانيهما التكذيب بآيات الله ، وهو ما اجتروه باجرامهم ، وقد بين هذا بصيغة الاستفهام الانكاري ، أي لا أحد أظلم عند الله وأجدر بغضبه وعقابه من هذين الفريقين

(١) الانف بضمين من قولهم روضه أنف أي جديدة النبات لم ترع . وعبر به التقديرية عن مذهبهم في خلق الله الاشياء عندما يبدو لله كل شيء منها بدون تقدير سابق ، فقالوا الامر أنف ومنه يعلم مرادنا من الكلمة هنا

(يونس: ص ١٠) عبادة المشركين مالا يضرهم ولا ينفعهم وشبهتها ٣٢٣

من الظالمين ، وأنا أنعى عليكم الثاني منها فكيف أرضى لنفسي بالاول وهو شر منه ؟ وأي فائدة لي من هذا الاجرام العظيم وأنا أريد الاصلاح وأدعو اليه وأحتمل المشاق في سبيله ، وأعلم ﴿ انه لايفالج المجرمون ﴾ أى لايفوزون بطولهم الذي يتوسلون اليه بالكذب والزور .

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام في ثلاث آيات من سورة الانعام (٢١:٦) و٣٩ و (١٤٤) وفي آية من سورة الاعراف (٣٧:٧) فراجع تفسيرهن في ج ٨ تفسير)

(١٨) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتَنْبِشُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

هذه الآية في دحض شبهتهم على عبادة غير الله تعالى وهي الشفاعة وتقدم في الآية الثالثة بطلانها وإقامة الحجة على وجوب عبادة الرب الخالق المبدى وحده ، وصرح هنا باسناد هذا الشرك اليهم وباحتجاجهم عليه بالشفاعة ثم نقن رسوله الحجة على بطلان هذا الاحتجاج فقال

﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ الكلام معطوف على ما قبله من بيان شركهم وسخافتهم فيه ، ومكابرتهم في جحود الحق الذى دعاهم اليه الوحي ، أى ويعبدون مالا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً من الاصنام وغيرها من دون الله أى غير الله ، والمعنى أنهم يعبدونها حال كونهم متجاوزين لما يجب من عبادته وحده ، لا أنهم يعبدونها وحدها فبما معنى كونهم مشركين إلا أنهم يعبدونه ويعبدون غيره (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وفي وصفها بأنها لا تضرهم ولا تنفعهم إيدان بسبب عبادتها وضلالهم فيه وتذكير بأنه هو القادر على نفع من يعبده وضر من يكفره ويشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة ، وأصل غريزة العبادة الفطرية في البشر في سدا جنتهم التي لا تلقين فيها لحق ولا

باطل هي الشعور الباطن بأن في الوجود قوة غيبية وسلطانا علويا على التصرف في الخلق بالنفع لمن شاء وإيقاع الضرر على من شاء ، وكشفه بعد وقوعه عن شاء ، غير مقيد في ذلك بسبب من الاسباب المسخرة للناس ، فمن اطلع على توارىخ البشر في كل طور من أطوار حياتهم البدوية والحضرية يظهر له أن هذا هو أصل التدين الغربي فيهم ، وأما صور التعبد وتسمية المعبودات فمنها ما هو من اجتهادهم ، ومنها ما هو من تلقين دعاة الدين فيهم من الانبياء وغيرهم ، فكل ما عبد من دون الله بالرأي والاجتهاد فانما عبده من عبده لشبهة فهم منها قدرته على النفع والضرر بسلطان له فوق الاسباب ، وقد بينا ذلك في مواضع أخرى أولها تفسير العبادة من سورة الفاتحة وأوسطها وأبسطها تفسير قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه آزر من سورة الانعام ، ومن آخرها في تفسير هذه السورة ما جاء في بيان الركن الاول من أركان الدين وفي الكلام على الخوارق من بحث الوحي الاستطراذي

فليس المراد من كون هذه المعبودات لا تضرهم ولا تنفعهم - هو بيان عجزها عن النفع والضرر لانها إما جمادات مصنوعة كاللاوئان المتخذة من الحجارة أو الخشب والاصنام المتخذة من المعادن وكذا الحجارة ، أو غير مصنوعة كاللات وهي صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق ثم عظمت حتى عبدت ، وإما أشجار كالعزى معبودة قريش والشجرة التي قطعها الشيخ محمد عبد الوهاب في نجد وشجرة المنصورة التي يقصدها النساء في مصر لاجل الحبل ، فإن أكثر الاوئان والاصنام قد وضعت ذكرى لبعض الصالحين من البشر كإرواء البخاري عن ابن عباس (رض) في أصنام قوم فوح ثم انتقلت عبادتهم إلى العرب ، وكانوا يعتقدون أن فيها أرواحا من الجن كما روي في حديث قطع شجرة العزى أو شجراتها الثلاث اذ ظهرت عند قطعها لخلد ابن الوليد امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، كانوا يزعمون انها جنية ، فأرادت أن توائبه وتخيفه فقتلها ، فهي كالقبور التي تشرف وتخصص ويوضع عليها الستور وتبنى عليها القباب مثل السبب الذي وضعوا له تماثيل الاوئان ، وعبدة هذه القبور يعتقدون أن المدفونين فيها أحياء يقضون حاجات من يدعونهم ويستغيثونهم ، وعلماء الخرافات يقولون لهم ان عملهم هذا شرعي

نعم ليس المراد هنا من نفي ضررها ونفعها أنها جمادات لا عمل لها فقط كما قيل وإن كانت الحجة على عبادة هذه الاصنام أظهر من الحجة على عبادة الشعابن والبقر والقروود — ولا يزال لها بقية في الهند — وعلى عبادة البشر التي هي أساس النصرانية الآرية التي وضعها الامبراطور قسطنطين ، ومن أنعم سنن النصرارى والهنود من جهالة المسالين ، وإنما المراد المقصود بالذات بيان بطلان الشرك بالاثوية وهو عبادة غير الله بمهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك بالربوبية وهو قسمان ادعاء وساطتهم في الخلق والتدبير ، واحتجاجهم عليه بشفاعتهم عند الله ، وهو كذب في التشريع الذي هو حق الرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه . بيان الاول ان كل ما عبد ومن عبد من دون الله حتى الجن والملائكة لا يمكنون لعابديهم النفع والضرر بالقدرة الذاتية الغيبية التي هي فوق الاسباب التي منحها الخالق للمخلوقات على اختلاف أنواعها ، لا بذواتهم وكراماتهم ولا بتأثير خاص لهم عند الخالق يحملونه به على نفع من شاؤا أو ضرر من شاؤا أو كشف الضر عنه ، كما يعتقد عباد الانبياء والاولياء من البشر إلى هذا اليوم ، ولهذا أمر الله تعالى رسوله أن يحتاج على النصرارى في عبادتهم للمسيح عليه السلام بقوله (٧٦: ٥) قل أعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) وهذه حجة على عبادة القبور وعلى أصحاب العمام الذين يتأولون لهم عبادتهم بما يظنون أنه يبعدهم عن عباد الاصنام ، بقولهم إن هؤلاء الاولياء احياء عند ربهم كالشهداء فهم يضررون وينفعون لا كالأصنام ، ولكن الله تعالى يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً بعبادتهم له على ما آتاه من المعجزات ، وإن هؤلاء الدجائين من الشيوخ يؤمنون بأن المسيح أفضل من البدوي والحسين والسيدة زينب وغيرهم ممن يزعمون أنهم يملكون الضر والنفع لمن يطلبه منهم ، وحياته لا تزال في اعتقادهم حياة عنصرية وحياتهم برزخية ، ومعجزاته قطعية وكراماتهم غير قطعية

كذلك أمر الله تعالى رسوله خاتم النبيين وأفضلهم أن ينذر الناس بنفي ملكه لضرر الناس ونفعهم وهو حي كما يأتي في الآية (٤٩) من هذه السورة . وسبق مثلها في سورة الاعراف (١٨٨: ٧)

﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي ويقولون في سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يمكن أن يكون الضر والنفع بأنفسهم لايمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فنحن نعبدهم بتعظيم هياكلهم وتطعيمها بالمطر والطواف بها ، وب تقديم النذور لهم ، والاهلال عند ذبح القرابين بأسمائهم ، وبدعائهم والاستغاثة بهم ، لأنهم شفعاؤنا عند الله يقربوننا اليه زلفى في دفع بجاههم عنا البلاء ، ويعطينا ما نطلب من السماء ، هذا مايقوله منكرو البعث منهم وهم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآخرة ، على أنهم اذا فرضوا وجودها زعم مجرموهم أنهم يكونون فيها كما كانوا في الدنيا كما حكى الله تعالى عنهم بقوله (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) وقوله في الانسان الكافر (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) وروي عن عكرمة أن النضر بن الحارث من كبار مجرميهم قال : اذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى . وكذلك كل من يؤمن بالآخرة ممن يعبدون غير الله يعتقدون ان معبوديهم يشفعون لهم فيها كما يشفعون لهم في الدنيا ، فان أساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلبونه من الله لا بد أن يكون بوساطة المقربين عنده ، لأنهم لا يمكنهم القرب من الله والخطوة عنده بأنفسهم لأنها مدنسة بالمعاصي ، بخلاف دين التوحيد فإنه يوجب على العاصي أن يتوجه إلى الله وحده تائباً اليه طالباً مغفرته ورحمته

﴿قل أنبئوني الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض﴾ أي قل لهم أيها الرسول منكراً عليهم جهالتهم واقتراءهم على ربهم : أنخبرون الله تعالى وتعلمونه شيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات من ملائكته ولا في الارض من خواص خلقه ، فإنه لو كان فيها شفعا يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم ، فإنه لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، فكيف يخفى عليه من لهم من المكانة عنده أن جعلهم وسطاء بينه وبين خلقه في قضاء حاجهم من نفع وضر وفي تقريرهم اليه زلفى كالوسطاء عند ملوك البشر الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين

عن تنفيذ مشيئتهم فيهم بدون وساطة الوزراء والحجاب والقواد ﴿سبحانه﴾ وتعالى عما يشركون ﴿أي تنزيهاً له وتعالى عما كبراً عما يشركون به من الشفاء والوسطاء . وما يفترونه عليه بجمعهم هذا ديناً يتقرب به اليه . فهذا تذييل للجواب مبين لما في هذا الشرك من إهانة مقام الربوبية والالوهية ، وتشبيه رب العالمين ، بعبيده من الملوك الجاهلين العاجزين ، وقرأ حزقيا والكسائي (تشركون) بناء الخطاب ، على انه تنمة للجواب . وحكمة القراءتين تنزيهه تعالى عن شرك الجميع من غائب محكي عنه وحاضر مخاطب .

وفي هذا الجواب من أصول الدين ان شؤون الرب وسائر مافي عالم الغيب توقيفية لا يعلم الا بنجر الوحي ، ومنه اتخاذ الوسطاء عند الله ما ذكر وانه عين الشرك . ولكن من علماء الازهر من يثبتون هذه الوساطة بالرأي . ويحرفون ما ينقضها من الآيات المحكمات والاحاديث المتفق عليها كأنها هي الاصل ، حتى انهم يبيحون دعاء الموتى واستغاثتهم عند قبورهم ، ويحتجون على ذلك بأنهم أحياء فيها ، وبأن الافرنج أثبتوا وجود الارواح وعلاقتها بالناس ، ولسكن الذين قالوا بهذامن علمائهم وهم أقامهم ، لم يقولوا انها تنفعهم وتضرهم ، أو تشفع عند الله لهم ، ولو قالوا هذا لما كان لنا ان نتخذ قولهم حجة تعارضها نصوص ديننا او نتأولها لتوافيقها ، ولمشيخة الازهر الرسمية بمجلة تنشر باسمها هذه البدع والخرافات في جميع بلاد المسلمين . وتطعن على المعتصمين بالسنة وسيرة السلف الصالحين ، وعلى المعتصمين بالقرآن أيضا وهو حبل الله المتين ، لزعمهم ان الواجب عليهم هو أخذ الدين كله عن كتب مقلدة الفقهاء والتكلمين ، حتى المتأخرين منهم دون الأئمة المجتهدين

(١٩) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

تقدم في هذا السياق من أول السورة إلى هنا ان أهل مكة لم يكن دأبهم في تكذيبهم للوحي الحمدي إلا كدأب من قبلهم من الاقوام الذين كذبوا رسلهم .

ولم يكونوا في استعجال نبيهم العذاب إلا كاذبين استهجلوا ورسلمهم العذاب أيضاً وتقدم فيه بيان بعض طباع البشر ولا سيما الكفار في الرعونة والعجلة ، وفي الضراعة إلى الله والاخلص له عند الشدة ونسيانه عند الرخاء ، وفي الإشراف بالله بدعوى أن لهم شفعاء عند الله يدفعون عنهم الضر ويحلبون لهم النفع بوجاهتهم عنده ، ثم جاءت هذه الآية في بيان ما كل عليه الناس من الوحدة ، وما صاروا عليه من الاختلاف والفرقة ، فالتناسب بينها وبين ما قبلها في غاية القوة .

﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ﴾ قيل إن المراد بالناس هنا العرب فانهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحي الذي ابتدع لهم عبادة غير الله وصنع لهم الأصنام - كما ثبت في صحيح البخاري - فاختلّفوا بأن أشرك بعضهم وثبت على الحنيفية آخرون . (١)

وقيل وهو المختار أن المراد الجنس البشري في جماعته فانهم كانوا أمة واحدة على الفطرة ، إذ كانوا يعيشون عيشة السداجة والوحدة كأسرة واحدة ، حتى كثروا وتفرقوا فصاروا عشائر فقبائل فشعوباً تختلف حاجاتها وتتعارض منافصها ، فتتعدى وتتقاتل في التنارع فيها ، فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم ، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه ، ثم اختلفوا في الكتاب نفسه أيضاً بغياً بينهم واتباعاً لاهوائهم ، وتقدم تفصيل هذا في تفسير (٢ : ٢١٣) وأقوال المفسرين في المسألة والترجيح بينها

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ أي ولولا كلمة حق فاصلة سبقت من ربك في جعل جزاء الناس العام في الآخرة لعجلة لهم في الدنيا باهلاك المبطلين الباغيين منهم ، فالمراد من الكلمة قوله تعالى في هذه السورة (٩٣) إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ومثله في سور أخرى والآية تتضمن الوعيد على اختلاف الناس المفضي إلى الشقاق والعدوان ولا سيما الاختلاف في كتاب الله الذي أنزله لازالة الشقاق بحكمه ، وإدالة الوحدة

(١) بينا تاريخ وثنية العرب في فصل عقدناه عقب تفسير الآية ١٤٤ من سورة الانعام ومنه هذه المسألة فيراجع في الجزء الثامن من التفسير

(بونس : ١٠) اقترح المشركون الآيات الكونية على النبي (ص) ٣٢٩

والوافق منه ، وتقدم بيانه وحكمته في تفسير آية البقرة (٢١٣) وفي غيرها وسنعود إلى بيان حكمته وحكمة خالق الانسان مستعداً للاختلاف في تفسير آية سورة هود (١١٧ : ١١٩) ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ

(٢٠) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا

الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ

الكلام في منكري الوحي من المشركون المنكرين للبعث ، حكى عنهم عجبهم من الوحي إلى بشر مثلهم ورد عليهم بأنواع الحجج المقدمة المتضمنة لبطلان شركهم وانكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول ﷺ بالآيات بقرآن غير هذا القرآن للدال بأسلوبه ونظمه وعلومه وهدايته على أنه وحي من كلام الله عز وجل أو تبديله ، ورد عليهم بما علمت . ثم حكى عنهم في هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال ربه عليه آية كونية غير هذا القرآن وما فيه من الآيات العلمية والعقلية على النبوة والرسالة مع الرد عليها . والجملة معطوفة على جملة ما قبلها من حكايات أقوال المشركون واعمالهم في جمود الرسالة ، ومن دعوة الرسول ﷺ إلى التوحيد والايان بالبعث ، لا على آخر ما حكاه عنهم في قوله (ويهدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا) خاصة لقربه وكون كل منها بلغظ المضارع ، فإن المحكي هنا غير مشارك للمحكي قبله في خاصة موضوعه أو ما يناسبه ، ولا على ما حكاه عنهم من طلب الايتان بقرآن غير هذا أو تبديله خاصة وإن كانا في موضوع واحد ، لبعده والاختلاف بينهما في حكاية ذلك بالماضي وهو (قال الذين لا يرجون لقاءنا) وحكاية هذا بالمضارع الخ

وقال الزمخشري في الكشاف في ترجيحه إن المضارع هنا بمعنى الماضي هناك وإنما أثر المضارع على الماضي ليدل على استمرار هذه المقالة وانها من دأبهم وعادتهم . مع ما في ذلك من استحضار صورتها الشنيعة له وقد أخطأ في الترجيح وابتعد ، وإن سدد في التعليل وقارب ، والتحقيق أن المعنى الجامع بين الجمل المتعاطفة في هذا

٣٣٠ الآيات المنزلة في الآيات الكونية المقترحة على النبي (ص) (التفسير : ج ١١)

السياق حكاية أنواع جحودهم في جملتها ، وإن التعبير بالمضارع في هذه وما قبلها وفيما سيأتي من قوله (أم يقولون افتراه) وقوله (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) إنما هو لما يتكرر من أقوالهم في الجحود ، فإن اقتراح نزول آية كونية عليه قد تكرر منهم وذكر في سور منها ما نزل قبل هذه السورة (يونس) ومنها ما نزل بعدها كما سنوضحه بشواهد ، فمضى الآية هكذا :

﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أي قد قالوا ولا يزالون يقولون هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونية كآيات الأنبياء الذين يحدثنا عنهم ، حكى سبحانه عنهم هذا الاقتراح هنا مجملا وأجاب عنه جوابا مجملا لأن كلا منهما قد سبق مفصلا في سور أخرى ، وقد جهل هذا كفار الإفريج وتلاميذهم من جاحدة مصر ، فقالوا في مثله إن النبي ﷺ كان في مكة يفر من مناظرة للمشركين ﴿ قل إنما الغيب لله ﴾ والآيات من عالم الغيب عند الله تعالى وبيده وحده لأنها خوارق فوق قدرة البشر ، وإنما أنا بشر والغيب لله لا يعلمه غيره ، فإن كان قدر إنزال آية علي فهو يعلم وقتها وينزلها فيه وأنا لا أعلم إلا ما أوحاه إلي ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ لما يفعله بي وبكم كما قال تعالى بعد حكاية ربه ﷺ بافتراء القرآن (٤٦ : ٩ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أنبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين) ويفسر ما ينتظره وينتظرونه منه قوله في أواخر هذه السورة (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وفيه إنذار لهم بالعذاب وهو قسمان : عذاب الاستئصال لمن أوتوا ما اقترحوا على رسلهم من الآيات فأصروا على الجحود والعناد ، وعذاب من لم يؤتوا ذلك وهو خذلانهم ونصر الرسل عليهم في الدنيا وما وراءه من عذاب الآخرة

حكى الله تعالى عنهم اقتراح آية أو آيات مبهمة في بعض السور ، واقترح آيات معينة في سور أخرى منها ما نزل بعد هذه السورة وهي الحجر (١٥ : ٦ - ٨) فالأنعام (٦ : ٨ و ٣٩ و ٤١ و ١٠٩ - ١١١ فالأنبياء (٢١ : ٥) فالعنكبوت

(٢٩ : ٥) فالرعد (١٢ : ٨ و ٢٨) وفيها أجوبة أخرى فأما الانعام ففيها تفصيل الكون الآيات لا تزيدهم إلا عناداً واصراراً على الجحود فتحق عليهم كلمة عذاب الاستئصال ، وتنافي مراد الله تعالى من بعثة خاتم النبيين ، وتقدم تفسيرها في الجزئين ٧ و ٨ من تفسيرنا هذا فراجع ، ثم أجمل ذلك في سورة الانبياء فقال (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أنهم يؤمنون) ثم أجاب عنها في سورة العنكبوت يقولونه (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟)

الكنه كان قد فصل مقترحاتهم مع الرد عليها في السور التي أنزلت قبل ذلك كله كقوله تعالى في سورة الفرقان (٢٥ : ٧ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً (٨) أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ؟) ثم حكى عنهم في سورة بني اسرائيل (١٧) أنهم طالبوه ﷺ بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابة طلبهم فقال بعد بيان عجز الانس والجن عن الاتيان بمثل هذا القرآن ، وما صرفه فيه للناس من جميع ضروب الامثل ، (٩٠) وقالوا ان تؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً) الخ الآيات الاربع ثم لقن رسوله ﷺ الرد عليهم بقوله (٩٣) قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً ٩٤ وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ٩٥ قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) أي سبح ربك في جوابهم ، تسبيح التعجب عن قولهم ، وذكركم بأنك بشر مثلهم ، وليس في قدرة البشر أن يأتوا بالآيات الخارقة لسنن الكون ، وان آفتهم هي آفة من كان قبلهم من الاقوام الذين لم يعقلوا ما جاء به الرسل من الهدى وانه متى تبين وجب على العاقل اتباعه لذاته ، فاحتقروا الرسل الذين جاؤهم به لانهم بشر مثلهم ، واقترحوا أن يبعثهم به الملائكة ، وانه لو كان في الارض ملائكة يمشون فيها كالbشر يمكنهم التلقي عنهم انزل عليهم ملكاً ، ثم بين لهم انه اذا نزل الملك فهو لا ينزل إلا بالعذاب ، إلا أن يجمل بشراً ، واذا لاحتجوا عليهم بأنه مثلهم ، كما قال في سورة الحجر حكاية لخطأهم للذي نزل عليه الذكركر (١٥ : ٧) لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ٨ ما نزل الملائكة

٢٢٢ الآيات الكثيرة في حصر آية نبوته (ص) في القرآن التفسير : ج ١

إلا بالحق . وما كانوا إذاً منظرين) وقال في الانعام (٦ : ٨ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون (٩) ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون)

ولقنه في هذه السورة (بني اسرائيل) حجة أخرى في حكمة عدم نزول الآيات الكونية عليه أو سببه وهي قوله (٦٠) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) أي وما صرفنا عن إرسال الآيات إلا أن كذب بها قريش إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع والعادة كعاد وثمود وإزها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال على ما مضت به سنتنا . وقد قضينا أن لا نستأصلهم لأنهم أمة خاتم النبيين الباقية ، وأنه هو رحمة العامة الشاملة ، ولأن فيهم من يؤمن أو يولد لهم من يؤمن . ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فنذكره مع عبارة البيضاوي الوجيزة في تفسيره وهو : (وآتيناهم نوح القاق) أي القاق (مبصرة) بينة ذات إبطار أو بصائر أو جعلتهم ذوي بصائر (فظلموا بها) أي فكفروا وظلموا أنفسهم بسبب نكرها (وما نرسل بالآيات) أي المقترحة (إلا تخريفا) من نزول العذاب المستأصل فإن لم يخافوا نزل الله وفي سورة القصص وقد نزلت بعد الفرقان وقبل بني اسرائيل تفصيل لقصة

موسى في مولده ونشأته وفراره من فرعون إلى مدين وبعثته في طور سيناء الخ وقد صرح في آخرها أنها تدل على رسالته ﷺ لأنه لم يكن يعلم من أمرها شيئا فهي من علم الغيب كما تراه في الآيات (٢٨ : ٤٤ - ٤٥) منها وقد تقدم نصها (في مباحث الوحي ص ١٨٧ ج ١١ تفسير) ثم قال (٤٧) ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ٤٨ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ؟ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ قالوا سحران تظاهرا . وقالوا إنا بكل كافرون (الخ) فجملة ماورد في اقتراح الآيات الكونية من مجمل ومفصل يفسر بعضها بعضها وهو مقرر لما علم بالقطع من دين الاسلام أن الله تعالى جعل حجته على رسالته خاتم النبيين هذا القرآن المشتمل على كثير من الآيات العقلية والعلمية والاصلاحية .

واخبار الغيب واعجاز الاسلوب والنظم والتأثير في الهداية الخ ما فصلناه في الفصل الاستطراذي الذي عقدناه لاثبات الوحي في أول تفسير السورة (ص ١٩٥ ج ١١) وقد أتى الله رسوله خاتم النبيين آيات أخرى علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا امره بالتحدي بها وإنما كانت تكون لضرورات اشتدت حاجة الأمة اليها كاستجابة بعض ادعيته عليه السلام وتقديم بيانه (ص ١٥٩ منه) ويؤيد هذه القاعدة المأخوذة من هذه الآيات كلها ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعاً « ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » وقد يعارضه آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشاً سألوا النبي صلى الله عليه وسلم آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقين ، ولكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه علماً في متنها وأسانيدها واشكالات علمية وعقلية وتاريخية فصلناها في المجلد الثلاثين من المنار ^(١) ولينا أن ما يدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته صلى الله عليه وسلم في القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضي إجابة مقترحها عذاب الاستئصال ، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء ، وسنعود إليها في تفسير سورة القمر إن أحيانا الله تعالى ووفقنا لاتمام التفسير بفضله

(٢١) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا مَكْرُونٌ (٢٢) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهُمْ رِيحٌ

عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ
دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ
مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٣) فَلَمَّا أَنجَاهَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
إِلْحَاقٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

لما كان الجواب عن اقتراحهم الآية الكونية للدلالة على النبوة يتضمن بمعونة ما يفصله من الآيات ان أولئك المشركين المعاندين لا يقتنعون بالآيات ، وانهم اذا رأوها بأعينهم يكابرون حسهم ولا يؤمنون ، ضرب الله مثله في آياته الكونية الدالة على وحدانيته في أفعاله وحكمه فيها وما لهؤلاء المشركين المعاندين من المكرب فيها وكونها لا تزيدهم إلا ضلالا فقال

﴿وإذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ هذه الشرطية منتظمة مع اختيها في الآيتين ١٢ و ١٥ في نسق واحد ، والذوق في أصل اللغة إدراك الطعم بالغم ، والمدر ك له عصب خاص في اللسان ، واستعمل مجازاً في إدراك غيره من اللذات كالرحمة والنعمة ، والمؤلمات كالعذاب والنقمة ، والضراء الحالة من الضر المقابل للنعمة ، ويقابلها السراء من السرور ، أي واذا كشفنا ضراء مس الناس ملها ، برحمة منا أدقناهم لذتها على أمتها ، لان الشعور بها عقب زوال ضدها يكون

آثم وأكل ﴿إذا هم مكر في آياتنا﴾ اذ هذه تسمى العجائبية والجملة جواب للشرط أي ما كان منهم إلا أنهم يادروا الى المكر ، وأسرعوا بالمعاجاة به في مقام الشكر ، فاذا كانت الرحمة مطراً أحيا الارض ، وأنبت الزرع ، ودر به الضرع ، بعد جذب وقحط أهلك الحرث والنسل ، قالوا مطرنا بالانواء ، واذا كانت نجاة من هلكة وأعوزتهم اسبابها ، عللوا بالمصادفات ، واذا كان سببها دعاء نبيهم أنكروا

(يونس: ص ١٠) دعاء النبي على قريش بالقحط ثم برفعه ومكرهم ومكر الله بهم ٣٣٥

إكرام الله له وتأنيده بها ، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى ، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ عليهم ، ثم رفع عنهم بدعائه فيما زادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً ، ومكراً وكنوداً .

أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود [رض] أن قريشاً لما استعصوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهينة

الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشي الناس هذا عذاب ألیم) فأتى رسول الله ﷺ فقبل له يارسول الله استق

لمضر فانها قد هلكت فقال « مضر ؟ » متعجباً ، وفي رواية فجاءه ابو سفيان فقال يا محمد انك جئت تأمرنا بصلاة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله ، فدعاهم فكشف الله عنهم العذاب ومطرواً فعادوا الى حالهم ومكرهم الاول الذي تقدم فيه قوله تعالى

(٣٠: ٨) وإذ يكر بك الذين كفروا (الآية) ، وقد بين في تفسيرها وتفسير آية (٩٨: ٧) وآية (٥٤: ٣) معنى المكر في اللغة وكونه حسناً وسيئاً ومعنى اسناده الى

الله تعالى . ونلاحظه ان المكر عبارة عن التدبير الخفي الذي يقضي بالمكور به الى مالا يحتمسه ولا يتوقعه ، وان مكره تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس انما يكون باقامة سننه وإتمام حكمه في نظام العالم وكله حق وعدل وحسن ، ولكن مايسوء الناس منه يسمونه مكرّاً وسوءاً ، وإن كل جزاء عدلاً ، ويراجع تحقيقه في الجزئين ٩٣ و ٩٤ من

التفسير ﴿ قل الله أسرع مكرّاً ﴾ اي قل ايها الرسول لهؤلاء الذين يسرعون في المكر كما دلت عليه المفاجأة : ان الله تعالى أسرع مكرّاً منكم ، إذ سبق في تدبيره لأموال العالم وتقديره للجزاء على الاعمال قبل وقوعها ان يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو عالم به لا يخفى عليه شيء منه ، وأكد هذا بقوله ﴿ وإن رسلنا

يكتبون ما تملكون ﴾ يعني الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله تعالى بإحصاء أعمال الناس وكتبتها لحساب عليها في الآخرة . وكتابة المكر عبارة عن كتابة متعلقه من الأعمال اللاتي كان هو الباعث عليها ، ويجوز ان تكتب نيتها وهي المعنى

المصدرى المكر . والجملة تنمة الجواب الذى لقنه الله لنبيه ﷺ بناء على انه يبلغه عنه عز وجل بلغظه الموحى اليه لا بمعناه ، ولذلك يدخل في التبليغ لفظ (قل) وهو خطاب الله له ﷺ مع مقوله الخاص بهم كقوله (قل يا أيها الكافرون) وأمثاله الكثيرة في القرآن ، بل أقول انه ﷺ بلغهم الآية برمتها: ما حكاه تعالى عنهم وما أمره ان يحبسهم به ، وقد يكون ذلك في ضمن السورة كلها لا وحده ، ومثل هذا يقال في أمثاله .

فعلم بهذا أنه ليس المراد ان يقول ﷺ لهم كلمة « الله اسرع مكرآ » من قبل نفسه فيستشكل الالتفات فيها عن الغيبة إلى التكلم في « ان رسلنا » بل هو جار على سنة القرآن فيه ، وهو أبلغ في تصوير تسخير الله تعالى للملائكة في كتابة الأعمال من التعبير بضمير الغيبة (ان رسله يكتبون) الخ لان في ضمير الجمع من تصوير العظمة في هذا التدبير العظيم ، والنظام الدقيق ، ما يشعر به كل من له ذوق في هذه اللغة سيدة اللغات ، التي اعترف علماء اللغات من الافرنج بأنها تفوق جميع لغاتهم ، في التعبير عن صفات الله تعالى وكلمه وعظمته ^(١) ومثل هذا الالتفات فيها قوله تعالى في آخر سورة الكهف (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) وقرأ نافع ويعقوب [بمكرون] بالثناة التحنية وفائدته الاعلام بأن ذلك شامل للغائبين كالحاضرين

وقد فصلنا القول في كتابة الملائكة الحفظة لأعمال الناس وحكمتها في تفسير (٦١ : ٦) وهو القاهر فوق عباده وبرسل عليكم حفظة) من سور الانعام وشرحنا قبلها مسألة كتابة مقادير الخلق كلها في تفسير الآية (٥٩) وعنده مفاتيح الغيب) منها فيراجع الموضوع كله في جزء التفسير السابع من شاء ، ومن اكتفى بالاجمال فحسبه الايمان بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى معرفة صفتها ، وانما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاماً حكماً في إحصائها ، لاجل مراقبته فيها ، لنلتزم الحق والعدل والخير ونجتنب أضرارها

ومن مباحث اللفظ في الآية ان اسم التفضيل [اسرع] فيها على أصله من الفعل الثلاثي : سرع كضخم وحسن سرعا وسرعة فهو سارع وسريع وسراع والمستعمل بكثرة الرباعي أسرع ، وفي اللسان ان سيديويه فرق بينهما فقال : اسرع طلب ذلك من نفسه وتكافه كأنه اسرع المشي اي عجله ، واما سارع فكأنها غريزة ، وان ابن جني استعمل اسرع متعديا ، اه وجوز بعض النحاة كون اسم التفضيل من مثل أسرع مطلقا ، أو إذا لم تكن همزته للتعدية ثم ضرب الله تعالى مثلا لهُؤلاء الناس هو من أبانم أمثال القرآن فقال :

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ السير المضي والانتقال من مكان إلى آخر والتسمير جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو مركبة أو سفينة ، اي ان الله تعالى هو الذي يسيركم أيها الناس في البر والبحر بما وهبكم من القدرة على السير ، وما سخر لكم من الابل والدواب والفلك التي تجري في البحر (وزادنا في هذا العصر القطارات والسيارات البخارية والطائرات التي تسير في الجواء) ﴿ حتى اذا كنتم في الفلك ﴾ اي حتى اذا كنتم في إحدى حوادث سيركم البحري راكبين في الفلك التي سخرها لكم ، والفلك بالضم اسم للسفينة المفردة وجمعها وهو السفن والسفائن [مفردة وجمعه واحد] والمراد به هنا الجمع إذ قال ﴿ وجرين بهم برح طيبة ﴾ أي وجرت هذه الفلك بمن فيها بسبب ربح طيبة اي رخاء موالية لهم في جهة سيرهم ، والطيب من كل شيء ما يوافق الغرض والمنفعة ، يقال رزق طيب ونفس طيبة ، وبلدة طيبة وشجرة طيبة . وفي قوله [بهم] التفات عن الخطاب إلى الغيبة فأيده كما قال الزمخشري المبالغة كأنه يذكر اغيهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الانكار والتعجب لها ، اي لما وصفهم به بعد ذلك من كفر النعمة ﴿ وفرحوا بها ﴾ لما يكون لهم في هذه الحالة من الراحة والانتعاش والامن من دوار البحر والمتع بمنظره الجميل ، في ذلك الهواء العليل ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾

« تفسير القرآن الحكيم » « ٤٣ » « الجزء الحادي عشر »

اي جاءت الفلك أو الريح الطيبة اي لاقتها ريح شديدة قوية يقال عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة اي تعصف الاشياء وتكسرهما فتكون كمصف النبات وهو الحطام المنكسرة منه ﴿وجاءم الموج من كل مكان﴾ اي واضطرب البحر وتموج سطحه كله فتلقاهم موجه من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح ، فهي أنواع منها ما يهب من ناحية واحدة كالرياح الاربع ، ومنها النكباء وهي المنحرفة التي تقع بين ريحين مختلفتين ، ومنها المتناوذة التي تهب من جميع النواحي ، ومنها الإعصار وهي التي تدور فتكون عمودية فيرتفع بها مائدور عليه من التراب والحصى من الارض ، و الماء من سطح البحر بما عليه وما فيه من سمك وغيره ثم باقى في مكان آخر ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ اي اعتقدوا اعتقاداً راجحاً انهم هلكوا باحاطة الموج من كل جانب ، كما يحيط العدو المحارب بعدوه إذ يطوقه بما يقطع عليه سبل النجاة . ذلك بأن فعل العاصف يهبط بهم في لجج البحر تارة كأنهم سقطوا في هاوية سحيقة ، ولا يابث ان يثب بهم الى أعلى غوارب الموج كأنهم في قمة جبل شاهق اصابه رجفة زلزلة شديدة ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ هذا جواب لما تضمنته قوله تعالى (حتى اذا كنتم في الفلك) الخ ، اي حتى اذا ما نزل بهم كل ذلك من نذر العذاب ، وتقطعت بهم دون النجاة جميع الاسباب ، دعوا الله في كشفه عنهم مخلصين له الدين ، لا يتوجهون معه الى ولي ولا شفيع ، ولا ند ولا شريك ، ممن كانوا يتوسلون بهم اليه في حال الرخاء عازمين على طاعته قائلين ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ اي نقسم لك يا ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة أو العاصفة لنكونن لك من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعمائك لا نكفر منها شيئاً ، ولا نشرك بك أحداً ، ولا ندعو من دونك ولياً ولا شفيعاً ، ولا نتوجه في تفريج كربنا وقضاء حاجتنا إلى وثن ولا صنم ، ولا الى ولي ولا نبي ولا ملك ، وفي هذه الآية وأمثالها بيان صريح لكون المشركين كانوا لا يدعون في أوقات الشدائد وتقطع الاسباب بهم الا الله ربهم ، ولكن من لا يحصى عددهم من مسامي هذا الزمان يزعمهم لا يدعون عند أشد الضيق الا معبودهم من الميتين كالبديوي والرفاعي والدسوقي

(يونس: ١٠) اخلاص المشركين الا وابن الله في الشدة دون مشركي زماننا ٢٣٩

والجبلاني والمتبولي وابي سريع وغيرهم ممن لا يحصى عددهم، ونجد من حملة العمائم الازهريين وغيرهم ولا سيما سدة المشاهد المعبودة الذين يتمتعون باوقافهم وانذورها من يعريهم بشركهم ويتأوله لهم بتسميته بغير اسمه في اللغة العربية كالتوسل وغيره وقد سمعت من كثير من الناس في مصر وسورية حكاية يذوقونها ربما تكررت في القطارين لنشابه أهلها وأكثر مسلمي هذا العصر في خرافاتهم ومناخضها ان جماعة ركبوا البحر فهاج بهم حتى أشرفوا على الفرق فصاروا يستغيثون معتقديهم فبعضهم يقول ياسيد يابدوي وبعضهم يصيح يارفاعي وآخر يهتف يا عبد القادر يا جبيلاني ... الخ وكان فيهم رجل موحد ضاق بهم ذرعاً فقال: يا رب اغرق اغرق به ما بقي أحد يعرفك .

وفي هذا المعنى قول السيد حسن صديق الهندي في الكلام على الآية من تفسيره فتح الرحمن :

«وفي هذا دليل على ان الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد، وان المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً، وفي هذه الآية بيان ان هؤلاء المشركين كانوا لا ياتفتون الى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها ، فيا عجب لما حدث في الاسلام من طوائف يعتقدون في الاموات ، فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك الينا تواتراً يحصل به القطع ، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية ؟ وأين وصل بها أهلها ؟ والى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى اقتادوا له انقياداً ما كان يطعم في مثله ولا في بعضه من عباد الاصنام ، فانا لله وانا اليه راجعون »

وقال السيد محمود الالوسي العراقي في تفسيرها من روح المعاني مانصه :

أي دعوه تعالى من غير أمر الك لرجوعهم من شدة الخوف الى الفطرة التي جبل عليها كل أحد من التوحيد وانه لا متصرف إلا الله سبحانه المركز في طوائع العالم . وروي ذلك عن ابن عباس ، ومن حديث أخرجه ابو داود والنسائي

وغيرهما عن سعد بن ابي وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن ابي جهل
فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة لاهل السفينة أخلصوا فان
آلهتكم لا تنغي عنكم شيئا ، فقال عكرمة لئن لم ينجني في البحر الا الاخلاص
ما ينجيني في البر غيره ، اللهم ان لك عهدا ان أنت عاقبتني مما أنا فيه ان آتي
محمدًا حتى أضع يدي في يده فلا أجده عفوًا كربما ، قال فجاء فأسلم ، وفي رواية
ابن سعد عن ابي مليكة ان عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الرياح فجعلوا يدعون
الله تعالى ويوحّدونه قال ما هذا ؟ فقالوا هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى ، قال
فهذا إله محمد ﷺ الذي يدعوننا اليه فارجعوا بنا فرجع وأسلم . وظاهر الآية انه
ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه ، بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً (١)
لانهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين ، وأيا ما كان فلاية دالة على ان
المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال ، وأنت خير بأن الناس اليوم اذا
اعتراهم أمر خطير ، وخطب جسيم ، في بر او بحر ، دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا
يرى ولا يسمع ، فمنهم من يدعو الخضر والياس ، ومنهم من ينادي أبا الخليس
والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الائمة ، ومنهم من يضرع الى شيخ من
مشايخ الامة ، ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه ، بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر
له ببال ، انه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الاهوال ، فبالله تعالى عليك
قل لي أي الفريقين من هذه الحبشية أهدي سبيلا ، وأي الداعيين أقوم قبلا ، والى
الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ،
وخرقت سفينة الشريعة ، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة ، وتعذر
على العارفين الامر بالمعروف ، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الختوف اه
أقول يعني الشهاب الآلوسي رحمه الله إن فشو هذا الشرك في الناس عامتهم
وشيوخ البدع من علمائهم ، والمناققين من حكامهم ، جعل نهى العارفين عنه ،
وأمرهم بالتوحيد المحض ، من الامور المتعذرة ، التي يخشى على المجاهر بها الختوف
(١) الدعاء مخ العبادة فكان ينبغي ان يقول : بل تخصيص كل عبادة به ايضا

والملكمة . ونحن ما أمكننا هذه المجاهرة في مصر الا بما رسخ فيها من الحرية المطلقة بتفرض الحكومة . ولما جهرت بها أول مرة في درس عام بالمسجد الحسيني سنة ١٣١٦ هـاج على الناس هيجة شؤمي ، وحاول بعضهم أن يقتلني جهرا ، فلما يقول شيخ الازهر ومحرو ومجلة المشيخة (نور الاسلام) في السيد الآلوسي وفي السيد حسن صديق ؟ لا يبعد أن تطعن هذه المجلة في دينهما وعقيدتهما كما طعنت على دين الامام الشوكاني في جزئها الذي صدر أثناء كتابتنا لتفسير هذه الآية .

﴿ اهتداء بارج انكليزي بهذه الآية وأمثالها ﴾

ساق الله تعالى نسخة من ترجمة القرآن العظيم باللغة الانكليزية الى اارج من رباين البواخر الكبرى التي تمخر البحار بين انكلترا والهند فرأى فيها ترجمة هذه الآية فراعته بلاغة وصفها لطيفان البحر واصطفا به وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالبواخر والبوارج العظيمة في المحيط الهندي في فصل الصيف ، فطفق يتأمل سائر الآيات في وصف البحر ، والسفائن الكبرى فيه التي وجدت في هذا العصر ولم يكن لها نظير في عصر النبي ﷺ كقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) ورأى ان المترجم الانكليزي ينقل عن أشهر تفاسير القرآن لبعض علماء المسلمين التي ألفت بعد افتتاح العرب للممالك واستيلائهم على البحار انهم لم يكونوا يعرفون ما عرفه الانكليز وغيرهم من بعدهم ان اللؤلؤ والمرجان يخرج من البحار الحلوة كما يخرج من البحار المالحة فتأولوا قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) بأنه يخرج من مجتمعهما الصادق بأحدهما لأنه يزعمهم يخرج من البحر الملح فقط ، غافلين عن قوله تعالى (ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها) ونبه نظره تشبيه الجوارى المنشآت بالأعلام في هذه الآية وفي قوله تعالى (٤٢ : ٣٢) ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظلان رواكد على ظهره) والعالم الجبل ، وأصلها أعلام الطريق العالية التي تعرف بها المسالك ، أطال الفكر هذا

الربان الانكليزي في هذه الآيات فتعمد أن يعرف بعض المسلمين في بعض
 ثغور الهند ، فسألهم أنعلمون ان نبيكم محمداً ﷺ سافر في البحار ؟ قالوا لا انه لم
 يرو عنه انه سافر في البحر قط ، فاعتقد ان مافي القرآن مما ذكر لم يكن إلا بوحى
 من الله تعالى لهذا النبي العظيم ، وأعظم منه ما فيه من آيات التوحيد والتشريع
 والتهديب ، التي هي أكل وأقرب الى العقل والفكرة من كل مافي التوراة والانجيل ،
 فأسلم عن علم وبصيرة ، وظل زمنا طويلا يتعبد بما يفهمه من ترجمة القرآن ، حتى
 أتبع له ترك عمله في البحار ، فأقام في مصر وتعلم العربية وعاشر فضلاء المصريين ،
 وهو مستر عبد الله براون رحمه الله تعالى ، وأنا قد أدركته وعرفته ، ولا يزال
 في مصر من يعرفه ، وقد ضرب الاستاذ الامام به المثل في صلاته التي كان يصلها
 في البحر بقدر ما يفهم من القرآن بكل خشوع وتوجه إلى الله تعالى ، في كلام له
 في روح الصلاة ومغزاها ، وصورتها وأركانها ، قال قد كانت تلك الصلاة أقرب
 الى مرضاة الله تعالى وقبوله من الصلاة الصورية التقليدية التي يمثلها من لا يحظر
 في قلوبهم فيها أنهم متوجهون الى الله ومناجون له مع استشعار عظمتهم ووحدايته الخ
 قال تعالى في وصف أولئك القوم ﴿ فلما أنجاهم اذا هم يبغون في الارض ﴾
 أي اذا هم يقاجئون الناس في الارض التي يهبطون اليها بالبغي عليهم وهو الظلم
 والعدوان والافساد يعنون في ذلك ويضرون عليه ، وأصل البغي طلب ما زاد
 على القصد والاعتدال ، إلى الافراط المفضي الى الفساد والاختلال ، من بغي الجرح
 اذا زاد حتى ترمى إلى الفساد ، ومنه قولهم : بغت السماء ، اذا تجاوزت في المطر
 الحد المحتاج اليه للزرع والشجر وامداد الينابيع ، وبغت المرأة اذا تجاوزت في بضعها
 الحق الخاص بالزوج الى الفجور ، والاصل فيه أن يكون كما وصفه ﴿ بغير الحق ﴾
 فتكون الصفة كاشفة للواقع للتذكير بقبحه وسوء حال أهله ، وقد يكون البغي
 وهو تجاوز حد الاعتدال بحق اذا كان عقابا على مثله أو ما هو شر منه كما يقع
 في الحروب وقتال البغاة من اضطرار أهل الحق والمعتدى عليهم ، الى تجاوز
 الحدود في أثناء الدفاع عن أنفسهم ، وقد قال تعالى (٤٢ : ٣٧) والذين اذا أصابهم

(يونس : ١٠) عود البغي على الباغي في الدنيا وعقابه في الآخرة ٣٤٣

البغي هم ينتصرون -- الى قوله -- انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون
في الارض بغير الحق (وقال في بيان اصول الجرائم (٣٢:٧ قل انما حرم ربي
الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق) الخ

﴿ يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم ﴾ هذا التفات عن حكاية المثل الى
مخاطبة البغاة أينما كانوا ، وفي أي زمان وجدوا ، مبدوءاً بالنداء الذي يصبح به
الواعظ المذنب بالبعيد في مكانه ، أو العاقل الذي يشبه الغائب في حاجته الى من
يصبح به لينبهه ، يقول يا أيها الضالون عن رشدكم ، العاقلون عن أنفسكم ، حسبكم
بغياً على المستضعفين منكم ، وغروراً بكبرياؤكم وقوتكم ، انما بغيكم في الحقيقة على
أنفسكم ، لان عاقبة وبالها عائدة عليكم ، أو لان من تبغون عليهم من قومكم أو من
أبناء جنسكم ، كقولهم (ولا تقتلوا أنفسكم) المراد به ولا يقتل بعضهم بعضاً ،
والشر داعية الشر ، ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ اي حال كون بغيكم أو تتمتعون ببغيكم متاع
الحياة الدنيا الغانية الزائلة ، فهو ينقضي وعقابيله باقية ، وأقلها توبيخ الوجدان ،
وقرأ الجمهور « متاع » بالرفع على انه خبر لما قبله وفيه وجهان ، أو على تقدير هو متاع
الحياة الدنيا ﴿ ثم اليها مرجعكم ﴾ أي ثم انكم بعد هذا التمتع القليل ترجعون اليها وحدنا
﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ دأبنا من الظلم والبغي والتمتع بالباطل مصيرين فنجازيكم به
دلت الآية على ان البغي مجازي أصحابه عليه في الدنيا والآخرة ، فاما في
الآخرة فهو مادل عليه انذار أهله الرجوع الى الله وانباؤه بإيام بما كانوا يعملونه ،
إذ المراد به لازمه وهو الجزاء به ، وقد تكرر مثله في التنزيل . واما في الدنيا فهو
قوله تعالى (انما بغيكم على أنفسكم) ويؤيده قوله ﷺ « ما من ذنب يعجل الله
الصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » رواه
احمد والبخاري في الادب المفرد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي
بكر (رض) وأخرج ابن عدي وابن النجار من حديث علي (رض) مرفوعاً
« احذروا البغي فانه ليس من عقوبة هي أحضر من عقوبة البغي !! » والترمذي

وابن ماجه عن عائشة « أسرع الخير ثوابا البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم » وأخرج البخاري في الادب المفرد عن ابن عباس موقوفا « لو بغي جبل على جبل لك البغي » ورواه ابن مردويه مرفوعا وموقوفا والموقوف أصح كما قال ابن أبي حاتم وفي الجامع الصغير عن أبي هريرة بزيادة « لك البغي منها » أخرجه ابن لال بسند ضعيف .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس عن أنس (رض) قال قال رسول الله ﷺ « ثلاث هن رواجع على أهلها : المنكر والنكث والبغي » ثم تلا رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم * ولا يحق المنكر السيئ إلا بأهله * ومن نكث فإني نكثت على نفسه) والمراد نكث اليهود مع الله أو مع الناس وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكرة قال قال رسول الله ﷺ « لا تبغ ولا تكن باغيا فان الله يقول (إنما بغيتكم على أنفسكم) وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن الزهري وأقول أنه يجب علينا ان نرجع في تحقيق الحق في هذا الموضوع الى سنن الله تعالى في العمران وطبائع الاجتماع البشري التي تثبتها وقائع التاريخ ، فهي التي تفسر لنا ان البغي - وهو من أخص ضروب الظلم للناس - يرجع على فاعله ، ذلك بأنه سبب من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الافراد ، وإيقاد نيران الفتنة والثورات في الاقوام ، والفرد الذي يبغى على مثله يخلق له بغيه عدواً أو أعداء ممن يبغى عليهم ، ومن يكرهون البغي وأهله ، فوجود الاعداء والمبغضين ضرب من ضروب العقوبة وإن لم يستطيعوا إيذاء الباغى لمعجزهم ، فكيف اذا قدروا وفعلوا وهو الغالب ؟ وأما بغي الملوك والحكام على الاقوام والشعوب فأهون عقوبته عداوتهم والطعن عليهم ، وقد تفضي الى اغتيال اشخاصهم ، أو الى ثل غروشهم والقضاء على حكمهم ، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرش ، او نوعا من الحكم بنوع آخر ، وإما باغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي تسلبها استقلالها ، وتستولي على بلادها ، ولا تنس ما تكرر عليك في هذا التفسير من ان ذنوب الافراد من بغي وظلم وغيرهما لا يطرده العقاب عليها في الدنيا بخلاف ذنوب الأمم

والدليل ، فإن عقابها اثر طبعي لظلمها وفسادها . وانما يوفى كل أحد جزاءه في الآخرة
(فان قيل) إن الارض كلها تستغيث ربها من بغي دول أوربة وظلمها ، فما
لنا لا نرى بغيها يعود وباله عليها ، وما لنا لا نرى وعيده تعالى للظالمين نازلًا بها ،
ومديلاً للشعوب الشرقية المظلومة منها ومن شعوبها المؤيدة لها

(قلنا) ان هذا السؤال ما جاء إلا من الغفلة عن الامر الواقع ، والجهل بسنن
الله في العمران ، فان في بلاد هذه الدول من المصائب والنوائب والجوائح والفقر
ما هو أشد مما في بعض بلاد الشرق ، وانها قد قتلت من رجالها في الحرب الاخيرة
العامّة أضعاف من قتلتهم بغيًا وعدوانًا من أهل الشرق منذ اعتدت عليهم الى
اليوم ، وانها قد خربت من عمراتها أكثر مما خربت في الشرق ، وانها قد خسرت
من أموالها في أربع سنين أضعاف ما ربحت من الشرق في مائة سنة ، وان ما بين
شعوبها بعضها لبعض من الاحقاد والاضغان ، وتربص الدوائر الوثبان ، والفتك
بالارواح وتدمير العمران ، لأشد مما في قلوب شعوب الشرق لظالمهم ومستدليهم
منهم . فهذا بعض انتقام العدل الالهي المشاهد

فأما الجوائح السماوية فلا يعتبرون بها ، لانهم يستندونها الى أسبابها ما صح
منها وما لم يصح ، فكرهم في آياته أشد من مكر من قبلهم . وأما المصائب الكسبية
فيتوخون تخفيفها ، وتلافي شرورها ، بالمفاوضات والمؤتمرات ، وهيهات هيهات .
وأما ما تتمناه من الادالة لشعوبنا منهم فلا تزال غير أهل له لما هي عليه من
الجهل وفساد الاخلاق ، والتقاطع والتخاذل ، وترك كل ما هداها الله اليه في كتابه .
من أسباب السيادة والاستخلاف في الارض كما نبهنا اليه آنفًا ، وشرحناد في تفسيرنا
هذا لآيات كتابه صرارًا ، ومن المكابرة للحس ان ننكر ان أكثر ما في بلادنا من
عمران فهو من عملهم ، وإن كان جله لمصلحتهم ، وان من يستخدمون من ملوكنا
وأمرائنا وحكامنا هم شر علينا منهم ، بل لم يسودونا ويغلبونا في قطر من أقطارنا ،
إلا بمساعدة سادتنا وكبرائنا إياهم علينا (٥٣ : ٨) ذلك بأن الله لم يك مغيرًا لنعمة
انعمها على قوم حتى يغيروا ما بآبائهم) فراجع تفسيره في ص ٣٦ - ٤٧ من جزء
التفسير العاشر (تعلم اننا اذا غيرنا ما بآبائنا الا ن ، بما كان عليه سلفنا من إيمان وأخلاق

٣٤٦ مثل الاخلاص لله في الدعاء عند الشدة لاصنف الناس اثنائة التفسير: ج ١١

تتبعها الاعمال ، وأولها الجهاد بالنفس والمال ، فان كل ما سلب منا يرجع اليها ، ونزاد عليه بالسيادة على غيرنا ، ولو اتبعوا هم كتابنا كله لاصلحوا الارض كلها .
ضرب الله هذا المثل هنا للكافرين بنعمه من الباغين في الارض والظالمين للناس ، فذكر من اخلاصهم في دعائه عند الشدة أنهم يقسمون له اثنى انجاء منها ، ليكون من الشاكرين له عليها ، وضر به في أواخر سورة العنكبوت للمشركين في عيادته ، من المؤمنين بربوبيته ، فقال (٢٩ : ٦٥) فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر اذا هم يشركون (وضر به في أواخر سورة لقمان لجميع أصناف الناس فقال (٣١ : ٣١) ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ٣٢) واذا غشيهم موج كاطغل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياته إلا كل خثار كفور (الخثار الكفور هنا ضد مقابل للصبار الشكور فيما قبله ، والخثار الغدر الذي يحمل عليه ضعف الارادة

والعبرة في هذه الآيات كلها انه تعالى أخبر عن المشركين به . وعن الكافرين بنعمه ، وعن الختارين الفاقدين لفضيلتي الصبر والشكر ، أنهم كاهم يدعونه في شدة الضيق ومساورة خطر البحر لهم مخلصين له الدين ، لا يتوجهون إلى غيره ممن اتخذهم شركاء لله تعالى بعبادتهم لهم وتوسلهم بهم واتخاذهم وسطاء عنده ، وأنهم انما يقتربون هذا الشرك وما يناسبه من البغي والظلم وكفر النعمة بعدم اسنادها إلى المنعم الحقيقي في أوقات التمتع بها والسلامة من منغصاتها ، وإن الذين يشبهون على توحيدهم وشكره هم المقتصدون أي المعتدلون في عقائدهم وأخلاقهم فلا تقنطهم الشدة ، ولا تبطوهم النعمة

ولكن يوجد في زماننا من هم أشد شركا وكفرا بالنعمة والمنعم وهم قوم يدعون غير الله من دونه في أشد أوقات الضيق والخطر ، ويدعون مع ذلك أنهم مسلمون موحدون لأنهم ينظنون بكلمة التوحيد الموروثة بألسنتهم وهم لا يعقلون معناها .
والله تعالى يقول (فاعلم انه لا إله إلا الله) ولا حول ولا قوة إلا بالله

(٢٤) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا
أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا
أَتَتْهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْيَأْسُ
كَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

لما كان سبب ما ذكر من البغي في الارض وفساد العمران هو الافراط في حب
التمتع بما في الدنيا من الزينة واللذات ضرب لها مثلاً بليغاً يصرف العاقل عن
الغرور بها ، ويهديه إلى القصد والاعتدال فيها ، واجتناب التوسل اليها بالبغي
والظلم ، وحب العلو والفساد في الارض ، وهو عبارة عن تشبيه زينتها ونعيمها
بشي افتتان الناس بهما وسرعة زوالها بعد تمكنهم من الاستمتاع بها ، بحال الارض
يسوق الله اليها المطر فنبت أنواع النبات الذي يسر الناظرين ببهجته ، فلا يلبث
أن تنزل به جائحة تحسه وتستأصله قبيل بدو صلاحه والانتفاع به ، قال عز وجل
﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي لاشبه لها في صورتها وما لها
إلا ماء المطر في جملة حاله الآتية ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أي فأنبتت
الارض أزواجاً شتى من النبات تشابكت بسببه واختلط بعضها ببعض في مجاورها
وتقاربها ، على كثرتها واختلاف أنواعها ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ بيان
لأزواج النبات وكونها شتى كافية للناس في أقواتهم ومراعى انعامهم ، وكل
مراعى آملهم ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ ﴾ أي حتى كانت
الارض بها في خضرة زروعها السندسية ، وألوان أزهارها الربيعية ، كالعروس
إذا أخذت حلبيها من الذهب والجواهر ، وحلها من الحرير الملون بالألوان المختلفة
ذات البهجة ، فتملحت وازينت بها استعداداً للقاء الزوج - ولا تغفل عن حسن

الاستعارة في أخذ الارض زينتها ، حتى كان استكمال جمالها ، كأنه فعل عاقل حريص على منتهى الابداع والانتقان فيها (صنع الله الذي أنقن كل شيء)

﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ متمكنون من التمتع بشمراتها ، وادخار غلاتها ،

﴿ أنها أمرنا ليلاً أو نهاراً ﴾ أي نزل بها في هذا الحال أمرنا لنقدر لاهلاكها بجائحة مساوية ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم غافلون ﴿ فجعلناها حصيداً ﴾ أي كالارض المحصودة التي قطعت واستوصل زرعها ، فالحصيد يشبه به الهالك من الاحياء كما قال في أهل القرية الظالمة المهلكة (فجعلناهم حصيداً خامدين) ويشبه هذا الهلاك في نزوله في وقت لا يتوقعه فيه أهله قوله (أفأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلاعبون)

﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أي هلكت فجأة فلم يبق من زروعها شيء ، حتى كأنها لم تنبت ولم تمكث قائمة نضرة بالأمس ، يقال غني في المكان اذا أقام به طويلاً كأنه استغنى به عن غيره ، قال تعالى في الاقوام الهالكين في أرضهم (كأن لم يغنوا فيها) والامس الوقت الماضي ، وقل الزمخشري في المكشاف : والامس مثل في الوقت القريب كأنه قيل : كأن لم تغن آتفاً هو وأما أمس غير معرف فهو اسم لليوم الذي قبل يومك ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي كهذا المثل في جلالة وتمثله لحقيقة حال الحياة الدنيا وغرور الناس فيها وسرعة زوالها ، عند تعلق الآمال بنواها ، نفصل الآيات في حقائق التوحيد وأصول التشريع وامثال الوعظ والتهذيب وكل ما فيه صلاح الناس في عقائدهم وأنفسهم وأخلاقهم ومعاشهم ، واستعدادهم لمعادهم ، لقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها ، ويزنون أعمالهم بموازينها ، فيتبينون ربها وخسرانها

والعبرة لمسلمي عصرنا في هذه الآيات البينات المنزلة وامثالها التي اهتدى بها الشعب العربي فخرج من شركه وخرافته وأميته وبدأوته الى نور التوحيد والعلم والحكمة والحضارة ، ثم اهتدى بدعوته اليها الملايين من شعوب المجامع ، فشاركته في هذه السعادة والنعم ، انه لم يبق لهم حظ منها الا ترثيلها بالنعمة في بعض المواسم

والماتم، ولا يخطر لهم بال ان يجب عليهم التفكير فيها للاهتداء بها، ولو تفكروا لاهتدوا
واذا علموا ان كل ما يشكو منه البشر من الشقاء بالامراض الاجتماعية والروحية،
والرذائل النفسية، والعداوات القومية، والحروب الدولية، فانما سببه التنافس في متاع
هذه الحياة الدنياء، وان من تفكر في هذا وكان على بصيرة منه، فهو جدير بأن يلتزم
الصدق والاعتدال في حياته الدنيوية المادية، ويصرف جل ماله ومجته في اعلاء كلمة الله
وعزة اهل ملته، وقوة دولته، والاستعداد لآخرته، فيكون من اهل سعادة الدارين
وما صرف الناس عن هذا الاهتداء بكتاب الله، وهو أعلى وأكل ما أنزله
الله، إلا علماء سوء المقلدون الجامدون، وزعمهم الباطل انه لم يبق في البشر أحد
أهلاً للاهتداء به وبيان الرسول ﷺ له، لأن هذا يتوقف على ما يسمونه
الاجتهاد، ويؤمنون انه أصبح ضرباً من الحال، وقد أنشأت مشيخة لازهر في
هذا المهدوي أكبر المعاهد الدينية الاسلامية بمجلة رسمية شهرية باسم (نور الاسلام)
تصرح بهذه الجاهالة، وتطمح على الدعاة الى هذه الهداية، والى ترك البدع، واتباع
السنة، وانها لدركة من عداوة الله ورسوله لم يبلغوا قعرها إلا بخذلان من الله

(٢٥) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (٢٦) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ
قُتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَالَّذِينَ
كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَاءَةٍ فَمِلَ مَا أَتَوْنَهَا وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لما بين عز وجل غرور المشركين الجاهلين بمتاع الحياة الدنيا فني عليه بيان
ما يدعو اليه من سعادة الآخرة ووصف حال المحسنين والسيئين فيها فقال
﴿والله يدعو الى دار السلام﴾ الجملة عطف على محذوف يدل عليه السياق

وقرينة المقابلة، أي ذاك الايثار لمتاع الدنيا والاسراف والبغي فيه، هو ما يدعو اليه الشيطان، فيسوق متبعيه الى النار، دار الخزي والذكال، والله يدعو عباده الى دار السلام وهي الجنة، وفي المراد بالسلام الذي أضيفت اليه الدار وجوه يصح ان تراد كلها (أولها) انه السلامة من جميع الشوائب والمصائب والمعائب، والثقايص والاكدار، والعداوة والخصام (الثاني) انه تحية الله وملائكته لاهلها وتحية بعضهم لبعض الدالة على تحابهم وتوادهم وقد تقدم شرحه قريبا (ثالثها) ان السلام من أسبائه عز وجل وأضيفت دار النعيم اليه تعظيما لشأنها، وهو مصدر وصف به المبالغة كالعدل، ويدل على كمال التنزيه والسلامة من كل مالا يليق برب العالمين الرحمن الرحيم، وفي بعض الاحاديث إضافة هذه الدار الى ضمير الذات (داري).

ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴿ عطف على ما قبله أي يدعو كل أحد الى دخول دار السلام، ويهدي من يشاء الى الطريق الموصل اليها من غير تعويق لانه مستقيم لا عوج فيه ولا اتواء، وهو الاسلام عقائده وفضائله وعباداته وأحكامه، والهداية في الاصل الدلالة بلطف، وتكون بالشرع وهو بيانه، وهي عامة، وبالتوفيق للسير عابه والاستقامة الموصلة الى الغاية وهي خاصة بالمستعدين لذلك كما فصلناه في تفسير سورة الفاتحة، وهي المرادة هنا ولذلك قيدها بالمشيئة.

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم الى صراط الاسلام، فوصلوا بالسير عليه الى غايته وهي دار السلام، أي الذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثنوية الحسنى أي التي تزيد في الحسن على احسانهم وهي مضاعفتها بعشرة امثالها أو أكثر، كما قال في سورة النجم (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ولهم زيادة على هذه الحسنى، هي فوق ما يستحقونه على أعمالهم بعد مضاعفتها التي هي من جزائهم بما تكن حسنة كما قال (١٧٢: ٤) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفىهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقد ورد في الاحاديث الكثيرة من الطرق العديدة ان هذه الزيادة هي النظر الى وجه الله الكريم وهو أعلى مراتب الكمال الروحاني الذي لا يصل اليه المتقون المحسنون العارفون إلا في الآخرة. وقد فصلنا القول فيه في تفسير سورة الاعراف (ص ١٢٨ ج ٩) بما يقربه.

من العقل والعلم العصري ، ويدحض شبهات المعتزلة المنكرين له بزعمهم انه محال عقلاً . وما هذا المحال إلا نظريات عقولهم التي تقيس عالم الغيب على عالم الشهادة ، وقد ظهر في هذا العصر من علوم المادة ما لم يكن يقبله عقل من العقول المقيدة بتلك النظريات المتولدة من الفلسفة اليونانية والكلام الجهمي فكيف يكون عالم الغيب الالهي مقيداً بها ؟ ونعم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ رهق الرجل الشيء (كتب) أدركه ورهقه الشيء كالدين والذل غشيه ، وغلب عليه حتى غطاه وحجبه (ولا ترهقني من أمري عسراً) لاتكلفني ما يعسر علي ، والقتر الدخان الساطع من الشواء والحطب وكل غبرة فيها سواد . أي لا يغشي وجوههم في الآخرة شيء مما يغشى وجوه الكفرة العجزة من الكسوف والظلمة والذلة ، كما يأتي قريباً في التقابل بين الفريقين ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة دار السلام والاكرام ، خالدون مقيمون فيها لا يرحلون

﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئاً بمثلها ﴾ جزاء عوفاً ، لا يزدادون على ما يستحقون . سيئاتهم من العذاب شيئاً ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أي تغشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزي بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وجور ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ ما لهم من أحد ولا من شيء يعصمهم ويمنعهم من عذاب الله ، كالذين اتخذوهم في الدنيا من الشركاء ، وزعموهم من الاولياء والشفعاء ، واتحلوهم من الوصائل والوسطاء ، لانه اليوم الذي تنقطع فيه الاسباب التي مضت بها سنن الله تعالى في الدنيا ، فاني تفيد فيه المزاعم الشريكية الوهمية (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والامر يومئذ لله) أو ما لهم من عند الله ومن فضله من عاصم يحفظهم من عذابه كهفود ومغفرة ، فانه لا يغفر ان يشرك به ، كالشفعاء الذين يشعرون باذنه لمن ارتضى من عباده اظهار الكرامتهم ، لان هذه الشفاعة الخاصة لا نصيب فيها لمنتحلي الشفاعة الشريكية الذين كانوا يزعمون في الدنيا ان شفاعتهم تثير في مشيئة الله وأفعاله حتى يحملوه على فعل ما لم يكن يفعل . لولا شفاعتهم ، فيجعلون ذاته وصفاته وأفعاله معطولة تابعة لما يطالبونه منه ، وأما

شفاعة الأيمان الصحيحة فهي تابعة لمشيئته وامراته (ولا يشفعون الا لمن ارتضى)

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلم﴾ أي كأنما قد لوجوههم قطع من أديم الليل حالة كونه حالكا مظلماء، ليس فيه بيص من نور قمر طالع، ولا نجم ثاقب، فأغشيتا قطعة بعد قطعة، فصارت ظلمات بعضها فوق بعض، وأنه لقشبيته عظيم في بلاغة المبالغة في خذلانهم وفضيحتهم التي تكشف نور الفطرة، والظاهر

ان سواد وجوههم حقيقي ومجازي ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم أصحاب النار خالدون فيها لا يبرحونها لأنه ليس لهم مأوى سواها كما تقدم في آية أخرى، وقد يدخلها بعض عصاة المؤمنين فيعاقبون على ما جترحوا من السيئات ثم يخرجون منها

هذا الوصف لأهل الجنة وأهل النار له نظير في آخر سورة الاعشى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة* ووجوه يومئذ عليها غبرة* ترهقا فترة* أولئك هم الكفرة الفجرة) وفي سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرة* ووجوه يومئذ باسرة* تظن أن يفعل بها فاقة) وهذه المقابلة في سورة القيامة ترجع ان الزيادة على الحسن في آية يونس هي مرتبة النظر الى الرب، فذسأله تعالى أن يجهلنا وأولادنا وأهل بيئتنا وإخواننا الصادقين من أهلها

(٢٨) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَهِيمًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ، فَزَيْلَنَا بِئَنَّهُمْ ، وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٩) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّ كُنَّا مِنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٣٠) هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَرُونَ

هذا لون آخر من ألوان البيان لمقيدة البعث والجزاء وقد بينا حكمه هذا

التكرار المختلف الاساليب والالوان وأمثاله في الكلام على أسلوب القرآن واعجازه ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ﴾ أي واذكر أيها الرسول لفريقي الناس الذين حشرنا لهم ماسبق من الامثال ، وبيننا ما يعملون من الاعمال ، يوم نحشرهم جميعا في موقف الحساب لا يتخلف منهم أحد ، أو الظرف متعلق بقوله تعالى في الآية التالية (هنالك تبلو كل نفس ما اسلفت) وفي بعض الآيات (ويوم نحشرهم وما يعبدون)

﴿ ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم ﴾ أي ثم نقول للمشركين منهم بعد وقوف طويل لا يخاطب فيه أحد بشيء كما تدل عليه بعض الآيات : الزموا مكانكم لا ترحوهم حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾ أي الزموا أنتم وشركاؤكم أي الذين جعلتموهم شركاء لله لنفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم لهم وما يقول كل منكم فيها ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أي فرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله وميزنا بعضهم من بعض كما يميز بين الخصوم عند الحساب ، والتزييل من زاله يزاله كنهاله يذله بمعنى نحاه (وهو يائي) وزايلته فارقتة وتزيلوا تميزوا بافتراق بعضهم من بعض ، ومنه قوله في أهل مكة واختلاط مؤمنهم بكفارهم قبل الفتح (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أو المراد من التزييل والتفريق تقطيع ما كان بينهم في الدنيا من الصلات ، وما للمشركين في الشركاء من الامال ، وكل من المعنيين صحيح ، والعبادة الشريكية أنواع ، والعبودات والمعبودات أنواع يصح في بعضهم ما لا يصح في الآخر ، ولذلك تكرر معنى حشر الفريقين وحسابهم في سور أخرى بعضها في عبادة الملائكة وعبادة الجن ، وبعضها في عبادة البشر ، وما اتخذ لهم من النماثيل والصور ، ومثلها القبور المعظمة وسنشير الى شواهد ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ أي ما كنتم تخلصوننا بالعبادة وإنما كنتم تعبدون أهواءكم ونهواتكم وشياطينكم المغوية لكم ، وتتخذون أسماءنا وتماثيلنا هياكل ومواسم لمناصرتكم ومصالحكم ، وليس عندنا شأن العبودية الصادقة للمعبود الحق ، الذي يطاع ويعبد لانه صاحب السلطان الاعلى على الخلق ، ويده تدبير الامر ، ومصادر النفع والضرر ، والمراد انهم يتبرؤن منهم كما صرح به في آيات أخرى « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٥ » « الجزء الحادي عشر »

﴿ فمكفي بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ اي فمكفي الله شهيداً وحكماً بيننا وبينكم
 فو العالم بحالنا وحالكم ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ اي اننا كنا في غفلة عن
 عبادتكم لانظر اليها ولا نفكر فيها ، وقيل ان المراد بالغفلة عنها عدم الرضا بها
 ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ اي في ذلك المسكن وهو موقف الحساب
 او في ذلك الوقت أو اليوم تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة ومؤمنة وجاحدة ،
 وشاكرة وكافرة ، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل ، وما كان لكسبها في صفاتها
 من أثر ، من خير وشر ، ونفع وضر ، بما ترى من الجزاء عليه ، وكونه ثمرة طبيعية
 له ، لا شأن فيه لولي ولا شفيع ، ولا معبود ولا شريك . وهنالك مواقف وأوقات
 أخرى لاسؤال فيها ولا جدال ، تعفي فيها دلالة الحال عن المقال ، ولكل مقام مقال
 ﴿ وردوا الى الله مولاهم الحق ﴾ اي أرجعوا الى الله الذي هو مولاهم الحق دون
 ما اتخذوا من دونه بالباطل من الاولياء والشفعاء والانداد والشركاء ، على اختلاف
 الاسماء ، كما ثبت في الآيات الكثيرة كقوله (الى الله مرجعكم ، الى ربكم مرجعكم ، الى
 ربهم مرجعهم ، الى الله المصير ، واليه المصير) ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾
 اي وضاع ذهب عنهم ما كانوا يفترونه عليه من الشفعاء والاولياء ، فلم يجدوا أحداً
 ينصرهم ولا ينقذهم (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله)

هذه الآيات في موقف المشركين مع الشركاء ، والمرءوسين مع الرؤساء ،
 والمتكبرين مع الضعفاء ، والمضلين مع الضالين ، والغاوين مع المغوين ، قد تكرر
 بيانها في سور أخرى مجملًا مبهمًا ، وفي بعضها مفصلاً ومبينًا ، فمنها ما يسأل الله فيه
 العابدين ، ومنها ما يسأل فيه المعبودين ، من غير تعيين ، ومنها ما عين فيه اسم
 الملائكة والجن والشياطين ، وفي كل منها يتبرأ المضلون من الضالين ، فراجع فيها سورة
 الفرقان ١٧ : ٢٥ - ١٩ وسورة الانعام ٢٢ : ٢٤ وسورة سبأ ٣٤ : ٤٠ - ٤٢ وسورة
 القصص ٢٨ : ٦٢ - ٦٤ ومنها ما يتناقش فيها الفريقان فراجع سورة ابراهيم ١٤ : ٢١
 و ٢٢ وسورة الصافات ٣٧ : ٢٢ - ٢٣ فمراجعة هذه الآيات كلها ، وما في معناها كآيات
 سورة البقرة (٢ : ١٦٦ و ١٦٧ ومع تفسيرنا لها تين (ج ٢) يتبين لك ما يفسر
 به بعضها بعضاً ، وقد بينا حكمة هذا التكرار في موضعه الذي دللنا عليه آنفاً

(٣١) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ *
(٣٢) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ، فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٣) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا
أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

هذا نوع آخر من أسلوب اقامة الحجج على المشركين في إثبات التوحيد
والبعث وهو أسلوب السؤال والجواب ، ويليه اثبات النبوة والرسالة والقرآن
﴿ قل من يرزقكم من السماء والارض ﴾ اي قل أيها الرسول لهؤلاء
المشركين المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله من المطر، ومن
الارض بما ينبت فيها من أنواع النبات نجمة وشجره مما تأكلون وتأكل أنعامكم ؟
﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ بل قل لهم أيضاً من يملك ما تتمتعون به أنتم
وغيركم من حواس السمع والابصار التي لولاها لم تكونوا تعلمون من أمر العالم
شيئاً ، بل تكون الانعام والحشرات وكذا الشجر خيراً منكم باستغنائها عن
يقوم بضرورات معاشها ، من يملك خلق هذه الحواس وهبتها للناس ، وحفظها
من الآفات ؟ وخص هاتين الحاستين بالذكر لان عليهما مدار الحياة الحيوانية
وكل البشرية ، وتحصيل العلوم الاولية ، يشعر بذلك المسئولون بمجرد إلقاء السؤال ،
وكما ازدادوا فيه تفكراً ازدادوا علماً وإعجاباً وإكباراً لانعام الله تعالى بهما ،
وإيماناً بأنه لا يقدر غيره عليهما ، ولا سيما إدراك الكلام بحاسة السمع ، وما يرسمه
صوت المتكلم في الهواء من معلوماته التي يدلي بها الى غيره ، فتتكيف بها كل ذرة
من ذراته (أي الهواء) فتقرع به طبلة كل أذن من آذان السامعين وإن كثروا ،

فينقلها العصب المتصل بها الى مركز إدراك الكلام من دماغه ، فيدرك معناها المدلول عليه بها بأقوى مما يدركه من قرأها مخطوطة في كتاب ، لما لجرس الصوت من التأثير الخاص ، فمن ذا الذي خلق هذه الآلات ؟ ومن ذا الذي ألهمها إبداع هذه المعاني في الاصوات ؟ ومن ذا الذي وضع هذا النظام في الهواء ؟

ثم إذا ازداد علماً بإدراك البصر للمبصرات ، وما لها من المقادير والالوان والصفات ، وما للعين الباصرة من الشكل المخدب ، وما لها من الطبقات والرطوبات ، الموافقة لسنن الله في النور الذي تدرك به المراتب ، مما هو مبسوط في الاسفار وموجز في المختصرات ، ازداد يقيناً بأن ذلك من آيات الله الدالة على علمه وحكمته في الكائنات ، وإن غفل عنها المشغولون عن عظمة الصانع بعظمة المصنوعات ، وقد وحد السمع لأن إدراكه للجنس واحد هو الاصوات ، وجمع البصر لتعدد أجناس المبصرات ،

﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ أي ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في العالم كله فيخرج الأحياء والاموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات التي تحدث وتتجدد وفيما لا تعرفون ؟ فما كانوا يعرفون أن النبات يخرج من الارض الميتة بعد إحياء الله تعالى إياها بماء المطر النازل عليها من السماء أو النابع منها بعد أن سلكه الله تعالى فيها كما قال (٣٩ : ٢١) ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه الآية . بل كانت الحياة المعروفة عندهم قسمين حياة النبات وآيتها النمو ، وحياة الحيوان وآيتها النمو والاحساس والحركة بالارادة ، وكانوا يعدون وصف الارض بالحياة مجازاً ، ولم يكونوا يصنون أصول الأحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنه ، ولذلك فسر بعض المفسرين اخراج الحي من الميت والميت من الحي بخروج النخلة من النواة والطارئ من البيضة وعكسهما وما يشابههما ، وهو تفسير صحيح عند أهل اللغة غير صحيح عند علماء الحياة النباتية والحيوانية ، وتحصل به الدلالة المقصودة من الآية على قدرة الله وحكمته وتديره ورحمته عند مخاطبين ، وليس المراد به وضع قواعد فنية للحياة وأنواعها وتحديد وظائفها ، على أنه يمكن تفسيرها بما يتفق وقواعد الفنون وتجارب العلوم التي تزداد عصراً بعد عصر ، فإذا كان أهلها

يثبتون ان في أصول النبات من بزر ونوى وبيض ومعنى حياة ، فهم يثبتون أيضا أن أصول الاحياء في الارض كلها خرجت من مادة ميتة فان الارض عندهم كانت كتلة نارية ملتصقة انفصلت من الشمس ثم صارت ماء ثم نبتت اليابسة في الماء ثم تكون من الماء النبات والحيوان في أطوار سبق الكلام فيها ، ويثبتون أيضا أن الغذاء من الطعام الميت الذي يحرق بالنار يتولد منه دم ومن هذا الدم يكون البيض والمي المشتملان على مادة الحياة ، ويثبتون أيضا ان بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرها مما يفرزه البدن ويلفظه ، ويتجدد فيه مواد حية جديدة تحل محل ما اندثر وخرج منه ، والمراد من الآية إثبات قدرة الخالق وتدبيره ونعمه على عباده ، وهو عام لا يتوقف على الفن ومحددات العلم بل تزيده كمالا للمؤمن المعتبر ، وقد تكون حجبا لغيره بحجبه عن ربه ، فالقاعدة عند علماء الحياة ان الحي لا يخرج إلا من حي ، فتعين أن تكون الحياة الاولى من خلق الله الحي بذاته المحيي لغيره

ورود في التفسير المأثور تفسير الحياة والموت في مثل هذه الآية بالمعنويين منهما كخروج المؤمن من سلالة الكافر والعالم من الجاهل والبر من الفاجر وعكسها ، وقد قدمناه في تفسير آية آل عمران (٣: ٢٧) الوارد فيها لانه المناسب لسياقها . وهناك رواه ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن البصري وسعيد بن منصور ورواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات وأبو الشيخ في العظمة عن سلمان (رض) وكذا ابن مردويه عنه وعن ابن مسعود (رض) فراجع في تفسيرها من الدر المنثور (*) وسياق هذه الآيات هنا يناسب ما فسرناها به من الحياة والموت في العالم كله ويؤيده قوله تعالى :

﴿ومن يدبر الامر﴾ في الخليفة كلها بما أودعه في كل منها من السنن وقدره من النظام ، وتقدم تفسير التدبير عند ذكره في أول هذه السورة ﴿فسيقولون الله أي فسيكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس ان فاعل ذلك كله هو الله رب﴾ انما ذكرت الرواية هنا لان مجلة مشيخة الازهر (نور الاسلام) طعنت في هذا التفسير وعدته من جهل بعض المعاصرين وانما هو جهل مفتيها بالأنور وغيره

٣٥٨ اختلاف لفظي الرب والاله في المفهوم وجهل عالم ازهري (التفسير : ج ١١)

كل شيء ومملكته ، إذ لا جواب غيره وهم لا يجهلونه ، فلا يستفهم عنه لحماهم على الاقرار به لا يرتب عليه قوله ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أي فقل لهم أيها الرسول أعلمون هذا وتقررون به فلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشركم به وعبادتكم لغيره ممن لا ملك لكم من تلك الامور شيئاً ، وهو المالك لها كلها ؟

﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ هذه فذللك ما تقدم ، أي فذللكم الذي يفعل ما ذكر الله ربكم ، أي الرب الذي لكم بنعمه والمدير لاموركم ، الحق الثابت بذاته ، لانه هو الحي القيوم ، الحي بذاته ، الحي لغيره ، القائم بنفسه ، المقيم لغيره ، واذا كان هو ربكم الحق الذي لا ريب فيه ، المستحق للعبادة دون سواه ﴿ فماذا بعد الحق

إلا الضلال ﴾ الاستفهام إنكارى ، وفي الجملة إدماج بما يسمونه الاحتباك ، أي فماذا بعد الحق الا الباطل ؟ وماذا بعد الهدى الا الضلال ؟ والواسطة بين الطرفين المتضادين المتناقضين ممنوعة كالمقائد ، فالذي يفعل تلك الامور هو الرب الحق خالق قول ربوبية ما سواه باطل ، وهو الاله الذي يعبد بحق ، وعبادته وحده هي الهدى ، فما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، فكل من يعبد غيره معه

فهو مشرك مبطل ضال ﴿ فاني تصرفون ﴾ أي فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق الى الباطل ، وعن الهدى الى الضلال ، بعد العلم والاقرار بما كان به الله هو الرب الحق ، وانما الاله الحق ، الذي يعبد بالحق ، هو الرب الحق ، فما بالكم تقررون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية ؟ فمتخذون مع الله آلهة أخرى ولا تتحقق الألوهية الا بتحقيق الربوبية ؟

فالآية تقرر أن التوحيد لا يصح مع الفصل بين الربوبية والألوهية كما كانوا يفعلون ، وقد جهل هذا بعض علماء الازهر في هذا الزمان ، الذين أخذوا عقيدتهم من بعض الكتب الكلامية المبتدعة وجهلوا عقائد القرآن ، فلم يفرقوا بين مفهومي الرب والاله في اللغة العربية ، وما كان عليه أهلها في الجاهلية ، على ان الاسلام انما وحد بينهما في الماصدق الشرعي ، لا في المفهوم اللغوي ، واحتج بهذا على المشركين هنا وفي آيات كثيرة كما صرح به الحافظ ابن كثير في تفسيره وغيره من قبله ومن بعده ،

وفي الآية من قواعد العقائد الدينية وأصول التشريع والعلم ان الحق والباطل فيهما ضدان لا يجتمعان ، وأن الهدى والضلال ضدان لا يجتمعان ، ولهذا الاصل فروع كثيرة في الدين والعلم العقلي . وفيها من حسنات الایجاز في التعبير ما يسميه علماء البديع بالاحتباك ، وهو ان يحذف من كل من المتقابلين ما يدل عليه مقابله في الآخر ، وهو ظاهر في الآية أمّ الظهور ، وان غفل عنه الجمهور

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا ﴾ أي مثل ذلك الذي حقت به كلمة ربك أيها الرسول في وحدة الربوبية والالوهية ، وكون الحق ليس بعده التارك إلا الباطل ، والهدى ليس وراءه للناكب عنه إلا الضلال ، حقت كلمة ربك أي سنته أو وعيده على الذين فسقوا أي خرجوا من حظيرة الحق وهو توحيد الالوهية والربوبية وهداية الدين الحق . ففي كلمة الرب وجهان ، لسكل منهما أصل في القرآن ، أحدهما أنها كلمة التشكين وهي سنته في الفاسقين الخارجين من نور الفطرة واستقلال العقل الذين لا يتوجهون الى التمييز بين الحق والباطل والفرقة بين الهدى والضلال لرسوخهم في الكفر واطمئنانهم به بالتقليد والعمل فقلوه ﴿ انهم لا يؤمنون ﴾ على هذا بيان للكافة أو بدل منها ، أي اقتضت سنته في غرائز البشر وأخلاقهم أنهم لا يؤمنون بما يدعوه اليه رسالنا من التوحيد والهدى مهما تكن آياتهم بيّنة ، وحججهم قوية ظاهرة ، وليس معناه انه تعالى يمنهم من الايمان منعا قهريا مستأنفا بمحض قدرته ، بل معناه انهم يمتنعون منه باختيارهم ترجيحاً للكفر عليه . ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى في هذه السورة (٩٦) ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ٩٧ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم)

والوجه الثاني انها كلمة خطاب التكليف بوعيد الفاسقين الكافرين بعذاب الآخرة كقوله في سورة ألم السجدة (٣٢ : ٢٠) وأما الذين فسقوا فإوهم النار) وقوله في سورة غافر (٤٠ : ٦) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) ويكون قوله (أنهم لا يؤمنون) على هذا تعليلاً لما قبله بحذف حرف الجر أي لانهم أو بأنهم لا يؤمنون . وكل من الوجهين حق ظاهر والاول أظهر هنا

وقرأ نافع وابن عامر (كلمة) في آيتي يونس وآية غافر بالجمع (كلمات) ولا أجل ذلك رسمت في المصحف الامام بالتاء المبسوطة (كلمت) ووجه قراءة الجمع ان هذا المعنى بوجهيه قد تعدد وتكرر في آيات الكتاب

(٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟
 قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٥) قُلْ هَلْ مِنْ
 شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي
 إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ؟ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى؟ فَمَا لَكُمْ
 كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ (٣٦) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ
 لَا يَنْفَعِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لم يعطف هذا الامر ولا ما بعده على ما قبله من تلقين النبي ﷺ الاحتجاج على المشركين لان حكم البلاغة فيه الفصل كأمثاله مما يسرد سردا من جنس واحد من المفردات والجل . أي قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من له هذا الشأن في السكون وهو بدء الخلق في طور ثم إعادته في طور آخر ، سواء كان من الاصنام المنصوبة ، أو من الارواح التي تزعمون انها حالة فيها ، أو من الكواكب السماوية أو غيرها من الاحياء كالجن والملائكة؟ ولما كان هذا السؤال مما لا يجيبون عنه كما أجابوا عن أسئلة الخطاب الاول لانكارهم البعث والمعاد - لا لاعتقادهم

ان شركاءهم يفعل ذلك - لقن الله رسوله الجواب ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فأدمج إثبات البعث في توحيد الربوبية لانه يقتضيه ويستلزمه فان الرب القادر على بدء الخلق يكون قادرا على اعادته بالاولى على أن الذي ينكرونه هو إعادته تعالى للاحياء

الحيوانية دون مادونها من الاحياء النباتية، فهم يشاهدون بدء خلق النبات في الارض عند ما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء وموته بجفافها في فصل الصيف والحريف ثم إعادته بمثل ما بدأه به مرة بعد أخرى، ويقولون بأن الله هو الذي يفعل هذا البدء والاعادة، لانهم يشاهدون كلا منهما، فهم أسرى الحس والعيان، ثم ينكرون قدرته على إعادة خلق الناس، لانهم لم يشاهدوا أحدا منهم حي بعد موته وقد فقدوا العلم ببرهان القياس، وانما لانزال نرى أمثالا لهم في جاهليتهم ممن تعلموا المنطق وطرق الاستدلال، وعرفوا ما لم يكونوا يعرفون من سلطان الارواح في عالم الاجسام، وقد أمر الله رسوله أن يرشدكم الى جهلهم بأنفسهم وينبهم للتفكير في أمرهم بقوله ﴿ فَأَنى تَوْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن ذلك وهو من دواعي الفطرة وخاصة العقل في التفكير، للعالم بالحقائق والبحث عن المصير ؟

﴿ قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق ؟ ﴾ هذا سؤال عن شأن آخر من شؤون الربوبية، المقتضية لاستحقاق الألوهية، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية، وهو الهداية التي تتم بها حكمة الخلق كما يدل عليه ذكرها عقبه في آيات أخرى كقوله تعالى (الذي خلفني فهو يهدين * ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى) وهي أنواع هداية الفطرة والعزيمة، وهداية الخواس، وهداية العقل، وهداية التفكير والاستدلال بكل ذلك، وهداية الدين، وهو للنوع البشري في جملة كالعقل لأفراده، وهداية التوفيق الموصل بالفعل الى الغاية بتوجيه النفس الى طلب الحق وتسهيل سبيله ومنع الصوارف عنه. ولما كان لا يمكنهم أن يدعوا ان أحدا من أولئك الذي أمروهم في عبادة الله تعالى بادعاء التقريب اليه والشفاعة عنده يهدي الى الحق من ناحية الخلق والتكوين، ولا من ناحية التشريع، لقن الله رسوله الجواب بقوله ﴿ قل الله يهدي للحق ﴾ فعل الهدى يتعدى بنفسه كقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم * ويهديك صراطا مستقيما * لنهديهم سبلنا) ويتعدى بالى كقوله (وهديتهم الى صراط مستقيم * ويهدي الى صراط مستقيم * يهدي الى الرشد * واهدنا الى سواء الصراط) وبالإلام كقوله

(الحمد لله الذي هدانا لهذا * ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم * بل الله بمن عليكم ان هداكم للإيمان ..) فتعديته بنفسه تفيد اتصال الهداية بمتعلقها مباشرة ، وتعديته باللام تفيد التقوية أو العلة والسببية ، وبإلى للغاية التي تنتهي إليها الهداية ، فهي تشمل مقدماتها وأسبابها ، من حيث كونها موصلة إلى المنتهى المقصود بالهادي السائق إليها ، وقد يكون قصده مجهولاً لمطيعه كقوله تعالى في الشيطان (كتب عليه أنه من تولاه فانه يضلله ويهديه إلى عذاب السعير) وكل من هذه الثلاث مستعمل في التبريل في موضعه اللائق به ، يعلم ذلك من له ذوق سليم في هذه اللغة الدقيقة العالية . وقد جمع في هذه الآية بين التعندية بالحرفين وبين ترك التعندية وهو حذف المتعلق الدال على العموم وكل منها وقع في موقعه الذي تقتضيه البلاغة فيها كما فلم نر أحداً يذنبه أما الاول فقد عداه بالي في حين الاستفهام الانكاري للايدان بأنه لا أحد من هؤلاء الشر كاء المتخذين بالباطل يدل الناس على الطريق الذي ينتهي سالكه إلى الحق من علم وعمل وهو التشريع فهو ينفي المقدمات ونتائجها ، والأسباب ومسبباتها ، ولو عداه بنفسه لما أفاد إلا إنكار هداية الايصال إلى الحق بالفعل ، دون هداية التشريع الموصلة إليه ، ولو عداه باللام لكان بمعنى تعديته بنفسه إن كانت اللام للتقوية ، أو لانكار هداية يقصد بها الحق إن كانت للتعليل ، والاول أعم وأبلغ كما هو ظاهر . وأما الثاني وهو تعديته باللام فهو يستلزم الاول ، وإذا جرينا على جواز استعمال اللام بمعنيها على مذهبنا الذي اتبعنا فيه الامامين الشافعي وابن جرير يكون معناه قل الله يهدي لما هو الحق لاجل أن يكون المهتدون به على الحق .

وأما الثالث أي حذف المتعلق فهو في الشق الثاني من قوله ﴿ أفن يهدي إلى

الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي ﴾ قرأ (يهدي) يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال وأصله يهندي كما سيأتي في بحث لغة الكلمة ، وقرأها حمزة والكسائي بالتخفيف كيرمي ، ومعنى القراءتين مع ما قبلهما نصاً واقتضاء : أفن يهدي إلى الحق ويهدي له ويهديه وهو الله تعالى أحق أن يتبع فيما يشرعه أم من لا يهدي غيره ولا هو يهدي بنفسه من عبد من دونه إلا أن يهديه غيره أي الله تعالى

إذ لا هادي غيره ! وهذا استثناء مفرغ من أهم الاحوال ، لان من اتقى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزير أو الملائكة عليهم السلام وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الانبياء من سورتهم (٢١ : ٧٣) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) وقال النحاس الاستثناء منقطع كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع ، أي لكنه يحتاج أن يسمع ، فعنى (إلا أن يهدى) لكنه يحتاج أن يهدى اه فيا لله العجب من هذه البلاغة التي يظهر للمدققين في تعبير القرآن من بدائعها في كل عصر مافات أساطين بلغاء المفسرين فيما قبله

﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ هذا تعجيب من حالهم في جعلهم من هذه حالهم من العجز المطلق شركاء مع القادر على كل شيء ، وأورده باستفهامين تقرعيين متواليين ، والمعنى : أي شيء أصابكم وماذا حل بكم حتى اتخذتم شركاء هذه حالهم وصفتهم فجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا هادي لكم ولا لأحد منهم سواء ؟ كيف تحكمون بجواز عبادتهم ، وما زعمتم من وساطتهم وشفاعتهم عنده بدون اذنه ؟

ومن القراءات اللفظية التي لا يختلف بها المعنى قراءة يهدي المشددة الدال بفتح الياء والهاء بنقل حركة التاء في أصلها (يهتدى) إلى الهاء وادغامها فيها ، وقراءتها بكسرها معاً فلهاء لا لتقاء الساكنين والياء لمناسبتها لها ، وقراءتها بفتح الياء وكسر الهاء لمناسبة الدال وهي قراءة جفص التي عليها أهل بلادنا

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ هذا بيان لحال المشركين الاعتقادية ، في إثر إقامة أنواع الحجج على توحيد الربوبية والالهية ، بأسلوب الاسئلة والاجوبة المفيدة للعلم ، الهداية إلى الحق ، ومنها أنه ليس في شركائهم من يهدي إلى الحق المطلوب في العقائد الدال على ارتقاء العقل وعلو النفس ، وهو ان أكثرهم لا يتبعون في شركهم بعبادتهم لغير ربهم ، ولا في إنكارهم للبعث ، وتكذيبهم للرسول ﷺ إلا ضرباً من ضروب الظن قد يكون ضعيفاً كما يشير إليه تنكيره ، وذلك كاستبعاد غير

المألوف ، وقياس الغائب والمجهول ، على الحاضر والمعروف ، وتقليد الآباء ثقة بهم ، وتعظيماً لشأنهم ، أن يكونوا على باطل في اعتقادهم ، وضلال في أعمالهم ، وأما غير الأكثر فكانوا يعلمون ان ما جاءهم به الرسول هو الحق والهدى ، وان أصنامهم وغيرها مما عبدوا لا تنفع ولا تشفع ، ولكنهم يمجدون آيات الله ويكذبون رسوله عناداً واستكباراً في الارض ، وضماً برياستهم وزيادتهم ان يهبطوا منها إلى اتباع من دونهم ثروة وقوة مكانة في قومهم ، ويجوز أن يكون التعبير بالأكثر جاء على سنة القرآن في الحكم على الأمم والشعوب بالحق والعدل ، فانه تارة يحكم على أكثرهم ، وتارة يستثنى من الاستغراق والاطلاق القليل منهم ، كما تقدم نظائره من قبل . فيكون الحكم على الأكثر للاشارة الى انه يقل فيهم ذو العلم ، فان قيل : وما حكم الله في الظن ؟ فالجواب

﴿ إن الظن لا يعني من الحق شيئاً ﴾ من الاغناء ولو قليلاً ، أي لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين في الحق فيكون أي الظن بدلاً من اليقين في شيء مما يطلب فيه اليقين كالدين ، فان الحق هو الامر الثابت المتحقق الذي لا ريب في ثبوته وتحققه ، والمظنون وإن كان راجحاً عند صاحبه عرضة للشك يتزلزل ويزول اذا عصفت به أي عاصفة من الشبهات ، والاغناء يتعدى بمن كقوله (ما أغنى عنكم جمعكم * ما أغنى عني ماليه * فما أغنت عنهم آهتهم) وقد عدي هنا بمن ، وفي مثله من سورة النجم ، وفي قوله في ظل دخان النار (لا ظليل ولا يعني من اللهب) وقوله في الضريع من طعام أهلها (لا يسمن ولا يعني من جوع) فعدي بمن لافادة القلة أو لتضمنه معنى البذل ، أي إن ظل دخان النار لا وارف يمنع الحر ولا يعني من اللهب بأن يقلله أو يزيله ويكون بدلاً منه ، وإن الضريع الذي هو طعام أهل النار لا يسمن البدن بالتغذية الكافية ولا يملل الجوع أو يزيله فيكون بدلاً من الطعام الردي ، التغذية

واستدل العلماء بهذه الآية هنا وفي سورة النجم على ان العلم اليقيني واجب في الاعتقادات ، وان إيمان المقلد غير صحيح ، ويدخل في الاعتقادات الايمان بوجود أركان الاسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية والايمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك ، وقد بينا من قبل أن اليقين المشروط في صحة الايمان

شرعا هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الصحيح الذي لاشك معه — لا المصطاح عليه عند نظار الفلسفة والمنطق للمؤلف من علمين [أحدهما] ان الشيء كذا [والثاني] أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا . وأما قولهم إن الاحكام العملية يكفي فيها الدليل الظني ففيه أن الدليل الظني لا يثبت به الايمان بالمظنون ، بل التصديق بالمظنون لا يسمى إيمانا . وإنما يعمل في الاجتهادات خروجا من الخيرة والترجيح بهوى النفس ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ﴾ هذه قضية ثمانية مستأنفة خاصة بالعمل شأنها أن يستل عنها بعد القضية التي قبلها في الاعتقاد ، فهو يقول ان الله عليم بما كانوا يفعلون بمقتضى اعتقادهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويحجزهم على كل عمل منها بحسبه ، فالجزاء على مخالفة الاعتقاد القطعي بصدق الرسول من تكذيب وجحود أشد أنواع الجزاء ، ويليہ التكذيب باتباع الظن كالتقليد ، ومن تلك الافعال الضد عن الايمان وإيذاء الرسول ﷺ والمؤمنين بأنواعه ومنها سائر الشرور والمعاصي الشخصية والاجتماعية كالقتل والفاحشة والسكر والربا الخ

والعبرة للمؤمن بالقرآن في هذه الآية والتي قبلها وهما من آياته المحكمات في أصول الايمان والاسلام أن يكون غرضه من حياته تزكية نفسه وتكميلها باتباع الحق في كل اعتقاد ، والهدى وهو الصلاح في كل عمل ، وبناءهما على أساس العلم ، دون الظن وما دونه من الخرص والوهم ، فالعلم المفيد للحق والمبين للهدى في الدين هو ما كان قطعي الرواية والدلالة من الكتاب والسنة الذي قامت به الجماعة الاولى ، وهو الشرع العام الذي لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، فهو مناط وحدتهم ، ورابطة جامعهم ، وما دونه مما لا يقيد إلا الظن فلا يؤخذ به في الاعتقاد ، وهو متروك للاجتهاد في الاعمال ، اجتهاد الافراد في الاعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الامر في القضاء والادارة والسياسة ، مع تقييدهم فيه بالشورى في استبانة العدل والمساواة والمصالح العامة ، كما فصلناه من قبل في مواضعه .

وقد غفل عن هذه القواعد بعض أئمة الفقه فحكم بتحريم بعض العادات المباحة في الاصل كلعب الشطرنج ، وكذا المستحبة كالألعابة الرجل لزوجته وسماع الغناء بشبهة أنها من الباطل أو من الضلال ، ولا يثبت تحريم شيء من ذلك بدليل ظني

فضلا عن قطعي ، وفاقا للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي المخالف فيه للرواية عن إمامه ، وأما المقلدون من المنتسبين في الغته الى كل مذهب فقد حرموا على الناس ما لا يحصى بالرأي والاقيسة الوهمية ، التي هي دون الادلة الظنية ، وهدى النبي ﷺ في الشبهات الاحتياط كما صرح به في حديث « الحلال بين والحرام بين » المتفق عليه واستفتاء (الوجدان) لحديث « استغث نفسك » رواه البخاري في التاريخ وانما الباطل من الاعمال ما ثبت بطلانه بدليل شرعي قطعي ، كما أن الحق فيها ما ثبتت حقيقته بدليل قطعي ، وبينها واسطة هي مالا دليل فيه بخلاف الاعتقاد فانه ليس فيه واسطة بين الحق والباطل ، ومن الاشياء العملية ما الاصل فيه الاباحة وهو النافع ، ومنه ما سكت الشارع عن فرضه وعن تحريمه وعن قواعد حدوده . كما قال ﷺ « وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » كما في حديث أبي ثعلبة في الاربعة النووبة وقد حققنا هذا البحث في تفسير (١٠١: ٥) لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) من جزء التفسير السادس والذي أريد أن أذكر به كل مسلم هنا أنه لا يوجد الآن في الارض دين متبع ، ولا قانون دولي منفذ ، ولا نظام حزبي ولا جماعي ملتزم ، يفرض على الناس الحق والهدى فرضاً دينياً ، والاعتماد في استبانتها على العلم الصحيح ، وحصر الاجتهاد والترجيح فباسواهما ، والاعتماد فيه على الوجدان في الشخصيات ، والشورى في المصالح العامة . ولن يصالح حال البشر الفردي ولا الاجتماعي والدولي إلا بهذه الأصول التي فرضها الاسلام ، وجعلها ديناً يدين الله به ليس لاحد تجاوزه ، وقد عجزت علوم البشر على اتساعها ، وعقولهم على ارتقاءها ، عن الاستغناء عنها بغيرها ، فهم كلما ازدادوا علماً يزدادون باطلا وضلالا وبغياً ، خلافا لدعاة حضارتهم الكاذبين . قال شيخ فلاسفة الاخلاق وعلم الاجتماع في هذا القرن (وهو هربرت سبنسر الانكليزي) لحكيم الاسلام ، شيخنا الاستاذ الامام ، ان فكرة الحق قد زالت من عقول أمم أوربة البتة ، فلا يعرفون حقاً إلا للقوة ، وإن الافكار المادية قد أفسدت أخلاقهم ، وأنه لا يرى من سبيل إلى علاجهم ، وإنه لا يزال بعضهم يخطب ببعض - ولعله ذكر الحرب - ليقين أنهم الأقوى ليسود العالم

وقد وقع ما توقعه هذا الحكم في سنة ١٩٠٣ م بالحرب الكبرى مدة أربع سنين (من ٩١٤ - ٩١٨) فزددت الأمم والدول شقاء وفساداً وطغياناً وإباحة ، حتى جزم كثير من عقلائهم بأنه لا علاج لهذا الفساد في البشر إلا الهداية الروحية الدينية ، وسيعقدون لذلك مؤتمراً عاماً في الولايات المتحدة الاميركانية ، وان يجدوا العلاج المطلوب إلا في هذه الاصول من القرآن ، وما فصلناها به في مباحث (الوحي المحمدي) من هذا التفسير ، ثم جمعناه في كتاب مستقل مع زيادة في تفصيله ، فعسى أن يسبقهم المسلمون إلى العمل به ونشره .

(٣٧) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَتَّصِلُ الْكُتُبُ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٨) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَأَذِّبُوا مَنْ أَسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٩) بَلْ
كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

بعد ما تقدم من إقامة البرهان على ان القرآن من عند الله وان محمداً ﷺ كان عاجزاً كغيره عن الاتيان بمثله في هدايته ، وفي علمه وواقته - وما تلاه من إقامة الحجج على بطلان شركهم - وما بعده من بيان حالهم في اتباع أ كثرهم لأدنى الظن وأضعفه في عقائدهم وتكذيبهم - عاد الى تنفيد رأيهم الاقرب في الظن على القرآن بمقتضى الظن الضعيف من الاكثريين ، والجحود العنادي من الاقلين ، كالزعماء المستكبرين ، فقال ﷺ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﷻ النفي هنا للشأن الذي هو أبلغ وأشد من نفي الشيء مباشرة كما تقدم مراراً ، وان غفل عن ذلك من أعرب به اعراباً آخر فليقصر نظره على ظاهر اللفظ ، دون ما يقتضيه المقام من المبالغة.

في الرد ، أي وما كان هذا القرآن العظيم في علو شأنه ، المجلي له في أسلوبه ونظمه ، وعلومه العالية ، وحكمته السامية ، وتشريع العادل ، وآدابه المثلى ، وتمحيصه للحقائى الإلهية والاجتماعية ، وإنبائه بالغيوب الماضية والآتية ، وجعل المقصد من اصلاحه ما بينه آنذا من اتباع الحق والهدى ، واجتناب الضلال باتباع الهدى ، والاعتماد فيهما على العلم الصحيح — ما كان وما صح ولا يعقل أن يفتر به أحد على الله من دونه ويسنده اليه ، إذ لا يقدر غيره عز وجل عليه ، فان فرض أن بشراً يستطيع الاتيان بمثل ذلك ، فإن يكون الا بشراً أرقى وأكمل من جميع الحكماء والأنبياء وكذا الملائكة ومثله ان يشترى على الله ، بل قال أشد الكفار عنادا وعداوة لمحمد ﷺ وهو أبو جهل لعنه الله ان محمدا لم يكذب على بشر قط أفيكذب على الله؟

﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي ولكن كان تصديق الذي سبقه من الوحي لرسول الله تعالى بالاجمال كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى (ص) بدعوته الى أصول دين الله الاسلام التي دعوا اليها من الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، بعد أن نسي بعض ذلك بقايا اتباعهم وضلوا عن بعض ، وشوهوه بالتقاليد المبتدعة مما لم يكن يعلمه محمد الامي ﷺ أو تصديق ذلك بكونه جاء وفقاً لما دعا به إبراهيم لاهل حرم الله ، ولما بشر به موسى وعيسى والأنبياء كما بيناه بالتفصيل ، في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٥٧) الذين يتبعون الرسول الذي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) من جزء التفسير التاسع ، ويجوز الجمع بين المعنيين

﴿وتفصيل الكتاب﴾ الإلهي أي جنسه وهو ما شرعه الله تعالى ليكتب ويهتدي به جميع البشر من العقائد والشرائع والعباد والمواعظ وشؤون الاجتماع وسنن الله في خلقه ﴿لاريب فيه﴾ هو لاريب فيه أو حال كونه لاريب فيه أي ليس فيه مثار للشك ولا موضع للريب ، لانه الحق والهدى ﴿من رب العالمين﴾ من وحيه لا يقدر عليه غيره (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ﴿أم يقولون افتراء﴾ انتقال من بيان كونه أجل وأعلى من ان يفترى لعجز الخلق عن الاتيان بمثل ذلك ، الى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين أن محمداً ﷺ افتراء ،

والاستفهام فيه للانكار والتعجب ، أو التمهيد به إلى الرد عليه بتحدي التعجب وهو ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ في أسلوبه ونظمه وتأثيره وهدايته وعلمه مفترأة في

موضوعها ، لا يلتزمون أن تكون حقاً في أخبارها ، ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ واطبوا الله ظاهرة لكم والاعانة على ذلك من استطعتم دعاءهم من دون الله فإن جميع الخلق معجزون عن ذلك مثلكم ، فهذا كقوله تعالى (٨٨ : ١٧) قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

وهذه الآية في سورة الاسراء وقد نزلت قبل يونس ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في زعمكم أنني افتريته . والجمهور على أن لفظ سورة هنا يصدق بالقصيرة كالطويلة وبيننا وجه في تفسير آية التحدي من سورة البقرة (٢ : ٢٣) وهو المتبادر من تنكير السورة إلا أن يقال إن التنكير للتعظيم أو لنوع من السور يدل عليه دليل كالسور التي فيها قصص الانبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لأن الافتراء تتعلق سمته بالأخبار لا بالانشاء من أمر ونهي كما أشرت إليه في تفسير سورة البقرة

﴿ ورجع بعضهم أن المراد السورة الطويلة أي مثل هذه السورة نفسها ﴾ (يونس) في إسمائها على أصول الدين والوعد والوعيد كما يطلق لفظ الكتاب أو كتاب أحياناً ويراد به السورة الواحدة التي يذكر فيها ، كقول من قال في أول سورة الاعراف (ألمص) كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) أي هذه السورة كتاب الخ ومن تنكير لفظ سورة المراد بها النوع دون الوحدة قوله تعالى (٤٧ : ٢٠) ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة (أي يفرض فيها القتال بدليل قوله بعده) (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) الآية . وسنعود الى هذا البحث في تفسير التحدي

بعشر سور مثله مفتريات من سورة هود إن شاء الله تعالى

ومن المعلوم بالبداهة أنه ما كان لما قل مثله ﷺ أن يتحداهم هذا التحدي لو لم يكن عالماً موقناً بأنه لا يستطيع الانس والجن الاثنان بمثل هذا القرآن في جملة ولا بسورة مثله لأفراد العلماء والبلغاء منهم ولا جماعاتهم ولا جماعاتهم إن « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٧ » « الجزء الحادي عشر »

فرض إمكان اجتماعهم وتعاونهم ومظاهرة بعضهم لبعض، فلو كان هو الذي أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه كما ارتأى بعض المعجبين بعقله وذكائه وعلو أفكاره من الفلاسفة المتقدمين، وعلماء الماديين المتأخرين - لكان عقله وذكاؤه وعلو فكره ما نعات له من هذا الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة (الانس) والخرفية (الجن) عن الاتيان بسورة مثل ما أتى هو به، فإن كل عاقل متوسط الذكاء والفكر يعلم أن كل ما أمكنه من الامر فهو يمكن غيره، بل لا يأمّن أن يوجد من هو أقدر عليه منه، فهذه آية بيّنة للعقل على أن النبي ﷺ كان موقفاً بأنه من عند الله تعالى وأنه هو كغيره لا يقدر على الاتيان بسورة مثله، وهي إحدى حجج الذين قالوا انه لا يعقل أن يكون كاذباً مقترياً له (فان قيل) إنه يمكن أن يعتقد عجز نفسه وغيره في حال كونه وحياً من نفسه، معتقداً أنه من ربه (قلنا أولاً) إن دعوى الوحي النفسي باطلة بأدلة كثيرة كما تقدم (وثانياً) ان عجز غيره ممن كانوا أفصح منه دليل على عجزه بطريق الاولى

ثم إن أكثر المتكلمين ومن على مذاهبيهم من المفسرين يمتدنون في إقامة الحجة على نبوته ورسالته ﷺ على تحديده للعرب بالقرآن أن يأتوا بمثله إجمالاً أو بحديث مثله فبعشر سور مثله مقتريات فبسورة مثله فبسورة من مثل محمد ﷺ أي في أميته، وبما ظهر من عجز العرب وغيرهم عن ذلك، إذ لو قدر أحد على الاتيان بسورة مثله أو قريب منه لفعلوا لتوفر الدواعي من أعدائه على تكذيب دعواه ولا سيما بعد استفحال قوته، واضطرارهم الى بذل أموالهم وأنفسهم في مكائده، وبهذا يعلم الفرق الواضح بين تحديده ﷺ بالقرآن وتحدي بعض الدجالين المغرورين ببعض ماهذوا به من نثر ونظم وسموه وحياً كاللباب والبهاء والقادياني، فانه كان سخريه للعلماء والبلغاء، وقد اخفى البهايون كتابه (الاقدس) عن الناس

ثم إن أكثرهم على أن تحدي العرب إنما كان بما امتاز به من الفصاحة والبلاغة اللغوية. وقد صنفوا في بيان إعجاز القرآن بها كتباً مستقلة، ولم يوفوه حقه من ناحيتها ولا سيما نظمه العجيب بله النواحي المعنوية (وقالوا) إن وجه الدلالة في ذلك على صدقه ﷺ في دعوى النبوة وأنه من عند الله هو أنه يتضمن تصديقه

نعالي له كأنه قال « صدق عبدي فيما يبلغه عني » ولذلك رجحوا ان هذه الدلالة
وضعية كدلالة الكلام الالهي وقيل انها عقلية وتقدم بسط ذلك في تفسير آية البقرة
وهذا الذي قلناه في اعجازه بالبلاغة قد اعترض عليه بعض الناس حتى
المتقدمين الذين كانوا أقرب إلى فهمه وامتيازه بها من أهل عصرنا. قال الفريقان:
إن لكل مبلغ من فصحاء كل أمة أسلوباً يمتاز به ، وأنتم أيها المسلمون تقولون
إن محمداً ﷺ كان أفصح قريش وهم أفصح العرب فلا غرو أن يمتاز فيهم بهذا
الاسلوب والنظم القرآني كما امتاز بعض شعراء الجاهلية والاسلام بأسلوب خاص ،
وكما امتاز شكبير في شعراء الانكليز وفيكتور هيغو في شعراء الفرنسيين ، فمعجز
العرب عن الاتيان بمثل القرآن في بلاغته لا يدل على أنه من الله عز وجل
(ونقول) إن هذا الاعتراض يذوب فيزول اذا عرض على الاشعة التي
اقتبسناها من ضياء شمس القرآن في إعجازه اللفظي والمعنوي في أول تفسير هذه
السورة ثم في تفسير الايتين (١٥ و ١٦) منها . وأما قولهم في إحدى مقدماته
إن محمداً ﷺ كان أفصح قريش وأبلغهم في لغته، فقد بينا بالنقل الثابت أنه ﷺ
لم يكن قبل نزول القرآن عليه يذكر في غول فصحاءهم ولا في وسطهم بل لم
يكن يعد منهم ، وانما صار كلامه ممتازاً بالفصاحة والبلاغة بما استفاد من وحي
القرآن كما استفاد من دونه منه، على أنه ظل ككلام غيره من البشر في البعد عن
مشابهة نظم القرآن وأسلوبه وتأثيره ، وهذا التفاوت لانظير له في كلام بلغاء البشر
(فان قيل) ان ما يظهر في السور الطويلة من روعة البلاغة وبراعة النظم لا يظهر
في السور القصيرة (قلنا) لكن الناس عجزوا عن معارضة السور القصار كغيرها ،
ولخفاء وجه الاعجاز فيها على بعضهم قل من قال منهم ان عجزهم كان بصرف
الله تعالى لقدرهم عن المعارضة، وقال بعضهم ان التحدي إنما كان بسورة طويلة كما نقلناه
أنفا عن الرازي ووجهناه بأظهر مما وجهه به، وهو أن تكون مما أرادوه من تمهة اقترانه
وبيانه انه اذا كان التحدي بسورة مثله مقترنة خاصة بالسور التي فيها قصص
الرسل مع أقوامهم بالتفصيل فهذه كلها من السور الطويلة كالاعراف ويونس
وهود والحجر وطه والمؤمنين والطواسين والمنكوت . وإن كان يعم السور

المشتملة على نذر أولئك الاقوام المكذبين لرسالهم من غير تفصيل لدعوتهم لهم فيدخل في عمومهم بعض سور المفصل أيضاً كالذاريات والنجم والقمر والحاقة والفجر ولا يدخل فيه على كل من التقديرين شيء من السور القصيرة لانه ليس فيها شيء من ذلك. والتحدي في هذه السورة وسورة هود وسورة الطور مبني على تهمة الافتراء والتكذيب كما ترى ايضاً حه في آية (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) التي تلي هذا ومن تأمل ما في هذه السور من المفصل من التعبير عن المعنى الواحد بالعبارات العديدة مع تعدد أساليبها ، واختلاف نظمها ، وأنواع قواصلها ، وألوان بيانها ، وقوارع نذرها ، وصوداع وعيدها ، وقابليتها للترتيل بالنغمات المؤثرة الثلاثة بكل منها ، فأجدر به إن كان قد أوتي حظاً من بيان هذه اللغة والشعور الدوقي ببلاغتها أن يقتنع بأن اعجازها اللغوي كاعجاز قصص السور الطويلة أو الظهور بصرف النظر عن كون موضوعها حقاً موحى به من الله تعالى أم لا ؟ وأن يضرر به سر تأثيرها العجيب في أولئك المكذبين من بلغاء قريش وغيرهم الذي عبر عنه الوليد بن المغيرة المخزومي وهو في الدررة العليا منهم بعبارة المشهورة ومنها قوله : « وانه ليعلو ولا يعلو ، وانه ليحطم ما تحته » وغير ذلك مما بيناه في مباحث الوحي ، وان يعلم صدق الامام عبد القاهر في قوله : « أسأل عليهم الوادي عجزاً ، وأخذ عليهم منافذ القول أخذاً » علماً ذوقياً وجدانياً

وأما من لا يعرف من بلاغة هذه اللغة إلا القواعد الفنية وأمثلتها الجزئية المدونة في مثل مختصر السعد التفتازاني ومطواره من كتب المعاني والبيان ، فأجدر به أن يطبقها على كل كلام ، وناهيك به اذا عد منها ما ذكره المتنطعون من المتأخرين فيما يسمونه المحسنات البديعية ، وشروط الفصاحة وعيوبها ، وقد سمعت ان بعضهم مج ذوقه بعض فواصل سورة القمر ، فيكان بعض المستشرقين أصبح منه فهماً وذوقاً إذ قل إنها من أبلغ سور القرآن أو أبلغها كلها بلا استثناء.

(فان قيل) ان التحدي في السور الثلاث (يونس وهود والطور) جاء رداً على تهمة الافتراء والنقول كما قلتم ، فيظهر فيه أن يختص بالسور التي تظهر فيها تهمة الافتراء كما قررتم ، ولكن التحدي في آية سورة البقرة ليس كذلك (قلنا) اسكنه

جواب للمرتابين فيه وهم المكذبون فهموا تأكيد لما قبله ، لانه نزل بعده . وهي مدنية وهن مكيات . فان معنا هذا قلنا ان التنكير فيها يصدق باصغر سورة وهي الكوثر ، وسلمنا أنه لا يظهر فيها اعجاز النظم والاسلوب (قلنا) انها معجزة بما فيها من الایجاز وخبري الغيب في أولها وآخرها كما شرحناه في تفسير الآية من الجزء الاول . وفي الجلالين ما يؤيد هذا فقد قال في آية البقرة : هي مثله في البلاغة وحسن النظم والاخبار عن الغريب اه . وقال في آية يونس : هي مثله في الفصاحة والبلاغة على وجه الافتراء اه . واعجاز السور الصغيرة المعنوي بالهدى والنور وإصلاح القلوب ، لا يكابر فيه الا الجحول المحجوب .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ هذا إضراب عن بعض ما يتضمنه قولهم (افتراء) وما يستلزمه ككونهم يمتقدون أن محمداً ﷺ كان يكذب ، أو أن القرآن في جملته افتراء منه ، وقد ثبت أنهم كانوا يعلمون بحرية الصدق في كل ما يقوله ، وانتقال إلى بيان موضوع تكذيبهم بظنهم أنه محال في نفسه ، وهو ما أنذرهم من عذاب الله لهم في الدنيا والاخرة إن لم يؤمنوا له ويتبعوه ، وقد وصفهم بعدم احاطتهم بعلمه أي لم يعلموه من جميع وجوهه ونواحيه ، وبأنه لما يأتهم تأويله أي مصداقه إلى ذلك الوقت مع توقع إتيانه ، وبتشبيه تكذيبهم بإيه بتكذيب الذين من قبلهم مثله ، فبين ما كذبوا به بهذه الصفات اثلاث

قلوصف (الاول) لما كذبوا به أنه ما لم يحيطوا بعلمه فيكون تكذيبهم صحيحا وانما ظنوا ظنا ، والظن لا يغني من الحق شيئا (والثاني) قوله ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ أي ولم يأتهم الى الآن ما يؤول اليه ويكون مصداقه بالفعل ، واثباته متوقع بل آت لا بد منه ، وقد خبط المفسرون الغنيون في معنى هذا التأويل منذ القرون الوسطى ، لانهم لم يفهموا القرآن بلغته الحرة الفصحى ، بل باغة اصطلاحاتهم الفنية ولا سيما أصول الفقه والكلام . فقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يفهموا معناه ، وقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يظهر لهم وجه الاعجاز فيه ، ولوصح هذا أو ذاك لكنوا معذورين بالتكذيب طبعاً ، وسبب مثل هذا الغلط جعلهم التأويل تارة بمعناه عند بعض المفسرين وهو رديف التفسير ، وتارة بمعناه عند المتكلمين والاصوليين ، وهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى

يحتمله في اللغة بشرط موافقته للشرع ، لتخرج تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية وقد جمع الرازي كماداته كل ما رآه محتملا من هذا التكذيب في خمسة وجوه (١) تكذيب قصص القرآن وذكر لها ثلاث صور (٢) حروف التهججي في أوائل بعض السور إذ لم يفهموا منها شيئا ، وزعم أن الله أجاب عنها بآية آل عمران في المحكمات والمتشابهات (٣) ظهور القرآن منجما شيئا فشيئا (٤) أخبار الحشر والنشر (٥) العبادات قالوا ان الله مستغن عن عبادتنا . وكل هذه الوجوه باطلة لا يحتمل ارادة شي منها إلا الرابع ، وفسر عدم إتيانهم تأويلها بجهلهم حقيقةها وحكمها ، وهو باطل وناهيك بحماها على الحروف المفردة في أول السور وهي ليست بكلام فيكذب أو يصدق . ثم قال : « قال أهل التحقيق قوله (ولما يأتهم تأويله) يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة لأن ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة فإذا لم يعرف الانسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق . أما اذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل ، فيصير نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء » اهـ

وهذا القول الذي عزاه إلى أهل التحقيق باطل بعبد عن الحق ، وحكم على كتاب الله بما عابه من اتباع الظن ، وما أهل التحقيق في عرفه إلا بنظر علم الكلام المبتدع وهو ظلمات بعضها على بعض ، ما ولد البدع المضلة إلا الاشتغال به ، وهذا التأويل الذي قال فيه ما قال لا يصح في اللغة ولا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا في المأثور عن أصحابه [رض] ولا عن أئمة سلف الامة كما ستراه قريباً . وأما التأويل في لغة القرآن فله معنى واحد لا معنى له سواه وهو عاقبة الشيء وما له الذي يؤول إليه من بيان مصداقه المراد منه بالفعل كما قلنا آفناو بيناه بالتفصيل في تفسير آية المحكمات والمتشابهات من سورة آل عمران التي أطال الرازي في الكلام عليها فأخطأ بحجة الصواب ، وحرم الحكمة وفصل الخطاب ، فكان أجدر بالخطأ هنا وقد اتزم الاختصار ، وأوضح الأدلة على ذلك بعد ما علمت من حمله التأويل على المعنى الاصطلاحي غفلته عن نفي إتيانه بحرف لما الدال على توقعه ، إذ معناه أن تأويله لم يأتهم إلى الآن وإتيانه متوقع بعده ، وغفلته عن تشبيهه تكذيبهم بتكذيب من

قبلهم في الجملة الآتية. والمتبادر منه أنه وعيد الله إياهم على تكذيبهم لرسوله ﷺ بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة ونصره عليهم، وهو ما فسر الآية به امام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قال :

«يقول تعالى ذكره: ما هؤلاء المشركين يا محمد تكذيبك ولكنهم التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه مما أنزل الله عليك في هذا القرآن من وعيدهم على كفرهم بربهم (ولما يأتيهم تأويله) يقول ولما يأتيهم بعد بيان ما يؤول ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في هذا القرآن (كذلك كذب الذين من قبلهم) يقول تعالى ذكره كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد بوعيد الله ، كذلك كذب الامم التي خلت قبلهم بوعيد الله إياهم على تكذيبهم رسلكم وكفرهم بربهم » اهـ وكذلك قال البنوي في تفسير التأويل لانه محدث فقيه غير متكلم وتبعهما الجلال هنا وفي آية الاعراف الآتي ذكرها الوصف الثالث التشبيه الذي ذكرناه في الاجمال وهو قوله تعالى ﴿كذلك كذب

الذين من قبلهم﴾ شبه تكذيب مشركي مكة لمحمد ﷺ بتكذيب من قبلهم من مشركي الامم لرسلكم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذي أوعدهم به ، كما ترى في قصصهم المفسرة في السور العديدة ولا سيما سورة الشعراء المبدوءة فيها بقوله (٢٦ : ١٠٥) كذبت قوم نوح المرسلين * كذبت عاد المرسلين * كذبت ثمود المرسلين) ثم ذكر لفظ التكذيب في وعيدهم كقول هود لقومه (١٣٥ :) إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم - إلى قوله فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية) الخ وقول صالح لقومه بعدهم إذ أتتهم آية الناقة (١٥٦) ولا تسوها يسوء فإياكم عذاب يوم عظيم ١٥٧ فمقروها فأصبحوا نادمين ١٥٨ فأخذهم العذاب) الخ فهذا تأويل المراد من قوله هنا ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر أيها الرسول أو العالم القل المعبر كيف كان عاقبة الظالمين لانفسهم بتكذيب رسلكم ، وهو تأويل وعيدهم لهم ، لتعلم مصير الظالمين من بعدهم ، وهذه العاقبة مبينة بالاجمال في قوله (٢٩ : ٤٠) فكلما أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون) وسيأتي ما يؤيد ما قررناه كاه قريباً في الآيات (٤٦ - ٥٥)
وقد أُنذر الله قوم محمد ﷺ ما نزل بالأمم قبلهم في الدنيا بهذه الآيات وغيرها من
هذه السورة وفي سور كثيرة كما أُنذرهم عذاب الآخرة، وكذبهم المعاندون المقلدون في
كل منهما ظانين أنه لا يقع، لا غير فاهمين لمعناه أو لا عاجزوه، ولكن قضت حكمته تعالى
حفظ قومه من تكذيب أكثرهم، وما يقتضيه من أخذ عذاب الاستئصال لهم. وارجع إلى
قوله تعالى في سورة الاعراف (٥٢:٧) هل ينظرون إلا التأويله؟ يوم يأتي تأويله يقول
الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) الخ فاعلم علم اليقين أن ما قررناه هو
حق اليقين الذي لا تقبل غيره لغة القرآن، وأنه هو الذي يتفق مع سائر الآيات، وأن
ما قرره الرازي هو الباطل والضلال المبين، الذي تدحضه الآية وما في معناها ما ذكرناه
بعضه وأشرنا إلى بعض، فمسي أن يكون قد استجاب الله دعاء شيخنا رحمه الله فينا إذا قال:
ويخرج وحي الله للناس عارياً من الرأي والتأويل يهدي ويأبى

(استطراد في المتكلمين وتفسير إمامهم الرازي)

اعلم أن الفخر الرازي كان إمام نظار المتكلمين والاصوليين في عصره، وأن
علماء النظر اعترفوا له بهذه الامامة بعده، ولكنه كان من أنلمهم حظاً من علم السنة
وآثار الصحابة والتابعين، وأئمة السلف من المفسرين والمحدثين، بل وصفه الحافظ
الذهبي إمام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث، فلم يجد التاج السبكي ما يدافع
به عنه لأنه من أئمة الاشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس
من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا يذكره في رجاله المبرزين ولا المدلول،
أما علمه بالكلام فقد قال بعض العارفين في وصف كتابه (محصل أفكار المتقدمين
والمؤخرين، من الفلاسفة والمتكلمين) ما يثبتك بحقيقته عند المحققين، وهو:

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين

رأس الغواية في العقل السقيم فما فيه فأكثره وحي الشياطين

ولشيخ الاسلام ابن تيمية مصنف مستقل في نقض (كتابه أساس التقديس) فيه

ولولا أن تصدى لأحياء شهاباته في هذا العهد اثنان من مكثري النشر في

الصحف للمباحث الدينية، أحدهما شيخ أزهرى، ورثه نيهما كاتب مدني، لما أبدى وأعدنا في تفنيد بدعه الكلامية المخالفة لنصوص الكتاب والسنة التي يحجج لانها، لان بضاعة الاول نظريات متكلمي القرون الوسطى على قلة من يفهمها منهم اليوم، وبضاعة الثاني نظريات بعض الافرنج، ولما رأيا نظرية الرازي في التأويل تؤيد فهمهما الباطل أراد الثاني ترويحها في سوق العامة بتسميته امام المنسرين، وما كان إلا امام المتكلمين، وأما تفسيره فقد اشتهر قول بعض العلماء فيه: إن فيه كل شيء إلا التفسير كما في كتاب الاتقان. والحق أن هذه مبالغة في الانكار على ما هو الغرض الذي امتاز به تفسيره وهو نقل آراء الفلاسفة والمتكلمين، وحجج المتزلة والاشاعة.

فلينظر القاري، المستقل الفهم كيف فعل تقليد المسلمين لهؤلاء المتكلمين في دينهم: ينقل لهم متكلم مفسر عن متكلم مجهول زعم أنه من أهل التحقيق أن هذه الآية من القرآن التي لم يعرف لغتها ولا معناها الناقل ولا المنقول عنه «تدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات (التي ابتدعوها) وقع في الكفر والبدعة» وعالم ذلك بما هو باطل من وجوه نكتفي منها بما لا يخفى على عامي ذكي ولا بليد، وهو أن المؤمن بالنصوص اذا رأى فيها ما هو متعارض فانه إما أن يبحث عن وجوه الترجيح بين المتعارضات بمقتضى القواعد التي وضعها علماء الاصول في (كتاب التعارض والترجيح) اذا رأى أنه أهل لذلك وفي حاجة إليه، وإما أن يترك هذا البحث إلى أهله معتقداً أنهم أعرف به، ولا يكون هذا التعارض الصوري سبباً لشك في القرآن أو أنه ليس بحق مما يكون به مبتدعاً أو كفرة، ولو صح قول هذا القائل لوجب تحريم قراءة كتاب الله وكتب السنة على كل من لم يأخذ بقاعدتهم هذه ويتعلم علم الكلام وعلم أصول الفقه قبل تلاوته لاجلها، وان كان عالماً بهدي السلف وأقوال أئمتهم، وهذا تقييد لكتاب الله تعالى وصده عنه بتأويلاتهم المبتدعة بعد عصر النور الاول لهذه الامة، ولما به أن يحكوا على أكثر من يقرءونه بالكفر والبدعة، والحق أن هذه التأويلات التي فتنوا بها هي المثار الاكبر للشكوك والبدع التي هي بريد الكفر، وأن كتاب الله كله هدى ونور، وأصح بيان له سنة النبي ﷺ وخير المهتدين بها ملة الامة وحفاظ السنة

وجملة القول ان مذهب السلف الصالح وجوب الايمان بكل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه وما صح من وصف رسوله ﷺ له على ظاهره من غير تعطيل للمعنى اللغوي بجعله كاللغو ، ولا تمثيل بتشبيهه لله بخلقه يعد من النقص ، ولا تأويل يخرج الظاهر المتبادر عن معناه بمحض الرأي .

واعلم أيها القارىء أن الخواطر التي تعرض لبعض الناس مما لا يليق به تعالى لا تنقصر إيمان الوقن بكتابته وصدق رسوله المتبع لها ، كما ورد في الاحاديث الصحيحة فحين يوسوس له الشيطان : من خاق الله ؟ وفيمن اوصى بحرق جهنم لئلا يبعثه الله ويذهبه . قال عبدالله بن مسعود (رض) سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة فقلوا ان أحدنا لم يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حمة (اي فحمة) او يخرج من السماء الى الارض احب اليه من أن يتكلم به ؟ قال « ذلك محض الايمان » رواه مسلم ، يعني ان الوسوسة لا يسلم أحد منها وان كراهة المؤمن لها دليل على إيمانه المحض الخالص هذا وان أكثر كبار النظار من المتكلمين قد رجعوا إلى مذهب السلف في

الايمان بظاهر النصوص وفي مقدمتهم إمام الحرمين كما نقله عنه الحافظ ابن حجر في شرحه لابن خازي (من كتاب التوحيد) ومن قبله والده الامام الجويني الذي نقل السبكي في ترجمته أن علماء عصره قالوا لو بعث الله تعالى نبياً في هذا العصر لكان الجويني ، ومن بعدهما أبو حامد الغزالي في آخر عمره ، ونقل مثل هذا عن الفخر الرازي أيضاً رحمهم الله ورحمنا ، وغفاعنهم وعنا ، وقد صرح الغزالي من قبل رجوعه الى مذهب السلف أن علم الكلام ليس من علوم الدين وانما هو لحراسة العقيدة كالحرص الحاج (وأقول) انما راجت كتبه في عصرهم ، لأنها وضعت لارد على ملاحدتهم ومبتدعتهم ، ولا تنفع في الرد على ملاحدة هذا العصر ولا مبتدعته كما يدناه صراحاً ، وأما تلقين المسامنين أنفسهم للعقائد وقواعد الاسلام فيجب أن يعتمد فيها على آيات القرآن والمأثور في الاحاديث وسيرة الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع ، ومن أكبر الضلال أن يعتمد فيها على أقوال المتكلمين ، فتجعل أصلاً ترد إليها آيات القرآن المبين ، إثارة لبائهم على بيانه ،

وإن تعجب فعجب جعلهم عقيدة السنوسية الصغرى الاساس الاول لتعليم

التوحيد في الأزهر وغيره وإنما هي نظريات كلامية غير شرعية وقد أخطأ محشوها
وشرأحها في جعل التوحيد عبارة عن نفى الحكم المتصل والحكم المنفصل في ذات الله
وصفاته وأفعاله ، أو المنفصل في أفعاله فقط ، وهي فلسفة مبتدعة لا يعرفها الشرع
ولا تدل عليها اللغة . كما أخطأ مؤلفها في تفسير كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » بـلازم
من لوازمها لا يتضمن معناها الذي لا جله جعلت عنوان الدعوة إلى الإسلام ، ونحكم
في صفات الله بالظن الذي ذمه الله بأنه لا يغني من الحق شيئاً ، فزعم أن السمع والبصر
يتعلقان بجميع الموجودات ، يعني أنه تعالى يسمع ذوات الجواهر وأعراضها كاللوان
والصفات ، ويرى الأصوات ويبصر اللغات . غافلاً عن ذلك وعن قوله (وإن تقولوا
على الله ما لا تعلمون) ومع هذا زعم بعض علماء الأزهر أن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام
يقرأ هذه العقيدة في الآخرة لأولاد المسلمين ، وهو إمام الموحدين ، الذي آناه
حجته في الدنيا على قومه وهم علماء عصره وعلى سائر العالمين ، وأطمئنان القلب
بكيفية أحيائه تعالى للميتين ، فكيف يحتاج بعد كشف الحجب في الآخرة إلى
نظريات السنوسي ومن فوقه من نظار المتكلمين ؟

وقد صرح السيد الألوسي تبعاً لغيره من المحققين العارفين ، بما حققناه هنا في علم الكلام
والمتكلمين ، عند الكلام على آية الظن في باب الإشارة من هذا السياق فقال ما نصه :
(وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) ذم لهم بعدم العلم بما يجب لمولاهم وما يمتنع وما
يجوز ، ولا يكاد يتجو من هذا الذم إلا قليل ، ومنهم الذين عرفوه جل شأنه به
لا بالفكر ، بل يكاد يقصر العلم عليهم ، فإن أدلة أهل الرسوم من المتكلمين وغيرهم
متعارضة ، وكلماتهم متجاذبة ، فلا تكاد ترى دليلاً سالماً من قيل وقال ، ونزاع وجدال ،
والوقوف على علم من ذلك مع ذلك أمر أبعد من العيوق ، وأعز منبيض الأنوق .

لقد طقت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم
فمن أراد النجاة فليفعل ما فعل القوم ليحصل له ما حصل لهم ، أو لا فليتبع السلف
الصالح فيما كانوا عليه في أمر دينهم ، غير مكترث بمقالات الفلاسفة ومن هذا
حذوهم من المتكلمين التي لا تزيد طالب الحق إلا شكاً اهـ

(٤٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤١) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

لما بين تعالى في الآيات السابقة حال مشركي قريش في اتهام النبي ﷺ
بافتراء القرآن وتكذيبهم بوعيده لهم ، بين في هاتين الآيتين أقسام هؤلاء القوم
في تكذيبهم ومستقبل أمرهم أو حالهم ومستقبلهم في الإيمان ، وفي عمل المكذبين
بمقتضى تكذيبهم ، وعمل النبي ﷺ بمقتضى رسالته إلى أن يأتي أمر الله فيهم فقال :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ يقول تعالى لرسوله خام
الذمين ﷺ أن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قباهم الذي كذبوا
رسولهم الا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين :
قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبدا ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ في
الارض بالشرك والظلم والبغي لفساد فطرتهم وفقد الاستعداد للإيمان وهم الذين
يعذبهم في الدنيا فيخزيهم وينصرك عليهم ويخزيهم في الآخرة بفسادهم . وقيل
ان الآية في بيان حالهم عند نزول هذه السورة وهي ان بعضهم يؤمن به في
الباطن وانما يكذبه في الظاهر عنادا واستكبارا ، ومنهم من لا يؤمن به جهلا
وتقليدا ، ومن هذا الفريق من فقد الاستعداد للإيمان وهم لاقلون وسيأتي وصف
حالهم في الآيات ٤٢ - ٤٤ قريبا وله وجه . وأما الذي ليس له وجه صحيح فهو
قول من فسروا التأويل بالمعنى الاصطلاحي الذي بينا فساده : ان هذا بيان لحالهم
بعد إتيان التأويل المتوقع أي سيكون منهم حينئذ مؤمن وكافر ، لما بيناه من انه
غير مراد ولا معنى لاتيانه ، وانه متى جاء تأويله المراد وهو وقوع العذاب يكون
الإيمان به اضطراريا عاما وهو المنصوص في قوله تعالى (٥٢: ٧) يوم يأتي تأويله يقول

[يونس ١٠] تشبيهه من يستمع الى الرسول ولا يعقل ما يسمع بالاصم ٣٨١

الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) وتأويله بعذاب الاستئصال أو بقيام الساعة سواء في أنه لا ينفعهم معه لايمان إذ لا يقبل منهم بل يقال لهم حينئذ (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) كما يأتي في الآية (٥١) وانظر تفصيله في آخر سورة المؤمن (٨٢-٨٥) وسنبين في تفسير الآية (٤٦) عدم وقوع عذاب الاستئصال على هذه الامة. وفي الآية تسلية له ﷺ يؤكد لها ما بعدها وهو :

﴿ وإن كذبوك فقل لي علي وإلکم علیکم ﴾ أي وإن أصرروا على تكذيبهم فقل لهم لي علي بمقتضى رسالتي وهو البلاغ المبين. والانذار والتبشير، وما يستلزمه من العبادة والاصلاح ، وما أنا عليكم بمسيطر ولا بجبار، وإلکم علیکم، بمقتضى تكذيبكم وشركم ، وهو الظلم والفساد، الذي تجزون به يوم الحساب، ويقال لکم (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) كما يأتي في الآية (٥٢) من هذا السياق، وهذا كقوله تعالى (١٧: ٨٤) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بري مما تعملون ﴾ فلا يؤاخذ الله أحداً مما يعمل الآخر . وهذا كقوله (١١ : ٣٥) أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلي إجرامي وأنا بري مما تجرمون) وقوله (٢٦ : ٢١٦) فان عصوك فقل اني بري مما تعملون)

(٤٢) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا بُعْتِلُونَ (٤٣) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا بُصِيرُونَ (٤٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ

لما أنبأ الله رسوله بان من قومه من لا يؤمن بهذا القرآن حلا ولا استقبالا إذ لا ينفعهم البيان مهما يكن ناصعاً ، ولا يقنعهم البرهان وإن كان قاطعاً ، وإن الذي عليه في المصرين على تكذيبه منهم بعد ما جاءهم به من الآيات ، التي دعتهم

بالحجج البينات ، أن يتبرأ منهم ، وينتظار أمر الله فيهم ، كان من شأن هذا النبا أن يشير عجبه لغرابته في نفسه ، وأن يسوء لما يشير إليه من انتقام الله منهم ، بين له مثل الذين فقدوا الاستعداد للإيمان ، وعلمه ما لم يكن يعلمه من سنة الله تعالى فيهم ، وكون مصيبتهم من أنفسهم ، فلا حول له ولا قوة على هدايتهم ، فقال :

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يصيخون بإسماعهم مصغين إليك إذا قرأت القرآن ، أو بينت مافيه من أصول الإيمان والاحكام ، واسكنهم لا يسمعون إذ يستمعون ، إذ لا يتدبرون القول ولا يعقلون ما يراد به ، ولا يفقهون ما يرمى إليه ، لان الاستماع إليك مقصود عندهم لذاته لا لما يراد به ، وهي بلاغته في غراية نظمه ، وجزم الصوت بترتيبه ، كمن يستمع الى طائر يغرد على فنه ، ليستمتع بصوته لا ليفهم منه ، كما قال (٢: ٢١) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون (٣ لاهية قلوبهم) أو كالبهايم يصيح بها الراعي فترفع رؤوسها لاستماع صوته الذي راعها فصرفها عن رعيها ، كما قال (٢ : ١٧١) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عي فهم لا يعقلون) أو كما قال (٦ : ٢٥) ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) والقاعدة الطبيعية الشرعية ان الامور بمقاصدها . ونحن نرى كثيراً من الناس يقصدون قراء القرآن في ليالي رمضان أو في المآتم ليستمعوا الى فلان القاري . الحسن الصوت لغرض التلذذ بترتيبه وتوقع صوته ، أو بلاغته ولا أحد منهم ينتفع بشي من مواظ القرآن ونذره ، وحكمه وعبره ، ولا عقائده وأحكامه ، ومنهم المسلمون وغير المسلمين ، بل سمعت بأذني من غير المسلمين من يستمع القرآن ويمعجب من شدة تأثيره وتفاعله في أعماق القلب وهو لا يؤمن به ، ولهذا قال تعالى

﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ هذا الاستفهام للانكار ، يعني ان السماع النافع المستمع هو ما عقل به ما يسمعه وفقهه وعمل بمقتضاه ، فمن فقد هذا كان كالاصم الذي لا يسمع ، وأنت أيها الرسول لم تؤثر القدرة على إسماع الصم أي فاقد حاسة السمع حقيقة ، فكذلك لا تستطيع الاسماع النافع للصم مجازاً وهم الذين لا يعقلون

ما يسمعون ولا يفقهون معاندها فيهدوا به. والبلاغة في ظاهر تعبير الآية وصفهم بفقد السمع والعقل معاً، وهو مجاز قطعاً، لأن من فقد الحس والعقل حقيقة لا يكون مكلفاً. وإذا كان المراد بالعقل المنفي هنا عقل الكلام وفهمه فهو يقتضي ثبوت السماع ونفي الصمم الحقيقيين.

﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ أي بوجه أشعة بصره إليك عند ما تقرأ القرآن ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان، وهيبة الخشوع للديان، وكل الخلق والخلق، وأمارات الهدى والحق، وآيات التزام الصدق، التي عبر عنها أحد أولي البصيرة بقوله عند ما رأى النبي ﷺ : والله ما هذا بوجه كذاب، وقال فيه آخر : لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهة تنبيك بالخير

وقال حكيم أفريقي : كان محمد يقرأ القرآن في حالة وله وتأثر وتأثير فيجذب به إلى الإيمان أضعاف من جذبهم آيات موسى وعيسى (عليهم السلام) ومن فقد البصيرة العقلية والعقلية فيما يراه ببصره، فجمع بين وجود النظر الحسي بالعينين، وعدم النظر المعنوي بالعقل، فهو محروم من هداية البصر وهي البصيرة التي يمتاز بها الإنسان عن بصر الحيوان، فكأنه أعى العينين ﴿أفأنت تهدي

العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ أي أنك أيها الرسول لست بقادر على هداية العمي بدلائل البصر الحسية، فكذلك لا تقدر على هدايتهم بدلائل العقلية، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التي تدركها ؟ وقد أسند فعل الاستماع إلى الجمع لكثرة تفاوت المستمعين واختلاف أحوالهم فيه وأسند فعل النظر إلى المفرد لأنه جنس واحد، ولكنه أفرد السمع وجمع الأبصار في بضع آيات منها ٣١ من هذه السورة لما ذكرناه في تفسيرها، والمراد من الآيتين أن هداية الدين كهداية الحس، لا تكون إلا للمستعد لها بهداية العقل، وأن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجه النفس وصحة القصد، وهذا الصنف من الكفار قد انصرفت أنفسهم عن استعمال عقولهم في الدلائل البصرية والسمعية لا إدراك مطلب من المطالب مما وراء شهواتهم وتقاليدهم، وليس المراد أنهم فقدوا نعمة العقل الفريدي، ولا نعمة الحواس بل استعمالها النافع - كما قال في سورة الاعراف (٧ : ١٧٩) ولقد فرأنا لهم كثر من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها

ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) فراجع تفسيرها للاعتبار والانعاط وقد بين ذلك بيانا مستأنفا بما يبطل القول بالجبر فقال

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا﴾ أي الله تعالى لم يكن من شأنه ولا من سنته في خلق الناس أن ينقصهم شيئا من الأسباب التي يهتدون باستعمالها الى ما فيه خيرهم ومنفعهم من الاعمال الاختيارية الموصلة الى سعادة الدنيا والاخرة وهي الحواس والعقل وسائر القوى ، فالظلم هنا بمعناه اللغوي الاصلي وهو نقص ما تقتضي الخلقة الكاملة وجوده كقوله تعالى (كأنما الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿أي يظلمونها وحدها لان عقاب ظلمهم واقع عليهم دون غيرهم ، فهم يحزنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين ، وهو عدم استعمالها فيما منحهم إياها لأجله من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الاعمال ، وهو الصراط المستقيم الموصل الى سعادة الدارين ، المحجبي عن عذابهما وقوأ حزنة والكسافي (ولكن) بتخفيف النون و(الناس) بالرفع ، وقد وضع الایم الظاهر موضع الضمير إذ قال «ولكن الناس» ولم يقل «ولكنهم» . للإشارة الى ان هذا الظلم خاص بهم دون سائر أنواع الحيوان فانها لا تعدو في استعمال مشاعر وقواها ما خلقت لأجله من حفظ حياتها الشخصية والنوعية ، وأما الناس فقد يستعملونها فيما يضرهم في حياتهم الحيوانية الدنيوية ، وفي حياتهم الروحية الاخرية ، كما قال (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وقدم المفعول (أنفسهم) على عامله لإفادة قصر هذا الظلم على أنفسهم دون غيرهم أو ذنوبهم الذي كفروا بنعمه ، كما قال تعالى في بني اسرائيل من سورة البقرة (٥٤: ٢) وسورة الاعراف (١٥٩: ٧) وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) هذا هو المتبادر في هذا المقام من نفي ظلم الناس عن الله تعالى وقصره على أنفسهم ، ويحتمل أن يراد به انه تعالى لا يظلمهم بعقابه لهم شيئا بأن يعاقبهم على غير ذنب أو يزيد على قدر الذنب ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بذنوبهم دون غيرهم ، على قاعدة (٦: ١٦٤) ولا تكسب كل نفس الا عليها) الآية فراجع

تفسيرها مع ما هنا ، وحاسب نفسك ، وذ كر غيرك ، ولا تجعلوا هذه الحكم البالغة حكاية للتسلية بهجو الكفار ، فانما هي حقائق هادية للموعظة والاستبصار

(٤٥) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم المشركين لانفسهم وخسارتهم لها في الآخرة بتكذيبهم النبي ﷺ وكفرهم بالقرآن ووعيدهم لهم وغرورهم بدنياهم الحقيقية مصداقا للآية التي قبلها ، قال

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي واذكر أنها الرسول لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم الله - وهذه قراءة حمزة عن عاصم وقرأها الباقون (نحشرهم) بالنون أي يجمعهم بينهم بعد موتهم ونسوقهم الى مواقف الحساب والجزاء ﴿ كأن لم يلبسوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ أي كأنهم لم يمشوا في الدنيا إلا مدة قليلة من النهار ربما يعرف فيها بعضهم بعضاً كأولي القربى والجيران ثم زالت ، فان الساعة يضرب بها المثل في قلة المدة . فالتشبيه بيان لحالهم في تذكيرهم للدنيا . يعني ان هذه الحياة الدنيا التي غرهم بمتاعها الحقير الزائل قصيرة ستزول بعذابهم أو موتهم ، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار لاتسع أكثر من التعارف القليل ، كما قال في آخر سورة الاحقاف (٤٦ : ٣٥) كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبسوا إلا ساعة من نهار) وفي سورة الروم (٣٠ : ٥٥) يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وفي معناها قوله تعالى في آخر النازعات (٧٩) عن الساعة (كأنهم يوم يرونها لم يلبسوا إلا عشية أو ضحاها) وفي آيات أخرى أن أهل الموقف يتخلفون في هذا التقدير أي بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٩ » « الجزء الحادي عشر »

اليوم فانه تعالى قال بعد آية سورة الروم (٥٦) وقال الذين أوتوا العلم والايان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث . فهذا يوم البعث وان كنتم لا تعلمون (وفي سورة المؤمنون (٢٣ : ١١٢ قال كم لبثتم في الارض عدد سنين ١١٣٤ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ١١٤ قال إن لبثتم إلا قليلا لو انكم كنتم تعلمون) وفي سورة طه يختلفون بين اليوم والعشر . وقيل إن المعنى انهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون كأنهم لم يتفارقوا لقصر مدة الفراق ، وهم أقوال أخرى في التشبيه يبطلها ما أوردنا من الآيات في شواهد

﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله ﴾ أي خسروا السعادة الابدية إذ لم يستعدوا له بالايان وعمل الصالحات الزكية للنفس ، المرقية للروح ، بما تكون أهلا لكرامته ومثوبته ، ورضوانه الاكبر في جناته ، فآثروا عليها حياة الدنيا القصيرة الحقيرة ، المنغصة بالآ كدار ، والسريعة الزوال ، التي يقدرونها يوم الحشر بساعة من نهار والجملة بيان مستأنف منه تعالى لخسران الذين كذبوا بقاء الله من أهل مكة وغيرهم ، ولذلك ذكرهم بصفتهم المقتضية له وهي التكذيب وعطف عليه ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ فيما اختاروه لأنفسهم من إشار الخسيس الغاني ، على النيس الخالد الباقي ، أو هي معطوفة على جملة « قد خسر » أي خسروا تجارتهم وأنفسهم ، وما كانوا مهتدين الى أسباب النجاة والربح من الاعمال الصالحة التي هي ثمرات الايمان كما قال (٢ : ١٦) فما ربح تجارتهم وما كانوا مهتدين) وقد تقدم ذكر الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآيات ٧ و ١١ و ١٥ من هذه السورة ، وتقدم ذكر خسرانهم في سورة الانعام (٣١ : ٧) .

(٤٦) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٧) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا

وَلَا تَقْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا
يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٥٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ
عَذَابٌ بَيْنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعِجِلُونَ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥١) أَمْ إِذَا
مَآوِعَ آمَنْتُمْ بِهِ؟ أَلَمْ تَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥٢) ثُمَّ قِيلَ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ (٥٣) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ أَحَقُّ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٤) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ
لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٦) هُوَ يُخَيِّ
وَيَمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

هذه الآيات تنمة الرد على المشركين في تكذيب ما لم يحيطوا بعلمه ولما
يأتهم تأويله من العقاب الذي سبق في الآية ٣٩ وما بعدها

﴿وإما نربك بعض الذي نعدم﴾ هذه جملة شرطية زيدت (ما) في حرف
الشرط (إن) ونون التوكيد في فعله فكان توكيده مزدوجاً . والمراد بالآية
تأكيد وقوع ما وعد الله هؤلاء المشركين من العقاب في الدنيا والآخرة بشرطه
فيها لا يتخاف منها شيء في جملتها ، سواء أرى الله النبي ﷺ بعض القسم
الاول منه وشاهده ، أم توفاه قبل إراءته إياه . فإبهام الله تعالى إياه للحكمة المقتضية
له في أوائل البعثة من جهة قربته أو بعده ، ورؤيته ﷺ له وعدم رؤيته ،

لا يفيدهم شيئاً ، وسنبين هذه الحكمة في إيهامه . فالمعنى وإن ترينك أيها الرسول بعض الذي نعدم من العقاب في الدنيا فذاك — وفيه إشارة الى أنه سيريه بعضه لا كله ، ﴿ أو نتوفينك ﴾ بقبضك إلينا قبل إرائتك إياه ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ وعلينا حسابهم ، حيث يكون القسم الثاني منه وهو عقاب الآخرة ، ويجوز أن يجعل هذا جواب الشرط بقسميه ، والمعنى فإلينا وخذنا يرجع أمرهم في الحالين ﴿ نعم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ بعمدك أو مطلقاً فيجزئهم به على علم وشهادة حق ، والمراد أنه لا فائدة لهم مما حكمه تعالى عنهم في تربصهم موت النبي ﷺ واستراحته من دعوته ونذره بموته كما تراه في سورة الطور وآخر سورة طه ، فالعذاب واقع ماله من دافع

وقد ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى (٧٧: ٤٠) فاصبر إن وعد الله حق فاما ترينك بعض الذي نعدم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) ويلها آية بمعنى الآية التي تلي هذه ذكر فيها الرسل وكون آياتهم باذن الله لا من كسبهم ، والقضاء على أقوامهم بالهلاك بعدها ، ومنها قوله بعد آية في إرسال الرسل وكون آياتهم إنما هي باذن الله وليس كل أجل كتاب (٤٠: ١٣) وإما ترينك بعض الذي نعدم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وما بعدها في معنى السياق الذي هنا . وقوله (٤٣ : ٤١) فاما نذهبن بك فانا منهن منتقمون ٤٢ أو ترينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون) وقبلها (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين) وهو بمعنى ما قبل هذه أيضاً .

وقد أبهم أمر عذاب الدنيا في كل هذه الآيات وآيات أخرى فلم يصرح بأنه سيقع بهم ما وقع بالأثم التي كذبت الرسل من قبلهم وهو عذاب الاستئصال ولكنه أشار إليه في قوله (٩٣ : ٢٣) قل رب إما تريني ما يوعدون ٩٤ رب فلا تجعلني في اقوم الظالمين) أي كما هي سنتك في رسلك الاولين ، وقد أجاب الله دعاءه فقال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)

وحكمة هذا الإيهام التخويف من جميع أنواع الوعيد مع علمه تعالى ان عذاب الاستئصال لن يقع على قومه ﷺ لان شرطه أن يجهتهم ما اقترحوا من آية كونية

ويعصروا بعده التكذيب ولن يقع ، ولكن في آية يونس هذه إشارة الى ان الله تعالى سيرى رسوله بعد نزولها بعض الذي يعدهم لا كله ، وقد أنجز له ذلك فأراده ما نزل بهم من القحط والمجاعة بدعائه عليهم ، ونصره عليهم أعظم النصر في أول معركة هاجمه بها رؤساؤهم وصناديدهم وهي غزوة بدر وفي غيرها الى فتح عاصمتهم الكبرى أم القرى وإكمال الدين ودخول الناس فيه أفواجا ، وقد تقدم بيان ذلك كله في مواضعه

﴿ ولكل أمة رسول ﴾ أي انه تعالى جعل لكل أمة من الأمم الحالية رسولا بعثه فيها في وقت الحاجة اليه يبين لهم أصول دينه الثلاث : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح المناسب لحال زمنهم ﴿ فاذا جاء رسولهم ﴾ وقامت الحاجة عليهم ﴿ قضى بينهم بالقسط ﴾ أي قضى الله بينه وبينهم بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ في قضائه تعالى كما تقدم وسيأتي تأكيد قريباً .

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أي ويقول كفار قريش للنبي ومن اتبعه من المؤمنين : متى يقع هذا الوعد الذي تعدوننا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم ان الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا ، أي في مثل قوله (١٩ : ٧٥) حتى اذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جنداً) وقوله (١٩ : ٧٥) حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً * قل إنا أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) الخ

وهنا لقن الله رسوله ﷺ الجواب بقوله ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ أي انني بشر رسول لا أملك لنفسي فضلاً عن غيرها شيئاً من التصرف في الضرر فأدفعه عنها ولا النفع فأجلبه لها ، من غير طريق الاسباب التي بقدر غيري عليهم ، وليس منها انزال العذاب بالكفار المعاندين ، ولا هبة النصر للمؤمنين ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي لكن ما شاء الله من ذلك كان متى شاء لا شأن لي فيه لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتها التبليغ لا التكوين . هكذا قال جمهور المفسرين ان الاستثناء هنا منقطع وله أمثال تقدم بعضها كقوله تعالى وهو من أظهرها الصريح في هذا

القام (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) والاختلاف بين الآيتين في تقديم ذكر الضر على النفع وتأخير الاختلاف للمقام ، فقد قدم الضر في آية يونس لأنها جواب للمشر كين عن ميعاد العذاب الذي أُنذروا به ، وهو من الضر ، وقدم النفع في آية الاعراف لأن المقام بيان الحقيقة في نفسها ، وهو أن الرسول لا يملك لنفسه شيئا من التصرف في السكون بغير الأسباب العامة فضلا عن ملكه لغيره ، والمناسب في هذا تقديم النفع لأنه هو المقصود بالذات من تصرف الإنسان وسعيه لنفسه . وقيل أن الاستثناء متصل وحينئذ يكون المنفي المستثنى منه عاما لما يملكه الإنسان بالأسباب العادية فيكون المعنى إلا ما شاء الله تعالى أن أملكه بما أعطاني من الكسب الاختياري مع تيسير أسبابه لي ، وأما الآيات الخارقة للعادة فهي لله وحده ، لا بما يملكه رسوله

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال بقوله ﴿ لكل أمة أجل ﴾ لبقائها وهلاكها علمه الله وقدره لها لا يعلمه ولا يقدر عليه غيره ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ أي فلا يملك رسولهم من دونه تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدّر له وإن قلت ، ولا أن يطلب ذلك منه تعالى ، وهو معني ما تدل عليه السين والتاء في الاصل . وقد حققنا معنى هذا النص في آية سورة الاعراف (٧ : ٣٤) بالفظه فاستغرق أربع ورقات من جزء التفسير الثامن فليراجعه من شاء ، إلا أنه قال هنالك (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون) الخ وقال هنا (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون) الخ والفرق بينهما أن ما هنا أبلغ في نفي تأخير الوعيد لأنه تفنيد لاستعجالهم به ، وذلك أنه جعل الجملة الشرطية وصفا للأجل مرتبطا به مباشرة لا يتخلف عنه ، وما هنالك إخبار بآجال الأمم مبتدأ وما بعده تفرع عليه ، فهو لا يدل على لزومه له بلا مهمة كالذي هنا . وقد تكرر هذا السؤال من المشر كين مع جوابه في سور أخرى ، وأشبهه بما هنا سياق سورة النمل وأجيب فيها بقوله

(٢٧ . ٧٢ قل عسى أن يكون ردكم بعض الذي تستعجلون) وهو من ردفه اذا لحقه وتبعه ، وعدي باللام لتأكيده أو تضمينه معنى يناسبه
وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الانبياء والصالحين حتى الميتين منهم على كل شيء من التصرف في نفعهم وضررهم مما لم يجعله الله تعالى من المكسب المقدور لم بمقتضى سننه في الاسباب ، بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في الكون كله ، كالذين يسمونهم الاقطاب الاربعة . وان بعض كبار علماء الازهر في هذا العصر يكتب هذا حتى في مجلة الازهر الرسمية (نور الاسلام) فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتي والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه من جلب نفع ودفع ضرر ، وأف بعضهم كتابا في إثبات ذلك وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضررون بانفسهم ، ويخرجون من قبورهم فيقضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم . قل في فتح البيان بعد نقله القول الاول في الاستثناء عن أئمة المفسرين وترجيحه مانصه :

«وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيره المناداة لرسول الله ﷺ أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه . وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ مالا لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فان هذا مقام رب العالمين ، الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع الخلق ، ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبي من الانبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ؟ ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع ؟ وحسبك بما في هذه الآية من موعظة فان هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بان يقول لعباده (لا أملك نفسي ضراً ولا نفعاً) فكيف يملكه لغيره ؟ وكيف يملكه غيره . ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ الى منزلته . لنفسه ، فضلا عن أن يملكه لغيره ؟

«فيا عجباً لقوم يكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل ؟ كيف لا يتيقظون لما

وقعوا فيه من الشرك ، ولا ينتهبون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله الا الله ، ومدلول (قل هو الله أحد) « وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى ، بل الى ما هو أشد منها . فان أولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرازق ، المحي المميت ، الضار النافع ، وانما يعملون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم اليه ، وهؤلاء يعملون لهم قدرة على الضر والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذي الجلال ، وكفاك من شر سماعه ، والله ناصر دينه ، ومظهر شريعته من أضرار الشرك وأدناس الكفر . ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينشأ به صدره من كفر كثير من هذه الامة المباركة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) انا لله وانا اليه راجعون » اهـ

﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهراً ﴾ أي قل لهم أيها الرسول أخبروني عن حالكم وما يمكنكم فعله ان أتاكم عذابه الذي تستعجلون به في وقت مبيتكم في الليل أو وقت اشتغالكم بملهؤم ولعبكم أو أمور معاشكم بالنهار ، وهو لا يعدوها (كما تقدم في الآيات ٤ و ٩٧ و ٩٨ من سورة الاعراف ٧)

﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ أي شيء أو أي نوع يستعجل منه المجرمون المكذبون الآن ؟ أعذاب الدنيا أم قيام الساعة ؟ أيا ما استعجلوا فهو حاقة وجاهلة . وقيل ان المعنى ماذا يستعجل منه المجرمون منكم إن أتاكم ، أي ان جملة الاستغفار جواب للشرط فيما قبلها ، وفيه بحث للنجاة الذين أوجبوا اقتران مثل هذا الجواب بالغناء وخالفهم غيرهم لا نعرض له ، وقد تقدم في سورة الانعام (٦ : ٤٧ قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) وتقدم في تفسيرها وتفسير ما قبلها ان الاستغفار في (أرأيتم) و (أرأيتم) مستعمل في اللغة بمعنى أخبروني عن حالكم وما يكون من عملكم ان أتاكم ذلك ؟

﴿ أأنتم اذا ما وقع آمنتم به ﴾ قرأ الجمهور (نعم) بالضم وهو حرف عطف يدل على الترتيب والتأخر والتراخي ، وقرئ بالفتح وهو اسم إشارة بمعنى هنالك .

قال ابن جرير الطبري ومعنى قوله (أثم) في هذا الموضع أنها لك ؛ وليس « ثم » ههنا التي تأتي بمعنى العطف اه ولم يضبطها بفتح الثاء فظاهر قوله ان المضمومة تأتي ظرفاً أيضاً وهذا لم يرو عن أحد من العرب ، بل قال ابن هشام في المعنى وقد نقله عنه : وهذا وهم اشبهه عليه ثم المضمومة الثاء بالمفتوحاتها اه

وأما على قراءة الجمهور فهذا استفهام آخر معطوف على فعل مقدر بعد الهمزة . علم مما قبله من إنكار استعجال مجرميهم بالعذاب ، كما يقدر مثله بعد حرف الاستفهام الداخل في مثل قوله (أو عجبت ان جاءكم ذكر من ربكم ؟) وقوله (أخسبتم أنم خلقتناكم عبثاً ؟) وتقدير الكلام ، أيستعجل بالعذاب مجرموكم الذين هم أحق بالخوف منه بدلا من الايمان الذي يدفعه عنهم وعنكم ، ثم اذا وقع بالفعل آمنتم به إذ لا ينفع الايمان ، لانه صار ضروريا بالمشاهدة والعيان ، لا تصديقا للرسول عليه السلام ، وقبل لكم حينئذ من قبل الله تعالى تفرغوا وتوبوا **(آلا ن)** آمنتم به اضطرارا **﴿** وقد كنتم به تستعجلون **﴾** تمكذبا به واستكباراً ؟ وقرأ نافع (ألان) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، والجملة حالية ، والاستعجال يتضمن المباغة في التكذيب المقابل للايمان ، وسيأتي في هذه السورة إيمان فرعون عند ادراك الفرق بإياه وأنه يقال له (**آلا ن** وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)

﴿ ثم قيل للذين ظلموا **﴾** (قيل) هذه معطوفة على قيل المقدرة قبل (**آلا ن** وقد كنتم به تستعجلون) أي ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر برسالة الوعد والوعيد ، وما يترتب عليه من الفساد والضلال البعيد **﴿** ذوقوا عذاب الخلد **﴾** الخلد كالحلود مصدر خلد الشيء اذا بقي على حالة واحدة لا يتغير ، وخلص الشخص في المكان اذا طال مكثه فيه ، لا يرحل ولا هو به دد التحول عنه . وظاهر اضافة العذاب الى الخلد أن المراد به البقاء على حالة واحدة مؤلمة ، وإتمل إرادة العذاب الخلد الدائم وهو الموافق للآيات الكثيرة المطابقة في الاكثر والمقيدة بعشيئة الله تعالى في سورة الانعام (١٢٨ : ٦) وقد تقدم تفسيرها ، وفي سورة هود وسيأتي

﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبونه باختياركم من الكفر والظلم والفساد في الارض ، والعزم على اثبات عليه وعدم التحول عنه ، وليس فيه شيء من الظلم ، لانه أثر لازم لندسية النفس وفسادها بالظلم ، حتى لم تعد أهلاً لجوار الرب عز وجل وليس عذاباً أنفياً من خارجها ، وتقدم بيانه في تفسير قوله تعالى (٦ : ١٣٩ سيجزيهم وصفهم)

﴿ ويستنبذونك أحق هو ؟ ﴾ النبأ الخبر المهم ذو الفائدة العظيمة والاستنباء طلبه ، وهذا إخبار عن بعض الكفار والمكذبين فانهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم وإنما كانوا ظانين مستبعدين ، بين معاندين ومقلدين ، وقد تقدم في هذا السياق قوله تعالى (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) والمعنى ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا العذاب الذي تعدم به في الدنيا والآخرة أحق هو سيقع بالفعل ؟ أم هو إلهاب وتخويف ؟ ﴿ قل إي وربي انه لحق ﴾ إي بكسر الهمزة وسكون الياء الخفيفة حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، وإنما يستعمل مع القسم ، أي نعم أقسم لكم بربي انه لحق واقع ، كما قال في أول سورة الطور بعد القسم (ان عذاب ربك لواقع)

ماله من دافع) وقد أكد هذا بالقسم وبأن مع الجملة الاسمية ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ الله تعالى عن إنزاله بكم ، ولا بفائتيه هرباً منه ، وقد علم مؤمنوا الجن ما جهلتم إذ قالوا كما حكى الله عنهم (وأنا ظننا ان لن نعجز الله في الارض وان نعجزه هرباً) وقد استشكل بعض المفسرين السؤال باستبعاد أن يكون الاستفهام حقيقياً من المكذبين ، والجواب بزعمهم ان تأكيد القسم وغيره من المؤكدات اللفظية لا يقنع السائلين ، ومن عرف أخلاق العرب في زمن البعثة لم يستشكل السؤال إلا أن يكون السائلون من المعاندين للرسول ﷺ فحينئذ يكون الاستفهام للتهكم والاستهزاء ، أو كما قيل . إنما سألوا أهو جد أم هزل ، فأرادوا من الحق لازمه وهو الجد لا مقابل الباطل ، والمعروف من أخلاق العرب في ذلك العهد أنه كان يقل فيهم الكذب لئلا يعزوا أنفسهم ، وعدم خضوعهم لرياسة استبدادية تضطرهم إليه ، وكانوا

يهايون الايمان الباطلة ويخفونها، ومن المنقول عنهم ان الايمان الفاجرة تدع الديار بلاقع، وناهيك بما اشتهر به النبي ﷺ منذ صغره من الصدق والامانة حتى لقبوه بالامين، وقد ثبت في الاحاديث الصحيحة أن بعضهم كان يسأله عن نبوته وعن الشرائع ويستحلفه فإذا حلف اطمأن لصدقه واتبعه، وإن صدق عرب الجاهلية ليقبل مثله في رجال الدين وغيرهم من اهل هذا العصر حتى المسلمين منهم

روى احمد والشيخان وأصحاب السنن الثلاثة واللفظ للبخاري عن أنس قال بينما نحن مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ دخل رجل على رجل فأنأخه في المسجد ثم عقله ثم قال: أيسم محمد؟ قلنا هذا الرجل الابيض المتكى. فقال: ابن عبد المطلب فقال النبي ﷺ «قد أجبتك» فقال إني سألتك فشدد عليك في المسألة فلا تجدد علي في نفسك، قال «سل عما بدا لك» فقال أسألك بربك ورب من قبلك الله. أرسلك الى الناس كلهم؟ قال «الاهم نعم» قال أنشدك بالله الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال «الاهم نعم» قال أنشدك بالله الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال «الاهم نعم» قال أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال «الاهم نعم» قال آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورأي قومي، وأنا ضام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر. ولعظ مسلم عنه: قال أنس نهيتنا في القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء (١) فكان يعجبنا أن يحجى الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد، أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك، قال «صدق» قال فمن خلق السماء؟ قال «الله» قال فمن خلق الارض؟ قال «الله» قال فمن نصب هذه الجبال فجعل فيها ما جعل؟ قال «الله» قال فبالذي خلق السماء وخلق الارض ونصب الجبال الله أرسلك؟ قال «نعم» (ثم سأله بالذي أرسله عن كل من الصلوات والزكاة وصيام رمضان والحج

(١) يعني في قوله تعالى (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) أي لثلا تكثر التكليف عليهم وراجع تفسيرها في أواخر تفسير المائدة من الجزء السادس

فأجاب بهم (نم ولى وقال ، والذي بعثك بالحق لا أريد عليهم ولا أنقص منهم ، فقال النبي ﷺ « لئن صدق ليدخلن الجنة »

وزاد الامام احمد انه قال له أيضاً: الله أمرك أن تأمرنا أن نعبدك ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الانداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال « اللهم نعم » وأنه كان أشعر ذاغديرتين ، وإن النبي ﷺ قال « إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة » وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال بدست اللات والعزى ، قالوا مه يا ضمام ، اتق البرص والجذام ، اتق الجنون قال ويلكم انهما والله ما يضران ولا ينفعان ، إن الله تعالى قد بعث إليكم رسولا وأنزل كتابا استنفذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قد جئتمكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً

وأقول ان فائدة السؤال عن خلق السموات والارض والجبال وما فيها من ذكره في القسم ان استحضار ذلك فيه يكون أخرى أن يلتزم في الجواب الصدق وتعظيم القسم والخوف من عاقبة الخلف ، وقد خفي هذا كله على المفسرين لانهم اعتادوا إثبات العقائد الدينية بالدلة النظرية الجدلية التي وضعت للمجاهدين بالباطل ، وجعل هذه الحقائق أعداء الاسلام من الافرنج ولا سيما السياسيين رجال الكنيسة الكاثوليكية ودعاة التنصير البروتستنتي المطبوعين على الكذب والكسب به والاخذ بقول رؤسائهم « ان الغاية تبرر الوسطة » يعنون أن اقرار الكذب وسائر الرذائل لاجل مصلحة الكنيسة فضيلة - جهل هؤلاء أن عباد الاصنام في الجاهلية كانوا أشد منهم احتراماً للصدق - فضلاً عن الاسلام وكتابه ونبيه ، فأباحوا لأنفسهم من افتراء الكذب على الله ، وكتابه وخاتم رسله ، ما لم يخطر مثله في بال الشيطان قبلهم فيوسوس به لغيرهم

نقد كذبوا على الاسلام كذبا تزول الشمس منه من زلزلات

اما المسلمون فان الله يقول في كتابه (١٦ : ١٥) انما يهتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله واولئك هم الكاذبون (والنبي ﷺ يقول في هديه « يطعم

المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب » رواه البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمرو رضي الله عنهما

﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الارض لافتدت به ﴾ أي لو أن لكل نفس قلبت بهذا الظلم جميع ما في الارض من أنواع الملك والزينة وصنوف النعيم وأمكنها أن تفتدي به أي تجعله فداء لها من ذلك العذاب الذي قيل لهم ذو قوه ينقذها منه بنذرها

له ، لافتدت به كله لا تدخر منه شيئاً ﴿ وأسروا الندامة ﴾ اسرار الشيء ، إخفاؤه وكنهائه ، وإسرار الحديث والكلام خفض الصوت به ، فهو ضد اعلانه والجر به ومنه (وأسروا قولكم أو اجهروا به) فإنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تنكتمون (واستعمل بمعنى الجهر مطلقاً فهو ضد وأنكره بعضهم ، والندم والندامة ما يجده الانسان في نفسه من الالم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره ، وقد يجهر به بالكلام كقوله « يا حسرتنا على ما فرطت » أو بالتوبة والاستغفار ، وقد يخفيه ويكتمه لعدم الغائبة من اعلانه أو انقاء للشجاعة أو الاهانة به ، أي وأسروا أولئك الذين ظالموا ندامتهم وحسرتهم فيما بينهم وبين ربهم أو كتموها في قلوبهم

﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي رأوا مباديه عياناً بأبصارهم لما برزت الجحيم وأيقنوا أنهم واقعوها لا مصرف لهم عنها ، وقد يعبر برؤيته عن وقوعه والظاهر الاول لقوله

﴿ وقضى بينهم بالقسط ﴾ أي وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالعدل والحق ، فإذا أريد بالظلم الكفر والتكذيب وما يلزمه من الايذاء فخصومهم الرسل والمؤمنون بهم ، وكذا من أضلوا وظلموهم من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغفرونهم بالكفر ويصدونهم عن الايمان وهو ظاهر السياق هنا وفي سورة سبأ بعد حكاية مجادلة الظالمين والمظلومين يوم القيامة (٣٣ : ٣٤) وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (وإن أريد بالظلم ما يعم ظلمهم للناس في الاحكام وهضم الحقوق كان كل مظلوم خصماً لظالمه

﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يظلمهم الله كما ظلموا أنفسهم وظلموا أنبايعهم ومقلديهم ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم . والآيات في ندم الظالمين يوم القيامة

معروفة كقوله في آخر سورة النبا (٧٨) انا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يده ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) وقوله (٢٥: ٢٧) ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ٢٨ ياويلتى ليتني لم اتخذ فلانا خليلا) وغير ذلك

ثم قفي على ذلك بالدليل على قدرته على انفاذ حكمه وانجاز وعده وكون هؤلاء الظالمين لا يعجزونه ، ولا يستطيعون الافتداء من عذابه ، فقال ﴿ ألا إن الله مافي السموات والارض ﴾ قلنا مراراً ان السموات والارض عبارة عن جميع العالم ، وهو تعالى مالك السموات والارض وملئكما ، وله كل من فيها من العقلاء ، وما فيها من غير العقلاء ، وقد نطقت الآيات بهذا كله ولكل مقام مقال ، فهنا غلب غير العقلاء بمناسبة مافي الآية السابقة من الاشارة الى غرور الكافرين والظالمين بما كانوا يمتعون به ، وتعدر الافتداء بشيء منه ، وسيأتي تغليب العقلاء في الآية ٦٦ من هذه السور فلاقتضاء المناسبة له . وصدر الجملة بحرف التنبيه «ألا» الذي يفتتح به الكلام لتنبيه الغافلين عن هذه الحقيقة وإن كانوا يعرفونها لكثرة ذهول الناس عن تذكري أمثالها ، والمعنى ليتذكر الناس وليتنبه الغافل وليعلم الجاهل ان لله وحده مافي العوالم العلوية وعالم الارض يتصرف فيها حيث يشاء ، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء ، في يوم البعث والجزاء ﴿ ألا ان وعد الله حق ﴾ أعاد فيه حرف التنبيه تأكيداً وتذكيراً لتمييزه بهذا التنبيه عما سبقه لانه المقصود هنا بذاته وانما ذكر قبله للاستدلال عليه ، أي كل ما وعد به على لسان رسله حق واقع لا ريب فيه ، لأنه وعد المالك القادر على انجاز ما وعد لا يعجزه منه شيء . ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿ يعني بأكثرهم الكفار منكري البعث والجزاء ، أي لا يعلمون أمر الآخرة لا من طريق النظر والاستدلال ، ولا من طريق الايمان بما جاء به الرسل عليهم السلام

﴿ هو يحيي ويميت ﴾ بقدرته كما يدل عليه النظر والاستدلال وقد بسطنا

في تفسير الآيتين ٣١ و ٣٤ ﴿واليه ترجعون﴾ عندما يحيمكم بعد موتكم وبحشركم ليحاسبكم ويحزيكم بأعمالكم فهذه الآية بيان مستأنف لما قبله بالإيجاز ، وجلة هذه الآيات خاتمة هذا السياق .

(٥٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٨) قُلْ يَفْضَلِ اللَّهُ وَبَرَّحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

هاتان الآيتان في موضوع تشريع القرآن العملي التهديبي جاء بعد بيان عقائد الثلاث (التوحيد والرسالة والبعث) وتأيدها بالاستدلال على كونه من الله تعالى ، وعلى صدق وعده ووعدته، والرد على مكذبيه ، وقد اجمال في الآية الاولى جميع مقاصد هذا التشريع واصلاحه للناس بما يظهر به للعاقل انه حق وخير وصالح بذاته لا يصح لعقل ان يماري فيه ، ولا ان يحتاج للاستدلال عليه فقال

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون اليه من موعظة حسنة لاصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة ، وحكمة بالغة لاصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة ، وهداية واضحة للضراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ورحمة خاصة للمؤمنين ، هي شجرة من رحمة رب العالمين ، العامة للخلق أجمعين ، يتراحمون بها فيما بينهم ، فنكمل بها رحمة تعالى لهم ، ورحمة للعالمين برسوله اليهم وبهم ، وقد عرف هذا من تاريخهم أشهر فلاسفة التاريخ من الافرنج ^(١) فقال «ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب» فكان الله تعالى يقول للناس ، بعد بيان هذه المقاصد الاربعة للقرآن . فما بالكم أيها الناس تكذبون بما لم يحيطوا به علما من أخبار هذا الكتاب ، التي هي من علم الغيب عن المال والمآب ، ولا تفكرون

(١) هو الحسكيم الاجتماعي المؤرخ الدكتور غوستاف لوبون الفرنسي

في آدابه ومواعظه، وأحكامه وحكمه، وهداية نوااميسه وسننه، وما فيها من المنافع والمصالح، التي لا يماري فيها عالم ولا يكابر فيها عاقل؟ حتى ان أشد أعداء الرسول لا يبداء له وصدا عن دعوته في أول ظهورها لم يستطيعوا الطعن على مادعا اليه من الفضائل والخير والبر، وما نهى عنه من الرذائل والشرور والفجور، كما بي سفيان عند ماسأله هرقل قيصر الروم، وعمر بن العاص عند ماسأله أحزمة نجاشي الحبشة، فان كان ذلك قد خفي على بعض الجاحدين والمقلدين لهم من المشركين قبل تميم نشر القرآن فيهم، وقبل ظهور ما كان له من التأثير العظيم بعد انتشار الاسلام في العرب، ومن الاصلاح الديني والمدني في شعوب العجم، أفليس من العجب العجائب أن يماري به أحد بعد ذلك ويصدق ما يفتر به عليه دعاة الكنييسة ورجال السياسة من الافرنج وتلاميذهم وهم أكذب البشر؟

أجبت الآية الحكيمه هذا الاصلاح القرآني لأنفس البشر في أربع قضايا أو مسائل، فيكرن في اللفظ لتعظيم أمره، أو لبيان أنهم نوع خاص لم يعهد الناس مثلهم، حتى كالمعنوي وبينهم اللفظي، وقوله (من ربكم) لتذكير بما يزيد بها تعظيما، ووجوب الاتعاظ بها إيمانا وتسليما، لأنها من مالك أمر الناس ومربيهم بفضلهم ورحمته، وعلمه وحكمته.

(الاولى الموعظة الحسنة) وهي اسم من الوعظ أي الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك، وقد تقدم في حقوق النساء من سورة البقرة (٢٣١-٢) واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به (الآية، وفي التي بعدها (ذلك يعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وتقدم في سورة آل عمران بعد النهي عن أكل الربا والامر بطاعة الله ورسوله والترغيب في الانفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس، وما أعده الله على ذلك من الجزاء (٣٦٣) قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ويليه الكلام في الجهاد وغزوة أحد، وفي سورة

(يونس : ١٠) شفاء القرآن لما في الصدور من أمراض العقول والقلوب ٤٠١

النساء (٥٨:٤) إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعماً يعظكم به) الآية ، وتقدم غير ذلك من أمثلة الوعظ وسيأتي غيره مما يفسر مراده تعالى من موعظته الربانية ، فهل يمكن أن يتجاري عاقلان في حسنهما ومنفعتهما للعباد في أعمالهم وأحكامهم ؟ كلا إنها مما يتوقف عليه صلاح العباد في كل زمان ومكان

(الثانية شفاء ما في الصدور) أي شفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق ، وسائر الامراض النفسية التي يشعر صاحبها ذو الضمير الحي بضيق الصدر ، من شك في الايمان ، ومخالفة للوجدان ، واضمار للحقد والحسد والبغى والعدوان ، وحب للباطل والظلم والشر ، وبغض للحق والعدل والخير

قال الراغب : قال بعض الحكماء حينما ذكر الله القلب في إشارة إلى العقل والعلم نحو (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وحينما ذكر الصدر فإشارة الى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها ، وقوله (رب اشرح لي صدري) فسؤال لإصلاح قواه ، وكذلك قوله (ويشف صدور قوم مؤمنين) إشارة الى اشتغالهم . وقوله (فانها لانعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) أي العقول التي هي مندسة فيما بين سائر القوى وليست مهتدية والله أعلم بذلك اهر التحقيق أن الصدر يطلق مجازاً على القاب الحسي الذي فيه وعلاقته ظاهرة وعلى القلب المعنوي الذي هو للنفس كالقلب الحسي للبدن لانه لهما ، ومركز شعور مداركها وانفعالاتها ، دون الدماغ فان النفس لا تشعر بما ينطبع فيه من المدرجات من انشراح وبسط ، ولا حرج وضيق وقبض ، فجميع الادراكات العلمية والوجدانية توصف بها القلوب حقيقة والصدور مجازاً ، وتكون فاعلة ومفعولة وصفات للأفعال العاملة فيهما . وأما العقل في اللغة فهو الحكم الصحيح في بعض الادراكات ولوازمها من حسن وقبح وصلاح وفساد ، ونفع وضرر ، ومركزه الدماغ قطعاً . فأمرض الصدور والقلوب تشمل الجهل وسوء الظن ، والشك في الايمان ، والنفاق ، والحقد والضغن والحسد ، وسوء النية وخبث الطوية ، وفساد السريرة ، وغير ذلك مما تقدم آنفاً ، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة

٤٠٢ شفاء القرآن لأعراض الأنفس لا الأبدان وهذا (التفسير : ج ١١)

وذهب بعضهم إلى أن الشفاء في الآية يشمل شفاء الأمراض البدنية واستدلوا بما أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري (رض) قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني أشبكي صدري فقال « اقرأ القرآن يقول الله (شفاء لما في الصدور) وفيه أن ضيق الصدر في الغالب ألم نفسي لا بدني قد يكون سببه دينياً وقد يكون دنيوياً كالخوف والحاجة، وقراءة المؤمن للقرآن تنفع في كل منهما ومن الأول قوله (١٢٥:٦) فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) وقوله في آخر سورة الحجر (٩٧:١٥) ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسمح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر، كما قال ٢٢:٣٩ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) الآية

واستدلوا أيضاً بما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن وثالة بن الأسقع (رض) أن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ وجع حلقه قال « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، والعسل شفاء من كل داء » وهو على ضعفه لا يدل على ما قيل إذ معناه اقرأ القرآن ، تعلم منه ما يفيدك ، إذ فيه أن القرآن شفاء لأمراض الصدور ، والعسل شفاء لأمراض البدن ، فهو كوصفه ﷺ العسل لمن شكاً له استطلاق بطن ابن أخيه في الحديث الصحيح . وقد ثبت في الطب الحديث أن العسل مطهر طبي ومضاد للفساد ، واستطلاق البطن يكون من فساد في الأمعاء ، وكذا وجع الحلق بالتهاب اللوزتين ونحوه ، والعسل مطهر لكل منهما ، وقد روى أبو الشيخ عن الحسن البصري أنه قال : إن الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم . وقال بعض المفسرين إن تشكيير الشفاء في آية العسل يدل على الخصوص لا العموم . على أن الرقية بالغائجة وغيرها قد تفيد في شفاء بعض الأمراض ولا سيما إذا كان الراقى قوي الإيمان والرقى حسن الاعتقاد ، وليس هذا بما تدل عليه الآية

(الثالثة الهدى) وهو بيان الحق المنقذ من الضلال في الاعتقاد بالبرهان ،

(يونس : ١٠) رحمته تعالى للمؤمنين بالقرآن ورحمة نبيه بالناس وغيرهم ٤٠٣

وفي العمل ببيان الحكم والمصالح في أحكام الاعمال ، وهو ما فصلناه تفصيلا في هذا التفسير وبيننا أنواعه في مقاصد القرآن من مباحث الوحي في أول تفسير هذه السورة بأنواعها الدينية والعقيدية والاجتماعية ، وتقدم الكلام على معناه اللغوي وأنواعه في تفسير الفاتحة وأول سورة البقرة.

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ما تتمره لهم هداية القرآن وتغيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة وهي صفة كل من آثارها اغاثته الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي، وغير ذلك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر، وقد وصف الله المؤمنين بقوله (رحماء بينهم) وبقوله (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموعظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها، والشفاء تخليمة يقبها طلب التحلية بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى، ومن ثمراته هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يجرمها إلا الكافرون الماديون، حتى قال بعضهم إنها ضعف في القلب، يجعل صاحبه كالمضطرب إلى الاحسان والعطف، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة، وقسوة القلب وفلسفة الكفر، فلقد كان أشجع الناس وأقوام بدنا وقلبا، أرحم الناس وأشد هم عطفاً، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين، الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله (بالمؤمنين رؤف رحيم) بل جعله عين الرحمة في قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكذلك كان أصحابه (رض) حتى كان من يوصف بالشدّة والقسوة كعمر بن الخطاب [رض] صار من أرحم الناس وسيرته في ذلك معروفة وقد قال ﷺ « لا تنزع الرحمة الا من شقي » رواه ابو داود والترمذي واللفظ له عن ابي هريرة (رض) وقد صح عنه ﷺ انه كان اذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته، اي اختصر وخفف رحمة به وبأمه، وروى ابن اسحاق ان بلالا [رض] مرّ بصفية وابنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة قريظة فصكت ابنة عمها وجهها وحشت عليه التراب وهي تصيح وتبكي فقال ﷺ له « أنزعت الرحمة من قلبك حتى مررت بالمرأتين على قتلاهما » وجاء اعرابي

إليه ﷺ فقال انكم تقبلون أولادكم وما تقبلهم فقال « أو أملك لك ان نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة [رض]

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالمهاثم والطيور والحشرات وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وامهاتها . جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء ، قد التف عليه فقال يا رسول الله اني لما رأيته أقبلت فمررت بغيطة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي وكشفت لها عنهن فوقعت عليهن فلففتها معهن بكسائي فهن أولاء معي ، فقال « ضعهن » (قال) ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن فقال ﷺ « أتعجبون لرحمة أم الافراخ بفراخها ؟ قلوا نعم » قال « والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الافراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن ، وأمهن معهن » فرجع بهن . رواه ابو داود عن ابي هريرة [رض] وروى مالك والبخاري ومسلم وابو داود من حديثه مرفوعا حديثين خلاصتهما ان الله غفر لرجل ولا امرأة يعني لان كلا منهما رأى كلبا قد اشتد به العطش فرحمه واخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه . قالوا له يا رسول الله ان لنا في البهاثم أجراً ؟ فقال « في كل كبدة رطبة أجر » ورواه مالك واحمد عن غيره بلفظ « في كل ذات كبدة حرى أجر » .

وقال ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » رواه الترمذي وابو داود من حديث عبد الله بن عمرو [رض] ورويناه مسلسلا بالاولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبي المحاسن القارقجي . وقال ﷺ « ان لله مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهاثم والحوام ، فيها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحوش على ولدها » وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » - وفي رواية - ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يئأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمّن من النار » رواه البخاري ومسلم والترمذي ، والله تعالى يقول (١٥ ، ٤٥) نبيء عبادي اني أنا الغفور الرحيم ، وان عذابي هو العذاب الاليم) ويقول (انه لا يئأس من روح الله الا القوم الكافرون) ويقول (٧٨: ٧) أفأمنوا مكر الله ؟ فلا

(يونس : ١٠) أمر الله تعالى بالغفر بفضله ورحمته دون ماعدائها ٤٠٥

يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) وما دام المؤمن حياً فلو اوجب عليه أن يخاف الله خوفاً يرهبه ويزجره عن معاصيه ، وأن يرجوه رجاء يرضيه ، وما عند الله مجهول لنا ، وما أحسن قول ابي الحسن الشاذلي قدس الله سره « وقد أبهت الامر علينا لئلا نرجو ونخاف ، فأمن خوفنا ، ولا نخيب رجاءنا » اللهم آمين

خاطب الله تعالى بما تقدم كله أمة الدعوة المحمدية وهم جميع الناس فدعوة القرآن وما فيه من شفاء من أمراض الكفر والنفاق والذائل ، وهداه الى الحق والفضائل موجبات الى الجميع ، وخص المؤمنين بما تشره الثلاث من الرحمة لانهم هم الذين ينتفعون بها ، ثم خاطب رسوله ﷺ بأن يبلغ هؤلاء المؤمنين أنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الايمان والاسلام وهذه الرحمة الخاصة بهم لاستجابتهم كل ما ذكر قبلها من مقاصد تشرعها فقال :

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فضل الله على جميع عباد عظيم وهو على المؤمنين منهم أعظم ، ورحمته العامة لهم وبهم واسعة ، ورحمته الخاصة بالمؤمنين أوسع ، وبكل من النوعين نطق القرآن ، وقد من تعالى عليهم بالجمع لهم بين الفضل والرحمة في آيات ، وبكل منهما في آيات ، وقال بعد الجمع بينهما في آيتين من سورة النور (٢٤ : ٢١) ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) وان دخول الباء على كل من الفضل والرحمة هنا يدل على استقلال كل منهما بالفرح به ، فهو يرد ماروي عن مجاهد من ان المراد بهما واحد وهو القرآن ، ويرده أيضاً ماروي من المأثور في تفسير كل منهما بمعنى ، ومنه مارواه أبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس مرفوعاً « فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله » وروي عن البراء وابي سعيد الخدري موقوفاً . وعن ابن عباس روايتان (احدهما) ان فضل الله القرآن ورحمته الاسلام (والثانية) ان الفضل العلم والرحمة محمد ﷺ وعن الحسن والضحاك وقادة ومجاهد في الرواية الثانية عنه ، فضل الله الايمان ورحمته القرآن ، وكل هذه المعاني صحيحة في نفسها لافي روايتها . وأظهرها في الآية وهو المناسب لما قبلها ، والجامع لمعاني الروايات كلها ، ان فضل الله توفيقه لإيادهم لتركبة أنفسهم بالموعظة

والشفاء والهدى التي امتاز بها القرآن ، ورحمته نمرت بها التي فضلوها بها جميع الناس فكانوا أرحمهم ، بعد أن كانوا أعداء لهم وأبرهم بهم ، فقد أمرهم هذا القرآن بالبر والعدل وإقامة القسط في المؤمن والكافر ، و"بر" و"تأجر" ، وأمرهم بالرحمة حتى في المحاربين لهم بقدر ما يدفع شرهم كما فصلناه في المقصد الثامن من مقاصد القرآن في مباحث الوحي ، ولولا مراعاة هذا التناسب لقلت أن المراد بفضله تعالى على هذه الامة هو قوله تعالى (١٤٣: ٢) وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الآية ، وقوله (١١: ٣) كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية ولكن ما قلته يدخل في معناه ويوافقه ولكل مقام مقال

والفرح كالسرور انفعال نفسي بنعمة حسية أو معنوية يلذ القلب ويشرح الصدر ، وضدهما الالاسى والحزن ، وهما من الوجدان الطبيعي لا يمدحان ولا يذمان لذاتهما ، بل حكمهما حكم سلبهما أو أثرهما في النفس والعمل ، خلافا لبعض الناس من الصوفية وغيرهم فيهما ، فقد أمر الله تعالى هنا بالفرح بفضله ورحمته ، ومدح المؤمنين بالفرح في قوله (٤: ٣٠) ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وهذا فرح بأمر ديني دنيوي ثم قال فيها (٣٦) وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وقل في أهل الكتاب الذين يؤمنون به ﷺ وهم يتدنون بالقرآن (١٣ : ٣٦) والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) الآية .

وذم سبحانه "الفرح بالباطل وفرح البطر والغرور بالمال ومتاع الدنيا وشهواتها في عدة آيات معروفة . وجعل الاعتدال بين الفرح والالاسى والحزن من صفات المؤمنين فقال بعد ذكر تربيتهم بالمصائب المقدرة في كتاب الله (٢٣: ٥٧) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور) وتقدم تحقيق الكلام في الحزن في تفسير سورة براءة (١٠ : ٢٤٠ : ص ٤٢٦ ج ١٠ تفسير) والتعبير في الآية في غاية البلاغة لما فيها من التأكيد والمبالغة في التقرير ، فإن أصل المعنى بدوئنها : قل لي فرحوا بفضل الله وبرحمته ، فأخر الأمر وقدم عليه متملقه لإفادة الاختصاص كأنه قال إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته ، وأدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية فصار فيهما فليفرحوا دون

ما يجمعون من متاع الدنيا الممين في آخر الآية، ثم ادخل على الامر (فبذلك) لزيادة التأكيد والتقرير ، وتفصيل مباحثه في الاغراب أكثر مما قلنا ، وبسطه يشغل عن المعنى والاعتبار به ، وهو خروج عن منهجنا في هذا التفسير

ثم قال ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ اي ان الفرح بفضل وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعونه من الذمب والفضة والخيل المسومة والانعام والحراث وسائر متاع الحياة الدنيا مع فقدهما ، لا لأنه سبب سعادة الآخرة الباقية ، المفضلة على الحياة الدنيا الغانية ، كما اشتهر فيما خطته الاقلام ولا كتبه الاسنة ، بل لانه هو الذى يجمع بين سعادة الدارين كما حصل بالفعل ، إذ كانت هداية الاسلام بفضل الله وبرحمته سبباً لما ناله المسلمون في العصور الاولى من الملك الواسع ، والمال الكثير ، مع الصلاح والاصلاح ، والعدل والاحسان ، والعلم والعرفان ، والعز الكبير ، فلما صار جمع المال ومتاع الدنيا وفرح البطر به هو المقصود لهم بالذات ، وتركوا هداية الدين في انفاقه والشكر عليه ، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم كما شرحناه مراراً

(٥٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٦٠) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

هاتان الايتان في إقامة الحجة على منكري الوحي من المشركين بفعل من أفعالهم لا ينكرونه ولا يجادلون فيه ، تعزيراً لما تقدم من أنواع الحجج العقلية على إثباته ، ودفع شبهاتهم عليه ، وهذه الحجة مبنية على قاعدة كون التشريع العملي في التحريم والتحليل هو حق الله تعالى وحده ، وقاعدة كون الاصل في الارزاق وسائر الاشياء التي ينفع بها الخلق الايباحة ، وقاعدة كون انتحال العبيد حق التشريع

الخاص برههم افتراء عليهم وكفرآ به، يستحق فاعلوه أشد عقابه، وهو يتضمن الشهادة على صدق رسوله ﷺ في كونه مبعثاً لهذا القرآن عنه تعالى، مؤكداً لما تقدم من الحجج على صدقه، وعلى كون القرآن كلام الله المعجز لجميع خلقه. قال عز وجل لنبيه ﷺ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني أيها الجاحدون للوحي والتشريع الإلهي

﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ أي هذا الذي أفاضه الله عليكم من نعماء فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان ، وكل عطاء منه تعالى يعبر عنه بالأنزال كقوله (٦٠٣٩) وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج (وقوله ٢٥٠٥٧) وأنزلنا الحديد فيه

أُسْ شَدِيد وَمَنَافِع لِلنَّاسِ) - ﴿لَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أَي قَرَّبْتُمْ عَلَى انْزَالِهِ لِمَنْفَعَتِكُمْ أَنْ جَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَمِنْهُ حَلَالًا. وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُ هَذَا فِي سُورَةِ الْإِنْعَامِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى (١٣٦: ٦) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْإِنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا - إِلَى قَوْلِهِ - ١٥٠ نَلْهَمُ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا (الْآيَاتِ ١) وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (١٠٣: ٥) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَهِيمَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أَي يَفْتَرُونَ عَلَيْهِ بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يَحْرُمَهُ (٢) وَقَالَ هُنَا وَهُوَ الْمَرَادُّ مِنَ الْاسْتِخْبَارِ ﴿قُلْ أَللَّهُ أَذُنُ لَكُمْ﴾ هَذَا الْاسْتِغْفَامُ لِلتَّقْرِيرِ وَمَدَّتْ هَمْزُ تَه لَدُخُولِهَا عَلَى الْفِ اسْمِ الْجَلَالَةِ. أَي أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ حَقٌّ أَنْ يَحْرُمَ عَلَى النَّاسِ وَيَحِلَّ لَهُمْ إِلَّا بِرِضَا اللَّهِ، فَهَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَذُنُ لَكُمْ بِذَلِكَ بِوَحْيٍ

أنزله إليكم؟ ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ بزعمكم أنه حرمها عليكم؟ أي لا مندوحة لكم عن الإقرار بأحد الأمرين: إما دعوى الأذن من الله لكم بالتحليل والتحریم، وهو اعتراف بالوحي وأنهم تنكرونها وتلحدون وتلججون في الإنكار، وتزعمون أنه محال عليه تعالى أن يوحى إلي أحد من الناس، وإما الافتراء على الله؛ وهو الذي يلزمكم بإنكار الأول إذ لا واسطة بينهما، ويحتمل أن يكون الاستغناء للإنكار وأم متصلة،

(١) راجع تفسیرها فی ص ١٢٢ ج ٨ تفسیر

(٢) راجع تفسيرها في ص ٢٠٢ ج ٧ تفسير

فيكون المعنى ان الله لم يأذن لكم بل انتم تعترون على الله تعالى، والغاية واحدة، وأصل الغري قطع الجلد لمصاحبة الافتراء تكافئه وغلب في تعمد الكذب

قال الكرخي في هذا الاستغناء: وكفى به زاجراً لمن أفتى بغير إتيان، كعض فقهاء هذا الزمان، وقال العماد ابن كثير في تفسيره: وقد أنكر الله على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والاهواء التي لا مستند لها، ولا دلائل عليها، ونحن نقول: وكفى به زاجراً لمن يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله تعالى بنص كتابه كالتحريم بالرأي والقياس، أو بدليل ظني من الكتاب والحديث غير قطعي الرواية والدلالة، وهو مخالف لهذه الآية وأمثالها، والمردوي عن السلف ان التحريم لا يكون إلا بنص قطعي، وهو أصل مذهب الحنفية والكرخي منهم، وقد تقدم بيان هذا مراراً في هذا التفسير ومنه قول القاضي أبي يوسف لم يكونوا يقولون في شيء انه حرام إلا ما كان بيناً في كتاب الله بلا تفسير (١)

وفي هذه الآية قواعد أشرنا إلى ثلاث منها (القاعدة الاولى) ان الاصل في كل ما خلقه الله تعالى للناس من الارزاق نباتها وحيوانها الاباحة ، وهو يتضمن بطلان قول من يحرمون أكل اللحوم ، وله على هذا شبهتان أولاهما قديمة وهي زعمهم ان أكل لحم الحيوان يتوقف على تذكيته بالذبح وغيره وهو تعذيب مستقيم عقلاً ، وجوابه ان هذا القول جهل فان التذكية الشرعية ليست تعذيباً وربما كانت أهون من موته بسبب آخر من أسباب الموت كافتراس سبع أو ترد من مكان عال ، أو انخناق بين شجرتين مثلاً ، أو نطاح ، أو وقد راع قنس أو معتد آخر (٢) وقد حرم الله في آية المائدة (٣: ٥) أكل ما مات بسبب من هذه لاسباب كالذي يموت حتف أنفه . ونهى الشرع عن تعذيب أي ذي روح وحث على رحمته كما تقدم قريباً في تفسير الرحمة (ص ٤٠٤) وقال نبي الرحمة ﷺ « ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلت فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وايرح ذبيحته » رواه مسلم من حديث شدد بن ثابت (رض) والذبح بهذه الصفة لا يؤلم (١) راجع صفحة ٣٧١ ج ١٠ تفسير (٢) الوقد الضرب الشديد بالعصا وغيرها .

الحيوان إلا اللحظة قصيرة ، والحيوانات لا تشعر بالآلم بقدر ما يشعر به البشر كما قررته بعض علماء هذا الشأن

(الشبهة الثانية) حادثة وهي ما يزعمه النبايون الذين يفضلون الاغذية النباتية على الحيوانية من كون أكل اللحوم ضارا للناس ، وجوابنا عنها أنهم إن زعموا أن أكل اللحم يضر كل أكل منهم مطلقا فهذا زعم تبطله التجارب وينكره أكثر أطباء العالم ، وإن قالوا أنه يضر بعضهم كأصحاب أمراض الترف وضعف المعدة (كالرثية والنقرس) فهذا لا يقتضي تحريمه عليهم كالمطلق ، وحكم الشرع في المصادر الحظرو منه عام وخاص (القاعدة الثانية والثالثة) أن تشريع التحريم والتحليل الديني هو حق الله تعالى وحده ، وأن جعله لغيره شرك به ، وقد بسطنا هذا في مواضع من هذا التفسير بدلالة الآيات والسنة والآثار (١)

(القاعدة الرابعة) أن ما خلقه الله وسخره لنا من سائر منافع الكون فالأصل فيه الإباحة كالرزق ويؤخذ من هذه الآية بالفحوى ، وبناء المنة فيه على كونه منه تعالى ، وهو صريح قوله (٢٩: ٢) هو الذي خلق لكم في الأرض جميعا)

وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة سجل عليهم جريمة افتراء الكذب على الله وهو اختلاقه ، وقفي عليه ما وعده عليه مشيراً إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة . والمعنى أي شيء ظنهم في ذلك اليوم الذي تجزى فيه كل دنس ما عملت ؟ أيقظون أنهم يتركون بغير عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله وهو تعمله في حق خاص ربو بيته ، فهو نزاع له فيها وشرك به ، كما قال (٢١: ٤٢) أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) الآية . فويل للمعممين من جهلاء المقلدين ، الذين يحرمون على الناس ويحلون لهم بتقليد بعض المؤلفين ، أو باتباع الهوى والرأي في الدين ، وهم يتلون قوله (١٦ : ١٦) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب — إلى قوله — ولهم عذاب أليم)

﴿ ان الله لذو فضل على الناس ﴾ هذه الآية بيان مستأنف يتضمن بمفهومه تعليلًا لما فهم مما قبلها من عقاب المفترين على الله بكونه عدلا استحقوه بظلمهم لانفسهم لا ظالما منه ، وهو اثبات فضله على الناس بهذه الجملة المؤكدة أشد التوكيد ، فأفاد ان صاحب هذا الفضل العظيم عليهم لمجرد احسانه اليهم ، ليس من شأنه أن يكون ظالما لهم اذا قابلوا أكبر فضله ونعمه ، بأشد السكفر وأنكره ، وهذا المعنى المفهوم من الآيتين من أغرب إيجاز القرآن للعجز للبشر . والمعنى : تالله ان الله لذو فضل عظيم على الناس في كل ما خلقه لهم من الرزق ، وكل ما شرعه لهم من الدين ، ومنه انه جعل الاصل فيما أنزله اليهم من الرزق الاباحة ، وجعل حق التحريم والتحليل له وحده عز وجل ، لكيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده ، كالذين اتخذوا أخبارهم وورهبانهم أربابا من دون الله ، كما تقدم في تفسير سورة التوبة - براءة - (١) وهو لم يحرم عليهم إلا ما هو ضار بهم . ولهذا أباح لهم ما حرمه عليهم اذا اضطروا اليه وكان تركه أضر من تناوله ، وحصر أصول محرمات الطعام في قوله (١٤٥: ٦) قل لا أجد فيما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله ، فمن اضطار غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) وفصل انواع الميتة المحرمة في أول سورة المائدة (٣: ٥) فراجع تفسير الآيتين (٢)

﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ فضله عليهم كما يجب ، كما قال (وقليل من عبادي الشكور) فيجنون على انفسهم بتحريم ما لم يحرمه عليهم ، وبغير ذلك من كفر نعمه المادية والعنوية ، كاللغو في الزهد ، وترك الزينة والطيبات من الرزق ، وفي ضد ذلك من الاسراف في الاكل والشرب ، وزينة اللباس ، ابتغاء الشهرة والخيلاء والتكبر على الناس ، وشر من ذلك كله تحريمه تعبدا والاسلام يأمر بالوسط والاعتدال (٧: ٦٥) لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) الآية أخرج الامام احمد من طرق عن ابي الاحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة

يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث أهيبته فقال «هل لك مال؟» قلت نعم، قال «من أي المال؟ قلت من كل المال من الابل والرقيق والحبل والغنم فقال «إذا آتاك الله مالا فلير عليك» الحديث وفي رواية أصحاب السنن الثلاثة عنه «إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وأخرج البخاري في التاريخ والطبراني والضياء بسند صحيح عن زهير بن أبي علقمة مرفوعا «إذا آتاك الله مالا فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا، ولا يحب البؤس ولا التباؤس» والشكر نصف الإيمان، بحسب متعلقاته من الاعمال والاحوال، وهي ما يجب على العبد لربه وعباده من استعمال نعمه عليه فيما يرضيه من أحكام شرعه، وموافقة سنته وحكمته في خلقه، والنصف الآخر الصبر وهو ما يجب في حال وقوع المكروه والابتلاء من عمل بدني ونفسي. ويضاد الشكر الكفر وهو قسمان، كفر النعم وكفر المنعم، وأنصح للقارئ أن يطالع كتاب الصبر والشكر في المجلد الرابع من إحياء العلوم للقرطبي.

(٦١) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا

تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

لما ذكر تعالى عباده بفضله، وما يجب عليهم من شكره، ويكون أكثرهم لا يشكروه كما يجب عليهم - عطف على ذلك تذكيره لهم بإحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيقها، وبكل شيء في العوالم علوها وسفلها، ليحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم شأنًا في أعظم شؤونهم فقال

﴿وماتكون﴾ أيها الرسول ﴿في شأن﴾ أي أمر من أموركم المهمة الخاصة.

بك أو العامة التي تعالجها أمر الامة ، في الدعوة إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، انذاراً وتبشيراً ، وتعلماً وعلاً ﴿ وما تتلو منه من قرآن ﴾ أي وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك ، تعبداً به أو تبليغاً له ، فن الأولى للتعليل والثانية للتبويض ، أو الضمير في منه للكتاب لان السياق بل السورة كلها فيه ، واضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له - وقيل لله لذكركه في الآية قبلها . والتعبير في خطابه ﷺ بالشأن وهو الامر العظيم أو ذو البال يدل على أن جميع أموره وأعماله ﷺ كانت عظيمة حتى العادات منها ، لأنه كان قدوة صالحة فيها كلها ﴿ ولا تعملون من عمل ﴾ هذا خطاب عام للامة كلها في كل شؤونها وأعمالها ، بعد خطاب رأسها وسيدها في أخص شؤونها وأعمالها ، فتذكرك الآية في أخصر الالفاظ وأقصرها بأفضل ما آتاك الله من هداية ونعمة ، وتنتقل بك إلى كل عمل تعمله من شكر وكفر وإن كان كمشغال ذرة ، فإن مجيء (عمل) نكرة منفية يفيد العموم ، ودخول (من) التبعية عليه يؤكد هذا العموم ، ويشمل أدق الاعمال وأحقرها ، وهو في معنى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ﴿ إلا كنعاً عليكم شهوداً ﴾ أي رقباء مطلعين عليكم ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أي تخوضون وتندفعون فيه ، فنحفظه عليكم لنجزىكم به ، وأصل الافاضة في الشيء أو من المكان الاندفاع فيه بقوة أو بكثرة كما تقدم في (أفضتم من عرفات) ﴿ وما يعزب عن ربك ﴾ أي وما يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفى عليه ، قرأ الجمهور يعزب بضم الزاي والكسائي بكسرها وهما الغتان فيها - وأصله من قولهم عزب الرجل يعزب بأبله ، أي يبعد ويغيب في طلب السكلا العازب وهو ما يكون بفلاة بعيدة حيث لا زرع ، ويقال رجل عزب بفتحيتين أي منفرد ، ومنه رجل وامرأة عزب أي منفرد لا زوج له أو لها ، ويقال امرأة عزبة ، واختلف في أعزب وعزباء ، ونفي عزوب الشيء عن الرب تعالى أخص وأبلغ من نفي الغيبة أو الخفاء عنه . كما أن الافاضة في العمل أخص من إتيانه مطلقاً . وحكمة تخصيصها بالذكر دون الالفاظ الاعم منها ، هي أن ما يفيض فيه الانسان مهتماً به مندفعاً فيه جدير بأن

لا يفتنى أو يففل عن مراقبة ربه فيه وإطلاعه عليه ، فاللفظ يذكره به تذكيراً بمنهياً مؤثراً . وكذلك لفظ (يعزب) الدال على الخفاء والبعاد معاً ، فكأنه يقول ان ما شأنه أن يبعد ويخفى عليكم من أعمالكم لا يغيب عن علم ربكم فانه لا يعزب عنه ﴿ من مثقال ذرة ﴾ أي اقل شيء يبلغ وزنه ثقل ذرة وهي النملة الصغيرة يضرب بها المثل في الصغر والخفة ، ويطلق على الدقيقة من الهباء وهو الغبار الذي لا يرى إلا في

ضوء الشمس الداخل من السكوى إلى البيوت ﴿ في الارض ولا في السماء ﴾ أي في الوجود سفليه وعاليه ، وقدم ذكر الارض لان الكلام مع أهلها ، وخرجه في آية سبأ (٣ : ٣٤) وقدم السماء لانها في سياق ثنائته تعالى على نفسه ووصفه باحاطة علمه فتناسب تقديم السماء لانها أعظم فان فيها من الشمس وعوالمها ما يبعد بعضه عن بعض مسافة ألوف الألوف من السنين التي تقدر ابعادها بسرعة النور ، كما ثبت في علم هذا العصر

﴿ ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ هذا كلام مستقل بنفسه قائم برأسه ، مؤكداً لما قبله بتعبير ادق وأشمل ، و (لا) فيه نافية للجنس على قراءة الجمهور ، أي ولا شيء أصغر من الذرة وهو ما لا تبصرونه من دقائق الكون كما قل (لا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) ولا أكبر منها وإن عظم مقداره كمرشه عز وجل ، وقرأ حمزة ويعقوب أصغر بالرفع على الابتداء والخبر ، ولا يخفى توجيهه في الاعراب على أهله . قدم ذكر الاصغر لانه هو الاهم في سياق العلم بالخطي ، وعطف عليه الاكبر لإفادة الاحاطة وكون الاكبر لا يكبر عليه كما أن الاصغر لا يعزب عنه .

﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي إلا وهو معلوم ومحصى عنده ومعلوم في كتاب عظيم الشأن تام البيان ، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها إكمالاً للنظام ، وقد بينا ما ورد في هذا الكتاب المبين في تفسير (٦ : ٥٩) وعنده مفاتيح الغيب (الآية من سورة الانعام فراجع) في (ص ٤٥٧ و ٤٦٩) من الجزء السادس من هذا التفسير . وفي الآية إشارة إلى ما في الوجود من أشياء لا تدر كمال البصار ، وقد رؤي كثير منها في هذا العصر بالآلات التي تكبر المراتب اضعافاً كثيرة ، ولم يكن هذا مما يخطر في البال في عصر التنزيل ، فهو من دقائق تعبير القرآن ، التي تظهر حكمتها

للناس أنا بعدآن ، وتقدم التذكير بما لها من لامثال التي هي من أنواع الاعجاز

(٦٢) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(٦٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٤) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

لما بين تعالى لعباده سعة علمه ، ومراقبته لعباده ، وإحصاء أعمالهم عليهم ،
وجزائهم عليها ، وذكركم بفضلهم ، وما يجب عليهم من شكره ، بين لهم في هذه
الآيات الثلاث حال الشاكرين المتقين ، الذين لهم أحسن الجزاء في يوم الدين ،
فقال ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾ فتبحت هذه الجملة بكلمة (ألا) للتنبيه وتوجيه الفكر
لها ، والأولياء جمع ولي وهو وصف من الولاء والتوالي ، ومن الولاية والتولي ، فيطلق
على القريب بالنسب وبالمسكانة والصداقة ، وعلى الناصر ، والتولي له سر والحكم ،
أو على اليتيم والقاصر المدير لشؤونه ، ويوصف به العبد والرب تعالى كما تقدم في قوله
تعالى (٢٥٧: ٢) الله ولي الذين آمنوا) وفصلنا الكلام في تفسيره بما بينا به ولاية
الله العامة والخاصة لعباده ، وولايتهم له ، وأول الشيطان والطاغوت ، وولاية بعضهم
لبعض ، وضلال بعضهم بجعل ولاية الله الخاصة به لبعض عباده ، وهم الذين يسموهم
أولياء الله بما يسميهم استحقاق هذا اللقب ، وذكرنا في شواهد ذلك التفسير هذه الاية
أولياء الله أضداد أعدائه المشركين به ، الكافرين بنعمه ، فهم المؤمنون
المتقون كما نطقت به الآية ، وهم درجات أناملهم درجة هم الذين يتولونه باخلاص
العبادة له وحده ، والتوكل عليه ، وحبه والحب فيه ، والولاية له ، فلا يتخذون
له أنداداً يحبونهم من نوع حبه ، ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفيعاً يقربهم إليه
زلفى ، ولا وكيل ولا نصيراً فيما يخرج عن توفيقهم لاقامة سننه في لاسباب والسبببات ،
ويتولون رسوله والمؤمنين بما أمرهم به ، قال تعالى (٦ : ٥١) وأنذر به الذين
يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون وقال

(٣٢ ٤ مالمكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) وقال (١٧ : ٣٣) قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً (وقل في آيتين أخريين منها (٢١ و ٤٨) وكفى بالله وكيلاً) والآيات كثيرة في توليهم له بالطاعة ، وتوليهم لهم بالهداية والعناية والاعانة والنصر والتوفيق .

وحسبنا هذا ما نفعاه عنهم وما وصفهم به ثم مازفه إليهم من البشارة فأما ما نفعاه مخبراً به عنهم فقوله ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وهو ما نفعاه عن جميع المؤمنين الصالحين والمصلحين والمتقين في الآيات الكثيرة (راجع ٢ : ٦٢ و ٥ : ٧٢ و ٦ : ٤٨ و ٧ : ٤٣ و ٩ : ٤٩ وقد تقدم تفسيرها) فأما في الآخرة حيث يتحقق هذا على أتم وجه وهو المقصود بالذات فلا خوف يقع عليهم وبرهقون به مما يخف الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، كما قال تعالى بعد ذكر ما عادهم عن جهنم (٢ : ١٠٣) لا يحزنهم الفزع الأكبر (الآية) ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم وأما في الدنيا فلا يخافون مما يخاف غيرهم من الكفار وضغفاء الأيمان وعبيد الدنيا من مكروه يتوقع كلقاء العدو قال (٣ : ١٧٥) فلا تخفوهم وخافون إن كنتم مؤمنين (أو يخس في الحقوق أو رهق يغشاهم بالظلم والذل ، قال (٧٢ : ١٣) فمن يؤمن بربه فلا يخف بخساً ولا رهقاً) ولا هم يحزنون من مكروه أو ذهاب محبوب وقع بالفعل كما قال (٥٧ : ٥٧) لكيلا تأسوا على ما فاتكم) والمراد أنهم لا يخفون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم ، وسندكر نفى الخوف والحزن عنهم عند الموت . وأما أصل الخوف والحزن فهو من الاعراض البشرية التي لا يسلم منها أحد في الدنيا ، وإنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقاداً وعلماً بأنه إذا ابتلاهم بشيء مما يخيف أو يحزن فأنما يريد بهم بذلك لتكميل نفوسهم وتمحيصها بالجهد في سبيله الذي يزداد به أجرهم كما صرحت بذلك الآيات الكثيرة .

وأما ما وصفهم وعرفهم به فقوله ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ فهذا استئناف لبيان حال هؤلاء الأولياء النفسية العلمية والعملية ، أي هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وملكة التقوى له عز

وجل ، وما تقتضيه من عمل ، وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي لبيان أنه كان كاملاً باليقين ، لم يزل له شك ولم يحصل بالتدرج ، وعن تقواهم بالفعل الذي يدل على الحال والاستقبال لأن التقوى تتجدد دائماً بحسب متعلقاتها : من كسب وحرب ، وشهوة وغضب ، والمعنى الجامع فيها أنها انتقاء كل ما لا يرضي الله تعالى من ترك واجب ومندوب ، وفعل محرم ومكروه ، وانتقاء مخالفة سنن الله تعالى في خلقه من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الأمة . وقد فصلنا هذا في مواضع من أهمها تفسير قوله تعالى (٨ : ٢٩ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم)

وأما البشري التي رزقها اليهم فهي قوله ﴿ لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ البشري الخبير السار الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتهلل وتهرق أساريره . وهذه البشري مبينة في مواضع من كتاب الله تعالى ، وقد يراد بها متعلقها الذي يبشرون به ولم يذكر هنا ليشمل كل ما بشروا به في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله ﷺ ، فأما البشري في الحياة الدنيا فأهمها البشارة بالنصر ، وبحسن العاقبة في كل أمر ، وباستخلافهم في الأرض ، ما أقاموا شرع الله وسننه ، ونصروا دينه وأعلوا كلمته ، وأما في الآخرة فمن أكلها وأجمعها لمعاني الآية لا كلهم قوله (٤١ : ٣٠ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ٣١ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولسكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولسكم فيها ما تدعون ٣٢ نزلنا من غفور رحيم) المشهور في تنزل الملائكة عليهم أنه يكون عند البعث ، وكذا عند الموت ، ولا مانع من شموله لما في الدنيا من تثبيت قلوبهم ، وتقوية إلهام الحق والخير فيهم ، كما قال تعالى في الملائكة الذين أمد بهم أصحاب رسوله ﷺ في غزوة بدر (٨ : ١٠ وما جعله الله إلا بشري لسكم ولتطمئن به قلوبكم) الآية ثم قال (١٢) اذ يوحى ربك إلى الملائكة آتي معكم فتبتوا الذين آمنوا) وقد يكون منه إلهام الحق والخير كما ورد في حديث ابن مسعود مرفوعاً عند « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٣ » « الجزء الحادي عشر »

الترمذي والنسائي « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد
بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد
ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان »

﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أي لا تغيير ولا خلف في مواعيد الله عز وجل ،

ومنها هذه البشارات وما في معناها من الآيات ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾
أي ذلك الذي ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوز العظيم الذي لا يعلمه
فوز ، وإنما هو ثمرة الايمان الحق ، والتقوى العامة في حقوق الله وحقوق الخلق

ماورد من الاخبار والآثار في الاولياء

ذكر بعض المفسرين في تفسير الآية بعض الاخبار النبوية ولا يصح
منها حديث مرفوع متصل الاسناد ، وأقرب ما روي في تفسيرها إلى اصطلاحهم
في الاولياء حديث أبي هريرة المرفوع « ان من عباد الله عباداً يقبضهم الانبياء
والشهداء » قيل من هم يا رسول الله ؟ قال « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال
ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ،
ولا يحزنون اذا حزن الناس » ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم
يخزنون) أخرجه ابن جرير من طريق شيخه أبي هشام الرقاعي وهو محمد بن
يزيد بن كثير العجلي الكوفي ، قال البخاري رأيتهم مجتمعين على ضمته . ورواه
أبو داود من حديث عمر بن الخطاب بمثل سند ابن جرير عن أبي زرعة بن عمرو
ابن جرير عنه إلا انه منقطع بين أبي زرعة وعمرو وقال بعضهم وأخرجه الحاكم
وصححه ولم أره في تفسير السورة من المستدرک وما كل ما صححه الحاكم بصحيح .
ومتن هذا الحديث مشكل لانه يدل على تفضيل الاولياء على الانبياء وهو مخالف
لاجماع علماء المسلمين ، موافق لقول بعض أولياء الشياطين : ان الولي أفضل من
النبي ، من حيث ان ولاية النبي أفضل من نبوته ، وهو تأويل شيطاني

ومثله حديث أبي مالك الاشعري مرفوعاً « يأتي من أفناء الناس ونوازع
القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله ، وتصافوا في الله ، يضع

الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها ، يفزع الناس ولا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » والحديث مطول أخرجه الامام أحمد من طريق شهر بن حوشب وفيه مقال لهم أهونه ما اكتفى به الحافظ في التقريب وهو انه صدوق كثير الارسال والاوهام ، وذكر في تهذيب التهذيب : ان مما قيل فيه انه يروي المنكرات عن الثقات ، وقال ابن حزم هو ساقط ، وقال ابن عدي ضعيف جداً

وورد عدة روايات مرفوعة وآثار في تفسير البشرى في الدنيا بالرؤيا الصالحة يراها المسلم أو المؤمن أو ترى له . وعليه ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس من الصحابة ، ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء ابن أبي رباح من التابعين وغيرهم ، وفسرها بعضهم بآية حم السجدة التي أوردناها آنفاً مع تفسيرها . وروي عن ابن عباس وغيره أن الأولياء هم الذين إذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم ورواه بعضهم مرفوعاً وهو ضعيف ، وروي عن أبي حنيفة والشافعي أنهما قالوا : إذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس الله تعالى ولي . قال النووي والمراد بهم العلماء العاملون . فهذه خلاصة الروايات في الآية .

وانما لم نر في الاحاديث الصحيحة في الاولياء ما هو أقرب إلى كلام الصوفية منه إلى كلام الله عز وجل الا حديث «من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب» الخ وقد انفرد به البخاري وفي سننه غرابة كمنته . قال الحافظ ابن رجب : هذا الحديث تفرد بإخراجه البخاري دون بقية أصحاب الكتب ، خرج عن محمد بن عثمان بن كرامة عن خالد بن مخلد — إلى أن قال — وهو من غرائب الصحيح تفرد به ابن كرامة عن خالد وليس في مسند أحمد مع ان خالد بن مخلد القطواني تسلم فيه الامام احمد وغيره وقالوا له منا كبير (ثم قال) وقد روي من وجوه أخر لا تخلو كلها من مقال . وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد ، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناكير ومنه : في الميزان للذهبي قال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال الازدي في حديثه بمض المناكير وهو عندنا في عداد أهل الصدق ، ومنه قول ابن سعد كان منكر الحديث متشيعاً

مفرطاً في التشيع وكتبوا عنه للضرورة . وذكر بعض هذا الجرح وغيره في مقدمة فتح الباري وأجاب عنه بما حاصله أن التشيع لا يضر مثله ، وأما المناكير فقد تتبعها أبو أحمد بن عدي من حديثه وأوردها في كامله وليس فيها شيء مما أخرجه له البخاري (قال) بل لم أر له عنده من إفراده سوى حديث واحد وهو حديث أبي هريرة « من عادى لي ولياً » الحديث اهـ

(أقول) وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى « ولا يزال عبيدي يقترب إلي بالنوافل حتى أحبه » فإذا أحبيته كنت سمعه الذي يسمع به » الخ الذي استدلووا به على الحلول والاتحاد ، وقد أوله العلماء ويثبت أمثل تأويل له عندي في الكلام على حب الله تعالى من تفسير (٩ : ٢٤ ص ٢٣٩ ج ١٠ تفسير) فراجعهم يغفلك عن ذكره كله هنا

﴿ أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان ﴾

ذلك ما فسرنا به الآيتين بشواهد مما في معناهما من الآيات ، والقرآن خير ما يفسر به القرآن وأصح ، وكل ما خالفه وخرج عنه فهو باطل ، وعززناه بأمثل ما روي من الاخبار والآثار فيهما ، فأولياء الله الذين يشهدهم كتابه بالولاية لهم المؤمنون الصالحون المتقون ، ولكن اشتهر بين المسلمين بعد عصر السلف ما يدل على أن الأولياء عالم خيالي غير معقول ، لهم من الخصائص في عالم الغيب ، والتصرف في ملكوت السموات والارض ، فوق كل ما ورد في كتاب الله وأخبار رسوله الصادقة في أنبياء الله المرسلين ، بل فوق كل ما وصف به جميع الوثنيين آلهتهم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله ، وينقلون مثل هذه الدعاوى عن بعض من اشتهروا بالولاية ممن لهم ذكر في التاريخ ، ومن لا ذكر لهم إلا في كتب الادعياء الذين فتنوا المسلمين والمسلمات بهم ، ممن يسمون بالمصوفة وأهل الطريق ، ينقلون عنهم ما يؤيدون به مزاعمهم الخرافية الشركية كما ترى فيما نقله من الشواهد الآتية

والثاني أنكروا عليهم منكر ، واحتج عليهم بكتاب ربهم وحديث نبيهم مفسر أو محدث ، يقولون هذا ضال مضل منكر للكرامات ، مخالف للقرآن ، وقرأوا عليه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهل هذه الآية الا كقوله تعالى (إن الذين

آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (وغيره مما اوردنا من الشواهد آنفا ، نعم ان هؤلاء المؤمنين الصالحين درجات اشرنا آنفا الى ادناها وأعلاها ، وفصلنا القول فيهم في الكلام على حب الله ورسوله من تفسير (١٠ : ٢٤)

هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية ألبسوها أولا ثوب الشريعة ، وجعلوا للشريعة مقابلا سموه الحقيقة ، ثم صاروا يلبسونها عليها لباساً ، ويبعدون بها عنها معنى وحساً ، بقدر ما يبعدون عن الاتباع ، ويوغلون في الابتداع ، واعتبر في ذلك بسيرة سلفهم الاولين كالحارث المحاسبي والسري السقعي ومنصور ابن عمار والجنيد والشبلي وجمهور رجال رسالة القشيري ، ومثل أبي إسحاق الهروي وسيرة من بعدهم ، فان أكثر أولئك قد رووا الحديث وتفقهوا في الدين ، وكانوا يتحرون الاعتصام بالكتاب والسنة ، ويحذرون اتباعهم من البدع ، ويحثون على اتباع السلف ، من الصحابة والتابعين وأئمة آل البيت وحفاظ السنة وعلماء الامصار كالاربعة وطبقتهم ، ولولا هذا لكان بينهم وبين غلاة متصوفة القرون الوسطى ومن بعدهم من المبتدعة والدجاليين أصحاب الدعاوى العريضة والخرافات الشنيعة مثل ما بين صوفية البرهمية والاسلام ، وكتايبهم (الفيدا) وكتابه القرآن

أمر ببعثك على طبقات الشعرا في الكبرى فانك لا ترى فيها فرقا كبيراً بين سيرة أئمة الحديث والفقه وأئمة التصوف في العبادة والتقوى والعلم والحكمة ، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية القرون الوسطى ثم قرن المؤلف وهو العاشر وتأمل ووازن تر في أولياء الشعرا في المجانين والمجان والقذرين الذين تقتاتر الحشرات من رءوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يفسلون حتى تبلى أو في السنة مرة واحدة ، تجد ذلك البون الشاسع فيهم ، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الانبياء ، ومنهم من يدعي الاتحاد بالله أو الالوهية

تأمل ما كتبه في ترجمة الذين يسمونهم الاقطاب الاربعة فانك لا تجد فيه لأحد منهم أنه كان ينفع الناس بعلوم الشرع إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وتجد أن الشيخ احمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره ويخطبونه بلقب الدجال ويرمونه

بالجمع بين النساء والرجال ، وأما الدسوقي فيكتب عنه انه كان يتكلم بالعجمي والسراني والعبراني والزنجمي وسائر لغات الطيور والوحوش ، ونقل عنه كتابا من هذه اللغات أرسله إلى أحد مريديه ، وهو خلط مخترع ليس منها في شيء ، وسلاما مثله أرسله مع أحد الحجاج إلى رسول الله ﷺ منه قوله « موز الرموز ، عموز النهوز ، سلاحات أفق ، فردنانية امق ، شوامق اليرامق ، حيد وفرقيد ، وفرغاط الاسباط » الخ فما معنى هذا وأي فائدة للناس فيه ؟

ونقل عنه كلاما من اليهود من أمثاله الصوفية منه النافع والضار ، فمن الحق النافع ما معناه انه لو لم تغلب عليهم الاحوال لما قالوا في التفسير الا صحيح المأثور ، ومن الضار الذي أفسد على المصدقين بولاية هؤلاء الناس دينهم وهو مما نحن فيه قوله : وكان (رض) يقول : أنا موسى عليه السلام في مناجاته ، أنا علي (رض) في حملاته ، أنا كل ولي في الارض خلقته بيدي ، ألبس منهم من شئت ، أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته ، أنا بيدي أبواب النار غلقتها ، وبيدي جنة الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنته جنة الفردوس » الخ وقوله وهو في تفسير الآية : « واعلم يا ولدي أن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون متصلون بالله ، وما كان ولي متصل بالله إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه ، وما من ولي إلا وهو يحمل على الكفار كما كان علي (رض) يحمل ، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا في الازل ، بين يدي قديم الازل ، وبين يدي رسول الله ﷺ ، وجميع الأولياء بيدي فخلعت عليهم بيدي ، وقال لي رسول الله ﷺ يا ابراهيم أنت تقيب عليهم ، فيكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخي عبد القادر خلفي وابن الرفاعي خلف عبد القادر ، ثم التفت إلي رسول الله ﷺ وقال لي « يا ابراهيم سر الى مالك وقل له يعلق النيران ، وسر الى رضوان وقل له يفتح الجنان ، ففعل مالك ما أمر به ، ورضوان ما أمر به » الخ وله ما هو أغرب منه وذكر الشعراني انه أطال في هذا الكلام وهو من مقام الاستطالة تعطي

الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق به ، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي (رض) وغيره فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح اهـ

ونقول، ان مثبت هذه الدعاوى المنكرة في عالم الغيب من شؤون رب العالمين وملائكته وأكرم رسله وجنته وناره هو الذي يحتاج في إثباته إلى النص الصريح دون منكره فإنه يتبع الاصل، والاجماع على أن شيئاً من ذلك لا يثبت إلا بنص قطعي، وسنذكر ما انتهت إليه هذه الدعاوى في افساد الدين، واضلال الملايين من المسلمين .

جاء في كتب الرفاعية ان الشيخ احمد الرفاعي مس يده سمكة فأرادوا شيهيا بالنار فلم تؤثر فيها النار فذكروا له ذلك فقال : وعدني العزير ان كل ملمسته يد هذا اللاش حميد لا يحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة ، وجاء فيها : ان سيدي احمد الرفاعي كان يميت ويحيي ، ويسعد ويشقي ، ويفقر ويغني ، وأنه وصل إلى مقام صارت السموات السبع في رجله كالخلخال . وفي البهجة الرفاعية ان سيدهم أحمد الرفاعي باع بستانا في الجنة لبعض الناس وذكروا له حدودا أربعة . وقد نقلت هذا وما قبله في كتابي (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية)

وجاء في بعض كتب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي انه مات بعض مرديه فشكت اليه أمه وبكت فرق لها فطار وراء ملك الموت في المساء وهو صاعد الى السماء يحمل في زنبيل ما قبض من الارواح في ذلك اليوم فطلب منه أن يعطيه روح مریده أو أن يردها اليه فامتنع ، فغضب الزنبيل منه فأفلت فسقط جميع ما كان فيه من الارواح فذهبت كل روح الى جسدها ، فصعد ملك الموت الى ربه وشكا له ما فعله عبد القادر فأجابه الرب سبحانه بما امتنعنا من نقله إذ نقلنا هذه الخرافة في الجزء الاول من المجلد التاسع من المنار تنزيها وأديا مع ربنا عز وجل

ونقلنا ثم أن خطيبا خطب للمسلمين في الهند ذكرّا مناقب الشيخ عبد القادر فقال : ان حداثة خطفت قطعة لحم مما ذبح للشيخ عبد القادر في مولده — كما كانوا يذبحون للاصنام — فوقعت عظمتها في مقبرة فغفر الله تعالى لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ عبد القادر ، وياويل من ينكر أمثال هذه الخرافات فيستهدف لرميه بمخالفة قوله تعالى

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإنكار الكرامات وقول اللقاني وأثبتن للأولياء الكرامة ومن نقاها فانبذن كلامه ومن هذه الكرامات بزعمهم ادعاء الوحي ولا يناقيا عند معارضة القرآن، وعبادة الشيطان، وعلم الغيب، وملك النفع والضر، وتدبير الامر، وترك الفرائض وارتكاب الفواحش، لأنها لا تكون من أولياءهم إلا صورية لمصلحة، وكذا الكفر الصريح كما ترى في الشواهد الآتية :

﴿ الشاهد الاول كرامات ولي شيطاني موحد ألوهية ابليس ﴾

قال الشعرا في ترجمة الشيخ محمد الحضري « كان من أصحاب جدي رضي الله عنها » وكان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف مادام صاحباً، فإذا قوي عليه الحال تسكلم بالفاظ لا يطيق أحد سماعها في حق الانبياء وغيرهم، وكان يرى في كذا كذا بلداً في وقت واحد وأخبرني الشيخ أبو الفضل السمرسي انه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال : وأشهد أن لا إله إلا ابليس عليه الصلاة والسلام. فقال الناس كفر، فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر الى أذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد انه خطب عندهم وصلى بهم، قال فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة هذا ونحن نراه جالسا عندنا في بلدنا « وأخبرني الشيخ أحمد القلعي ان السلطان قايتباي كان اذا رآه قاصداً له تحول ودخل البيت خوفاً أن يبطش به بحضرة الناس . وكان اذا أمسك أحداً بمسكه من لحية وبصير يبصق على وجهه ويصفعه حتى يبدو له اطلاقه، وكان لا يستطيع أكبر الناس أن يذهب حتى يفرغ من ضربه ، وكان يقول لا يكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش على الدوام ، وكان يقول : الارض بين يدي كاللآلئ الذي آكل منه ، وأجساد الخلائق كالقوارير أرى ما في بواطنهم . توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وثمانمائة (رض) اه ص ٩٤ ج ٢ طبقات

(أقول) لولا أن سلطان هؤلاء القوم مجنون بالخرافات مثلهم لما كان لمثل

هذا المجنون مأوى إلا البيارستان يكف كفره وشره عنهم

﴿الشاهد الثاني كرامة ولي العاهرات والزناة الفاعل بالأثان﴾

قل في ترجمة من سماه (سيدي علي وحيش من مجاذيب النجارية) «كان (رض) من أعيان المجاذيب أرباب الاحوال، وكان يأتي مصر والمحلة وغيرها من البلاد، وله كرامات وخوارق، واجتمعت به يوماً في خط بين القصرين فقال لي : ودّيني للزباني فوديته له فدعا لي وقال الله يصبرك على ما بين يديك من البلوى . وأخبرني الشيخ محمد الطنيجي رحمه الله تعالى قال : كان الشيخ وحيش (رض) يقيم عندنا في المحلة في حان بنات الخطا (أي العاهرات) وكان كل من خرج يقول له قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن نخرج، فيشفع فيه، وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته، وقال يوماً لبنات الخطا أخرجوا (؟) فإن الخان راح يطبق عليكم، فاسمع منهن إلا واحدة فخرجت ووقع على الباقي فتمن كلهن، وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمار ويقول له أمسك رأسها حتى أفعل فيها، فإن أي شيخ البلد تسمر في الأرض لا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يرون عليه، وكان له أحوال غريبة وقد أخبرت عنه سيدي محمد بن عن (رض) فقال هؤلاء ينجلون للناس هذه الأفعال وليس لها حقيقة» اهـ (ص ١٢٩ منه) وولاية هذا المجنون أنه قواد العاهرات بضمانه المغفرة لمن يعجز بهن بشفاعته، وأضل منه علماء الخرافات المدعون لسكرامته

﴿الشاهد الثالث ولاية مجنون معارض للقرآن بالكفر والهديان﴾

قل في ترجمة الشيخ شعبان المجذوب أنه كان من أهل التصريف بمصر المحروسة ونقل عن شيخه علي الخواص أن الله تعالى كان يظلمه على جميع ما يقع في السنة عند رؤية هلالها، وأنه كان يسأله عما يشكل عليه (ثم قال) وكان يقرأ سوراً غير السور التي في القرآن على كرامتي المساجد يوم الجمعة وغيرها فلا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالأيات في الفواصل

«وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء الذين يقرءون في البيوت فصغيت إلى ما يقول فسمعته يقول :وما أنتم في تصديق هود بصادقين، ولقد أرسل الله لنا قوما بالمرء فكذبوا فبؤس ما يكون لظالمين. ثم قال : اللهم

اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان - إلى آخر ما قال «
ثم ذكر انه كان عريانا دائما الا انه يستر سوايته بقطعة جلد او بساط او حصير
لأنه كان يحرم كل ما عدا ذلك من زينة الدنيا قال « وكانت الخلائق تعتقده
اعتقاداً زائداً لم أسمع قط ان أحدا ينكر عليه شيئاً من حاله ، بل يعدون رؤيته عيداً
عندهم تحيينا عليه من الله تعالى (رض) مات (رض) سنة ثيف وتسعمائة « اهـ ١٦٠ منه
(أقول) اذا كان الشعراني من أكبر علماء الازهر ومؤلفيه يعد هذا الجنون
من أولياء الله ويترضى عنه كلما ذكره وإن تكرر ذكره في سطر واحد ، وكان شيخه
علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الالهية ويعتمد على كشفه ، فهل
نكون مخطئين اذا قلنا إن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين
مجانين مثله ، وأي قيمة كانت في عصره للعقل والعلم والدين ، وهل يوجد دليل
على ان ذلك الجنون كان تخبلاً شيطانياً لاجذابها إلهيا أقوى من معارضة صاحبه
للقرآن بمثل ما نقله الشعراني مما سمعه ورآه منه ورواه عنه من الهذيان ؟

﴿ شواهد أخرى عن المعروف بالتجاني تابعة لما قبلها ﴾

كان من فساد هذا التصوف الذي به الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وجد
في المغرب الأقصى في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس
أحمد التجاني صار له طريقة من أشهر الطرق امتدت من المغرب الأقصى إلى السودان
الفرنسي والجزائر فتونس فصر ، وصار لها مئات الألوف من الأتباع لما فيها
من الغلو في الدعاوى والخرافات والابتداع ، وتفضيل شيخها نفسه على جميع من
سبقه من أقطاب الأولياء وكذا الانبياء بأمور منها ضمان النبي ﷺ له ولا صوله
وفروعه وأتباعه ولكل من يكرمه ويحسن إليه ولو بالطعام أعلى منازل الجنة مع
رسول الله ﷺ بغير حساب ولا عقاب لأن جميع معاصيهم وتبعاتهم تغفر لهم
لأجله الخ كان الغرض من طريقته أكل أموال الناس وطعامهم والجاه عندهم خلافاً
لجميع صوفية العالم ، وقد ألف أحد أتباعه كتاباً كبيراً في مناقبه وكراماته وأوراده
تلقاها من لسانه وقلبه ، هدم بها هدى كتاب الله وسنة رسوله مدعياً أنه تلقاها منه
ﷺ وسماه (جواهر المعاني) وهالك بعض الشواهد منه

﴿الشاهد الرابع ضمان دخول الجنة لكل من له علاقة بالتجاني بلا حساب ولا عقاب﴾

قال المؤلف في الفصل الثاني من الباب الاول

« قال (رض) أخبرني سيد الوجود بقطة لا مناما قال لي انت من الامينين وكل من رآك من الامينين إن مات على الايمان ، وكل من أحسن اليك بخدمة أو غيرها ، وكل من أطعمك (!) يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب (ثم قال) فلما رأيت ماصدر لي منه صلى الله عليه وسلم من المحبة وصرح لي بها تذكرت الاحباب ومن وصلني إحسانهم ، ومن تعلق بي بخدمة ، وأنا أسمع أكثرهم يقولون لي لحاسبك بين يدي الله إن دخلنا النار وأنت ترى ، فأقول لهم لا أقدر على شيء ، فلما رأيت منه صلى الله عليه وسلم هذه المحبة سألته لكل من أحبني ولم يعاديني بعدها ، ولكل من أحسن إلي بشيء من مثقال ذرة فأكثر ولم يعاديني (?) بعدها ، وآكد ذلك من أطعمني طعامه (!!) قال كاهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب

« قال وسألته صلى الله عليه وسلم لكل من أخذ عني ذكراً أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر ، وأن تؤدي عنهم تبعاتهم من خزائن فضل الله لا من حسناتهم ، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء ، وأن يكونوا آمينين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة ، وأن يدخلوا الجنة بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الاولى ، وأن يكونوا كاهم معي في عليين في جوار النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي صلى الله عليه وسلم ضمنت لهم هذا كله ضماناً لا تنقطع حتى تجاورني أنت وهم في عليين

(قال المؤلف) ثم أعلم اني بعد ما كتبت هذا من سماعه وإملائه علينا (رض) من حفظه ولفظه اطلمت على ما رسمه من خطه ، ونصه :

« أسأل من فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضمن لي دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب أنا وكل أب وأم ولذني من أبوي إلى أول أب وأم لي في الاسلام من جهة أبي ومن جهة أمي ، وجميع ما ولد آبائي وأمها من أبوي إلى الجد الحادي عشر والجدة الحادية عشر (?) من جهة أبي ومن جهة أمي من كل ما تناسل منهم (?) من وقتهم إلى أن يموت سيدنا عيسى بن مريم من جميع الذكور والاناث ، والصغار

٤٢٨ دعوى التجاني ضمان النبي الجنة لأتباعه وللسلسلة نسبه (التفسير : ج ١١)

والكبار ، وكل من أحسن إلي باحسان من مثقال ذرة فأكثر ، من خروجي من بطن أمي إلى موتي ، وكل من له علي مشيخة في علم أو ذكر أو سر من كل من لم يعادني من جميع هؤلاء . وأما من عاداني أو أبغضني فلا ، وكل من أحبني ولم يعادني (?) وكل من والاني واتخذني شيخا أو أخذ عني ذكراً ، وكل من زارني وكل من خدمني أو قضى لي حاجة أو دعا لي ، كل هؤلاء من خروجي من بطن أمي إلى موتي وآبائهم (?) وأمهاتهم وأولادهم وبناتهم وأزواجهم ووالدي أزواجهم يضمن لي سيدنا رسول الله ولكل واحد من هؤلاء أن أموت أنا وكل حي منهم على الإيمان والاسلام ، وأن يؤمننا الله وجميعهم من جميع عذابه وعقابه وتهويله وتخويله ورعبه وجميع الشرور من الموت إلى المستقر في الجنة ، وأن تغفر لي وجميعهم جميع الذنوب ما تقدم منها وما تأخر وأن تؤدّي عني وعنهم جميع تبعاتنا وتبعاتهم ، وجميع مظالمنا ومظالمهم من خزائن فضل الله لا من حسناتنا ، وأن يؤمنني الله وجميعهم من جميع محاسبه ومناقشته وسؤاله عن القليل والكثير يوم القيامة ، وأن يظاني الله وجميعهم في ظل عرشه يوم القيامة ، وأن يحجزني ربي أنا وكل واحد من المذكورين على الصراط أسرع من طرفة العين على كواهل الملائكة ، وأن يسقيني الله وجميعهم من حوض سيدنا محمد يوم القيامة ، وأن يدخلني ربي وجميعهم جنته بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى ، وأن يجعلني ربي وجميعهم مستقرين في الجنة في عليين من جنة الفردوس ومن جنة عدن . أسأل سيدنا رسول الله بالله أن يضمن لي وجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب كل ما طلبته من الله لي ولهم في هذا الكتاب بكمال كله ضمانا يوصلني وجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب إلى كل ما طلبته من الله لي ولهم [كذا بهذا التكرار] فأجاب رسول الله ﷺ بقوله الشريف : كل ما في هذا الكتاب ضمنته لك ضماناً لا تتخلف عنك وعنهم أبداً إلى أن تكون أنت وجميع ما ذكرت في جواربي في أعلى عليين ، وضمنت لك جميع ما طلبت منا ضماناً لا يخلف عليك الوعد فيها والسلام اه بحروفه ولحنه وتكراره من ص ٩١ و ٩٢ ج ١ — قال المؤلف

ثم قال (رض) وكل هذا وقع بقطعة لا مناما . ثم قال وأنتم وجميع الاحباب لا تحتاجون إلى رؤيتي انما يحتاج إلى رؤيتي من لم يكن حبيباً يعني تابعاً ولا آخذاً

عني ذكراً ولا أكلت طعامه . وأما هؤلاء فقد ضمنهم لي بلا شرط رؤية مع زيادة
 انهم معي في عليين» ولو روي هذا عنه في حياته لاجمع العلماء على انه مفترى عليه ﷺ
 ثم قال التجاني : وأما من رأى في فقه غايته يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب
 ولا مطمع له في عليين إلا أن يكون ممن ذكرتهم وهم أحببنا ومن أحسن البنا ومن
 أخذ عنا ذكراً فإنه يستقر في عليين معنا وقد ضمن لنا هذا بوعده صادق لا خلف
 فيه إلا اني استثنيت من عاداني بعد المحبة والاحسان فلا مطمع له في ذلك ، فإن
 كنتم متمسكين بمحبتنا فابشروا بما أخبرتكم به فإنه واقع لجميع الاحباب قطعاً اهـ
 وهما ذكر مؤلف الكتاب ان هذه الكرامة العظيمة المقدار وهي دخول الجنة
 بلا حساب ولا عقاب لمن ذكرهم لم تقع لأحد من الاولياء قبله الخ . ونزيد عليه
 ان النبي ﷺ لم يضمن مثل هذا في حياته لأحد من أهل بيته ولا خواص أصحابه
 من المهاجرين والانصار (رض) حتى العدد القليل الذين بشرهم بالجنة كالعشرة
 لم يضمن لهم مازعم التجاني انه ضمنه لمن لا يحصى عدداً من أصوله وفروعه وأتباعه ،
 ولا يوجد في شريعته ما يدل على ان الله تعالى أذن له بمثل هذا ، بل قاعدة دينه
 وشريعته ان الغرم بالغنم ، فمن تضاعف حسناتهم تضاعف سيئاتهم كما صرح به
 الكتاب العزيز في خطاب نساءه ﷺ من سورة الاحزاب

وصح عنه ﷺ انه لما نزل عليه (وأندر عشيرتك الاقربين) جمعهم وكان مما
 قاله لهم «اعملوا» لا أغني عنكم من الله شيئاً « قال هذا لعمه وعمته (رض) ولبنته السيدة
 فاطمة سيدة النساء عليها السلام فكلام التجاني صريح في ان جميع أتباعه وأقاربه
 ومحبيه والمحسنين اليه يكونون في عليين فوق اتباع جميع الانبياء ومحبيهم وإلا لما
 بقي للجنات السبع أحد يسكنهن وهو افتراء لم يتجرأ عليه أحد من المجازفين قبله
 بس عنه تفضيل أوراده المتبذعة على جميع العبادات المأثورة

ذكر مؤلف هذا الكتاب صلاة عليه ﷺ يسمونها صلاة الفاتح وغلا فيما
 زعمه من أمر النبي ﷺ له بقراءة بها «تعلو في ثوابها وهذا نصها :
 اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي

إلى صراطك المستقيم، صلى الله عليه وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم» ذكر أن شيخه التجاني كان يقرؤها ثم تركها أصلاً أخرى المرة الواحدة منها بسبعين الف ختمه من دلائل الخيرات فأمره النبي ﷺ بالرجوع إليها وقال في ص ٩٦ من الجزء الأول مانصه « فلما أمرني عليه السلام بقراءتها سألته عن فضلها فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء صغير أو كبير ومن القرآن ستة آلاف مرة لانه من الاذكار

(قال) « ومن جملة الادعاء (كذا) دعاء السيفي، ففي المرة الواحدة منه ثواب صوم رمضان وقيام ليلة القدر وعبادة سنة كما أخبرني به سيدنا عن سيد الوجود «وأعظم من دعاء السيفي دعاء: يا من أظهر الجليل الخ وأنه هدية من جبريل للنبي ﷺ وأخبره انه لو اجتمعت ملائكة سبع سموات على أن يصفوه لما وصفوه إلى يوم القيامة . وكل واحد يصف ما لا يصفه الآخر فلا يقدرون عليه . ومن جملة ذلك ان الله يقول فيه «أعطيه من الثواب بقدر ما خلقت في سبع سموات وفي الجنة والنار، وفي العرش والكرسي وعدد القطر والمطر والبحار، وعدد الحصى والرمل» ومن جعلتها أيضاً ان الله يعطيها ثواب جميع الخلائق، ومن جعلتها ان الله يعطيها ثواب سبعين نبياً كلهم بلغوا الرسالة إلى غير ذلك (قال) وهذا حديث صحيح ثابت في صحيفة عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ وصححه الحاكم الخ

وشرح المؤلف بأن هذا الكذب أملاه شيخه التجاني . ثم قال عن شيخه: « وأما صلاة الفاتح لما أغلق فاني سألته (ص) عنها فأخبرني أولاً انها بسمائة الف صلاة فقلت له هل في جميع تلك الصلوات أجر من صلى بصلاة مفردة فقال ﷺ مامعناه نعم يحصل في كل مرة منها أجر من صلى بسمائة الف صلاة مفردة وسألته هل يقوم منها طائر الذي له سبعون الف جناح الخ الحديث أم يقوم منها في كل مرة ستمائة الف طائر على تلك الصفة وثواب تسبيحهم لقارئها ؟ فقال بل يقوم منها في كل مرة ستمائة الف طائر على تلك الصفة في كل مرة

وقال في ص ٩٧ فسألته ﷺ عن حديث ان الصلاة عليه تعدل أربعاً غزوة

ثم انه ذكر ما هو فوق ذلك من المبالغات الجنونية التي لا يعقلها دماغه ، وصرح بأنه لا مدخل فيها للعقول ، ومنها ما عده من ثواب ملايين الامم والملائكة ، ولم يفضل عليها الا الدعاء بالاسم الاعظم وهو هذا بزعمهم (اتم سبقت جلع يص) قال المؤلف في ص ١٠٢ مانصه : (فائدة) قال الشيخ (رض) عدد السنة الطائر الذي يخلق الله من الصلاة على النبي ﷺ الذي له سبعون ألف جناح الخ الحديث الف الف الف الف الف الى أن تعد مائة مرات وستة وثمانون الف الف الف الف الى أن تعد خمس مرات فهذا مجموع عدد أسمته وكل لسان يسبح الله تعالى بسبعين الف لغة في كل لحظة وكل ثوابها للمصلي على النبي ﷺ في كل مرة ، وهذا في غير المأقوتة الغريذة وهي الفاعح لما أغلق الخ وأما فيها فانه يخلق في كل مرة ستاة الف طائر على الصفة المذكورة كما تقدم . فسبحان المتفضل على من يشاء من عباده من غير منة ولا علة اه من خط سيدنا وحبيبنا وخازن سر سيدنا أبي عبد الله سيدي محمد بن المشري حفظه الله . اه

﴿ الشاهد السادس عن التجاني دعواه موت من يكرهه كافرا ﴾

وفي هذا الكتاب من العقائد الزائفة المخالفة لاعتائد جميع السلف وحفاظ السنن وأئمة الفقه والمفسرين وعلماء الكلام ما نعهد مثله عن الباطنية وأهل الوحدة والاتحاد وسائر غلاة الصوفية، ولم يعلم التجاني وأمثاله أن كل من له إمام بالضروريات من عقائد الاسلام ينكر عليهم جعلوا من أصول طريقتهم التسليم لهم ظاهراً وباطناً. وقد بالغ التجاني فيما يلقنه لأتباعه من النهي عن الاعتراض والانكار عليه حتى زعم ان من أنكر عليه وكره عمله أو طعن فيه أو أبغضه يموت كافراً قطعاً، وهذه الدعوى باطلة كدعوى دخول أتباعه وأصوله وفروعه الجنة قطعاً، لان كلا منهما من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى. وقد اتفق العلماء على عدم جواز القطع لشخص معين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بنص من الشارع. وإنما القطعي ان من مات على الايمان الصحيح فهو من أهل الجنة، ومن مات على الشرك والكفر فهو من أهل النار، وان الخواتيم لا يعلمها إلا الله تعالى ولولا أن له أتباعاً في مصر وبلاد المغرب لما سودنا صحائف هذا التفسير بذكر خرافاته وضلالاته، وقد استغفاني بعض المنكرين لدعواهم تلقي شيخهم لأوراده عن النبي ﷺ في اليقظة وحضوره ﷺ لمجالس حضرته عن دعوى رؤية النبي ﷺ في اليقظة والتلقي عنه فأفتيت في المنار ببطالها فلجأ بعضهم إلى بحلة مشيخة الازهر (نور الاسلام) فاستفتوها في ذلك فأفتاهم مفتيها الدجوي الدجال بما يتخذونه حجة على كل ما اقترأه على النبي ﷺ محتجاً بأن الارض لا تأكل أجساد الانبياء عليهم السلام وانهم أحياء في قبورهم يردون السلام على من سلم عليهم، والحق ان كل ماورد في حياة الشهداء والانبياء بعد الموت فهو من أخبار الغيب التي لا يقاس عليها ولا يتعدى فيها ماصح منها عن المعصوم باجماع علماء المسلمين هذا وإني لا أجعل أن للتجانية في المغرب والسودان الفرنسي، حسنات في مقاومة التنصير والاستعمار المعادي للاسلام كالفادرية والسنوسية، ولكن كتابهم جواهر المعاني قد فضحهم فضائح لا يقبلها مسلم يعرف ضروريات الاسلام، وستعلم قيمة حسناتهم وغير هامما سفتهله في كرامات امثالهم عن شيخ الاسلام.

(تقليد الباب والبهاء والقادياني لعمالة الصوفية)

(في دعوى الوحي والنبوة والالوهية)

قد جراً هؤلاء الغلاة من الصوفية اخوانهم في الابتداع على دعوى الوحي والتلقي عن الله تعالى كالانبياء حتى ادعى بعضهم النبوة نفسها ، بل ادعى بعضهم الالوهية ، وانك لتجد من كلام الباب مؤسس فرقة البائية ، والبهاء مؤسس ديانة البهائية على أنقاض البائية ، و غلام احمد القادياني مسيح الهند الدجال — أنهم كلهم قد ادعوا الوحي من الله لهم ، وتجد كلامهم في الغلو في أنفسهم ممزوجاً باصطلاحات الصوفية ، فلم يفسد الاسلام على أهله بدعة ولا فلسفة ولا رواية ولا رأي ، كما أفسد أدياء الولاية والكشف ، فان أصل هذا الدين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ باجماع أهله وبيداهة العقل أيضاً ، فأما البائية فقد انحصروا في البهائية ، وهؤلاء كان لهم رجل من أكبر الدهاة يسوسهم فأت فحط شأنهم ، ووقع الشقاق بينهم على الزعامة ، وظهر للمسلمين تلميسهم الباطني فقلما يتخذع بدعوتهم أحد بعده ، وزعيمهم الوارث له قد ترى تربية انكليزية مفضوحة ، فهو عاجز عن تأويلات عباس أفندي الصوفية الفلسفية الباطنية

وأما القاديانية فقد نشطوا للدعاية وهم يؤمنون أن يوجدوا في بقية المسلمين ما أوجدت المسيحية في اليهود ، أعني احداث ملة جديدة تسمى المسيحية الاحمدية ، وسيفتضحون ، لان زعيمهم ومسيحهم رجل مجنون ، والعصر يطلب تجديد الاسلام لا تقديس فيه إلا الله ، وجميع كتب مسيحهم غلام احمد تدور على تقديس نفسه كالبهاء ، وايمكنه لم يخلفه رجل داهية كعباس عبد البهاء ، يخفي كتيبه عن العقلاء ، ويتصرف في التأويل لدعوته بمثل ذلك الدهاء ، وكيف يقسني لهم اخفاء كتيبه ، وقد طبعها ونشرها في عصره ، وفيها أقوى الحجج على ضلاله واضلاله ، وخزيه ونكاله ؟ وجملة القول ان الصوفية ثلاث فرق : صوفية الاخلاق المهتدين بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وهم من خيار أولياء هذه الامة ، وصوفية الفلسفة « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٥ » « الجزء الحادي عشر »

٤٣٤ تمثل الشياطين بصورة الصالحين وخداع استخدام الجن (التفسير : ج ١٤)

الهندية الذين يسمون أنفسهم صوفية الحقائق، وغلاتهم كفلاة الشيعة الباطنية مشر المتدعة الهادمين للدين ، وصوفية التقليد وهم أهل الطرائق والزوايا الكسالى ، وان هم الا صوفية أكل واحتفالات ، وبدع وخرافات ، إلا قليلا منهم ، وهاك ما وعدنا به من رأي شيخ الاسلام ، في أولياء الله وأولياء الشيطان ، ونفني عليه بشواهد في هذا الزمان .

(كتاب الفرقان لشيخ الاسلام)

(استمتاع البشر والجن والشياطين بعضهم ببعض، وتمثلهم بصور الاولياء والقديسين)

هذا الكتاب لشيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى بين فيه تحقيق الحق في أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ومن أهم مباحثه ملابسة الجن والشياطين للناس وتلبسهم عليهم واستمتاع كل منهما بالآخر وظهور بعضهم لبعض الناس في صور مشابحهم وغيرهم من الاولياء والخضر والانبياء عليهم السلام ، والايحاء إلى بعضهم فيما يضلهم ويغويهم ، وظهور بعض المؤمنين منهم فيما هو نافع ، ومن ذلك ما وقع له هو نفسه . وفي هذا الكتاب من مباحث التفسير وهدى السنة والتفرقة بين المعجزات والكرامات وبين السحر والكهانة واستخدام الجن والتأويل الباطل ووجوب الاتباع مالا يوجد في غيره ، وحكايات استخدام الجن كثيرة في قديم الامم كلها وحديثها ، وأكثر الذين يدعونها أو كلهم دجالون محتالون على أكل اموال الناس بالباطل ، وأكثر من يتمثلون لهم لا يعلمون انهم منهم ، وشيخ الاسلام محقق وصديق لا يرمي القول على عواهنه ومما قاله في هذا الكتاب انه قد تواتر عن كثير من المسلمين واليهود والنصارى رؤية من يقول لهم انه الخضر وانهم صادقون في قولهم ، ولكن الذي يتراءى لهم ويقول هذا القول شيطان لا الخضر الذي ثبت عند المحدثين انه قد مات ، ومثل ذلك ظهور المسيح عليه السلام لكثير من النصارى عقب رفعه وبعده إلى الآن ثم قال :

» وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج فيروونه في صورته

وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي (١) بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيت به خط الجن، وقد رأيت خط الجن غير مرة — وفيه كلام من الجن، وذلك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي، وكان يقول انتقل ثم مات، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن، وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو. والذين كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جن في صورته، وهكذا منتظر الرافضة (٢) قد تراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنياً

«فهذا باب واسع واقع كثيراً، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر، وفي المشرّكين أكثر مما في النصاري، وهو في النصاري كما هو في الداخلين في الاسلام، وهذه الامور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أفضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كانوا عليه، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الانس قد يأتيه قوم كفار فيدعوم إلى الاسلام فيسلمون ويصيرون خيراً مما كانوا وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً، وقد قال النبي ﷺ «ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم» (٣) وهذا كان كاللجج والادلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي فانه ينقطع بها كثير من أهل الباطل، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها، والخير والشر درجات، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه

«وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو

(١) الشيخ ابراهيم الدسوقي كان في عصر شيخ الاسلام ابن تيمية

(٢) بفتح الظاء المعجمة يعني المهدي الذي يقولون انه اختفى في السرداب

(٣) الجملة الاولى في أثناء حديث من الصحيح والجملة الثانية باللفظ وبالمعنى

خير من أن يكونوا كفاراً (١) وكذلك بعض الملوك قديرو غزوا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذلك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير ، وكذلك كثير من الاحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والاحكام والقصص قديسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذبا (٢) وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الايمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانقهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الايمان في قلبه ، والله تعالى بعث الرسل لتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتعليلها ، والنبي ﷺ دعا الخلق بقاية الامكان ، وأقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الامكان ، (ولكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون) وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشر كين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة (٣) وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع . اه المراد منه (أقول) كل المشاهدات التي نقل خبرها شيخ الاسلام هنا مشهورة عن أهل عصره وأهل عصرنا ، وقد نقل عن الشيعة أنهم يستفتون المهدي المنتظر في بعض المشكلات فيضعون ورقة الاستفتاء في شجرة ثم يجدون الفتوى مكتوبة عليها ، وانها عندهم من أقوى الحجج أو أقواها ، وقد بينا هذا في المنار ، ومن هذا ما يكون من حيل شياطين الناس وتزويرهم ، ومنهم من هم شر من شياطين الجن (١) يشبه هذا دعاة القاديانية الملقبين بالاحمدية الى الاسلام في اوروبا وغيرها فهم فريقان منهم من يقول إن القادياني مصلح مجدد لانبي فهم مبتدعون ، ومنهم من يقول انه نبي كان يوحى اليه من الله وهم كفار مرتدون (٢) أي والواضع لها والداعي اليها والمحتج بها كلهم آثمون اذا علموا ذلك (٣) أي الذين يدعون أو يلقبون بأهل السنة فما من أتباع مذهب منهم إلا وقد فتن بعضهم بالبدع ، وقد بين ذلك شيخ الاسلام في مواضع من كتبه ومنها هذا الكتاب

(بعض حكايات النصارى المعاصرين في رؤية المسيح ومريم عليهما السلام)

إن الذين يترأى لهم المسيح أو أمه عليهما السلام أو غيرهما من القديسين عندهم كثيرون ومن الرجال المشهورين بهذا في هذا الزمان رشيد بك مطران وهو وجيه سوري من بعلمك مشهور يقيم في أوربة ويكون غالباً في (باريس) فهو يرى أو يترأى له مثال السيدة مريم العذراء في البقعة كثيراً ويسألها عن كثير مما يشكل عليه فتجيبه . وحدثنني الأمير شكيب أرسلان عنه أنه سألها مرة عن نبينا (ص) فأجابته مثنية عليه ﷺ ثناء عظيماً لم أحفظه

وقرأت في جريدة مرآة الغرب العربية التي صدرت في (نيويورك) في مارس سنة ١٩٣٣ رسالة من عمان عاصمة إمارة شرق الأردن كتبت في ٢٦ من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٣ (الموافق ٢٩ رمضان سنة ١٣٥١) ماخصها أن امرأة نصرانية في عمان اسمها حنة بنت الياس غابي الملقب صهر الله متزوجة ولها أولاد وأخ فقيرة مشهورة بالتقوى عرض لها منذ سنة ونصف نزيف دموي عقب الولادة وأريد عمل عملية جراحية لها فأرشدت إلى التوجه أولاً إلى الطبيب السماوي فدعت يسوع ليلا ثم ذهبت إلى الكنيسة بعد منتصف الليل لتصل وهي في حال غيبوبة أو عقب رؤيا فرأت الكنيسة خالية وشاهدت في الهيكل شخصاً يحيط به نور عظيم فاشتد خوفها ورعبها ، فدعاها وقال لها لا تخافي أنا المسيح فركت على قدميه وقالت له اشفني يا سيد ، فقال لها حسب إيمانك يكون لك ، فبرأت وقرر الأطباء بعد فحصها أنه لم تبق حاجة إلى العملية الجراحية فازدادت عبادة وتقوى

«ولما كان اليوم الرابع من هذا الشهر ٢ من «يناير» شعرت في منتصف الساعة الثالثة بعد نصف الليل بيد تمزها من الكتف ففتحت عينها فإذا نور عظيم في الغرفة وفي وسط النور شخص .لاك يقول لها سيحدث ضيق عظيم في العالم ، ولكن لا تخافوا وستكون لكم هذه العلامة - وكان بيده كأس فعمس اليد الأخرى في الكأس وبأصابعه الثلاث وضع على جبينها علامة ثم تركها وقال اعطوا مجد الله . فقامت وصارت تمجد الله بصوت عال ، فحب أهلها وقالوا لها ماذا جرى لك؟ فقالت

ألم تروا النور وتسمعوا الصوت ؟ قالوا لا ، قالت جيئوني بالضوء ، فلما أحضروا القنديل رأوا في جبينها علامة طائر يشبه الذسر صافا جناحيه ممتداً على طول جبينها وعرضه (أي جبهتها) وليس ماساً للحاجبين ولا شعر الرأس ولونه عتابي كالدم ورسمه متقن كأنه رسم فنان عظيم »

وقالت كاتبة الرسالة ان أهل عمان لما علموا بهذه الحادثة أقبل الناس من وطنين وأجانب على اختلاف أديانهم فشاهدوا هذا الرسم وعني الاطباء بازالته فعجزوا وأن الذين شاهدوها يعدون بالملئات ، ثم نقلت عن قسيس معروف جاء من نابلس وكتب عنها ما يأتي ملخصاً :

« قالت انه ظهر لها الملك مرة ثانية في ليلة السبت السابعة من الشهر نفسه (يناير) ووضع يده على جبينها فزالَت العلامة ، فقالت له يارب ارفع الضيق عن العالم ، فقال « سيرون أعمال الله » قالت ارحمنا يارب ، قال « تكفيكم نعمتي » وفي ثاني ليلة أفاق أهلها فوجدوها واقفة تنكلم بالعبراني فكتبوا ماقالته وترجموه بالنهار فاذا هو تسبيح وتعجيد لله ، ثم تكرر ذلك منها في الليالي التالية باللغات الالمانية والفرنسية والاطليانية وفي الخامسة وثلاث بالعربي واليوناني ، وكانت ترتيلة العربي من نظمها وقولها « اصفح عن ذنبي ياربي ، خذني ياربي ، خذني الى اورشليم » ثم لم يحدث شيء . إلا ان الملك ظهر لها ليلة ١٧ من الشهر ووضع عليها العلامة وقال « لتكون هذه العلامة مباركة ثم اختفى ، ثم ظهر بعد يومين ومحا العلامة اه باختصار وبلفظه إلا تصحيح كلمات قليلة

(أقول) سئل بعض أدباء المسلمين في عمان كتابة عن هذه الحكاية وعما روي في بعض الجرائد من رؤية موتى من الصحابة لم تبل أجسادهم ولا لقائفهم فأُنكرها . وقد سبق لي تحقيق لامثال هذه الحكايات ملخصه ان منها ما هو كذب محض ، ومنها ما هو تخيل ولدته الاوهام ، يشبه الرؤى والاحلام ، ومنها ما هو رؤية شيء موجود في الخارج من عالم الارواح التي تتمثل بأجسام لطيفة جداً لا يدركها إلا بعض الناس في أحوال خاصة قريبة من التجرد من كثافة الحس ، ومنها ما يتمثل بصورة مادية كثيفة كما صرح من رؤية بعض الصحابة (رض) للملك

وللجن ، والمشتغلون من الافرنج بمعالجة رؤية الارواح يسمون صاحب الاستعداد الخاص لرؤية الارواح ومخاطبتها بالوسيط، والراجح عندنا ان أكثر المدعين لذلك أولو كذب وحيل وتلبيس، وان أقلهم يرون بعض الشياطين من جنات ابليس، ولا سيما شياطين الموتى وقرنائهم العارفين بأحوالهم ، وشيخ الاسلام يقول ما قرأت آنفا وهذا الذي يقوله لا ينكر أحد من الصوفية وقوعه لكبار شيوخهم ، بل أثبتوا ان الشيطان يتراءى لهم ويلقنهم كلاما مدعياً انه ربهم كما حكاه الشرعاني وغيره عن الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي اتفقوا على انه كان القطب الغوث الأكبر وملخصه انه رأى نوراً عظيماً ملاً الافق وسمع منه صوتاً يخاطبه بانهربه وقد أحل له المحرمات ، فقال له : اخساً يا لعين ، فتحول النور ظلاماً ودخاناً ، وقال له قد نجوت مني بفقهك الخ وانه قنن بهذا كثيرين من كبار الشيوخ . ومن المعلوم أن جميع غلاة الصوفية قد ادعوا أن الله خاطبهم بالحقائق وكشف لهم منها ما لم يكشفه لغيرهم كما تقدم وهم يتعارضون في دعاويهم الشيطانية كما تقدم وللشيخ عبد الوهاب الشرعاني كتاب صغير سماه (الانوار القدسية ، في بيان آداب العبودية) مطبوع مع كتابه الطبقات ذكر في أوله انه سمع وهو في حالة بين النائم واليقظان هاتفاً يسمع صوتاً لا يرى شخصه يقول له على لسان الحق سبحانه وتعالى كلاماً ذكره قال « فما استتم هذا الكلام وبقي عندي شهوة نفس لمقام من مقام الاولياء لافي الدنيا ولا في الآخرة » ثم بسط الكلام على مرادهم بالهاتف وعلاه بقوله « خوفاً أن يتوهم أحد من القاصرين الذين لا معرفة عندهم بمراتب الوحي ان ذلك وحي كوشي الانبياء عليهم الصلاة والسلام فأقول « اعلم ان الهاتف المذكور لا يخلو إما أن يكون ملكاً أو ولياً أو من صالحى الجن او هو الخضر عليه السلام أو غير ذلك ، لان الخضر عليه السلام حي باق لم يميت وقد اجتمعنا بمن اجتمع به وبالمهدي وأخذ عنهما طريق القوم الخ ثم انه جعل الوحي أقساماً وضروباً كثيرة وذكر منها الكهانة والزجر - اي وهو اسفلها - ووحى التشريع الديني الخاص بالانبياء (ع.م) وما بينهما . ثم ذكر ان بعض الفقهاء من الاخوان سأله أن يلى على إلقاء الهاتف الذي سمعه جملة

٤٤٠ افساد كتب المتصوفة كالشعراني للناس في دينهم (التفسير : ج ١)

مما فهمه من آداب العبودية وآداب طلب العلم وآداب الفقراء عموماً وخصوصاً
« وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم لان الشيطان لهم بالمرصاد ولا

ينجوا منه الا القليل من عباد الله » وهذا محل الشاهد

وأقول ان هاتفه الذي جعله الاصل لهذا التأليف هو من دسائس الشيطان
أيضاً لانه غير موافق للشرع المعصوم بل في هذا الكتاب كثير من المخالفة له، وكذا
كتابه لطبقات فهي من اشد الكتب افساداً للدين أصوله وفروعه وآدابه بما فيها
من وحي الشياطين، فقد أصبح الملايين من المسلمين مشركين بالله تعالى بعبادة هؤلاء
الذين يسمونهم الاولياء، وقبول ما نقل عنهم من وحي الشياطين، وهم يتبعون
الدجالين ومدعي علم الغيب وقضاء الحوائج بالكرامات أو استخدام الجن، وهؤلاء
الدجالون يسلبون أموالهم، ويهتكون أعراضهم، وفي نص كتاب الله تعالى ان
الجن لا يعلمون الغيب، وأصبح فريق آخر من المسلمين الذين اتقوا العلوم العصرية
وتربوا تربية استقلالية، يعتقدون ان الاسلام دين خرافي كغيره من الاديان
على أن من دعاة الاديان والنحل الجديدة المتولدة من التصوف من ألبسوا
دعيتهم ثوب المدنية العصرية، وهم يبتونها في بلاد الافرنج كالبهائية والقاديانية
الاحمدية، وكل خلافتهم مستمدة من تأويلات الصوفية الذين ادعوا الوحي وادعوا
الالوهية من طريق وحدة الوجود وغيره كما تقدم آنفاً.

والامة الاسلامية قد جعلها الله وسطاً بين الغالين والمقصرين، من المعطلين
والمشركين، فهي لا تعبد إلا الله، ولا تؤمن بوحى ولا نبوة لأحد بعد محمد
خاتم النبيين، ولا بتشريع ديني الا ما جاء به عن الله، ولا بولاية إلا ما تقدم بيانه
في كتاب الله، وقد صار المعتصمون بهذا في أمثال هذه البلاد، التي انتشر فيها
ذلك الفساد، جماعات قليلة الافراد، فان لم ينصرها الله ضاع فيها الاسلام

﴿ استطراد ، في أصل الاسلام ، وما طرأ عليه من الفساد ﴾

﴿ من طريق السياسة والفلسفة والتصوف ﴾

أيها القارئ لهذا التفسير قد آن أن أصارحك بمسائل مختصرة هي ثمرة علم وعمل وعبادة ورياضة وتصوف وتعليم وتصنيف ومناظرات ومحاجة في مدة نصف قرن كامل ، لم يشغلني عنها من حفظي الدنيا شاغل ، وانها اكملت في حقيقة دين الله وعلماؤه وعبادته صادرة عن بصيرة وتجربة ، فتأملها باخلاص واستقلال فكري ، ولا بصدنك عن النظر فيها لذاتها والاعتماد في ثبوتها على مصادرها ، حرمان المعاصرة ، واحتقار الاحياء ، وتقديس شهرة الاموات ، واتهام قائلها بالغرور والدعوى ، فان عرض لك ريب أو شبهة في شيء منها فارجع الى مصادرها ودلائلها ، أو ارجع الى كتابها فاسأله عنها ، بشرط أن يكون غرضك معرفة الحق لذاته ، دون التعصب والجدل ، أو التحرف لمذهب أو التحيز الى فئة

(المسألة الاولى) ان هذا الدين (الاسلام) وحي إلهي الى نبي أمي ظهر في أمة أمية جاهلية ، ليعلمها الكتاب والحكمة ، ويذكها بالعلم والعدل والفضيلة ، فيجعلها به معلمة وهادية لجميع شعوب التعطيل والاديان والفلسفة والحضارة ، وأن الله تعالى قد شهد في كتابه بأنه أكمل هذا الدين لعباده في آخر عمر نبيه ليس لاحد ان يزيد فيه بعده عقيدة ولا عبادة ولا تحريما دينيا مطلقا ، ولا تشريعا مدنيا ، الا ما أذن به لاولى الامر من الاجتهاد على أساس ما رآه الله ، فكان أع الناس وأفقههم به وأصحهم دعوة اليه بالعلم والعمل ، والحكم بين الناس بالحق والعدل ، أولئك الاميون الذين تلقوه عن ذلك النبي الالهي صلوات الله وسلامه عليه ، وهم خلفاؤه وأصحابه (رض) فهذه احدى معجزاته إذ لو كان هذا الدين ضعفا بشريا لكان كسائر العلوم والاعمال البشرية التي تظهر مبادئها الاولى ناقصة ثم تنمي (وفي لغة ضعيفة اشتهرت تنمو) وتتكامل بالتدرج ، فهذه سنة من السنن المطردة في علوم البشر

(المسألة الثانية) من البراهين العلمية الثابتة باشواهد العملية ، على ان هذا الدين من عند الله تعالى ، ان المسلمين قد اهتموا بارشاده إلى البحث والنظر في جميع أمور العالم السماوي والارضي ولا سيما نوع الانسان وعلومه وفلسفته واديانه ونظمه وتشريعهم وآداب شعوبه فازدادوا بكل من ذلك علما بحقيقة المسألة الاولى ، وظهر للاسرخين في علمه ان ما أجمع عليه أولئك الاميون الاولون أو أكثرهم هو الحق ، وأن كل ما خالف نصوصه القطعية من العقائد والآراء والافكار البشرية فهو باطل ، ومنه جميع نظريات المتكلمين العقلية ، وكشف فلسفة الصوفية الروحية ، وإن المصلحة للمسلمين وللبشر كافة أن يقصروا هداية الدين على نصوص القرآن المنزلة ، وما ينه من سنة الرسول المتبعة ، وسيرة خلفائه وجهور عترته وأصحابه قبل فشو الابتداع والتفرق في الملة ، ثم ما أجمع عليه علماء الامصار من مجتهدي الامة ، وأن يعذر بعضهم بعضا فيما لا يخرج عن هذه الاصول من المسائل غير القطعية في الدين فلا يجعلوه سببا للتفرق والشقاق ، بالتعصب للمذاهب والشيع والاحزاب ، لئلا يكونوا ممن قال الله تعالى لرسوله فيهم (١٥٩ : ٦) ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فاستحقوا وعيد قوله (١٦٥ : ٦) قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أفي يؤفكون) وقوله (١٠٥ : ٣) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليقين وأولئك لهم عذاب عظيم)

(المسألة الثالثة) ان البدع التي فرقت الامة في أصول دينها وجعلتها شيعا تؤثر كل شيعة اتباع زعمائها ومذاهبها على كتاب الله وسنة رسوله وهدي سلطانه الصالح بالتأويل ، من حيث تدعي أن أئمتها أعلم من مخالفينهم بتأويل الكتاب والحديث ، وأن بعضهم مؤيد بالكشف وبعضهم بالعصمة ، فهم أحق بأن يقلدوا ويتبعوا ، وليسكن الاعلم انما يعلم بالدليل لا بالتقليد ، وإنما نفهم النصوص بقواعد اللغة والسنة العملية لا بما اصطلمحوا عليه من التأويل ، ولهذا البدع المفرقة ثلاث مميزات من أركان حضارة الامة الثلاثة وهي السياسة والسلطان ، والعلم العقلي والعرفان ،

وفلسفة التعبد والوجدان ، وما يتبعه من دعوى علم الغيب المسمى بالكشف ، والكرامات الشاملة لدعوى التصرف في الكون ، ونقول في كل منها كلمة

(١) السياسة الدولية وكان مشارها الاول ماشجر بين الصحابة (رض) ثم كان أشدها إفسادا ما كان بين أهل السنة والشيعة ، وقد زالت الخلافة وضاعت سيادة الامة من أكثر العالم ، ومفاسدها لا تزال ماثلة ، بما للزعماء المستغلين لها من المنافع الدنيوية الزائلة ، وانها اعصبيه قضتها السياسة ، وستقضي عليها السياسة ، وقد زالت السلطة الدينية من بعض ممالك المسلمين وبقي لها بقية في بعض ، وبعضها مذبذبة بين بين ، ولا محل لبسط ذلك هنا ولا فائدة في هذا الوقت . إلا التذكير بأن المنتمين إلى مذاهب السنة قد غلبهم جهالة الاعاجم على خلافتهم بعد أن جعلوها عصبية وراثية فلم يعملوا أي عمل لتقويتها بوضعها ، ولا لإحيائها بعد موتها ، ولم يضعوا نظاما للاستعداد لذلك عند منوح الفرصة كما فعل الكاثوليك بنظام الفاتيكان البابوي ، وكانت الزيدية من الشيعة المعتدلة أشد حزما واعتصاما منهم بنصب إمام بعد إمام لهم في جبال اليمن يتولونه ويقاثلون معه . بيد أنهم قصرُوا في وضع نظام لتعميم الدعوة ، والاستعداد له بالعلم والمال والقوة . ولكن غلاة الشيعة نفذوا أركان الاسلام من أساسه بدعاية عصمة الأئمة ، وتأويل نصوص الكتاب والسنة ، فكان هذا أصل كل ابتداع مخرج من الملة ، اذ انتهى بأهله الى ادعاء الوحي وادعاء الألوهية ، فخرجوا من الملة سرا فعلائية (٢) النظريات العقلية ، وتحكيمها في النصوص العقلية ، وكان أضرها وشرها ذلك التنازع بين أئمة الاتباع وعلى رأسهم الامام احمد بن حنبل ، ودعاة الابتداع من متشككي نظار المعتزلة والجهمية ، ولولا تدخل سلطان العباسيين في نصر فريق على فريق ، لما وصات إلى ذلك الحد من الشقاق والتفريق ، وقد ضعفت في هذا العصر في أكثر الامصار الاسلامية لانه ليس لها دول تنصر بعض أهلها على بعض ، ومتى توطدت حرية العلم كان النصر والفالج لأهل الحق ، وسيموت ما بقي من علم الكلام بموت الفلسفة اليونانية التي بني على قواعدها

ونظرياتها ، بل هي قد ماتت وصارت من موارث التاريخ العلمية ، ومات هو وإن بقيت له بقية تقليدية في بعض المدارس الاسلامية ، وسيخلفه علم آخر في حراسة العقائد من شبهات العلم وفلسفة هذا العصر ، مع ابقاء الخاطا بينهما وبين عقائد الدين ومحاوله تحكيم كل منهما في الآخر ، كما فعل نظارنا المتقدمون فجنوا على كل منهما بما أضعف سلطان الدين في أداء وظيفته وهي تركية النفس ، بما يوقفها عند حدود الحق والعدل ، والفضيلة وعمل البر ، وأضعف سلطان العلم في أداء وظيفته وهي اظهار سنن الله في العالم وتسخير قوى الطبيعة لمنافع الناس ، وفاقلا أرشدهم اليه القرآن ، وقول النبي ﷺ « أنتم اعلم بأمور دنياكم » رواه مسلم ولو بقينا على تأويل المتكلمين لكان الامر ، لا نهم يجرون فيه على قواعد اللغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث ، ولكن نبتت نابتة ودعاية لتحكيم نظريات العلم المصري والنظريات العقلية في نصوص الكتاب والسنة ، لا بتأويل يوافق اللغة وأصول الشرع كما يقول المتكلمون ، بل بترك مدلولات الكتاب والسنة بأنها غير مرادة ولا يمكن العلم بالمراد منها ، ولبعض الدعاة الى هذا الالحاد في مصر كتب تطبع ومقالات تنشر في الصحف مصرحة بهذا ، ومشيخة الازهر تقرها لانها لا تفهمها .

(٣) دعوى الكرامات والكشف ، وتحكيمه في عقائد الدين وعبادته وآدابه وتفسير نصوصه ، وفي أحكام المعاملات والحلال والحرام ، وقد نجمت البدع من هذه الناحية صغيرة كقرون المعز ثم كبرت فصارت كقرون الوعول التي تناطح الصخور ، هاجها علماء المنقول والمعقول يؤيدهم الخلقاء والملوك فانهمزمت أمامهم ، حتى اذا ما ضعف العلم فصار تقليديا ، وضعف الحكم فصار إرثا جهليا ، وصار صوفية علماء الازهر مثل الشعراني ، وسلاطين مصر مثل قايتباي ، خضعت رقاب المسلمين لولاية مثل الشيخ محمد الحضري الذي يصعد المنبر في يوم الجمعة فيخطبهم فيقول « اشهد أن لا إله الا الله لكى إيليس عليه الصلاة والسلام » ثم ينزل فيسل السيف فيهرب جميع المسلمين من المسجد فلم يتجرأ أحد على دخوله الى وقت العصر ، ويزعم الشعراني ان هذا الولي الشيطاني نفسه قد خطب خطبة الجمعة يومئذ في

ثلاثين مسجدا من مساجد القطر المصري ، بناء على قاعدتهم ان الولي قد يتمثل
بالصور الكثيرة في الامكنة المختلفة ، كالشياطين والملائكة . وهم لا يفرقون بينهما
ومثله ذلك الولي الذي كان يعارض القرآن بالهذيان ، والولي الذي كان يسكن
في ماخور المومسات ، ليشفع لكل من يأتيهن عند الله ، ويمسكه عندهن الى ان
يخبره كشفه الشيطاني بقبول شفاعته فيه ومغفرة الله له ، وكان من كراماته اتيان
الأتان — فهذا الكفر والشرك والاحاد ، ومعارضة القرآن ، واجترار كبار
الفسوق والعصيان ، كله عنده وعند أمثاله من كرامات اولياء الله الذين لا خوف عليهم
ولا هم يحزنون ، وبطبيع أمرهم رضوان خازن الجنان ، ومالك خازن النار ، كما نقله
الشعراني عن الدسوقي ، وجملة القول انهم يتصرفون في أمور الدنيا والآخرة
احياء وأمواتا ، وقد رسخت هذه الخرافات في قلوب الملايين من مسلمي مصر
وأمثالها من الاقطار فهم يعتمدون على هؤلاء الاولياء في أمور دنياهم وآخرتهم
وانك لتجد أكثرهم يحتج على ذلك بالآية الكريمة التي ذكرنا هذا البيان
في صدد تفسيرها بقوله تعالى (لهم ما يشاؤون عند ربهم) فهم يزعمون انه هؤلاء
الاولياء الخياليين ، وان الله تعالى يعطيهم كل ما أرادوا لانفسهم ولغيرهم في الدنيا
والآخرة ، كما يزعم الذين يقولون ان منهم أقطابا متصرفين (اومدركين) بالكون
كله ، وهذا افتراء على الله وتحريف لكتابه العزيز بما هو شرك به سبحانه ، وانما وردت
بهذه الجملة في عدة سور في جزاء اهل الجنة في الجنة لا في أولياء الخيال الخرافي المزعوم
راجع سورة النحل (١٦ : ٣٠ - ٣٣) وسورة الفرقان (٢٥ : ١٥ و ١٦) وسورة الزمر
(٣٩ : ٣٢ و ٣٣ : ٢٠) وسورة الشورى (٤٢ : ٢٠) وسورة ق (٥٠ : ٣١ - ٣٥)
وجملة القول ان جميع هذه الفتن المضلة لكثير من الناس عن الاعتصام بكتاب
الله تعالى وسنة رسوله المبينة له على النهج الذي اهتدى به سلف هذه الامة الصالح
لا يقوم لشيء منها حجة عقلية ظاهرة ولا كشفية باطنة ولو صح أنها من الاسلام
الساكن ما جاء الرسول ناقصا ثم كمل بها

(بطلان تأويل النصوص للنظريات العقلية والعلمية ، بآلة الباطنية)

أما النظريات العقلية التي يتأول النصوص لاجلها علماء الكلام فقد ظهر بطلانها وبطلان الفلسفة التي بنيت عليها علماء هذا العصر وفلاسفته وقد أجمع هؤلاء على أن جميع النظريات العقلية الفلسفية والعلمية المسلمة اليوم لأنها أرجح من غيرها في بابها ، ليس فيها شيء يمد من الحقائق القطعية العلمية الثابتة التي لا يمكن نقضها ، بل كلها قابلة للنقض والبطلان كما ثبت بطلان مثلها من مسلمات القرون الماضية إلى السنين الأخيرة من هذا القرن العشرين الميلادي التي ترجح فيها أن كل ما عرف في هذا الكون من مظاهر المادة والقوة هو مظهر لتكوين خاص مجهول لجزئي الكهرباء الايجابي والسلبى المعبر عنهما بكلمتي (البروتون والالكترون) فبطلت بهذا جميع النظريات العلمية في المادة والقوة ، فكيف يجوز إذن تأويل نص ديني قطعي الرواية والدلالة في خبر عن عالم الغيب من الوحي الالهي ، لنظرية ظنية في عالم الشهادة من الرأي البشري ؟

وإذا بطل تأويل علماء الكلام المتقدمين المبني على قواعد النظر العقلي ومراعاة مدلولات اللغة ، واشتراط عدم المخالفة لأصل من قواعد الشرع ، وبطل تأويل المعاصرين لما يخالف العلوم العصرية ، فأجدر بتأويلات الباطنية أن تكون أشد بطلاناً لأنها تحكم في اللغة بما لا تدل عليه مفرداتها ، ولا قواعد نحوها وبيانها ، وناقضة لأصول الشرع وقواعده القطعية الثابتة بالاجماع المتواتر ، والعمل الذي لا مجال للتأويل ولا للتحريف فيه ، كتأويل الاصماعيلية القرامطة السابقين ، والبهائية والقاديانية اللاحقين ، البهائية الذين يدعون إلى ألوهية البهاء ، والقاديانية الذين يدعون إلى نبوة ميرزا غلام أحمد ، وكل منهما يستدل بتأويل القرآن والحديث مخالفاً لاعتقادهما على دينه الجديد الذي غايته أن يقيمه الناس ويقدموه .

بطلان الاخذ بالكشف في الدين

وأما الكشف فهو ضرب من إدراك - النفس الناطقة غير ثابت ولا مطرد -
فليس بدليل عقلي ولا شرعي، وإنما هو ادراكات ناقصة تخطئ وتصيب، وقد عرفت
أسبابه الطبيعية وأن منها ما هو فطري، ومنها ما هو كسبي وصناعي، كالتنويم
المغناطيسي المعروف في هذا العصر، وما يسمونه قراءة الأفكار ومراسلة الأفكار،
ويشبهونه بنقل الأخبار بخطوط الاسلاك الكهربائية وبدونها، وهو يقع للمؤمن
والكافر، والبر والفاجر، ويعترف به صوفية المسلمين لصوفية الهندوس وغيرهم،
كما يعترفون بتلبيس الشياطين عليهم فيه، وقلة من يميز بين الكشف الشيطاني
والكشف الحقيقي منهم، ولا يصح أن يسمى حقيقة إلا ما وافق نصاً قطعياً

ومن دلائل الخطأ والتلبيس والتخيلات في الكشف الذي يسمونه النوراني
تعارض أهله وتناقضهم فيه، وما يذكرونه فيه من معلوماتهم المختلفة باختلاف
معلوماتهم الفنية والخرافية والشرعية، فترى بعضهم يذكر في كشفه جبل قاف
المحيط بالأرض والحية المحيطة به كما تراه في ترجمة الشعراني للشيخ أبي مدين وهو
من الخرافات التي لا حقيقة لها، ومنهم من يذكر في كشفه الافلاك وكواكبها على
الطريقة اليونانية الباطلة أيضاً. وأكثرهم يذكرون في كشفهم الاحاديث الموضوعة،
فان اعترض عليهم أو على المفتونين بكشفهم علماء الحديث قالوا ان الحديث قد
صح في كشفنا وان لم يصح في رواياتكم، وكشفنا أصح لأنه من علم اليقين وعلمكم
ظني. والحاصل ان كشفنا هذا شأنه وشأن أهله إن صح ان يصدق فيما لا يخالف
نصوص الشرع وعقائده وأحكامه فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله
ان يصدق منه ما يخالفهما وان يثبت من أمر عالم النبي ما لم يثبت بهما، وما أغنانا
عن هذا كله، وفي جمع الجوامع أن الالهام - وهو الكشف الصحيح عندهم -
« ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوما بخواطره خلافا لبعض الصوفية » أي ولا يعتمد
بمخلافهم لانهم خالفوا به الاصول كما خالفوا النصوص .

الكرامات لا تدل على الولاية فضلا عن العصمة

وأما الكرامات فهي نوع من خوارق العادات التي تروى عن جميع الأمم المختلفة الأديان والملل ، وقد قال علماء الكلام أنها تقع للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبي والساحر ، ويختلف اسمها باختلاف من ظهرت على يديه فتسمى معجزة للنبي المرسل إذا تحدى بها وكرامة للرجل الصالح المتبع للرسول ومعونة لمن دونه من المؤمنين واستدراجا للكافر والفاسق

وصحت الأحاديث بأن الدجال يظهر على يديه من الخوارق الكبرى ما قلما كان مثله في المعجزات حتى أحياء الموتى . وقال أئمة الصوفية العارفون إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تعتدوا به (أو كلمة بهذا المعنى) حتى تروه عند الأمر والنهي الشرعيين ، وقال مثل ذلك الخلاطون منهم ، ففي الباب الثالث من كتاب (الانوار القدسية) للشعراني « وظهور الكرامات ليس بشرط في الولاية وإنما يشترط امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، فيكون أمره مضبوطا على الكتاب والسنة فمن كان كذلك فالقرآن يشهد بولايته ، وإن لم يعتقده أحد » الخ وهذا عين ما حققناه في تفسير الآية .

ومن خلطه أن أكثر ما ذكره من كلامهم في طبقاتهم مخالف لشرطه فهو يبطل ولاية أكثر رجال أهلها من العقلاء فضلا عن المجاذيب المجانين ، فإنهم لا يمدون من الأولياء العارفين ، لأنهم غير مكلفين .

ومنه وفي الباب الأول منه « فلو رأينا الصوفي يتربع في الهواء لا يمبأ به إلا إذا امتثل أمر الله واجتنب نهيه في المحرمات الواردة في الكتاب والسنة مخاطبا بتركها كل الخلق المكلفين لا يخرج عن ذلك أحد منهم ، ومن ادعى أن يلبسه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكاليف الشرعية من غير ظهور اشارة تصدقه على دعواه فهو كاذب ، فمن يشطح من شهود في حضرة خيالية على الله وعلى أهل الله ولا يرفع بالأحكام الشرعية رأسا ولا يقف عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التكليف عنده فهذا مطرود عن باب الحق ، مبعد عن مقعد الصدق ، وحرام على الفقيه وغيره أن يسلم لمثل هذا » أهـ وهو يخالف هذا الحق في مواضع أخرى

ثم قال (في آخر ص ٨ منه) واعلم ان طريق القوم على وفق الكتاب والسنة فمن خالفهما خرج عن الصراط المستقيم كما قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد (رض) فلا تظن أنهم كانوا كحال غالب المنسوبين الى التصوف في هذا الزمان فحسبي الظن بهم ، انما كانوا رضي الله عنهم عالمين بأسرار الشريعة قائمين صائمين زاهدين ورعين خائفين وجلين كما يعلم ذلك من تراجمهم وطبقاتهم ، وانما أنكر من أنكر على المتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين ست مرات منهم ، فكل قرن منهم بالنسبة لمن قبله يصح عليه الانكار اذا ادعى أنه على طريقة من كان قبله لان الناس لم يزالوا راجعين القهقري واليه الاشارة بقوله عَلَيْهِ السَّلَام « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث اه

أقول ان هذا التصوف قد ذر قرنه في أواخر القرن الثاني وظهر الشذوذ في المتحلين له في القرن الثالث . وقد قال الامام الشافعي الذي توفي سنة ٢٠٢ اذا تصوف الرجل في الصباح لا يأتي المساء أو قال العصر إلا وهو مجنون . وأنكر الامام أحمد الذي توفي سنة ٢٤١ بعده على خيارهم ونهى عن قراءة كتب الحارث المحاسبي على التزامه الكتاب والسنة علما وعملا كما ببناء في تفسير سورة براءة ، وقد توفي الحارث في سنة ٢٤٣ وهو أستاذ أكابر البغداديين ومن أخذ عنه سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد . فاذا قلنا ان الشعراني يعد أهل قرنه العاشر في الدرجة السادسة من المتشبهين بالصوفية فالظاهر أنه يعد أهل القرن الخامس أول المتشبهين الذين ينكر عليهم . وقد أنكر الغزالي في كتاب الغرور من الاحياء على المتشبهين بهم وعد منهم فرقا من أهل المكاشفات ، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس فان الغزالي توفي سنة ٥٠٥ وكان قد ناب الى الله من علوم التصوف والكلام وانقطع الى علم السنة ، ثم ان ابن الحاج المالكي المتوفى سنة ٧٣٧ تكلم في كتابه المدخل على هؤلاء المتشبهين بالمشايخ من أهل عصره في القرن الثامن وبين ما لهم من المنكرات ، وفند ما يدعون من الكرامات . وقام في هذا القرن أيضا شيخ الاسلام ، مدره السنة الاكبر ، وقامع البدع الافر ، أحمد بن تيمية فبذم من قبله ، وأغنى عن جاء بعده ، وعلى كتبه وكتب تلميذه ابن القيم المول « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٧ » « الجزء الحادي عشر »

تفضيل أهل الحديث على غيرهم

ومما كتبه الشعراني في كتابه هذا من الحق بين الأباطيل قوله في الباب الثاني من كتابه المذكور - وهو في طلب العلم - ما نصه :

« واعلم أنه مامت بالارث للانبياء عليهم السلام على الحقيقة الا المحدثون الذين رووا الاحاديث بالسند المتصل الى النبي ﷺ كما قاله شيخنا فاهم حظ في الرسالة لانهم نقلوا الوحي وهم ورثة الانبياء في التبليغ ، والفتاء بلا معرفة دليلهم ليس لهم هذه الدرجة فلا يحشرون مع الرسل انما يحشرون في عامة الناس ، فلا ينطبق اسم العلماء حقيقة الا على أهل الحديث . وكذلك العباد والزهاد وغيرهم من أهل الآخرة اذا لم يكونوا من أهل الحديث حكمهم حكم الفقهاء الذين ليسوا من أهل الحديث ، فيحشرون مع عموم الناس ويتميزون عنهم بأعمالهم الصالحة لا غير ، كما ان الفقهاء يميزون عن العامة في الدنيا ، لا غير » اهـ ولكن بعض من يسمون كبار العلماء في زماننا يفضلون خرافات المشبهين بالمصوفة في الدرجة السادسة الى العاشرة وآراء مقلدي الفقهاء في الدرجة الخامسة - وهي السفلى - على علماء الحديث وفقهائه وحكائه ، ويطعنون في المحدثين وكل من يهتدي بالحديث قولا وكتابة ، بل صرح بعضهم بأن من يعمل بالحديث فهو زنديق !!

اقرار متقدمي الصوفية ومتأخريهم بوجوب اتباع السلف

تواتر عن شيوخ الصوفية المتقدمين ان أصل طريقهم اتباع الكتاب والسنة وموافقة السلف كما تقدم آنفاً ، وتجد مثل هذا في كلام الصوفية الشاذين الذين خلطوا البدع بالسنن وزعموا أنهم يأخذون علومهم عن الله الحي الذي لا يموت مباشرة وان علماء التفسير والحديث يأخذون علومهم عن الميتين كالفقهاء والمتكلمين ، وهذا أساس الابتداع بل المروق من الدين . ومما نقله الشعراني عن الشيخ ابراهيم الدسوقي من الخلط بين الحق والباطل ما نصه :

« وكان (رض) يقول اسلم التفسير ما كان مروياً عن السلف ، وأنكره ما فتح به على القلوب في كل عصر ، ولولا محرك يحرك قلوبنا لما نطقت الالبما

ورد عن السلف فإذا حرك قلوبنا وأرد استفتحنا باب ربنا وسألناه الفهم في كلامه فتكلم في ذلك الوقت بقدر ما يفتح على قلوبنا ، فسلموا لنا تسلموا ، قاننا نخارة فارغة ، والعلم علم الله تعالى » اهـ

أقول من أين نعلم أو يعلمون هم أن خواطرهم التي بسمونها الواردات من الإلهام الإلهي لا من الوسواس الشيطاني ، وكيف نسلم لهم ما لا نعلم ، والإلهام الصحيح ليس بحجة كما تقدم ؟ ثم كيف لا نشكر عليهم ما نراه مخالفا للكتاب والسنة وآثار السلف ، وموافقا للحد الباطنية أو بدع الخلف ، وأنا وإيهم متفقون على أنه هو الحق الذي لا يصح الخلاف فيه ؟

ثبت إذاً أن أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم من عرفهم تعالى بقوله الحق (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وأنهم درجات كما بينها الله تعالى في قوله (٣٥ : ٣٢) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير) فالظالم لنفسه من يقصر في اتباع الكتاب ولو بترك بعض الفضائل ، والمقتصد من يترك ما نهى عنه ، ويفعل ما أمر به من الواجبات القاصرة على نفسه ، والسابق بالخيرات من يزيد على ذلك التقرب بالنوافل ، والتكامل بالفضائل ، والجمع بين التعلم والتعليم والتأديب والتأديب ، حتى يكون إماما للمعتقين ، فهذه درجة المقرين من شهداء الله والصديقين ، وما قبلها درجة الصالحين من الأبرار أصحاب الجين ، فراجع سورتي الواقعة والمطففين ، ففيهما بيان لقوله تعالى (٤ : ٦٩) ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) وهي تفسير لدعائك في كل ركعة بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

وبهذا تقوم حجة الله على العالمين ، بأن هذا الدين تنزيل من رب العالمين ، وقد أكله لنا قبل أن يقبض الله رسوله محمدا خاتم النبيين ﷺ وإنه لو صح شيء مما ابتدعه الناس فيه بغسلتهم العقلية أو النفسية أو بما ادعوه من الكشف لما صحت شهادة الله بأكمله ، ولا أنه من عنده لا من عند أحد من خلقه ، وهذا كل غرضنا من هذا البحث ، وقد ظهر به الحق والله الحمد

(٦٥) وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(٦٦) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَقْبِضُ
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَيْلَةَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ

بعد ان بين الله تعالى لرسوله حال أوليائه وصفتهم وما بشرهم به في الحياة
الدنيا وفي الآخرة ، وكونه لا يتبدل لكتلماته فيما بشرهم ووعدهم كما انه لا يتبدل
لها فيما أوعده به أعداءه المشركين ، وكان هذا يتضمن الوعد بنصره ونصر من
آمن له وهم أولياء الله وأنصار دينه على ضعفهم وفقيرهم ، وكانت العزة أي القوة
والغلبة في مكة لا تزال للمشركين بكثرتهم التي يعبرون عنها بقولهم : وأما العزة
للشركاء ، وكانوا الغرورهم بكثرتهم وثروتهم يكذبون بوعد الله وكان ذلك يحزنه
ﷺ بالطبع كما قال (٦ : ٣٣) قد علم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك (الآية
قال تعالى مسلما له وهو كذا وعده له ولأوليائه . ووعيده لأعدائهم وأعدائه :

٦٥ ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ : نهاء عن الحزن والغم من قولهم الذي يقولونه في
تكذيبه الذي تقدم مفصلا في هذه السورة فحذف مقول القول للعالم به وبين له سبب
هذا النهي بقوله ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي ان الغلبة والقوة والمنعة لله جميعها
لا يملك أحد من دونه شيئا منها ، فهو سبحانه لمن يشاء ويحرمها من يشاء ، وليست
للشركة دائما كما يدعون ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، وقد وعد
بها رسوله والذين آمنوا بهم واتبعوه من أوليائه ، كما قال (كتب الله لأغلبن أنا
ورسلي إن الله قوي عزيز * إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم
يقوم الاشهاد * والله العزة ورسوله للمؤمنين) فعزته تعالى ذاتية له ، وعزة رسوله

(يونس : ١٠) اتباع المشركين للظن يخرضونه لالشركاء لله موجودين ٤٥٣

والمؤمنين به ومنه عز وجل ، كما قال (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) وقرأ نافع (يحزنك) بضم الياء من أحزنه وهي لغة ، وقرئ (أن العزة) بفتح هـزة أن الخذف لامها وهي لتعاقب الذي تدل عليه قراءة الجمهور بالكسر على الاستئناف البياني .

﴿ هو السميع ﴾ لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك ﴿ العليم ﴾ بما يفعلون من إيذاء وكيد ومكر ، فهو يذلهم ويحبط أعمالهم ، وهذا استئناف آخر في تقرير مضمون الاول وهو تسليته عليه السلام وتأكيده وعده بالعزة ووعد تكذيبه . ثم استدلل على كون العزة له جميعا والجزاء بيده بقوله مستأنفا أيضا ومفتتحا بأداة التنبيه

٦٦ ﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ﴾ من عابد ومعبود فهو ربهم

ومالكهم وهم عبيده الربوبون المملوكون له ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ له في ربه بيته وملوكه ، أي أن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله بدعائهم في الشدائد ، واستغاثتهم في النوازل ، والتقرب اليهم بالنذور والقرابين والوسائل ، لا يتبعون شركاء له في تدبير أمور عبادته ينفعونهم أو يكشفون الضر عنهم إذا شركاء له ،

﴿ ان يتبعون إلا الظن ﴾ أي ما يتبعون في الحقيقة إلا ظنهم أن هؤلاء الذين يدعونهم أولياء لله وشفعاء عنده ، فهم يتوسلون بهم ويتأثلم بهم اليه ، لأنهم يقيسونه على ملوكهم للظالمين المتكبرين ، الذين لا يصل اليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابية

ووسائطه ووزرائه ﴿ وإن هم إلا يخرضون ﴾ أي وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يقضي من الحق شيئا ، إلا يخرضون خرسا ، أي يحزرون حزا ، أو يكذبون كذبا ، أصل الخرص الحزر والتقدير للشيء الذي لا يجري على قياس من وزن أو كيل أو ذرع ، بل هو كخرص الثمر على الشجر والحب في الزرع ، والكمثرة الخطأ فيه أطلق على لازمه الغالب وهو الكذب ، فالظن الذي يبنى عليه يكون من أضغاف الظن وأبعده عن الحق ، مثاله ما ذكرناه آنفا من قياس الرب في تدبير أمور عبادته على الملوك ، وهذا قياس شيطاني سممه من جميع طبقات الجاهلين لمعاقد الاسلام ، وتوحيد الرحمن ، حتى من يلقبون بالعلماء وبالباشوات ، ومثله قولهم في وسائلهم الذين يسمونهم الأولياء : أن الله يحبهم ، وكل من يحب أحدا فانه يقبل وساطته

وشفاعته ، فيقيسون تأثير عباد الله الصالحين عنده تعالى ، على تأثير أصدقاء الملوك والوجهاء ومعشوقهم في قبولهم منهم جميع ما يطلبونه ، ويجهلون أن أفعال الله تعالى إنما تجري بمقتضى مشيئته الأزلية على وفق علمه الذاتي المحيط وحكمته البالغة العادلة ، وإن صفاته تعالى كاملة أزلية لا تؤثر فيها الحوادث ، وإن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) أي أن أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون إليه تعالى بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم ، هم يتوسلون إليه راجين خائفين ، لا كأعوان الملوك الذين لا يقوم أمر ملكهم بدونهم ، ومعشوقهم الذين لا يتم تمتعهم الشهواني إلا بهم ٦٧ ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ هذا استدلال على مضمون ما قبله من نفي وجود شركاء له في الخلق والتقدير ، ولا بالشفاعة عنده في التصرف والتدبير ، أي هو الذي جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفع ، بل بمحض الحكمة البالغة والرحمة الشاملة : أحدهما الليل جعله مظلماً لاجل أن تسكنوا فيه بعد طول الحركة والتقلب في الأرض ، وتستريحوا من التعب في طلب الرزق ، وثانيهما النهار جعله مضيئاً ذا إبصار لتفتشوا في الأرض ، وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب ، والشكر للرب ، فالبصر هنا معطي الأبصار سببه حسياً كان أو معنوياً ، فالأول قوله تعالى (١٧ : ١٢) وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم (الآية — والثاني قوله في هذه السورة أيضاً (٥٩) وآتينا نوحاً والناقة مبصرة) أي آية مفيدة للبصيرة والحجة على صدق رسولهم ، ومثله قوله في سورة النمل (٢٧ : ١٣) فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين)

وقال قطرب : تقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء بمعنى صار ذا ظلمة وذا إبصار وذا ضياء اه وقد تكرر التذكير في التنزيل بآيات الله في الليل والنهار من خلقهما وتقديرهما ومنافع الناس فيهما ، وفي هذه الآية احتباك وهو أنه حذف من كل من آيتي الليل والنهار ما أثبت مقابله في الأخرى والعكس . وفي قوله

تعالى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مثله ، أي ان فيما ذكر لدلائل
بينات ، وآيات أي آيات ، على وحدانيته في الذات والصفات ، لقوم يسمعون ما يتلى
عليهم من التذكير بحكمه تعالى ونعمه فيها سماع فقه وتدبر ، ويبصرون مافي
الكائنات من السنن الحكيمة ، إِبْصَار تأمل ، ذكر الآيات السمعية المناسبة
للليل الذي قدم ذكره ، وهي تدل على الآيات البصرية المناسبة للنهار وتذكر بها ،
وهو أبلغ الإيجاز ، وقد جمع بينهما في مقام الاطناب من سورة القصص بقوله
(٢٨ : ٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - مِنْ إِلَهِ
غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيءٌ أَفْلا تَسْمَعُونَ ؟ ٧٢ قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ اللَّيْلُ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ ؟ ٧٣ وَمِنْ
رَحْمَةِ جَمَلِ لَكُمْ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
وأحسن بذلك الإطناب تفسير الماهنا من الإيجاز ، ولكل منهما موقعه من بلاغة الإعجاز

(٦٨) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ، أَهُ مَافِي
السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَالًا لَعَلَّوْنَ (٦٩) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ (٧٠) مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

هذه الآيات حكاية لنوع آخر من الكفر بالله تعالى قريب من كفر اتخاذ
الشركاء له ، وهو زعمهم انه اتخذ ولدا ، وقد اشترك فيه عباد الاصنام والوثان
وبعض أهل الكتاب ، فحكاها عنهم مفصولا لانه نوع مستقل وتعبه بالابطال
٦٨ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فزعم المشركون أن الملائكة بنات الله ، وقالت

النصارى : المسيح ابن الله ، وقال بعض اليهود : عزير ابن الله ، وتقدم في سورة التوبة (ويرى بعض المؤرخين أن عزير هو أوزيروس أحد آلهة قدماء المصريين)
 ﴿ سبحانه ﴾ كلمة التسييح معناها التنزيه والتقديس أي تسييحها له عز وجل عن كل مالا يليق ببروبيته وألوهيته ، وتقال في مقام التعجب ، ويصح هنا جمع المعنيين كليهما . وقفى على هذا التنزيه والتعجب بما يدل على بطلان قولهم بأفواههم - ما ليس لهم به علم فقال ﴿ هو الغني له ما في السموات وما في الارض ﴾ أي هو الغني بذاته عن الولد ، لأن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لا يحتاج منها الى شيء ، ويحتاج اليه كل شيء ، ولا يشبهه أو يحاكيه منها شيء ، قال انسان يحتاج الى الولد لا لمور منها بقاء ذكوره به وبذريته ، ومنها انه قوة وعصبة له يعتز به هو وعشيرته ، ومنها ان وجوده زينة له في داره يابو به في صغره ، ويقاخر به أقرانه في كبره ، ومنها أنه قد يحتاج اليه لقضاء مصالحه وتنمية ثروته ، وقد يحتاج الى رفقده وبره ، عند عجزه أو فقره ، والله تعالى لا يحتاج الى شيء من هذه المنافع لانه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلا وأبدا ﴿ إن عندكم من سلطان هذا ﴾ « إن » هنا نافية و « من » مؤكدة لهذا الغني مفيدة لعمومه ، والسلطان الحجة والبرهان . والجملة تجهيل لهم ورد عليهم ، أي ما عندكم أي نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي ، تعارضون به هذا البرهان العقلي ، وهو تنزيه الله وغناه المطلق عن الولد وغيره ، وكونه المالك لكل شيء بما في السموات والارض ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ هذا استفهام توبيخ على أقبح الجهل والكفر ، وهو قولهم على الله تعالى ما ليس لهم به علم ، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من العلم البرهاني . والوحي الإلهي ، قال البيضاوي وغيره : وفيه دليل على ان كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وان العقائد لا بد لها من قاطع ، وان التقليد فيها غير سائغ اه وقد تقدم حكاية اتخاذ الولد عن الكفار عامة وعن النصارى خاصة في سور البقرة وآل عمران والذماء والمائدة والأنعام ، وسيأتي في سور أخرى مع ابطاله وتفنيد بالالدل ووجوه

الحجة المختلفة الاساليب ، أو التقرير والتأنيب ، والانذار والوعيد (١)

٦٩ ﴿ قل ان الذين يفترون على الله الكذب ﴾ بأنحازهم الشركاء له ، أو بزعمهم أنحازهم ولدا لنفسه ، أو بغير ذلك من التحليل والتحريم ، وغيرهما من مسائل التشريع ، أو بدعوى ولايتهم وإطلاعه إياهم على أسرار خلقه وتصريفه لهم في ملكه ، وقد تقدم بعضه في هذه السورة كالآيات ١٧ و ٥٩ و ٦٠ ﴿ لا يفلحون ﴾ أي لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتع بنعيمها بشقاعة الولد أو الشركاء الذين أنحازهم له تعالى أو فدائهم لهم من عذاب النار

٧٠ ﴿ متاع في الدنيا ﴾ هذا جواب لسؤال مقدر قد يراد على نفي فلاحهم بالاطلاق الذي يدخل فيه منافع الدنيا ، والمفترون على الله بكل نوع من أنواع الافتراء المقبولة عند الجاهلين ، لهم كثير من المنافع المادية والمعنوية من أهولاء الساكنين ، وأكثر البشر لا يزالون جاهلين بخضوع أهولاء الزعماء للربيبين ، فهو يقول هذا متاع قليل - أو لهم متاع في الدنيا حقير ، يتلهمون به في حياة قصيرة فأما قلته وحقارته فيدل عليها تنكيره مع القرينة ، وأما قصر الحياة التي يكون في بعضها فمعلوم بالاختبار ، فهما يبلغ هذا المتاع من كثرة المال وعظمة الجاه في هذه الحياة ، فلا يكون الا قليلا بالنسبة الى ما عند الله في الآخرة للصادقين المتقين كما صرحت به الآيات الكثيرة ، وبالنسبة الى ما لهم من ضد ذلك كما صرح به في قوله ﴿ ثم الينا مرجعهم ﴾ بالبعث بعد الموت ، وما فيه من أهوال الحشر والحساب والعرض ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ بآياتنا ونعمنا ، وبالاقتراء علينا ، وتكذيب رسلنا ، أو الكذب عليهم بعد أن تقوم عليهم الحجة في الحساب بأنهم يستحقونه بظلمهم لانفسهم واننا لانظلمهم شيئا ، وتقدم ذكر الرجوع اليه تعالى وما يليه من الجزاء في هذه السورة وغيرها

(٧١) وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَبْقَؤُمَ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧٢) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَاءَ لَكُمْ مِمَّنْ أَجَزِ إِنْ أَجَزِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٣) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأُغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ

هذا سياق جديد متصل بما سبق من مقاصد هذه السورة أم الانصال ، بتفصيله لبعض ما فيها من اجمال ، وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تباعهم الدعوة من المكذبين ، بأن الله تعالى سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين ، فأهلكهم وأنجى المؤمنين ، فقد تقدم في أوائلها قوله (١٣) ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) الى آخر الآية ١٤ ثم قال في الرد على تكذيبهم إياه بما وعدهم من العذاب (٣٩) كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ثم قال (٤٧) ولعلكم أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) جاء هذا في سياق إقامة الحجج العقلية على صدق الرسول ﷺ في دعوى الوحي وكون القرآن من عند الله لا من عنده ورأيه وكلامه ، والحجج على مضمون الدعوى من التوحيد والرسالة والبعث والجزاء والتفنن فيها ، والتذكير بالبلغ لمقاصدها ، وانذار أولئك المكذبين بها . فناسب ان يفصل لهم شيئا من ذلك . الاجمال من هذا الوجه نجاء به معطوفا لانه مرتبط به متم له ، بخلاف سرد قصص الرسل في سورة الاعراف حيث بدأه بقوله (٧ : ٥٩) لقد أرسلنا نوحا الى قومه) لان هذه القصص أوردت هناك مستقلة ،

لا تفسيراً ولا تفصيلاً لمجمل قبلها وأما مناسبة هذه الآيات لما قبلها مباشرة بكونها من جنس موضوعها العام فلا تدل على هذه الخصوصية العلمية التي بها كانت البلاغة فلسفة عقلية نفسية . قال عز وجل :

٧١ ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ أي واقرا أيها الرسول على هؤلاء المشركين المكذبين لك من قومك ، فيما أوعدهم من عقاب الله لهم على سابق سنته في المكذبين برسله من قبلك ، خبر نوح ذي الشأن العظيم ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله ﴾ أي نبأه حين قال لهم هذا القول فكذبوه فأغرقناه ونجينا هو ومن آمن معه وجعلناهم خلائف الأرض — لاجميع أنباء قصته معهم (المفصلة في سورة هود التي نزلت قبل هذه السورة ووضعت بعدها في المصحف) ليعلموا من هذا النبأ الخاص سنته تعالى في نصر رسله على المكذبين من قبلهم ، وأنه كذلك ينصرهم عليهم ، فيهلك المكذبين لك المغرورين بكبرتهم وقوتهم ، وقلة من اتبعك وضعفهم ، وإن هؤلاء الضعفاء سيكونون خلائف الأرض في قومهم وغير قومهم من سكان الأرض ، قال نوح عليه السلام لقومه بعد أن طال مكثهم فيهم يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وحده والإصلاح في الأرض فلما أقامه ، وشموا وعظه واشتموا به : يا قومي إن كان قد كبر أي شق وعظم عليهم قيامي فيكم ، أو مكاني من القيام بما أقوم به من دعوتكم إلى عبادة ربكم ، وتذكيري أياكم بآياته الدالة على وحدانيته ، ووجوب عبادته وشكره ، والرجاء في ثوابه للمؤمنين المتقين ، واخوف من عقابه للمشركين المجرمين — التذكير يطلق على الإعلام بالآيات والدلائل في أنفس الناس وفي الآفاق فيذكرها العقل وتقضيها الفطرة ، حتى يكون بيانها تذكراً أو كالتذكير لمن فهمها بشيء . كان يعرفه بالقوة ، فعرفه بالفعل ، ويطلق على الوعظ والنصح المشتمل على عواقب الأمور ، وسيأتي في السورة التالية قوله لهم (١١ : ٣٤) ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم (الآية) ﴿ فقل الله توكلت ﴾ دون غيره من المؤمنين الذين تستضعفونهم ، أي إن كان كبر عليكم ذلك وأردتم التفتي منه بالإيقاع بي فإني قد وكلت أمري إلى

الله الذي أرسلني واعتمدت عليه وحده بعد ان أدبت رسالته بقدر طاقتي ﴿فأجمعوا أمركم وشركائكم﴾ من أجمع الامر كالسفر والصيام وغيرها وأجمع عليه اذا عزم عليه عزما لا تردد فيه قيل أصله جمع ما تفرق من أسبابه ومقدماته، وأجمع القوم على الشيء اتفقوا عليه كلهم لم يشذ أحد منهم ، أي أجمعوا ما يريدون من أموركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله لا تتفرقوا فيه ، وقيل التقدير وادعوا شركائكم ليعينوكم كما ترعون كما أدعو ربي وأتوكل عليه ﴿ثم لا يكن أمركم﴾ الذي تعتمرونه ﴿عليكم غمة﴾ أي خفيا فيه شيء من الحيرة أو اللبس الذي يقتضي التردد في الانفاذ، بعد العزم والاجماع ، بل كونوا على علم وبصيرة فيه لكيلا تتحولوا عنه بظهور الخطأ أو التردد في كونه هو الصواب ﴿ثم اقضوا إلي﴾ ذلك الامر بعد اجماعه واعتماده وبعد استبانه التامة التي لا غمة فيها ولا التباس بان تنفذوه بالفعل ، فالقضاء يطلق بمعنى أداء الشيء وتنفيذه وأتمامه ومنه (فلما قضى موسى الاجل * فمنهم من قضى نحبه * فلما قضى زيد منها وطرا) وتعديته بالي لافادة ابلاغه وإبصاله الى متعلقه بالفعل كما قل في أوائل السورة (ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم) ويطلق بمعنى الحكم بالشيء وإذا عدي هذا بالي يفيد تبليغ خبره كقوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) الخ وقوله (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) ﴿ولا تنظرون﴾ أي لا تهملوني بتأخير هذا القضاء وتنفيذه بعد استيفاء تلك القدمات كلها

هذه الآية من أبلغ آيات القرآن عبارة وأجمعها على إيجازها للمعاني الكثيرة من علم النفس، ودوجة إيمان الانبياء المرسلين وثقتهم بالله عز وجل ، وشجاعتهم واحتقارهم لكل ما في الحياة الدنيا من أسباب الخوف من غيره والرجاء فيما سواه ، وبيان خاتمهم لسنته تعالى فيهم وفي أقوامهم ، وحسن وعظه لهم بوحى ربه تعالى ، فهو يضرب لحاله ومقامه معهم مثل نوح مع قومه في غرور كل منهم بكثيرهم وقوتهم وتكذيبهم واحتقارهم لرسوله ولأن آمن معه من الضمء والفقراء ، ولما

يتميز به كل من الرسولين من التوكل على الله والاعتماد عليه في النصر والعزة وحسن العاقبة، والحزم باهلاك المصيرين على تكذيبه ونجاة المؤمنين المتبعين له بحملهم خلاف الارض وأصحاب السلطان فيها

صورت الآية لاهل مكة البلقاء هذه المعاني بمطالبة نوح عليه السلام لقومه على كثرتهم وقوتهم - المشهور في تواريخ الامم وظواهر الكتب المقدسة أنهم جميع اهل الارض - بأن يفعلوا ما استطاعوا من الايقاع به واكتفاء أمره ، والاستراحة من دعوته ، مطالبة القوي العزيز المدلل بياسه ، المعتصم بإيمانه بوعده ربه وتوكله عليه ، للضعيف العاجز عن تنفيذ مراده مهما يكن من استيفائه لجميع أسبابه الطبيعية والسكسية ، اذ أمرهم في المرتبة الاولى باجماع أمرهم بالمرتبة الصادقة وقوة الارادة الجازمة حتى لا يكون شيء من موجباتها متقربا بينهم ، وان يضموا الى هذه القوة النفسية السكسية قوة الايمان المعنوية بشركاهم وأهنتهم ، ولما كانت بالمرتبة الصادقة المجمعدة قد يعرض لها الوهن أو الملل للمقتضية للفسخ قبل التنفيذ نهاهم أن يكون في أمرهم الذي أجمعوا شيء من الغمة والخفاء الذي يقتضي ذلك (فان قيل) ان إجماع العزم في الامر لا يكون بعد الحزم بالعلم بالمقتضي له الباعث عليه ، اذ لو كان الامر غمة امتنع إجماعه كما يمتنع إجماع الصيام من الليل في أول رمضان اذا غم الهلال في ليلة الثلاثين من شعبان ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فأكلوا شعبان ثلاثين » رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة ورواه غيرهم عن غيره ، فالامر باجماع الامر يغني عن النهي ان يكون غمة فما حكمة ذكره بعده وعطفه عليه ثم الدالة على تأخره عنه في المرتبة ؟ (قلت) يكفي في إجماع الامر على الايقاع بنوح عليه السلام ان يعتقدوا انه مصلحة لهم غير معارضة بمفسدة أرجح منها ، وهذا لا يمنع ان يعرض لهم قبل تنفيذه شيء من الغمة والحيرة المقتضية للفسخ أو التردد ، فمن ثم اقتضت المبالغة في أمر التعجيز المذكور ان يؤكد بهذا النهي عن الغمة في المستقبل واقتضت البلاغة ان يعطف بهم لان مرتبته متأخرة عن مرتبة ذلك الامر وما يستلزمه من العلم بالمقتضي له ، كما ان مرتبة قضاء ذلك الامر وتنفيذه متأخرة عن مرتبة الامر

الاول والنهي كليهما ولذلك عطف عليهما معا ثم، وأكد هذا الامر الثاني بالنهي عن الانظار معطوفا بالواو التي تفيد مطلق الجمع لا محاذ منها ورتبتها فلا ترتيب بينهما وقرأ نافع (فاجمعوا أمركم) بوصل المدة وفتح الميم من الجمع أي اجمعوا ما تفرق منه، وعلى هذا يكون قوله (وشركاؤكم) مفعولا به معطوفا عليه. لا مفعولا معه، وقرأ الحسن وابن أبي اسحق وأبو عبد الرحمن السلمي وعيسى الثقفي (وشركاؤكم) بالرفع أي أنتم وشركاؤكم. وهذه القراءة شاذة مخالفة لخط المصحف الإمام فلا تتلى في الصلاة وقرئ «أفضوا الي» من الافضاء الى الشيء وهو الوصول والانهاء اليه مباشرة، والظاهر أنها تصحيف وان كان المعنى المراد واحدا لا يختلف

٧٢ ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي انصرفتم عني مصرين على إعراضكم عن تذكيري

﴿فَمَا سَأَلْتَكُمْ مِنْ أَجْرِ﴾ أي فما سألتكم على هذا التذكير ولا على غيره من مسائل الدعوة والنصح أدنى شيء من الاجر والمكافآت فتتولوا أثقله عليكم، او

فيضرنني أن يفوت علي وأحرمه فأبائي بتوليكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أجري وثوابي على دعوتكم وتذكيركم إلا على الله الذي أرسلني اليكم، فهو

يوفيني إياه سواء آمنتم أو توليتم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي المتقادين المذعنين بالفعل لما أدعوكم إليه أسلمتم أم كفرتم، فلا أترك شيئا مما أمرتكم به

(وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه)

٧٣ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ﴾ أي فأصروا على تكذيبه بعد أن

أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حقيقة دعوته، وبرأته من كل خوف منهم إذا كذبوا، ورجاء فيهم إذا آمنوا، فجعلناه هو ومن آمن معه في السفينة التي كان

يصنعها بأمرنا لاجل ذلك. ولفظ الفلك هنا مفرد وهو السفينة كما عبر به في سورة العنكبوت. وهو يطلق على الجمع أيضا كما قال [وترى الفلك مواخر فيه] ويفرق بينهما

بالقرائن، ان لم توصف بالجمع كالمواخر ﴿وجعلناهم خلائف﴾ يخلفون المكذبين في

الارض كلها على قلتهم ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن أنذرهم وأوعدهم

العذاب أي وأغرقناهم لانهم كذبوا بآياتنا ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾

أي فأنظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله عليهم فأصروا على تكذيبه ، فكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، وكذلك تكون عاقبة المؤمنين المتبعين لك ، قدم ذكر تنجية المؤمنين واستخلاصهم على إغراق المكذبين وقطع دابرهم ، لانه هو الامم في سياق صدق الوعد والوعيد من وجهين : أولهما تقديم مصداق الوعد لتسليية النبي ﷺ وتسرية حزنه على قومه ومنهم ، وثانيهما كونه هو الاظهر في الحجة على أنهما (أي الوعد والوعيد) من الله تعالى القادر على إيقاعهما على خلاف ما يعتقد المشركون المكذبون المفرورون بكثرتهم وقلة أتباع النبي ﷺ وخلاف الاصل المهود في المصائب العامة في العادة وهو أنها تصيب الصالح والطالح على سواء ، فلا تميز فيها ولا استثناء ، ولكنه هو الذي جرت به سنة الله تعالى في مكذبي الرسل من بعد نوح فكان آية لهم ، فنولا أن الامر بيد الله على وفق وعده ووعيده لما هلك الالوف الكثيرون ، ونجا أفراد قليلون لهم صفة خاصة أخرجهم منهم تصديقاً لخبير رسولهم ، وما سيق هذا النبأ هنا الا لتقرير هذا المعنى ، وغفل عنه الباحثون عن نكتة البلاغ في العدول عن الضمير الى الاسم الموصول فقالوا انها تعجيب المسرة للمؤمنين والايذان بأن الرحمة مقدمة على العذاب ، ولكن ما قلناه هو المقصود الاول لذاته الذي يقتضيه السياق والحمد لله ملهم الصواب

(٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

بين الله تعالى في هذه الآية عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل وسنة من سبته فيهم تسكلة لما بينه في حال قوم نوح مع رسولهم عسى أن يعتبر بها أهل مكة فيعلموا كيف يتقون عاقبة المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، فان كل سوء وضر علم سببه أمكن اتقاؤه باتقاء سببه اذا كان من عمل الناس الاختياري كالكفر والاعتداء والظلم

٧٤ ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم ﴾ أي بعثنا من بعد نوح رسلا مثله

إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فيما يأتي من خبرهم معهم ولهذا أفرد كلمة قومهم فيما يظهر لنا منه. والمراد أرسلنا كل رسول منهم إلى قومه كهود إلى عاد وصالح إلى ثمود، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام الذين كانوا في زمانه إلا شعيباً أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى جيرانهم أصحاب المؤتفكة لائتخاها في اللغة والوطن، وإنما

أرسل محمد وحده إلى الناس كافة ﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي فجاء كل رسول منهم قومه بالبينات الدالة على رسالته وصحة مادعاهم إليه بحسب أفهامهم وأحوالهم العقلية

﴿فما كانوا يؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ أي فما كان من شأنهم أن يؤمن بالتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ممن كان مثله في سبب كفره وهو استكبار

الرؤساء، وتقليد الدهماء والآباء والإجداد ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾

أي مثل هذا الطبع وعلى غرار هذه السنة التي اطردت فيهم نطبع على قلوب المعتدين مثلهم في كل قوم كقومك أيها الرسول إذا كانوا مثلهم (ولا نجد لسنةنا

تحويلاً * ولن نجد لسنة الله تبديلاً) فأما الطبع على القلوب فهو عبارة عن عدم

قبولها شيئاً غير ما رسخ فيها واستحوز عليها مما يخالفه، كقبول الجاهل المقلد الدليل

العلمي على بطلان اعتقاده التقليدي، ورجوع المعاند عن عناده وكبره النفسي [وقد

تقدم تفصيله في تفسير ما سبق فيه من الآيات في سور النساء والاعراف والتوبة،

ومثله تفسير (ختم الله على قلوبهم في أوائل سورة البقرة) وأما الاعتداء الذي

صار وصفاً ثابتاً لهؤلاء (المعتدين) فمعناه تجاوز حدود الحق والعدل اتباعاً لهوى

النفس وشهواتها، فالطبع المذكور أثر طبيعي للحالة النفسية التي عبر عنها بوصف

الاعتداء، وليس عقاباً أنما (بضمين أي جديداً) خلقه الله لهم من الإيمان، إذ لو كان

كذلك لكانوا معذورين بكفرهم، ولما كان فيه عبرة لغيرهم، بل لكان حجة

لهم، وقد فهمت قریش وسائر العرب ما لم يفهمه متكلموا الجبرية من هذه الآية وأمثالها،

وهو أنها وصف للعلو والمعلول، والسبب والمسبب، وسنته تعالى في دوام كل منهما

بدوام الآخر، لا بداته وكونه خلقياً لا مفر منه، بل المقر أمر اختياري ممكن، وهو ترك

المعاند لمعاند والمقلد لتقليده، بإثارة الحق الذي يقوم عليه الدليل، فهموا هذا فاهتدى

الأكثرون بالتدريج، وهلك الذين استحبوا العمى على الهدى في غزوة بدر وغيرها

(٧٥) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَّجْرِمِينَ (٧٦) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٧) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا؟ وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ (٧٨) قَالُوا
أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ
فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ؟

هذه قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه ملخصة هنا في ١٩ آية مفصلة مرتبة كما نبينه في تفسيرها . وهذه الاربعة منها في استكبار فرعون وملئه عن الايمان وزعمهم أن آيات الله لموسى من السحر ، وتعليل تكذيبهم له بأمرين أحدهما أن اتباعه نحويل لهم عن التقاليد الموروثة عن الآباء ، والثاني أنه يسلب سلطانهم منهم وينفرد هو وأخوه بما يتمتعون به من الكبرياء في الارض ، وهذا يعنى ما تقدم من قصة نوح المختصرة في هذه السورة . وهاك تفسير من بالاختصار

٧٥ - ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين بعثناهم إلى أقوامهم موسى وهارون إلى فرعون مصر وإشراف قومه الذين هم أركان دولته وإلى قومهم القبط بالنبح لهم لانهم كانوا مستعبدين لهم يكفرون بكفرهم ، ويؤمنون بايمانهم إن آمنوا ﴿ بآيَاتِنَا ﴾ أي بعثناهم مؤيدين بآياتنا التسع المفصلة في سورة الاعراف وغيرها ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَّجْرِمِينَ ﴾ أي فاستكبر فرعون وملؤه أي اعرضوا عن الايمان كبرا وعلاوا مع علمهم بأن ما جاء به هو الحق ، لما كانوا عليه من سعة العلم وصناعة السحر ، وكانوا

« تفسير القرآن الحكيم » « ٥٩ » « الجزء الحادي عشر »

٤٦٦ تعاليلهم دعوة موسى بالانفراد بالرياسة الدينية والملك (التفسير : ج ١٨)

قوما راسخين في الاجرام وهو الظلم والفساد في الارض ، كما قال تعالى في سورة النمل (٢٧ : ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)

٧٦ — ﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ وهو آياتنا الدالة على الربوبية والالوهية ﴿ من عندنا ﴾ ووحينا الى موسى كما هو مفصل في أول سورة الشعراء وغيرها للبطل لادعاء فرعون لها بقوله (أنا ربكم الأعلى) وقوله (ما علمت لكم من إله غيري) ﴿ قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ أي أقسموا إن هذا الذي جاء به موسى من الآيات الدالة على صدقه ، إنما هو سحريين ظاهر ، وإنما السحر صناعة باطلة هم أحذق الناس بها ، فكيف يتبعون من جاء ينازعهم سلطانهم بها ، فهاذا قال لهم موسى ؟

٧٧ — ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ أي قال لهم متعجبا من قولهم : أتقولون هذا الذي قلتم للحق الظاهر ، الذي هو أبعد الاشياء عن كيد السحر الباطل ، لما جاءكم وعرفتموه واستيقنته أنفسكم ، حذف مقول القول للدلالة ما قبله عليه وهو قواهم « إن هذا لسحر مبين » وكذا ما بعده وهو قوله منكرا له متعجبا منه ﴿ أسخر هذا ﴾ أي ان هذا الذي ترونه من آيات الله بأعينكم ، وترجف من عظمتها قلوبكم ، لا يمكن أن يكون سحرا من جنس ما تصنع أيديكم ، ﴿ ولا يفاج الساحرون ﴾ أي والحال المعروف عنكم ان الساحرين لا يفوزون في أمور الجدد العملية من دعوة دين وتأسيس ملك وقلب نظام ، وهو ما تنهونني به على ضعف قوتكم ، لان السحر أمور شعوذة وتخيل ، لا تلبث أن تفتضح وتزول ، يدل على هذا جوابهم له :

٧٨ — ﴿ قالوا أجئتنا للتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا (١) وتكون لكما الكبرياء في الارض ﴾ هذا استفهام توريط وتقدير ، تجاه ما أورده موسى من استفهام الانكار والتعجيب ، فخواه أنقر وتعتزف بأنك جئتنا لتصرفنا ونحولنا عما وجدنا عليه

(١) فعل لفت يتعدى بمن وتعديته بالي مخالف لما في هذه الآية وغيرها وهو خطأ مشهور في عصرنا ، فهو ليس كفعل صرف يتعدى بمن والي

آباءنا وأجدادنا من الدين القومي الوطني لنبيع دينك وتكون لك ولا أخيك
كبرياء الرياسة الدينية ، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها
في أرض مصر كلها ؟ يعنون أنه لا غرض لك من دعوتك إلا هذا وإن لم تعترف به
اعترافاً ، جعلوا الخطاب الخاص بالدعوة والغرض منها لموسى لأنه هو الداعي لهم
بالذات وأنشروا معه أخاه في ثمرة الدعوة وفائدتها لأنها تكون مشتركة بينهما
بالضرورة ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان
واذعان فيما نخرجنا من دين آبائنا الذي تقلده عامتنا ويسلمنا ملكنا الذي تتمتع
بكبريائه خاصتنا - وهم الملك وأركان دولته وبطانته وحواشيته - وهذا الانحراف هما
الذان كانا يمتنان جميع الاقوام من اتباع الانبياء والمصلحين في كل زمان .

(٧٩) وَقَالَ فِرْعَوْنُ اانْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٨٠) فَلَمَّا جَاءَ
السَّحَرَةُ قَالَتْ لَهُمْ مُوسَى اَلْقُوا مَا اَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨١) فَلَمَّا اَلْقَوْا قَالَ
مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ، اِنَّ اِلَهَ سَيِّدِي هُوَ ، اِنْ اِلَهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨٢) وَيُحِقُّ اِلَهُ الْحَقِّ بِكَلِمَتِهِ وَاَوْ كَرِهَ الْخَافِرُونَ

هذه الآيات الأربع في خلاصة ما قاوم به فرعون دعوة موسى لتأييد ادعائه
أنه ساحر وصرف قومه عن اتباعه لعدم تمييزهم بين السحر وآيات الله له

٧٩- ﴿ وقال فرعون انتوني بكل ساحر عليم ﴾ أي ذاك ما قاله لـ فرعون
لموسى وأخيه بحضرته . وقال فرعون لملئه بعد مارأوا من اصرار موسى على دعوته ،
وعدم مبالاته بالتصريح له بما يدعون او يظنون من مراده : انتوني بكل ساحر واسع
العلم راسخ فيه متقن للسحر بالعمل كما عبر عنه في آية أخرى « بكل سحار عليم »

٨٠- ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ الطالوتون الموصفون بما ذكر ﴿ قال لهم موسى ﴾
بعد أن خبروه بين أن يلقي ما عنده أولاً أو يلقي ما عندهم كما هو مبين في سورتي

الاعراف وطه ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ ليرتب عليه إبطال الباطل وإظهار الحق
 ٨١ - ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوه من حبالهم وعصيهم الصناعية السحرية
 ﴿قال موسى : ما جئتم به للسحر﴾ أي هذا الذي جئتم به وألقيتموه أمامنا هو
 السحر لا ما جئت به من آيات الله تعالى ومنها فرعون وملؤه سحراً ﴿إن الله سيظهر﴾
 أي سيظهر بطلانه للناس وأنه صناعة خادعة، لا آية خارقة صادقة، فالجمل استثنائية
 لبيان ما يوقن به موسى من مآل هذا السحر، ويجوز أن تكون خبراً لما قبلها ويكون
 التقدير : ما جئتم به الذي هو السحر ، أن الله سيظهر بما جئت به من الحق، وعمل
 حكمه بقوله ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ وهو قاعدة عامة مبينة لسنة الله
 في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فانه باطل وفساد
 أي لا يحمل عمل المفسدين صالحاً ، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين

٨٢ - ﴿وبحق الله الحق بكلماته﴾ أي بثبت الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره
 على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهي مقتضى إرادته، وكلماته التشريعية
 التي يوحىها إلى رسله ، ومنها وعده بنصري على فرعون وإفقاذ قومي من عبوديته
 وظله ﴿ولو كره المجرمون﴾ كفرعون وقومه. وقد سبق تفسير مثل هذه الآية
 في سورة الانفال (٨ : ٨٧)

(٨٣) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ، وَإِن فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ
 لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٤) وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ
 تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٥) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٦) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

[يونس : ١٠] إيمان الشبان والمراحمين بموسى على خوف من فرعون ٤٦٩

(٨٧) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَ الْقَوْمَ مَكَنًا بِمِصْرَ بِيُوتَا
وَأَجْمَعُوا بِيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

هذه الآيات الخمس في بيان ما كان من شأن موسى مع قومه بني إسرائيل الذين أرسله الله ليخرجهم من مصر ، في إثر ما كان من شأنه مع فرعون وملئه ٨٣ - ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ المتبادر إلى فحفي أن عطفه هذه الجملة على ما قبلها باغناء لفادة السببية أو التفريع ، أي إن إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم ، ثم عزمه على قتله كما أنبأ الله تعالى بقوله (٤٠ : ٢٦) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) يعني بالفساد الثورة والخروج على السلطان - كما قتل من آمن به من السحرة . كل هذا أوقع الخوف والرعب في قلوب بني إسرائيل قوم موسى فما آمن له إلا ذرية من قومه وهم الأحداث من المراهقين والشبان ، وقليل قوم فرعون ولكن من آمن به منهم كان يكتم إيمانه ولا يقال آمن له إلا من اتبعه مؤمناً ، ولم يكونوا صفاراً . والذرية في اللغة الصغار من الأولاد ، قال الراغب وإن كان يقع على الصفار والكبار معاً في التعارف ، ويستعمل

للواحد والجمع وأصله الجمع . ﴿على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾ أي آمنوا على خوف من فرعون وملئهم أي أشرف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب هو منهم ، فإن الملوك يستذلون الشعوب ويستعبدونهم برؤساء وعرفاء منهم ، وقليل ملاً فرعون وجمع ضميره للتعظيم على خوف منه أن يفتنهم عن الإيمان لموسى واتباع دينه بالتعذيب والارهاق . الفتون الابتلاء والاختبار الشديد للأهل على الشيء أو على تركه ، واستعمل في الاضطهاد والتعذيب للارتداد عن الدين

بكثرة كما تقدم في تفسير (وقالت لهم حتى لا تكون فتنة) ﴿وإن فرعون لعالٍ في الأرض﴾ أي والحال أن فرعون عات شديد العتو مستبد غالب قوي القهر في أرض مصر فهو جدير بأن يخاف منه . فالمراد بملوه قهره واستبداده كما حكى الله عنه بقوله

٤٧٠ أمر موسى للمؤمنين من قومه بالتوكل على الله (التفسير : ج ١)

(٧ : ١٢٧) وقال الملأ من قوم فرعون: أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك؟ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون)

﴿وانه لمن المفسرفين﴾ أي المتجاوزين حدود الرحمة والعدل، إلى الظلم والقتل، والعدوان والبغي، وغمط الحق واحتقار الخلق (وهو معنى الكبرياء)

٨٤ - ﴿وقال موسى﴾ لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد

مرشداً ومثبتاً لهم ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا، وبوعده فتقوا، إن كنتم في إيمانكم مسلمين مدعين بالفعل، وإنما يكون الإيمان يقيناً إذا صدقه العمل وهو الاسلام، وهذا لا يدل على إيمان جميع قومه كما قيل، «لا إيمان بالله غير الإيمان لموسى المتضمن لمعنى الاسلام والاتباع المشار اليه بقوله (إن كنتم مسلمين)» وهم قد طلبوا منه بعد نجاشهم أن يجعل لهم آلهة من الاصنام، ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه

٨٥ ﴿فقالوا على الله توكلنا، ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين﴾ أي فامتثلوا الامر، اذ علموا انه يتوقف عليه إنجاز الوعد، وصرحوا به في القول، مع الدعاء بأن يحفظهم الله من فتنة القوم الظالمين بالفعل، فان التوكل على الله الذي هو أكبر مقامات الايمان لا يكمل الا بالصبر على الشدائد، والدعاء لا يصح ولا يقبل فيستجاب، الا اذا كان مسبوقاً أو مقارناً لاتخاذ الأسباب، وهو أن تعمل ما تستطيع، وتطلب من الله أن يسخر لك ما لا تستطيع. ولفظ «فتنة» هنا يحتمل معنى القائن والمفتون. فكأنهم قالوا ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتننا بهم فتتولى عن اتباع نبينا، أو تضعف فيه قراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، ويظنوا أنهم على الحق وإنما على الباطل. ومن المعقول والثابت بالتجارب ان سوء حال المؤمنين وأهل الحق في أي حال من ضعف أو فقر أو عمل مذموم يجهلهم موصفاً أو موضوعاً لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم، باعتقاد أنهم هم خير منهم، كما قال تعالى (٥٣: ٦) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) وقال (٢٥ : ٢٠) وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟) فكيف اذا خذل أهل الحق حقهم ، وكفروا نعمة ربهم ؟

٨٦ ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي نجنا من سلطانهم وحكمهم لان حكم الكافر لا يطاق . ومثل هذا الدعاء في جلته قوله تعالى في سياق التأمي بابراهيم والذين آمنوا معه في أقوالهم لقومهم وأفعالهم وتوكلهم (٦٠ : ٤) ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير (٥) ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك انت العزيز الحكيم) وما أجدر المسلمين اليوم بهذه الاسوة ، وتجديد الانابة ، وتكرار هذا الدعاء خاضعين معتبرين مستعبرين ، فقد أصبحوا فتنة للقوم الكافرين

٨٧ ﴿ وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ﴾ يقال تبوأ الدار : اتخذها موطأ او مباءة أي مسكناً ثبثا وملجأ يبوء اليه أي يرجع كما فارقه الحاجة ، وبوأها غيره . وقوله (أن تبوءا) تفسير لا وحيناً لانه بمعنى قلنا لها : اتخذنا قومكما بيوتاً في مصر تكون مساكن وملاجئ يبوءون اليها ويعتصمون بها . ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي متقابلة في جهة واحدة فالقبلة في اللغة ما يقابل الاكسان ويكون تلقاء وجهه ومنه قبلة الصلاة وهي أخص ويصح الجمع هنا بين المعنيين العام والخاص بقرينة قوله ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي فيها متوجهين الى جهة واحدة لان الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب كما قال النبي ﷺ في حكمة تسوية الصفوف في الصلاة « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وحكمة هذا ان يكونوا مستعدين لتبليغهم إياهم ما يأمرونهم ويعنيهم بما بعثا لاجله وهو الحياض من عذاب فرعون باخراجهم من بلاده . واختلف المفسرون في الجهة التي أمروا باستقبالها والتوجه اليها في الصلاة وهي لا تعلم إلا بنص ولا نص ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملائته الظالمين لهم وتنجيتهم من ظلمهم . خص الله موسى بهذا الامر (التبشير) لانه من أمر الوحي والتبليغ المنوط به ، وأشرك هارون معه في الامر الذي قبله لانه تدبير علي هو وزيره المساعد له على تنفيذه

(٨٨) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٩) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ

هاتان الآيتان هما الرابطتان بين سيرة موسى وهارون مع فرعون وقومه في مصر ، وبين ما انتهت إليه من نصر الله له عليه وإنجاء بني إسرائيل من ظلمه ، وإهلاكه عقابا له كما وقع لنوح مع قومه

٨٨ ﴿وقال موسى﴾ بعد أن أعد بني إسرائيل للخروج من مصر إعدادا دينيا دنيويا، متوجها إلى الله تعالى في إتمام الأمر، بعد قيامه بما يقدر عليه هو وبني إسرائيل من الأسباب ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملاؤه زينة وأموالا في الحياة الدنيا﴾ أي إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم دون دهمائهم - من الصناع والزراع والجنود والخدم - زينة من الحلي والحلل والآنية والماعون والاثاث والرياش، وأموالا كثيرة الانواع والمقادير ، يتمتعون بها ويتمتعون منها في حظوظ الدنيا من العظمة الباطلة والشهوات البدنية بدون حساب ، ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك بأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والطغيان على الناس ، وكثرة الاموال تمكنهم من ذلك وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال تعالى (إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى) وذلك دأب فراعنة مصر به تشهد آثارهم وركازهم التي لا تزال تستخرج

من برايتهم^(١) ونواويس قبورهم الى يومنا هذا الذي اكتب فيه تفسير هذه الآيات وتحفظ في دار الآثار المصرية ، ووجد مثلاً دور أخرى في عواصم بلاد الافرنج ملأى بامثالها . فاللام في قوله (ليضلوا) تسمى لام العاقبة والصيرورة وهي الدالة على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلقها يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ولا بقصد فاعل الفعل الذي تتعلق به كقوله تعالى في موسى عليه السلام (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) ويميز بينها وبين لام كي الدالة على علو الفعل بالقرينة . وجعلها بعضهم هنا منها . وحملوها على الاستدراج أي آتيتهم ذلك لكي يضلوا الناس فيستحقوا العقاب ، وقد يعرزه قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ . يقال طمس الأثر وطمسته الريح اذا زال حتى لا يرى اولا يعرف (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فانى ييئسرون) وهو يصدق بالعمى وبعدم الانتفاع بها كما سبق قريباً في قوله (ومنهم من ينظر اليك أفأت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون) وانفقوا على ان المراد بالعمى هنا عمى البصيرة لا البصر ، والمعنى هنا ربنا امحق أموالهم بالآفات التي تصيب حرثهم وأنعامهم وتنقص مكاسبهم ونملأهم وغلاتهم فيذوقوا ذل الحاجة واشدد على قلوبهم ﴿ أي اطبع عليها ، وزدها قساوة وإصراراً وعناداً ، حتى يستحقوا تمجيل عقابك فماتهم ﴾ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ﴿ هذا جواب للدعاء أو دعاء آخر بلفظ النهي متم له . وقد روي أن موسى دعا بهنذا الدعاء ، وأمن هارون عايشها السلام كما هو المعتاد ، فاستجاب الله تعالى لها بقوله

٨٩ ﴿ قال قد أجيب دعوتكما ﴾ أي قبلت ، وإذا قبلت نفذت ﴿ فاستقم ﴾ على ما أتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق ، ومن إعداد بني اسرائيل للخروج من مصر . وعن ابن عباس (رض) فامضيا لا مري وهو الاستقامة ﴿ ولا تتبعان . (١) البراي مبانى بشكل غريب جمع برى بالفتح والقصر وقد تكتب برى ، وهي كلمة قبطية معناها المعبد والهيكل ، والنواويس صناديق من الحجارة توضع فيها جثث الموتى . والركاز الاموال التي كان الاقدمون يدفنونها في الارض من ركزه اذا أثبتته فهو ككتاب بمعنى مكتوب

مبيل الذين لا يعلمون ﴿ أي ولا تسلكان طريق الذين لا يعلمون سبتي في خلقي ، وإنجاز وعدي لرسل ، فاستمعوا الامر قبل أوانه ، وتستبظا وقوعه في إبانه هذا - وان في قصة موسى وفرعون في سفر الخروج ما يفسر استعجابه هذا الدعاء بما يوافق ما قلناه هنا من إرسال الله النوازل على مصر وأهلها ، ولجوء فرعون وآله الى موسى عند كل نازلة منها ليدعوه ربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا به حتى اذا ما كشفها قسى الرب قلب فرعون فأصر على كفره . وقد فصلنا هذا في تفسير قوله (١٣٣: ٧ - ١٣٥) من سورة الاعراف (١) ومنه تعلم ان كل ما خالفها من أقوال المفسرين في معنى الطمس على أموالهم فهو من أباطيل الروايات الاسرائيلية التي كان من مقاصد كذب الاحبار وأمثاله منها (كما نرى) صد اليهود عن الاسلام بما يروونه في تفسير المسلمين للقرآن مخالفا لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من المؤرخين في وقائع عملية وأمر حسيبة

(٩٠) وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
بَغْيًا وَعَدُوًّا ، حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ءَآلَسَ
وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩٢) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ
بِمَدَنِكَ لَتَسْكُوتَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ
ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ

هذه الآيات الثلاث في بيان المبرة بآخر القصة وما كان من عاقبة تأييد الله لموسى وأخيه الضعيفين بأنفسهما ، على فرعون وقومه أعظم أهل الارض قوة ودولة

٩٠ - ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ يقال جاز المكان وجاوزه وتجاوزه إذا ذهب فيه وقطعه حتى خلفه وراءه . وأصله من جاوز الطريق ونحوه وهو وسطه ، وتسمية الجوزاء مأخوذة من تعرضها في جوز السماء أي وسطها ، ومجاوزة الله البحر بهم عبارة عن كونهم جاوزوه بموئته تعالى وقدرته وحفظه ، إذ كان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقه تعالى بهم البحر وانفلاقهم كما تقدم في سورة البقرة والأعراف ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا﴾ أي لحقهم فأدركهم ظلماً وعدواناً عليهم أيفتك بهم أو يعيدهم إلى مصر حيث يتبعدهم ويسومهم سوء العذاب ﴿حتى إذا دركه الفرق﴾ أي لخاض البحر وراءهم حتى إذا وصل إلى حد الفرق قال ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ أي قال قبل أن يفرق وهو يدل على أن البحر لم يطبق عليه دفعة واحدة : آمنت أنه لا إله بالحق إلا الرب الذي آمنت به جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي وأنا فرد من جماعة المذعنين له المتقادين لأمره ، بعد ما كان من كفر الجحود بآياته والعناد لرسوله . يعني أنه جمع بين الإيمان الذي هو التصديق بالقلب ، والإسلام الذي هو الإذعان والخضوع بالفعل ، بدون امتياز لعظمة الملك ، وكان من قبل جاحداً ، أي مصدقاً غير مذعن ولا خاضع ، بدليل قوله تعالى فيه وفي آله (٢٧: ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (يحيى آيات موسى . وهذه هي العاقبة ، وقد أجيب فيهم فرعون عن دعواه بقوله تعالى الذي يعرف بلسان الحال أو بقول جبريل (ع . م .)

٩١ ﴿آلآن ؟﴾ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴿أي أنسلم الآن أو تدعي الإسلام وأذعان الطاعة والانقياد ، حيث لا محل له ولا إمكان ، بما حال دونه من الهلاك ، وقد عصيت قبله وكنت من المفسدين في الأرض الظالمين للعباد ، والمراد أن دعوى الإسلام الآن باطلة ، والإيمان بدون الإسلام مع إمكانه لا يقبل

فكيف يقبل وقد صار اضطرارا لا معنى لقبوله ، لانه انفعال لا فعل لصاحبه ،
وجملة القول ان إسلامه كان كما قال الشاعر

أنت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام الانكاري في هذه السورة وهو قوله تعالى
في المكذبين بوعد الله تعالى ووعيده بما كان يحملهم على استعجال عذابه (٥١) أثم
إذا ما وقع آمنتم به؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون) وسيأتي بعد بضع آيات منها
ان الايمان لا ينفع عند وقوع عذاب الاستئصال الذي هو نهاية أجل القوم ، كما انه
لا ينفع عند موت الشخص ، كما تقدم في قوله تعالى (٤ : ١٨) وليست التوبة للذين
يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ، ولا الذين
يعوتون وهم كفار) ومن البديهي ان التوبة من الكفر والمعصية إنما تنفع بالرجوع
الى الطاعة . على أن اليأس من التوبة بالفعل ، لا يمتثل أن يكون صادقا في ادعائه
إياه أو طلبه له بالقول . ولعل فرعون أراد بقوله حينئذ انه من جماعة المسلمين انه
موطن نفسه على أن يكون منهم إن أنجاه الله تعالى ، وأنه كان يرجو بهذا أن ينجيه الله
تعالى ، كما أنجاه وقومه من كل نازلة من عذاب الله حلت به وبقومه إذ كان يقول لموسى
(ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولترسلن معنا
بني اسرائيل) ولكن تلك النوازل إنما كانت لاجل إرسال بني اسرائيل مع موسى
فهي غايتها ولم تكن عقابا على الاصرار على كفر الجحود والعناد الذي هو شر أنواع
الكفر وأدناها على خبث طوية صاحبه ، كهذا العقاب الاخير بعد نجاة بني اسرائيل
منه رغم أنه

٥٢ - ﴿ فالיום تنجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية ﴾ قال أبو جعفر ابن جرير
الطبري يقول تعالى ذكره لغرعون فالיום نجملك على نجوة من الارض بيدك ينظر اليك
من كذب بهلاكك (لتكون لمن خلفك آية) يقول لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون
بك فينزعرون عن معصية الله والكفر به ، والسعي في أرضه بالفساد . والنجوة
الموضع المرتفع من الارض . ومنه قول أوس بن حجر :

فمن يعقوته كمن ينجونه والمستكن كمن يمشي بقرواح (١)
 ثم ذكر رواه عن قال بهذا القول . وقال أهل اللغة : سمى المكان المرتفع
 نجوة ونجاة - وزاد بعضهم : منجى - لأن من عليه ينجو من السيل ، وإنما دفعه
 ودفعهم الى تفسير الآية بهذا الوجه من اللغة أن إنجاء الانسان من الفرق انما يكون
 بخروجه حيا بيدنه ونفسه كما تقدم قريبا في إنجاء نوح ومن معه في الفلك ، وكل استعماله
 في القرآن بمعنى النجاة من العذاب كإنجاء بني اسرائيل من فرعون وآله ، وقال
 بعضهم ان التعبير بالنجية تهكم به ، وان الحكمة بذكر البدن انه يخرج جسده سالما
 ليعرف ، وقيل إن المراد بالبدن الدرع فهو من أممائها في اللغة ، وإنما محل العبرة
 أن يلاحظ البحر بيدنه ليعرف فيعتبر بنو اسرائيل الذين قيل لهم شكوا في غرقه
 ويعتبر القبط الذين عبدوه ، ولذلك قيل ان درعه كانت معروفة وانها من الذهب
 أو كان له فوق درع الزرد درع أخرى من الذهب ، ولكن الدرع تقتضي رسوب الفريق
 في البحر الا ان يحرقه الموج . وأما العبرة لمن بعده فهي أعم : هي ماسية قصة
 لأجله من كونها شاهداً كالتى قبلها على صدق وعد الله لرسله ووعداه لأعدائهم
 كطاعة مكة التي أنزلت هذه الآيات بل هذه السورة كلها لاقامة حجج الله
 عليهم في هذه المسألة قبل غيرهم ، لانهم أول من بلغته الدعوة ، وقوله تعالى
 ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لما فلون ﴾ تعريض بهم وأكد هذا التأكيد
 لما تقتضيه شدة الغفلة من قوة التنبيه أي إنهم لشديدو الغفلة عنها على شدة ظهورها ،
 فلا يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها ، ولا يعتبرون بها ، وإنما يمرون
 عليها معرضين كما يمرون على مسارح الانعام ، وفيه ذم للغفلة وعدم التفكير في
 أسباب الحوادث وعواقبها واستبانة سنن الله فيها ، للاعتبار والاتعاظ بها . ومن
 العجيب ان يكون أهل القرآن منهم ، كلا إنه حجة على الغافلين بريء منهم

«١» البيت من قصيدة في وصف المطر نسبت لغير أوس هذا . والعقوة الساحة
 وما حول الدار ، والقرواح بالكسر المكان البارز للشمس والذي لا يمسك الماء

(٩٣) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ
الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

هذه الآية خاتمة هذه القصة ومنتهى العبرة فيها لمكذبي محمد ﷺ
والجاحدين من قومه الغرورين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم، في موسى والجاحدين
لآياته من فرعون وقومه، وقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشد قوة، وأعظم زينة
وأوفر ثروة، وسنة الله في موسى ومن قبله واحدة، وقصته كقصه نوح في العاقبة،
وأما نصر الله لمحمد نبي الرحمة والنجاز وعده له، قد جرى على وجه أتم وأكمل في
غايته، وإن لم يكن غريباً في صورته، وهو أن الله تعالى أهلك أكثر زعماء أعدائه
المشركين، وأخضع له الآخرين، وجعل العاقبة لاتباعه المؤمنين، وأعظم أعظم
ملك في العالمين، ومنه ما كان أعطى موسى من قبل وهو فلسطين . قال

٩٣- ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ﴾ قلنا أنما ان المبوا مكان الإقامة
الامين . وأضيف إلى الصدق لدلالته على صدق وعد الله تعالى لهم به وهو منزلهم
من بلاد الشام الجنوبية المعروفة بفلسطين ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فيه، وهي
التي أشير إليها في وصف أرضها من كتبهم بأنها تفيض لبناً وعسلاً، وما فيها من الغلات
والثمرات والانعام، وكذا صيد البر والبحر، وقد بينا من قبل ما كان من وعد الله
لهم بهذه الأرض المباركة على لسان إبراهيم واسحاق ويعقوب (١) ومن أيلولة هذه
الأرض من بعدهم لذرية إبراهيم من العرب بعد حرمان اليهود منه تصديقاً
لوعيد أنبيائهم لهم على كفرهم بنعم الله تعالى أولاً ثم بكفرهم بعبسى، ثم بمحمد
رسول الله النبي الأُمي الذي وعدهم به على لسانه ولسان من قبله كما تقدم تفصيله في
تفسير سورة الاعراف (٢) وأشير إليه هنا بقوله ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾

على قول بعض المفسرين إن المراد بالعلم هنا محمد ﷺ أو رسالته أو القرآن الذي هو أكمل وأتم ما أنزل الله من علم الدين وقوله تعالى في سياق الرد على أهل الكتاب (لكن الله يعلم بما أنزل إليك أنزله بعلمه) وقوله (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) وقوله (بكتاب فصلناه على علم) فقد كانوا متقين على بشارة أنبيائهم به قبل بعثته فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وقال آخرون وهو الاظهر : إن المراد هنا علم الدين مطلقا ، وقد اختلفوا فيه كغيرهم ممن أوتوا الكتب من وجوه فصلناها في تفسير الآية العامة في الاختلاف وهي (٢١٣: ٢) وفي الآية ١٩ من هذه السورة وما هي ببعيد ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ إذ جعلوا الدواء عين الدواء في أمر الدين بعد إذ أنزل عليهم الكتاب ليحكم بينهم فاختلفوا في الكتاب بغيا بينهم

(٩٤) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُرْتَمَوْنَ بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٥) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٧) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

هذه الآيات الأربع فذلكه هذا السياق الذي كان ذكر قصص الانبياء شواهد فيه ، وهي تقرير صدق القرآن في دعوته ووعدده ووعيدده ، وكونه لا مجال للامتراء فيه ، وبيان الداعية النفسية للكاذبين بآياته ، وتوجيه الاعتبار إلى أهل مكة مقرونا بالانذار ، بأسلوب التعريض والتلطف في العبارة ، على حد : إياك أعني واسمعي يا جارة .

٩٤- ﴿فان كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ أي فان كنت أيها الرسول في

شك بما أنزلنا إليك في هذه الشواهد من قصة موسى ونوح وغيرهما على سبيل
الفرض والتقدير، الذي ذكر على عادة العرب في تقدير الشك في الشيء، لينبئ عليه ما ينبغي
احتمال وقوعه أو ثبوته أمراً أو نهياً أو خبراً، كقول أحدهم لابنه: إن كنت ابني
فكن شجاعاً أو فلا تكن بخيلاً، أو فانت ستكون أو ستفعل كذا - بل يفرضون
سؤال الديار والاطلال أيضاً ومنه قول المسيح في جواب سؤال الله تعالى إياه
(١١٦: ٥) أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانه ما يكون
لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته (وهذه الجملة الشرطية محل
الشاهد، فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقل ذلك، ولكنه يفرضه ليستدل عليه بأنه
لو قاله لعلمه الله منه

وبعض العلماء يجري على هذا الأسلوب في شكك تلميذه أو مناظرة فيما لاشك
فيه عندهما لينبئ عليه حكماً آخر. ويجب في مثل هذا أن يكون فعل الشرط بان
التي وضعت للدلالة على عدم وقوعه أو تنزيهه منزلة ما لا يقع، دون إذا الدالة على
أن الأصل في فعل شرطها الوقوع ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾
هذا جواب الشرط المقدر قال ابن عباس لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل،
وروي مثله عن سعيد بن جبير والحسن البصري قالاه فما لغويا، وروي عن
قتادة خبراً قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال « لا أشك ولا أسأل » ولم
يسم الصحابي الذي ذكره فهو مرسل، والمراد بالكتاب جنسه، أي فاسأل
الذين يقرءون كتب الانبياء كاليهود والنصارى فانهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك
من الشواهد حق لا يستطيعون إنكاره، وقال بعض المفسرين إن المراد سؤال
من آمن منهم كعبد الله بن سلام من علماء اليهود وبنو النصارى من علماء النصارى
ولا حاجة اليه، والآية بل السورة نزلت في مكة ولم يكن أحد من أهل الكتاب
آمن. ومما يؤكد كون السؤال مفروضاً فرضاً قوله ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾
فهذه الشهادة للمؤكد بالقسم من ربه، نجتحت احتمال إرادة الشك والسؤال بالفعل
من أصله، ويزيدها تأكيداً قوله تعالى ﴿ فلا تكونن من المترين ﴾ أي من فريق

الشاكين الذين يحتاجون إلى السؤال ، وهذا النهي والذي بعده يدلان على أن فرض وقوع الشك والسؤال فيما قبلهما عنه تعريض بالشاكين والممتريين والمكذبين له عليه السلام من قومه

٩٥- ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴾
يعني أن كل من كان من المكذبين فهو من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، وإن فرض أنه أول المؤمنين ، محمد رسول الله وخاتم النبيين ، ورحمته للعالمين ، وإن الممتريين الشاكين فيما أنزل اليك كالمكذبين بآيات الله جحوداً بها وعناداً ، كلاهما سواء في الخسران المذكور لحرمان الجميع من الاهتداء بها وماله من ربح سعادة الدنيا والآخرة . وهذا النوع من الأمر والنهي للمؤمنر المنتهي والمراد غيره على سبيل التعريض أبغ من قوله تعالى (٣٤ : ٢٤) وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين * قل لا تستثلون عما أجرمنا ولا نستل عما تعملون (ولكل منها موقع وتأثير خاص في استمالة الكافرين الى التأمل والتفكر في مضمون الدعوة

٩٦- ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة العذاب من ربك وهي كلمة التكوين الدالة على سنته فيمن فقدوا الاستعداد للاهتداء ، لا يؤمنون لرسوخهم في الكفر والطفیان ، واحاطة خطاياهم وجاهلاتهم بهم من كل مكان ، وإعراضهم عن آيات الإيمان ، هذا معنى قوله (لا يؤمنون) لا أنه تعالى منهم من الإيمان منعاً خلقياً قهرياً لا كسب لهم فيه ولا اختيار . وهذا بمعنى الآية ٣٣ من هذه السورة فراجع تفسيرها

٩٧- ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ من الآيات الكونية كآيات موسى التي اقترحوها عليك أيها الرسول ، والآيات المنزلة كآيات هذا القرآن العلمية العقلية الدالة بأعجازها على كونها من عند الله ، وعلى حقية ما تدعوهم اليه وتنذرهم إياه ، ﴿ حتى يروا العذاب الاليم ﴾ يأعينهم ، ويذوقوه بوقوعهم بهم ، وحينئذ يكون إيمانهم اضطراباً لا بعد فعلاً من أفعالهم ،
« تفسير القرآن الحكيم » « ٦١ » « الجزء الحادي عشر »

ولا يترتب عليه عمل يطهرهم ويركي أنفسهم ، بل يقال لهم (الآن وقد كنتم به تستمعلون) كما قيل لفرعون (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)

(٩٨) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا، إِلَّا نَوْمَ يَوْمِ نُسِّ
لَمَاءُ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ (٩٩) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ الْآرِضِ سُوءَ بَعْضِهَا
أَفَأَنْتَ تُسْكِرُ الْفُلَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (١٠٠) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ
أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَیَجْعَلُ الرُّجُسَ إِلَىٰ الذِّمْرِ لَا يَحْتَلُونَ

هذه الآيات الثلاث تفريع على اللواتي قبلهن وتكميل لهن في بيان سنة الله في الأمم مع رسلهم ، وفي خلق البشر مستعدين للأمر المتضادة من الإيمان والكفر ، وفي تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده ووقوعها على وفقها

٩٨- ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ لولا هذه التحضيض كما قال أئمة اللغة والنحو . والمراد بالقريّة أهلها وهم أقوام الانبياء فانهم كلهم بعثوا في أهل الحضارة والعمران دون البادية . أي فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنّت بدعوتهم وإقامة الحجة عليهم ، فنفعها إيمانها قبل وقوع العذاب الذي أُنذروا به ، أي انه لم يؤمن قوم منهم برمتهم ، فان التحضيض يستلزم الجحد

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ قبل وقوع العذاب بهم بالفعل ، وكانوا أعلموا بقرية من خروج نبيهم من بينهم وروى أنهم رأوا علاماته ، ويجوز في هذا الاستثناء الاتصال والانفصال ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي صرفنا عنهم عذاب الدنل والهوان في الدنيا لان نبيهم خرج بدون إذن الله تعالى له فلم تتم عليهم الحجة ، ولا حقت عليهم كلمة العذاب ، وقد استدلوا بذهابه مغاضباً لهم على قرب وقوع العذاب

كما أنذرهم فتابوا وآمنوا فكشفناه عنهم ﴿٢٠﴾ ومتعناهم إلى حين ﴿٢١﴾ أي ومتعناهم بمناقضها إلى زمن معلوم هو عمرهم الطبيعي الذي يعيشه كل منهم بحسب سفته تعالى في استعداد بنيته ومعيشته . وقد فصلنا الكلام في الاجل الذي يسمى الطبيعي وغيره في تفسير (٢: ٦) ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) من سورة الانعام ^(١) ولا محل للبحث عن تعذيبهم في الآخرة كما فعل بعض المفسرين فان شهادة الله تعالى لهم بالايمان النافع ظاهرة في قبوله منهم صريحة ، في أنه لا يعذبهم في الآخرة على سابق كفرهم ، وانما يجزون بغيره من أعمالهم بعد الايمان

هذا الذي فسرنا به الآية هو المتبادر من عبارتها والموافق للسياق ولسنة الله تعالى في أقوام الانبياء عليهم السلام . وفيه تعريض بأهل مكة وإنذار لهم وحض على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا عذاب الخزي بعنادهم حتى إذا أنذرهم نبيهم قرب وقوعه وخرج من بينهم اعتبروا وآمنوا قبل اليأس ، وحلول اليأس ، وسيأتي ان شاء الله تعالى ما ثبت من خبره عليه السلام في تفسير سورتي الانبياء والصفات ، وهو موافق في جملة لما عند أهل الكتاب

٩٩ ﴿٢٠﴾ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً ﴿٢١﴾ أي ولو شاء ربك - أيها الرسول الحريص على إيمان الناس - أن يؤمن أهل الارض كلهم جميعاً لا يشذ احد منهم لآمنوا ، بأن يلجئهم إلى الايمان إلهاء ، وبوجره في قلوبهم إجماراً ، ولو شاء لخلقهم مؤمنين طائعين كاملين ، لا استعداد في فطرتهم لغير الايمان ، وفي معنى هذا قوله تعالى (ولو شاء الله ما أشركوا) وقوله (ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة) والمعنى الجامع في هذه الآيات انه لو شاء الله ألا يخلق هذا النوع المسمى بالانسان المستعد بفطرته للايمان والكفر ، والخير والشر ، الذي يرجح أحد الامور الممكنة المستطاعة له على ما يقابله ويخالفه بإرادته واختياره ، لفعل ذلك ، ولما وجد الانسان في الارض ، ولكن اقتضت حكمته أن يخلق هذا النوع العجيب

ويجعله خليفة في الارض، كما تقدم بيانه في قصة آدم من سورة البقرة وفي آيات أخرى، هكذا خلق الله الانسان منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به كما تقدم

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ اي ان هذا ليس في استطاعتك أيها الرسول ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت وسائر الرسل (إن عليك الا البلاغ * وما أنت عليهم بحبار) وهذه أول آية نزلت في أن الدين لا يكون بالاكراه، أي لا يمكن للبشر ولا استطاع، ثم نزل عند التنفيذ (٢: ٢٥٦) لا إكراه في الدين، أي لا يجوز ولا يصح به، وذكرنا في تفسيرها سبب نزولها وهو عزم بعض المسلمين على منع اولادهم كانوا تهودوا من الجلاء مع بني النضير من الحجاز، فأمرهم النبي ﷺ بأن يخبروهم، وأجمع علماء المسلمين على أن إيمان المكره باطل لا يصح. لكن نصارى الافرنج ومقلديهم من اهل الشرق لا يستحون من افتراء الكذب على الاسلام والمسلمين، ومنهم من يهيم بأنهم كانوا يكرهون الناس على الاسلام ويخبرونهم بينه وبين السيف بقط رقابهم، على حد المثل «رمتني بدائها وانسلت»

١٠٠- ﴿وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله﴾ أي وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير اليه من استقلالها في أفعالها، ولا مما أعطاها الله من الاختيار فيما هداها من النجدين، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين، أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سنته في استطاعة الترجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الاسباب والمسببات، ولكنها غير مستقلة في اختيارها آتم الاستقلال، بل مقيدة بنظام السنن والاقدار، فاللهي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام، لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له، ومثله قوله تعالى (٣: ١٤٥) وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله) أي إلا بمشيئته الموافقة لحكمته وسنته في أسباب الموت، فكم من انسان يعرض نفسه للموت شهيداً أو منتحراً بما يتراءى له من أسبابه، ثم لا يموت بها لنقصها أو لمعارض مناف لها في نظام القدر الذي لا يحيط به علماً إلا الله تعالى، ومعنى الاذن في اللغة الاعلام بالرخصة في الامر أي تسهيله وعدم المانع منه

﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ هذا عطف على محذوف يدل عليه المذكور دلالة الضد على الضد أو النقيض على النقيض ، أي وإذا كان كل شيء باذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره وسنته ، فهو يجعل الاذن وتيسير الايمان للذين يعقلون آياته في كتابه وفي خلقه ، ويوازنون بين الامور فيختارون خير الاعمال على شرها ، ويرجعون نفعها على ضررها ، باذنه وتيسيره ، ويجعل الرجس أي الخذلان والخزي المرجح للكفر والفجور ، على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ، فهم لا فخر رأيهم ، واتباع أهوائهم ، يختارون الكفر على الايمان والفجور على التقوى . وتقدم في تفسير آيات الحجر والميسر من سورة المائدة وفي الكلام على المنافقين من أواخر سورة التوبة ، أن الرجس لفظ يعبر به عن أقبح الخبث المعنوي الذي هو مبعث الشر والاثم

(١٠١) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُعْبِ
الْآيَاتُ وَاللَّذُرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٢) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا
مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٣) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا
عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ

هذه الآيات الثلاث إرشاد للعقلاء الذين يفهمون مما قبلها أن سنة الله تعالى في نوع الانسان ، أن خلقه مستعداً للإيمان والكفر ، والخير والشر ، وله الاختيار لنفسه ، وأن الرسول الحريص على إيمان الناس لا يقدر على جعلهم مؤمنين ، لأن الله القادر على ذلك لم يشأ أن يجعلهم أمة واحدة على الايمان وحده ولا على الكفر وحده ، وإنما جعل مدارسهم على حسن استعمال عقولهم باختيارهم في التمييز بين الكفر والايمان ، وما الرسول إلا بشير

ونذير بين الطريق المستقيم للمقل المستنير ، فالدين مساعداً للعقل على حسن الاختيار
إذا أحسن النظر والتفكير ، والله تعالى يأمر بهما بمثل قوله :

١٠١ ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والارض ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك
الذين تحرص على هدام : انظروا بعيون أبصاركم وببصائركم ماذا في السموات والارض
من آيات الله البينات والنظام الدقيق العجيب في شمسها وقمرها ، وكواكبها ونجومها ،
وبروجها ومنازلها ، وأيلها ونهارها ، وسحابها ومطرها ، وهوائها وسائها ، وبحارها
وأنهارها ، وأشجارها وثمارها ، وأنواع حيواناتها البرية والبحرية ، ففي كل من
هذه الاشياء التي تبصرون آيات كثيرة تدل على علم خالقها وقدرته ، ومشيدته
وحكمته ، ووحدانية النظام في جملتها وفي كل نوع منها هو الآية الكبرى على وحدانيته
في ربوبيته وألوهيته ، ثم انظروا ماذا في أنفسكم منها كما قال (وفي الارض آيات
للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) إنه يريدكم كل هذه الآيات ثم أنتم تشركون

﴿ وما تعني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ يجوز في هذه الجملة النفي والاستفهام ،
والنذر فيها جمع نذير أو إنذار : والمعنى ان الآيات السكونية على ظهور دلالتها ،
والنذر التشريعية على بلاغة حجتها ، لا فائدة فيهما ولا غنى لقوم لا يؤمنون بالله عن
الايان الذي يهديهم إلى الاعتبار بالآيات ، والاستدلال بها على ما تدل عليه
أكمل الدلالة من وحدانية الله وقدرته ، ومشيدته وحكمته ، وفضله ورحمته ،
والاعتبار بسننه في خلقه ، ففائدة الايمان الاولى توجيه عقل الانسان إلى حسن
القصد في نظره في الآيات ، والاستفادة منها فيما يتركى نفسه بالعالم والايمان ، ويرفعها
عن أرجاس الامور وسفسافها ، ويبدأ تفهم معنى جعل الرجس على الذين لا يعقلون ،
فليس المراد بالذين لا يعقلون المجانين الغاقلين لغريزة العقل ، بل المراد به الذين
لا يستعملون العقل في أفضل ما هو مستعمل له من المعرفة بالله وتوحيده وعبادته ،
التي تجعلهم أهلاً لآتمام نعمه عليهم وكرامته ، بالتزام الحق والعدل ، وإثبات الخير على الشر

١٠٢ - ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي إذا كان الامر كما قصصنا عليك أيها الرسول من سنتنا في الخلق وما أرسلنا قبلك من الرسل ، فهل ينتظر هؤلاء الكافرون من قومك إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم أي وقائعهم مع رسلهم مما بلغهم مبدؤه وغايته ، أي ما ثم شيء آخر ينتظر ﴿قل فانتظروا أي معكم

من المنتظرين﴾ أي قل لهم منذراً ومهدداً : إذا فانتظروا ما سيكون من عاقبتكم إني معكم من المنتظرين ، على بينة مما وعد الله وصدق وعده للمرسلين ، وإن الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون كما نذيتهم من الهالكين

١٠٣ - ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ هذا التعبير من أعجب ايجاز القرآن المعجز الذي انفرد به في العطف على محذوف ، وهو ذكر شيء يدل دلالة واضحة على أسرار عام كسنة اجتماعية تستنبط من قصة أو قصص واقعة ، ثم يأتي بجملة معطوفة لا يصح عطفها على ما قبلها من الجمل فيتبادر الى الذهن وجوب عطفها على ذلك الامر العام ، بحرف العطف المناسب للمقام ، بحيث يستغنى به عن ذكره ، وتقديره هنا : تلك سنتنا في رسلنا مع قومهم : يبلغونهم الدعوة ، ويقومون عليهم الحجة ، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن بعض ويصر

الآخرين ، فهلك المكذبين ، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا بهم ﴿كذلك حقاً علينا﴾ ننجي المؤمنين ﴿أي كذلك الانجاء ننجي المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المصيرين على كذبتك ، وعداً حقاً علينا لانخلعهم﴾ (سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنةنا تحويلاً) وقد صدق وعده كما قال

قرأ الجمهور (ننجي رسلنا) بالتشديد من التنجية إلا في رواية عن يعقوب بالتخفيف مختلف فيها . وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب (ننجي المؤمنين) بالتخفيف من الانجاء ، والباقون بالتشديد والمعنى واحد إلا أن التشديد يدل على المبالغة أو التكرار ، وهو الأنسب في الاولى لكثرة الاقوام

(١٠٤) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٠٥) وَأَنْ أَقِيمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ (١٠٧) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

هذه الآيات الأربع والآيتان اللتان بعدها ختم للسورة بالنداء العام، في الدعوة الى عقيدة الاسلام، أجملت أمرا ونهيا وخبرا في خاتمتها، كما فصلت في جملتها . قال تعالى

١٠٤ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ﴾ اي إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم اليه ، أو من ثباتي واستقامتي عليه ، وترجون تحويلي عنه

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي فلا أعبد في وقت من الاوقات ، ولا حال من الاحوال، أحداً من الذين تعبدونهم غير الله، من ملك أو بشر، أو كوكب

أو شجر أو حجر، مما اتخذتم من الاصنام والاولئان ﴿ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ أي يقبضكم اليه بالموت ثم يعثكم فيحاسبكم ويجزىكم ، ولا يفعل أحد غيره هذا ولا يقدر عليه . وإنما قال (إن كنتم في شك من ديني) وشرطه يدل على الشك في شكهم وهو ﷺ لا يشك فيه، لانه نزل دينه منزلة مالا ينبغي أن يشكوا فيه لشدة ظهوره ، وتألق نوره ، كما بينا مثله في تفسير (٢٣: ٢) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على

(يونس : ١٠) تكريم النبي عن الشرك ولا سيما دعاء غير الله ٤٨٩

عبدنا فأتوا بسورة من مثله) الآية وما بعدها . ووصف الله بتوحيدهم دون غيره من صفاته وأفعاله لتذكير كل منهم بما لا يشك فيه من عاقبة أمره وأنه سيكون كما وعده في

الدنيا والآخرة ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه ، وينصرهم على أعدائهم وأعدائهم ، واستخلافهم في أرضه ، وأنه لا يحجز ببلغ

١٠٥- ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ﴾ أي أمرت بأن أكون من المؤمنين وبأن أقيم وجهي للدين القيم الذي لا عوج فيه حالة كوني حنيفاً أي مانلاً عن غيره من الشرك والباطل ، ولكن اختيار هنا صيغة الطالب وفيما قبله الخبر ، ذلك بأن الخبر هو المناسب لملاقة هذا الأمر بالماضي وهو أن يكون من جماعة المؤمنين ، الموعودين بما تقدم من سنة الله في النبيين ، والطالب هو المناسب لملاقته هو وما عطف عليه من النهي بالحال والاستقبال ، من دعوة هذا الدين الموجهة إلى أهل مكة وسائر الناس (ولا فرق بينهما في الأعراب كما حققه سيديوه وغيره) وإقامة الوجه للدين هنا وفي سورة الروم (٤٣:٣٠) عبارة عن التوجه فيه إلى الله تعالى وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى غيره ، والمراد به توجه القلب ، وفي معناه (٧٩:٦) أي وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً) ومثله إسلام الوجه لله في سور البقرة (١١٢:٢) وآل عمران (٢٠:٣) والذساء (١٢٤:٤) وإسلامه إلى الله في سورة لقمان (٣١:٢٢) وكذا توجيه الوجه الحسي إلى القبلة في آياتها وهو الأصل في اللغة ، والمراد به وجهة الإنسان ، فمن توجه قلبه في عبادة من العبادات (ولاسيما مخ العبادة وروحها وهو الدعاء) إلى غير الله فهو عابده لمشارك بالله ، وأكده بالنهي عن ضده معطوفاً

عليه فقال ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أصحاب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم وبين الله تعالى حججاً من الوسطاء والأولياء والشفعاء يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة تصيدهم ، والحاجة التي تستعصي على كسبهم ، ووجوههم وجهتهم إلى صورهم وتمثيلهم في هياكلهم ، أو قبورهم في معابدهم ، ويدعونهم لقضاء حوائجهم إما بأنفسهم وإما بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم ، ثم بين هذا بالإشارة إلى سببه عند المشركين والنهي عن مثله معطوفاً عليه فقال

٤٩٠ استئصال القرآن الشريك من قلوب متدبريه ودعوته الى هاجريه (التفسير: ١١)

١٠٧ - ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ أي ولا تدع غيره تعالى (دعاء عبادة وهو ما فيه معنى القرية والجري على غير المعتاد في طلب الناس بعضهم من بعض) لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء - ما لا ينفعك إن دعوتك لا بنفسه ولا بوساطته ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره ﴿فان فعلت فانك إذا من الظالمين﴾ أي فان فعلت هذا بأن دعوتك غير فانك أيها الفاعل في هذه الحال من طغامة الظالمين لأنفسهم الظلم الأكبر وهو الشرك الذي فسر به النبي ﷺ قوله تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) فانه لما كان دعاء الله وحده هو أعظم العبادة ومحبة كما ورد في الحديث - كان دعاء غيره هو معظم الشرك ومحبه كما كررنا التصريح به بتكرار تفسير الآيات الناهية عنه ، ومنها في هذه السورة قوله تعالى (١٨) ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقوله (٤٩) قل لأملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله) وقوله قبلها (١٢) فاذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) وقوله في أهل الفلك (السفينه) المشركين عند إخطاة الخطر بهم (٢٢) دعوا الله مخلصين له الدين)

والآيات في هذا المعنى كثيرة متفرقة في السور ، كرت لا أجل انتزاع هذا الشرك الأكبر من قلوب الجمهور الأكبر . وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من القرآن ، وكان جل عبادتهم تكرار تلاوته بالغدو والأصاال ، والليل والنهار ، ثم عاد بقضه وقضيضه إلى الذين هجروا تدبر القرآن وهم يدعون الاسلام ، وأكثرهم يتلقون عقائدهم من الآباء والامهات والمعاندين ، وأكثر هؤلاء من الخرافيين الاميين الجاهلين ، وأكثر القارئین منهم على قلوبهم يأخذونها من كتب مقلدة متأخري المتكلمين الجدلية والمتصوفة الجرافية ، ولا يكاد مسجد من مساجدهم يخلو من قبر مشرف مشيد ، توقد عليه السرج والمصابيح وقد لعن الرسول ﷺ فاعليها ، ويتوجه اليه الرجال والنساء ، في كل صباح ومساء ، يدعون من دون الله من يعتقدون أنهم احياء يقيمون فيها ، ويتقربون اليهم بالهدايا والندور من الاميين ، ويعرض

(يونس : ١٠) أتأويل علماء السوء للشرك بالله، ولا يكشف الضر سواء ٤٩١

الاستغاثة والدعاء من المتعنين، ليكتفوا عنهم الضر، ويهبوا لهم ما يرجون من النفع، ومن أمانهم وورائهم عما هم مكورة، ولحق طويلة أو مقصرة، يسمون شركهم الا كبر نوسلا، واستغاثتهم استشفاعاً، ونذورهم لغير الله صدقات مشروعة، وطوافهم بالقبور المعبودة زيارات مقبولة، ويتأولون هذه الآيات الكثيرة بل يحرفونها عن مواضعها، بزعمهم انها خاصة بعبادة الاصنام، والنذور للارثان، والتعظيم للصلبان، كأن الاشراك بالله جائز من بعض الناس ببعض الخلق دون بعض، ومن البلاء الاكبر على الاسلام والمسلمين بمصر أن أصدرت لهم مشيخة الازهر الرسمية في هذا العصر مجلة رسمية دينية، تفتيهم بشرعية كل هذه البدع الشركية القبورية، سميتها نور الاسلام. وألف لهم أحد خطباء الفتنة كتاباً في هذا واطأه عليه وأمضاه له سبعون عالماً من علماء الازهر بزعمه، بل طبع في طرته خواتم بعضهم وتوقيع آخرين منهم بخطوطهم وذكروا جميع أمانهم، ولا حول ولا قوة الا بالله وبه وحده المستعان لا نقاذ لاسلام من هذا الطغيان. ومنهم من يحتج على نفع هذا الدعاء لغير الله بالتجارب كما يحتج الهنود الوثنيون والنصارى فهو مشترك الا لزام وقد أبطله الله بقوله

١٠٧ - وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضْرَ فُلَا كَاشَفَ لَهُ الْإِلَٰهَ هَذِهِ الْآيَةُ مُؤَكَّدَةٌ لما قبلها داحضة لشبهة الذين يدعون غير الله بأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم، وكبت أعداؤهم، وكشف الضر عنهم، وأمدى الخير اليهم، يقول تعالى لكل مخاطب بهذه الدعوة الى توحيد الاسلام، بكلام الله وتبليغ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضْرَ فُلَا كَاشَفَ لَهُ الْإِلَٰهَ هَذِهِ الْآيَةُ مُؤَكَّدَةٌ. أو نقص من الاموال والثمرات بأسبابها، أو ظلم يقع عليك من الحكام المستبدن، أو غيرهم من الاعداء المعتدين، فلا كاشف له الا هو، وقد جعل لكل شيء سبباً يعرفه خلقه بتجاربه، وكشف الامراض بمعرفة أسبابها، وخواص العقاقير التي تداوى بها، وتجارب الاعمال الجراحية التي يزاولها أهلها، فقليلك أن تطلبها من أسبابها، وتسكن أعمالها إلى أربابها، وتأتي سائر البيوت من أبوابها، مع الايمان والشكر لمسخرها، فإن جهت الاسباب أو أعياك أمرها، فتوجه إلى الله وحده، وادعه مخلصاً له.

٤٩٢ كشف الضر و هبة الخير بيد الله وحده دعوة الاسلام العامة (التفسير: ج ١١)

الدين متوكلا عليه وحده ، يسخر لك ماشاء أو من شاء من خلقه ، أو يشفك من مرضك بمحض فضله ، كما ضرب لك الامثال في هذه السورة وغيرها من كتابه ﴿ وإن يردك بخير ﴾ يهبه بتسخير أسبابه لك ، وبغير سبب ولا سعي منك ، ﴿ فلا راد لفضله ﴾ أي فلا أحد ولا شيء يرد فضله الذي تتعلق به إرادته ، فلا شاء كان حتما ، فلا ترج الخير والنفع إلا من فضله ، ولا تخف رد ما يريدك لك من أحد غيره ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب وبغير كسب ، وبسبب مما قدره في السنن العامة وبغير سبب ، ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته ، بخلاف الضر فانه لا يقع إلا بسبب من الاسباب الخاصة بكسب العبد ، أو العامة في نظام الخلق ، فالاول معلوم كالمراض التي تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلا أو تقصيرا ، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل ، وكثرة الفسق والظلم ، والثاني كالضرر الذي يعرض من كثرة الامطار ، وطقيان البحار والانهار ، وزلازل الارض وصواعق السماء ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة ، لأهلك جميع الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة (وما أصابكم من مصيبة فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ)

(١٠٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٩) وَآتَيْنَا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

هذا النداء خاتمة البلاغ للناس كافة ، بمقتضى بعثة الرسول العامة ، وهو إجمال لما فصل في هذه السورة وسائر السور المباركة

١٠٨- ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ أي قل أيها الرسول مخاطباً لجميع البشر ، من خسر منهم فسمع هذه الدعوة منك ، ومن سبقه عنك ، قد

(يونس ١٠) الاهتداء والضلال لعالمها وأمر النبي بالاتباع والصبر حتى يحكم الله ٩٣

جاءكم الحق المبين لحقيقة الدين من ربكم ، يوحى به إلى رجل منكم ، وهو الذي
أفتتحت هذه السورة به ، وقد كان هذا الحق مجهولاً خفياً عنكم ، بما جهل بعضكم
من دعوة الرسل الاقدمين ، وما حرف بعضكم وجهل وبدل وتأول من كتب
الانبياء المتأخرين ، وفصله لكم هذا الكتاب العربي المبين ﴿ فمن اهتدى فانما
يهتدي لنفسه ﴾ أي فمن اهتدى بما جاء به هذا الرسول في هذا الكتاب الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فانما فائدة اهتدائه لنفسه ، لأنه ينال به السعادة
في دنياه ودينه ، ودون عمل غيره ، ولا فدائه ولا تأثيره ﴿ ومن ضل فانما يضل عليها ﴾
أي ومن ضل عن هذا الحق باعراضه عن آياته في هذا القرآن ، وحججه فيه بآياته
في الانفس والآفاق ، فانما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا ،
وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه في الآخرة ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾
أي وما أنا بموكل من عند الله بأموركم ولا مسيطر عليكم فأكرهكم على الايمان ،
وأمنكم بقوتي من الكفر والمعصيان ، وليس عليّ هداكم ، ولا أملاك نفكم ولا
خسركم ، وانما أنا بشير لمن اهتدى ، ونذير لمن ضل وغوى ، وقد أعذر من أنذر

١٠٩- ﴿ واتبع ما يوحى اليك ﴾ في هذا القرآن علماً وعملاً وتعلماً ﴿ واصبر ﴾
كما صبر أولو العزم من الرسل على ما يصيبك من الازى في ذات الله ، والجهاد به
في سبيل الله ﴿ حتى يحكم الله ﴾ بينك وبين المكذبين لك ، وينجز لك ما وعدك ،

﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي كل من يقع منهم حكم ، لانه لا يحكم الا بالحق ، وغيره
قد يحكم بالباطل لجهله الحق أو لحالفته باتباع الهوى . وقد امثل ﷺ أمره به ، وصبر
حتى حكم الله بينه وبين قومه ، وأنجز وعده له ولن اتبعه من المؤمنين ، فاستخلفهم في
الأرض وجعلهم الائمة الوارثين ، مدة إقامتهم لهذا الدين ، فجزاه الله عن أتمته أفضل
ما جزى نبياً عن قومه ، وجعلنا من المهتدين بما جاء به من كتاب ربه ، وسفته المدينة
له ، علماً وعملاً ، وارشاداً وتعلماً ، وصلى الله عليه وعلى آله وصحابه ومن اتبعه وسلم تسليماً

(تم تفسير سورة يونس بفضل الله وتوفيقه تفصيلاً)

ويليه بيان ما فيها من العقائد والقواعد إجمالاً

الخلاصة الاجمالية لسورة يونس عليه السلام وفيها ستة أبواب

(جميع آيات هذه السورة في أصول عقائد الاسلام التي كان ينكرها مشركو العرب وهي توحيد الله تعالى ، والوحي والرسالة ، والبعث والجزاء ، وما يناسب هذه الثلاث ويمدها من صفاته تعالى وأفعاله وتنزيهه وآياته وسننه في خلقه ، وشئون البشر في صفاتهم وعاداتهم وأعمالهم ، ومحااجة مشركي مكة في ذلك كله ، ولا سيما هداية القرآن والرسول ﷺ والمعبرة بأحوال الرسل مع أقوامهم فهي كسورة الانعام في السور المكية إلا أنها أكثر منها ومن سائر السور إثباتا للوحي والرسالة ، ونحديا بالقرآن وبيانا لأعجازه وحقائقه وصدق وعده ووعيده ، وهذه المقاصد والعقائد مكررة فيها بالاسلوب البديع ، والنظم البليغ ، بحيث يحدث في نفس سامعها وقارئها أروع الانفاع والتأثير ، من حيث لا يشعر بما فيه من التكرار ، واني أوجز في تلخيص هذه الاصول في أبوابها ، لما سبق في هذا الجزء ، من بسطها في مباحث الوحي من تفسير أول السورة ولا سيما مسائل إعجاز القرآن ، وإثبات نبوة محمد ﷺ التي امتازت بها على سائر السور).

الباب الاول

(في توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وصفاته عظمتة وعلوه ، وتديبره لامور عباده ، وتصرفه فيهم وفضله عليهم ورحمته بهم ، وعلمه بشئونهم ، وتنزيهه عن ظلمهم ، وعما لا يليق به من أوهامهم ، وفي آياته الدالة على ما ذكر كله وفيه ثلاثة فصول)

(الفصل الاول في توحيد الربوبية والالهوية)

أجمع الآيات في هذا التوحيد الآية الثالثة من هذه السورة التي خاطبت الناس بأن وبهم هو الذي خلق السموات والارض أطوارا في ستة أيام أي أزمنة ، ثم فيها خلقها وتكوينها فكانت ملكا عظيما ، ثم استوى على عرش هذا الملك الاستواء اللائق به ، الدال على علوه المطلق على جميع خلقه ، وإحاطته به بعلمه وقدرته ، وتديبر

الامر فيه بعشيئته وحكمته ورحمته ، بغير حد ولا تشبيه ، ولا شريك له في الخلق والتقدير ، ولا في التصرف والتدبير ، ما من شفيح عنده إلا من بعد اذنه ، فله وحده الامر ، ويده المفع والضرر

بعد تقرير هذه الحقيقة في توحيد الربوبية قال تعالى محتجاً بها على توحيد الألوهية (ذلکم اللہ ربکم فاعبدوه) أي فاعبدوه وحده ولا تعبدوا معه غيره بطلب شفاعته ولا دعاء ولا مادونهما من مظاهر العبادة ، إذ لا رب لكم غيره ، وإنما يجب العبادة لرب العباد دون غيره . واستدل على توحيد الربوبية بما في الآيات ٤ — ٦ من الآيات (الدلائل) الكونية

ثم عاد إلى توحيد الألوهية وهو العبادة الخاصة في الآية (١٨) ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (ودحض هذا القول منزهاً نفسه عن هذا الشرك

ثم احتج على بطلان شركهم هذا بما في الآيتين ٢٢ و ٢٣ من ضرب مثل لهم يعرفونه بالتجربة ، لوقوعه لكثير منهم في أزمنة مختلفة ، وهو أنهم إذا ركبوا في الفلك وعصفت بهم الرياح ، وهاج بهم البحر وأشرفوا على الهلاك ، يدعون الله وحده مخلصين له الدين وينسون عند شدة الخطر ما كانوا يشركون به من الشفعاء والاولياء

ثم عاد إلى التذكير بالآيات الكونية على وحدانية الربوبية في الآيات ٣١-٣٦ وإلى توحيد الألوهية في الآية (٤٩) قل لأملك نفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله (

ثم عاد إلى التذكير بتوحيد الربوبية في سياق آخر فبين في الآية ٥٦ أن الله مافي السموات ومافي الارض . وفي الآية ٦٦ أن الله من في السموات ومن في الارض وان الذين يدعون من دون الله لا يتبعون شركاء الله إذ لا شر كاهله ، ما يتبعون إلا الظن والحرص

ثم بين في الآيتين ٧١ و ٨٥ أن كمال التوحيد في التوكل على الله وحده

ومن شئون الرب وحقه على عباده التشريع الديني وقدين في الآية ١٥ والآية

١٠٧ أن الرسول متبع لما يوحى اليه عملاً وتبليغاً ، لا مشرع مستقل فيه ولا متحول عنه

وفي الآيتين ٥٩ و ٦٠ أن جميع ما أنزله الله تعالى لعباده وأنهم به عليهم من

أنواع الرزق فهو حلال لهم ليس لأحد منهم حق أن يحرمه عليهم لذاته محرم بما

دينياً . وان من يحكم فيه بالتحريم والتحليل فهو معتد على حقه تعالى مفتر عليه

(الفصل الثاني في صفات الذات من العلم والمشيئة والعزة والرحمة)

أما العلم فحسبك من هذه السورة قوله تعالى (١١) وما تكون في شأن) الخ فراجع تفسيرها وتأمل عجائب بلاغتها ، وإحاطتها بعظام الامور وصغائرهما ، وظواهر الاعمال وخفائها ، وذرات الوجود قريبها وبعيدها جليها وخفيها ، وما تدركه المشاعر وما لا تدركه من خلايا مراكباتها ودقائق بساطتها . وتدبر تعلق علم الله تعالى بها كلها ، وكتابته لها من قبل إيجادها ، وشهوده إياك في كل ما تكون فيه منها ، تحجده رافعاً لك إلى أعلى درجات الايمان والاسلام والاحسان .

ثم تأمل قوله تعالى في الذين يشركون بالله غيره بما يرجون من نفعهم لهم ، وكشفهم الضر عنهم بشفاعتهم عنده تعالى من الآية (٤٩) قل أتنبثون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض) تعلم مقدار جهل الانسان وجنابته على نفسه ، بما يقوله على الله تعالى بغير علم ، من تصغير أمر الربوبية والشرك في الالوهية ، بالتوجه في الدعاء والرجاء والخوف إلى غيره تعالى بما هو عين الشرك به كما تقدم آنفاً .

وأما صفة المشيئة فتأمل فيها أمره تعالى لرسوله الاعظم في الآية (١٦) قل لو شاء الله ما تلوثن عليكم) الخ وفي الآية (٤٩) قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) تعلم منه قدر إيمانه ﷺ بمشيئته ربّه عز وجل ، ثم انظر قوله تعالى له (٩٩) ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً) تعلم منه كيف شاء الله تعالى أن يخلق المكلفين في هذه الارض مختلفي الاستعداد للايمان والكفر والخير والشر ، وان ما وبه من المشيئة والاستطاعة لأعظمهم قدراً وفضلاً لا يمكن أن يخرج عن مقتضى مشيئته وسننه في نظام خلقه ، ويؤكد كده قوله تعالى بعده (١٠٠) وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) وهو بيان لسنته التي اقتضتها مشيئته في اختيارهم لكل من الايمان والكفر ، وما يستلزمان من عمل الخير والشر . وفي معناه قوله فيما يصيبهم من ضر ونفع وخير وشر ، وكون كل منهما بالاسباب المقيدة بسننه في الخلق بمقتضى ارادته (١٠٧) وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) الآية فلا يقدر الاولياء ومن يسمونهم الشفعاء على النفع ولا على الضر من غير أسبابهما المشتركة بين جميع الناس ، وإنما يقدر على ذلك واضع السنن والاسباب وحده .

والمراد من كل هذه الآيات سد ذرائع الشرك وإعتاق البشر من رقه ، باعتمادهم في أمورهم على ما وهبهم من القوى ، وطلب كل شيء من أسبابه التي سخرها الله لهم ، والتوجه إليه وحده في تسخير ما يهجزون عنه ، ومع هذا كله نرى من سرت اليهم عدوى الوثنية من أهلها يتوجهون الى غيره تعالى من الاحياء والاموات المعتقدين فيما لا يقدرون عليه بكسبهم وفيما هو من كسبهم أيضا . ولكنهم يجهلون قدرتهم أو قدرة أمثالهم كالأطباء عليه ، ويظنون أن معتقديهم المتصرفين في الكون بزعمهم أقرب منالاً ، كما بسطناه في تفسير كل هذه الآيات وأمثالها مكرراً اتباعاً لكتابه تعالى وأما صفة العزة فليس في هذه السورة ذكر لها إلا قوله تعالى (٦٥) ولا يحزنك قولهم : ان العزة لله جميعاً هو السميع العليم) ومعناها المنعة والقوة التي شأنها أن يغلب صاحبها ولا يغلب على أمره ، ويذل من خصمه ولا ينال خصمه منه . وكان المشركون يعترفون بكبريتهم وقوتهم وثروتهم ، تجاه قلة المؤمنين وضعفهم وفقيرهم ، فيقطعون في الرسول وفي الاسلام وأهله فيحزنه ﷺ ما يقولون ، فنهاء عز وجل عن هذا الحزن وعلاه بأن العزة الحق هي لله وحده ، فهو يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وقد كتبها لرسوله وللمؤمنين كما بيناه في تفسير الآية ، وفي هذه الآية ذكر السمع والعلم ، لذكركه ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين بسمعه تعالى لأقوالهم ، كحاطته علماً بأعمالهم ، فهو قد ير على اعزازه واذا لام وأما صفة الرحمة فقد جاءت مقترنة بالمغفرة في فاصلة الآية ١٠٧ الناطقة بانفراده تعالى بكشف الضر وإرادة الخير كما تقدم

وذكرت الرحمة بآثارها ومتعلقاتها في الرزق من الآية ٢١ - وفي خصائص القرآن التشريعية من الآية ٥٧ وفيها يعمهما من الآية ٥٨ وفي التنجية من الظلم وحكم الكافرين في الآية ٨٦ فنسأله تعالى أن يعنينا بأنواع رحمته كلها ويحملنا من الشاكرين

(الفصل الثالث في تقديره تعالى وتنزيهه وغناه عن كل ما سواه)

نزه الله تعالى نفسه في هذه السورة في مواضع (أولها) أن يكون عنده شفعاء ينتفعون من يشفعون لهم أو يكشفون الضر عنهم فيكون لتأثيرهم شرك في أفعاله تعالى . (تفسير القرآن الحكيم) (٦٣) (الجزء الحادي عشر)

وهذه شبهة شرك العرب وغيرهم، وقد فشا في أكثر النصارى وكذا جهلاء المسلمين كما بيناه تكررًا وهو نص قوله في الآية ١٨ (سبحانه وتعالى عما يشركون)

ونزه نفسه عن اتخاذ الولد وهو ضرب من الشرك أيضا بقوله (٦٨) قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني (الآية

ونزه نفسه عن ظلم عباده في الدنيا والآخرة وبين انهم هم الذين يظلمون أنفسهم في الآيات ٤٤ و ٤٨ و ٥٢ و ٥٤

﴿ الفصل الرابع في أفعاله تعالى وآياته في التقدير والتدبير والرزق ﴾

ونجمها في عشرين مسألة

[١] خلق السموات والارض في ستة أيام أي أزمته بمحدد كلامها طور من أطوار التكوين

[٢] استواؤه تعالى بعد هذا الخلق على عرشه يدبر أمر ملكه والمراد بهذه الآية في هذا الباب أن للعالم في جلته عرشا هو مركز التدبير والنظام العام له [راجع تفسير الآية الثالثة في بيانها وما يحيل عليه في معناها]

[٣] بدء الخلق ثم إعادته في الآيتين ٤ و ٣٤

[٤ - ٦] جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل وحكمة ذلك في الآية الخامسة

[٧] اختلاف الليل والنهار في الآية السادسة وبيان حكمة ذلك في الآية ٧٦

[٨] مثل الحياة الدنيا في زينتها وغرور الناس بها وزوالها في الآية ٢٤

[٩] إنزال الرزق من السماء والارض في الآيتين ٣١ و ٩٥

(١٠) ملك السمع والابصار في ٣١ أيضا

[١١] اخراج الحي من الميت والميت من الحي فيها

[١٢] تدبير أمر الخلق في الآيتين ٣ و ٣١

(١٣) كون خلقه للشمس والقمر ضياء ونورا وحسابا بالحق لاعتناء في الآية ٣

[١٤] هدايته تعالى الى الحق ويؤيده ان الظن لا يغني من الحق في الآيتين

٣٥ و ٣٦ وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال في (٣٢) وأنه يحق الحق بكلماته في (٨٢)

[١٥] [لله ما في السماوات وما في الارض أي من غير العقلاء في الآية ٥٦]

[١٦] [لله من في السماوات ومن في الارض من العقلاء في الآية ٦٦]

[١٧] [الامر بنظر ما في السماوات والارض والاعتبار بهما في الآية ١٠١]

[١٨] [سرعة مكره تعالى من إحباط مكر الماكرين ، والاملاء للظالمين ،

في الآية ٢١

[١٩ و ٢٠] [تسييره تعالى للناس في البر والبحر ، وانجائهم من الفرق

بعد اليأس في الآيتين ٢٢ و ٢٣]

فهمذ الآيات المنزلة ، المرشدة الى النظر في الآيات المكونة ، تدل على

عناية هذا الدين بالعلم بكل ما خلق الله ، وما أودع فيه من الحكم والمنافع للناس ،

ليزدادوا في كل يوم علما بدنياهم ، وعرفانا وإيمانا برهم ، كارتلوا كتابه ، وتدبروا

آياته . (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب)

فنسأله تعالى أن يجعلنا من خيارهم وأبرارهم

الباب الثاني

في الوحي المحمدي وهو القرآن *

القرآن من كلام الله تعالى وانما فتحنا له بابا خاصا ولم نذكره في صفاته عز وجل

من الباب الاول لان ما ورد فيه من الآيات ليس من ناحية كونه صفة له ،

بل من ناحية كونه كتابا منزلا من عنده لهداية خلقه . وعقيدة الايمان بكتبه

تعالى في المرتبة الثانية بين الايمان به والايمان برسله ، ونلخص ما يختص بالقرآن

من هذه السورة في عشر مسائل

(١) افتتح الله هذه السورة بالاشارة الى كتابه الحكيم في الآية الاولى منها ،

وثق في التي تليها بالانكار على الناس عجبهم من وحيه الى بشر منهم أن يكون هاديا

لم نذيرا وبشيرا . وقد بينا في تفسير هذه الآية دلائل هذا الوحي باعجاز القرآن

اللفظي والمعنوي وتغنيد شبهات الذين زعموا انه وحي فاض من نفس محمد ﷺ

(*) انما فسرنا بالقرآن لان الله تعالى أوحى اليه غير القرآن أيضا

• • • إعجاز القرآن وكونه من الله لا من محمد (ص) (التفسير : ج ١١)

وعقله الباطن على لسانه بأسهاب وإطباب فكان ذلك مصنفام مستقلا مستنبطام جملة

القرآن وعلومه وتأثيره في العالم ، فتشير الى ما في هذه السورة منه بالاحجاز

(٢) في الآية الخامسة عشرة منها اقتراج المشر كين على النبي ﷺ أن يأتي

بقرآن غير هذا القرآن أو ان يبدله ، وما أمره الله تعالى أن يجيبهم به من عجزه عن

تبديله أو الاتيان بغيره ، وكونه لا يملك من أمره فيه الا اتباع ما يوحى اليه من

تليظه والعمل به ، (ومثله في آخر السورة)

(٤٣) في الآية السادسة عشرة انه ﷺ ما بلغهم هذا القرآن إلا بمشيئة الله تعالى

وتسخيره ، فلو شاء تعالى أن لا يتلوه عليهم لما تلاه ، ولو شاء تعالى أن لا يدرهم ولا

يعلمهم به لما أدرهم ، فهو الذي أقرأه بعدان لم يكن قارئاً (اقرأ باسم ربك ...

سنقرئك فلا تنسى) وهو الذي علمه وجعله معلماً (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك

ما لم تكن تعلم * ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) ولكن جعلناه نورا

نهدي به من نشاء من عبادنا) الخ

(٥) أنه أي هذا بالحجة العقلية القاطعة ، وهو أنه قد لبث فيهم عمرا طويلا من

قبله وهو سن الادراك والصبا فالشباب حتى بلغ أشده واستوى وبلغ أربعين سنة ،

لا يقرأ ولا يقرئ ، ولا يتعلم ولا يعلم ، وقد بينا في تفسيرها (أي الآية ١٦)

انه ثبت عند حكماء التاريخ بالتجارب والامسـتـقراء ان جميع معارف

البشر الكسبية واستعدادهم للعلم والعمل ، أما يظهران ويبلغان أوج قوتهما من

النشأة الاولى الى منتصف العمر الثالث من العمر ، ولا يكون بعده الا التمهين

والتكميل ، ومحمد ﷺ لم يظهر منه علم ولا بيان ولا عمل إصلاحى عام ديني أو

دنيوي إلا بهذا الوحي الذي فوجى به بعد استكمال الاربعين

وبليها في الآية ١٧ أن أشد الناس ظلما لنفسه من اقترى على الله كذبا أو كذب بآيات

الله ، وانه من المجرمين الذين لا يفلحون ، فهل يرتكب هذا الظلم من يعلم هذا ؟ ولماذا

يرتكبه ؟ وقد عرف قبحه كبيرا ، بعد ان نشأ على التزام الصدق صغيرا ، واشتهر به

وبالوفاء عند المعشرين ، حتى لقبوه بالأمين ؟

(٦) في الآية الثامنة والثلاثين حكاية عن المشر كين (أم يقولون اقراءوا)

(يونس : ١٠) الباب ٣ النبوة والرسالة. الفصل الاول في الرسل الاولين ٥٠١

وأمره تعالى لنبيه بتحديثهم بالآتيان بسورة مثله، ودعوة من استطاعوا من دون الله الذي أنزله بعلمه ، ولا يقدر عليه أحد من خلقه ، والا كانوا كاذبين في زعمهم انه اقتراه ، اذ لا يعقل أن يقتري الانسان ما هو عاجز كغيره عنه ، وقد بينا في تفسيرها معنى التحدي والمعجز وموضوع الاعجاز اللفظي والمعنوي وهل يدخل فيه قصار السور مطاقاً أو مقيداً ؟ (راجع تفسيرها بتجديدها ما لا تجده في غيره)

(٧ و ٨) في الآية ٣٩ ذكر إضرابهم عن التكذيب المطلق الذي يتضمنه

ذلك القول الى التكذيب المقيد بما لم يحيطوا بعلمه ، وفي الآية ٤٠ كونهم فريقين

منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وفي تفسير الاولى منهما تحقيق معنى

تأويل القرآن وخطأ أكثر المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم في فهم التأويل بحمله

على التأويل الاصطلاحي عند علماء الكلام والاصول، حاش الامام محمد بن جرير الطبري

(٩) في الآية ٥٧ بيان انواع ارشاد القرآن وإصلاحه للبشر وهو قوله

(يا ايها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)

(١٠) في الآيتين ١٠٨ و ١٠٩ وهما خاتمة السورة خلاصة تبليغ الدعوة وموضوع

الاولى في خطاب الناس كافة انه قد جاءهم الحق من ربهم وهم مختارون في الاهتداء

به والضلال عنه ، وموضوع الثانية أمر الرسول باتباع ما يوحى اليه تبليغاً وعملاً ،

كما تقدم في المسألة الثانية

الباب الثالث

في النبوة والرسالة وفيه فصلان

(الفصل الاول في الرسالة العامة والرسل الاولين وفيه سبع مسائل)

(١) في الآية الثانية من السورة إثبات وحي الرسالة وأن الرسل رجال من الناس

وأن وظيفتهم الانذار والتبشير، وأن الكفار كانوا ينكرون أن يكون البشر رسلاً لله

تعالى ، وكانوا يسمون آيات الرسول اليهم سحراً ويسمون سحراً

(٢) في الآية ١٣ ان الله تعالى أهلك القرون [الامم] القديمة لما ظلموا أنفسهم

بالشرك والاجرام وجاءتهم رسالهم بالبينات الدالة على صدقهم في التبليغ عن الله تعالى ولم يؤمنوا فجزاهم باجرامهم

(٣) في الآية ٤٩ ان الرسول لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره لان هذا الله وحده ، والرسول فيه كغيرهم كما ترى في آيات توحيد

(٤) في الآية ٤٧ ان الله تعالى جعل لكل أمة رسولا ، فليست الرسالة خاصة ببني اسرائيل كما يدعون ، ولا بهم وبالعرب كما توهم آخرون ، والشبهة على هذه الكلية ان أكثر أُمم الارض وثنية وتوارثها عريقة في ذلك ، كقدماء المصريين والكلدانين والاشوريين والفرس والهند والصين وشعوب الافرنج القديمة وكذا قدماء أمريكا . وجوابها ان جميع هذه الامم لها اديان قائمة على الارقان الثلاثة التي بعث بها جميع الرسل الاولون . وهي الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، وقد طرأت على كل منها التقاليد الوثنية طروءاً كما بيناه في مباحث الوحي وشواهد ذلك ظاهرة في آخر هذه الامم حتى المسلمين

(٥) في هذه الآية أيضا ان كل رسول عانده قومه قضي الله بينه وبينهم بالقسط ، والآيات التي بعدها في تكذيب قوم نبي الله ﷺ له وستذكر في الفصل الثاني (٦) من الشواهد على هذا قصة نوح مع قومه في خلاصة دعوته لهم وإصرارهم على تكذيبه ، وإهلاك الله إياهم بالغرق ، وإنجاء نوح ومن آمن معه في الفلك ، وجعلهم خلافت في الارض ، وهي في ثلاث آيات من ٧١-٧٣ ويليه آية واحدة في الرسل الذين بعثوا بعده اجمالا ، ويليه قصة موسى مع فرعون وملئه ، وغايتها انه تعالى أهلك فرعون ومن أتبع بني اسرائيل معه بالغرق ، وأنجى موسى وبني اسرائيل وجعلهم خلافت في الارض المقدسة الى حين ، وهي في الآيات ٧٥ - ٩٣ وسنبين ما في هاتين القصتين من الفوائد والعبر في قصص الرسل من تفسير سورة هود (ع . م)

(٧) في الآية ٩٨ العبرة لأهل مكة بقوم يونس بأنهم استحقوا عذاب الخزي والاستقصال بعنادهم لمحمد رسول الله وخاتم النبيين كما استحقه قوم يونس ، وأنهم اذا آمنوا قبل وقوع هذا العذاب ينفعهم إيمانهم كما نفع قوم يونس عليهما السلام

﴿ الفصل الثاني في رسالة محمد نبينا ﷺ ﴾

وسيرته مع قومه وعاصمة بلاده ونجمل آياته في احد عشر نوعا

(١) في الآية الثانية ان الكافرين أنكروا دعوة نبوته وعجبوا امنها أن كان رجلا منهم يوحى اليه ، وسموا آيته سحراً ونزوه بلقب ساحر مبين ، كما تقدم في الكلام على الوحي وعلى الرسالة العامة في أول الفصل الاول ، والآية نزلت فيه ﷺ وشبهة السحر لا تخيل (أي لا تشبهه من أخال الامر اذا شكل واشتبه) في القرآن كآيات الكونية وانما قالوه تكلفا وعنادا .

(٢) في الآية ١٥ أنهم اقترحوا عليه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن الذي أعجزهم أمره أو أن يبدله ، وفي الآية ١٦ الرد عليهم بما تقدم مفصلاً ، ولبديها تأييد الرد (٣) في الآية ٢٠ اقترحهم عليه ﷺ أن يأتيهم بآية كونية وجوابه لهم وفي الآيتين ٩٦ و ٩٧ أن الذين حقت عليهم كلمة الله بقدوم الاستعداد للإيمان لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية كونية مما اقترحوا ومما لم يقترحوا

(٤) في الآية ٣٧ بيان ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، إذ لا يقدر على مثله أحد من خلق الله ، وانه تصديق لما تقدمه من دعوة الرسل ، وتفصيل لما أجمل فيما قبله من الكتب ، فهو من رب العالمين لا ريب فيه ، لان محمداً ﷺ ما كان يدري شيئاً مما نزل فيه

(٥) في الآية ٣٨ تحدي المشركين الذي قالوا اقترأوه وهو مطالبتهم بالبيان بسورة مثله ، واستعانتهم على ذلك بمن يستطيعون استعانتهم من دون الله تعالى (٦) في الآية ٣٩ الاضرار عن التكذيب المطلق إلى التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله وهو ما وعدهم به من العذاب بقسميه الديني والاخروي (٧) في الآيات ٤٠ - ٥٤ ان من أولئك المشركين من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، ومناقشة المكذبين ، ووصف حال من فقدوا الاستعداد للإيمان بحيث لا يعقلون الدلائل السمعية ولا البصرية ، وإلهام أمر ما وعدوا به من العذاب هل يقع في حياته ﷺ أو بعد وفاته ، وحكمة هذا الإلهام له واستعجالهم به ،

وكونهم يؤمنون به عند وقوعه فلا ينفعهم إيمانهم يومئذ — وسؤالهم أحق هو ؟ وجوابهم بالقسم إنه الحق ، لأن وعد الله كله حق ، وفي تفسيرنا له بيان قلة الكذب في العرب ، واحترام القسم بالله تعالى ، واشتهار النبي ﷺ بالصدق والامانة فيهم من صفه

(٨) بعد أن أيد الله دعوته ﷺ بقصتي نوح وموسى بالابحاز مفصلة ، وذكّر من بينها بالاشارة المجملة ، أخبره ان الذين يقرأون الكتاب من قبله عندهم علم من ذلك ، فلو انه كان في شك منه وسألهم لأجابوا إنه الحق من ربه ، وهذا تأكيده لكونه لا موضع للامتراء به

(٩) كان ﷺ يحزنه تكذيب قومه له وكفرهم بما جاء به فنهأ الله عن ذلك في الآية ٦٥ وكان يتمنى إيمانهم كلهم فجاءه في الآيات ٩٦ — ١٠١ بيان سنة الله في اختلاف استعداد الناس الايمان والكفر ، وانه لو شاء لجعلهم كلهم مؤمنين ، ولكنوا غير هذا النوع من خلق الله ، ولكنه لم يشاء واذن لا يقدر الرسول ولا غيره على إكراههم على الايمان ، وأن الآيات لا تنفع إلا المستعدين للايمان والصلاح ، وان النجاة لرسول الله ومن آمن بهم بتقتضى سنته تعالى في خلقه

(١٠) ختم السورة من الآية ١٠٤ — ١٠٩ بتجديد الدعوة الى تجريد التوحيد والعبودية المحض ، وكون الحق قد تبين فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فعليه ، وإنما الرسول ﷺ مبلغ لا وكيل لله متصرف في أمر عباده ، فعليه أن ينتظر حكمه وهو خير الحاكمين .

(١١) إعلامه تعالى هذه الامة في الآية ١٤ بأنه جعلهم خلاف في الارض كلها بعد إهلاك أكثر القرون الاولى من أقوام الانبياء المعاندين لرسائهم ، وتحريف آخرين لأديانهم ونسخه تعالى لما بقي منها ببعثة خاتم النبيين ﷺ وانه يختبرهم بهذه الخلافة فيجزئهم بما يعملون فيها ، وأخرنا هذا لانه ثمرة اجابة الدعوة في الدنيا كما وعدهم ، وأنجز وعدهم لم بشرطه في الآية (٥٤: ٢٤) من سورة النور

الباب الرابع

في البعث والجزاء ، ونلخص آياته في بضعة أنواع

(١) في الآية الرابعة ذكر رجوع الناس جميعا الى الله ربهم الذي يبدأ الخلق بأجناسه وأنواعه المختلفة ، ثم يعيده ليجزي المؤمنين الصالحين بالقسط ، والكافرين بما ذكره إجمالا ، ويضاف في تفسيرها كونه بالقسط ايضا كما ترى بيانه في النوع (٤) ، وكون جزاء المؤمنين يضاعف كما ذكر في غيرها

(٢) في الايات ٧-١١ تفصيل لجزاء الفريقين مع تعليل طبيعي عقلي لتأثير الايمان والكفر في الانفس ، وفاقا للقاعدة التي قرناها مرارا من أن جزاء الآخرة أثر لازم لسيرتها في الدنيا ، بمجاها أهلها بطبيعتها وصفاتها لجوار الله ورضوانه أو لسخطه

(٣) في الايات ٢٣-٣٠ تفصيل آخر موضع بضرب المثل فيه تعريخ بالزيادة في جزاء المحسنين عما يستحقون ، وكون جزاء المسيئين بالمثل ، وكون كل نفس تبلو في الآخرة ما أسلفت في الدنيا ، لا ينفع أحد أحدا بنفسه ولا بعمله

(٤) في الايات ٤٥-٥٦ سياق رابع مفتتح بالتذكير بيوم الحشر وتقدير الناس لمدة أميهم في الدنيا بساعة من النهار ، وخبر ان المكذبين بقاء الله ، وتأكيده وعد الله به ، واستبطائهم له ، واستمجالهم به ، واستنبأهم الرسول : أحق هو؟ وحالم عند وقوعه ، وتمنيهم الافتداء منه بكل ما في الارض ، واسرارهم الندامة عند رؤية العذاب ، والفضاء بينهم بالقسط (وهم لا يظلمون) وهذا الاخير في الآيتين ٤٧ و٤٨

(٥) في الايات ٦٢-٦٤ ذكر أولياء الله وهم المؤمنون المتقون وأنهم

لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وان لهم البشرى في الدنيا والآخرة

(٦) في الآيتين ٦٩ و٧٠ ذكر المقربين على الله وكونهم لا يفلحون ، لهم متاع قليل في الدنيا ، ثم ان مرجعهم الى الله فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون

(٧) في الآية ٩٣ عقب قصة موسى مع فرعون وملئه ونجاة بني اسرائيل

بعد هلاكهم ان بني اسرائيل ما اختلفوا حتى جاءهم العلم ، وان الله يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

اذا عددت هذه الآيات التي أشرنا اليها في البعث والجزاء وجدتها تبلغ زهاء الثالث من هذه السورة ، ولكنك لا تشعر عند ما تقرأ السورة أنك تكرر معنى واحداً فيها يبلغ هذا القدر منها ، وانما يستقر هذا المعنى في قلبك ويعلموه إيماناً بلقاء الله تعالى والخوف من حسابه وعقابه ، والرجاء في عفوه ورحمته وثوابه ، وما كان التكرار إلا لأجل هذا ، فهل يستطيع أبلغ البشر أن يأتي بكلام كهذا ؟ لا لا

الباب الخامس

في صفات البشر وخلائقهم وعاداتهم وما يترتب عليها من أعمالهم
وسنن الله فيها وهي نوعان

﴿ النوع الاول الصفات الذميمة التي تجب معالجتها بالتهذيب الديني ﴾

(الاولى العجل والاستعجال) قال الله تعالى [٣٧: ٢١] خلق الانسان من عجل [وقال ١١: ١٧] وكان الانسان عجولاً [ومن شواهد هذه الغريزة في هذه السورة قوله تعالى ١١] ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم [ومنها استعجالهم بالعذاب الذي وعدهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ كما تراه في سياقه من الآيتين ٥١ و ٥٠]

(الثانية الظلم) قال تعالى [١٤ : ٣٤] إن الانسان لظلوم كفار [وقال في آية الامانة ٧٢: ٢٣] وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً [ومن الشواهد على هذه الخليقة أو الشيمة في هذه السورة ما تراه في الآيات ٤٤ و ٨٥ و ١٠٦]

(الثالثة الكفر بالله وبمنعمه) قال تعالى في وصف الانسان من سورته سورة الدهر [٣: ٧٦] إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً [ووصفه بالكفور في سور الاسراء والحج والشورى ، وبالكفار (بالفتح للمبالغة) في سورة ابراهيم و ذكرت آتفاً . ولكن ذكر الكفر بلفظه ومشتقاته في هذه السورة قليل . ذكر في الآية الثانية الكافرون بالوحي والرسالة ، وفي الآية الرابعة جزاء الذين كفروا في الآخرة

بمكفرهم ، و ذكر في الآية ٨٦ في دعاء بني إسرائيل بالنجاة من حكم الكافرين
وأما ذكره بالمعنى فهو كثير فيها فنه ما هو بلفظ التكذيب وعدم الرجاء
ببقاء الله ، وما هو بلازمه من الفسق والجرام والبغي والظفیان والاستكبار ، وكذا
الظلم الذي خصصناه بالذكر

(لرابعة الشرك بالله تعالى) وهو عادة صارت وراثية في الامم ، و ذكر
في الآيات ١٨ و ٢٨ و ٣٤ و ٣٥ و ٦٦ و ٧١ وهو أخص من كل ما تقدم
(الخامسة الجهل واتباع الظن والخرص) الاصل في هذه الخليفة أن الله تعالى خلق
الانسان جاهلا لا يعلم شيئا من ضروريات حياته حتى ان غرائزه الخلقية أضعف من غرائز
الحشرات والعجاوات ، وجعل عماد أمره على التربية والتعليم التدريجي ، ونصوص
القرآن في هذا مروفة كقوله [١٦ ٧٨] والله أخرجكم من بيوت أمهاتكم لاتعلمون شيئا
وآية الامانة وتقدم ذكرها في الظلم والنص الصريح في هذه السورة قوله تعالى [٣٦]
وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا [وقوله [٦٦] إن يتبعون
إلا الظن وإن هم إلا يخرصون]

(السادسة الطبع على القلوب) والاعراض عن آيات الله في خلقه مما يدرك بالسمع
والابصار ، حتى لا تعود تقبل ما يخالف تقاليدها الموروثة والراسخة بمقتضى العمل وهو
نص قوله تعالى [٧٤] كذلك نطمع على قلوب المعتدين [فهو صريح في كونه نتيجة معلولة
لا اعتداء حدود الفطرة السليمة كما تراه مفضلا في تفسيرها لا كما يفهمه الكثيرون
من الجبرية والقدرية الصرخاء والمتأولين . وغاية هذه النتيجة القلبية النفسية في
الدنيا الحرمان من الايمان بمقتضى كلمة الله في نظام التكوين ، وما يبينه من كلمة
التكليف ، لعدم الانتفاع بالآيات المرشدة للفطرة الى الهداية ، وهو ما تراه في
الآيات ٣٣ و ٦٦ - ١٠١

(السابعة الغرور والبطر بالرخاء والنعمة) فهم في أمثالها يمكرون في آيات الله
ويشركون به ويبغون في الارض حتى اذا أصابهم الشدائد تذكروا واخلصوا
في دعائه فذا كشفها عنهم عادوا الى شركهم وفسادهم ، كما تراه في الآيات

(النوع الثاني . الغرائز والصفات المحمودة)

نزلت هذه السورة في أوائل ظهور الاسلام بمكة وأكثر أهلها مشركون معاندون كافرون ظالمون مجرمون جاهلون، مستكبرون رؤساؤهم، مقلدة دهاؤهم، فكان مقتضى هذا تقديم الانذار فيها على التبشير كما تراء في أولها، ولهذا كان أكثرها في بيان الصفات والخلائق والعادات القبيحة الضارة وهو النوع الاول في هذا الباب، وكان النوع الثاني مما يعلم أكثره بالاستنباط، وكون أصل غرائز الانسان الاستعداد للحق والباطل والخير والشر، وكونه مختاراً في كل منهما، وكونه فطر على ترجيح ما يثبت عنده أنه خير له بالدلائل العقلية، أو التجارب العملية، وكون الدين مؤيداً للعقل، حتى لا يغلب عليه الهوى والجهل فتأمل الاصل في تكوين الادم ووجدها في فطرتها ثم طرأ الاختلاف عليها في الآية ١٩ - ثم انظر في مقدمة الدعوة العامة الى الناس كافة في آخر السورة من الآية ٩٩-١٠٣ وهي صريحة في استعدادهم المذكور، وكونه اختيارياً لا إكراه فيه، وتعبيره عن سنة الله في ترجيحهم الرّجس على تزكية النفس بجعله على الذين لا يعقلون، ولا يهتدون بآيات الله في السموات والارض، ولا يعتبرون بسنته فيمن قبلهم من أقوام الرسل، وكيف كانت عاقبتهم وعاقبة ارسل ومن آمن معهم ثم تأمل خلاصة هذه الدعوة من خطاب الناس في الآية ١٠٤ الى آخر السورة من إقامة الحجة على المشركين الشاكين في دين الرسول ﷺ وكون الشك جهلاً، وكونهم انما يعبدون وهماً، وكون ما يدعوه اليه هو مقتضى الفطرة الحنيفة، وكونهم يعبدون من لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً، وكون ما جاءهم به هو الحق، وكونهم مختارين في الاهتداء والضلال، وكون ما يختارونه إما لأنفسهم وإما لغيرهم، وكونه ﷺ ليس موكلاً بهدایتهم ولا مسيطراً عليهم

وهذه الخلاصة اجمال لما تقدم تفصيله في هذه السورة وغيرها، فارجع الى تذكيرهم بالدلائل الكونية في الآية الثالثة التي تشير الى أنها مغروسة في أعماق أنفسهم، وبالدلائل العقلية بقوله في الخامسة [يفصل الآيات لقوم يعلمون] وفي السادسة

[لقوم يتقون] وخطابه في الآية السادسة للعقل بقوله [أفلا تعقلون] وفي الحادية عشرة للفكر بقوله (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ثم ارجع الى قوله بعد إقامة طائفة من الدلائل العلمية الكونية (٣٥ قل هل من شر كائنكم من يهدي الى الحق - ٣٩) ثم الى بيانه لهم مافي القرآن من أصول التزكية والتهديب الاربعة في الآية ٥٧ وما بعدها - وقد تقدم تفصيل ذلك وما في معناه في الفصول السابقة

الباب السادس

في الاعمال الصالحات التي هي الركن الثالث مما جاء به الرسل (ع . م) وما يقابلها من الأعمال العامة ، وأخرناه لانه الثمرة والنتيجة وهو قسمان

﴿ القسم الاول الاعمال الصالحة ﴾

(١) قوله تعالى في الآية الرابعة (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) والصالحات ما تصلح به أنفس الافراد ونظام الاجتماع في البيوت والامة والدولة هذا هو الركن الثالث مما جاء به جميع رسل الله مجلدا ، وفصل في كل ملة بحسب ما كان من الاستعداد فيها ، وكل عمل من العبادات الدينية أو المعاملات المدنية والسياسية لا يؤدي الى الصلاح أو الاصلاح فهو غير صالح ، فاما فاسد في أصله ، وإما أدّى على غير وجهه

(٢) قوله تعالى (٩ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) وقد بينا في تفسيرها علاقة الايمان بالعمل الصالح وكون كل منهما يمد الآخر ويستمد منه ، ومن لم يفتقه هذا ويتوخه لم يفتقه في دينه ، ولم يكن به صالحا يستحق الجزاء الذي وعد الله به في هذه الآية وما قبلها ، وفي أمثالها من طولى السور ومثنيها ومفصلها حتى أقصرها (وهي سورة والعصر) ويؤيد هذا اتحاد الايمان والاسلام في الماصدق وان اختلفا في المفهوم كما ترى في الآيتين ٨٤ و ٩٠ ففهوم الايمان التصديق الادعائي الجازم بما جاء به النبي ﷺ من الدين وهو يستلزم العمل به

٥١٠ القسم الثاني في السيئات وفي الاعمال المطلقة بقسميها (التفسير: ج ١١)

ومفهوم الاسلام التسليم والالتقياد بالفعل وهو العمل بمقتضى الايمان ولا يصح فيكون اسلاما الا به،

(٣) قوله تعالى (٢٦) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ظاهر في دلالة الزيادة على

ما ورد في القرآن من مضاعفة هذا الجزاء

(٤) قوله تعالى في التعريف بأوليائه (٦٣) الذين آمنوا و كانوا يتقون)

فالتقوى جماع الاعمال الصالحة الحسنة مع اتقاء الاعمال الفاسدة السيئة كما فصلناه في مواضع من هذا التفسير أبسطها وأظهرها تفسير قوله تعالى (٢٩:٨) ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) الآية

(٥) قوله حكاية لوصية موسى لقومه (٨٧) وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين)

﴿القسم الثاني في السيئات وفي الاعمال المطلقة بقسميها﴾

(٦) قوله تعالى في منكري البعث والجزاء الراضين المطمئنين بالحياة الدنيا

وحدها غافلين عن آيات الله فيها (٨) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)

(٧) قوله فيمن يعبد الله على حرف فيدعونه في الضراء وينسونه في السراء

(١٧) كذلك زين للمترفين ما كانوا يعملون)

(٨) قوله بعد بيان بغى الناس في السراء وغرورهم بمتاع الحياة الدنيا وكون

وباله على أنفسهم في الآيات ٢١ — ١٣ وهي بمعنى ما قبلها (٢٣) ثم يناسر جمعكم فننبشكم بما كنتم تعملون)

(٩) قوله (١٥) إن أتبع إلا ما يوحى الي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب

يوم عظيم)

(١٠) قوله (٢٧) والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) الآية

(١١) قوله في الآية (٥٢) ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل

تجزون الا بما كنتم تكسبون)

- (١٢) قوله في الآية (٨١ ان الله لا يصلح عمل المفسدين)
(١٣) قوله تعالى في الاعمال المطلقة بقسمها (١٤) ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون)
(١٤) قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضا (٤١) وان كذبوك فقل لي عملي .
لكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وأنا بريء مما تعملون)
(١٥) قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضا (٦١) ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا ذنبيون فيه)

- (١٦) قوله في الوصية الهامة من الدعوة العامة من خاتمة السورة (١٠٨) فمن هتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل)
فتسأل الله عز وجل أن يصلح أعمالنا ، ويجعل خيرها خواتيمها ،
وهذا آخر ما نختتم به خلاصة هذه السورة البليغة ، ونضرع اليه عز وجل أن
وقفنا لآتمام تفسير كتابه الحكيم مطولا ومختصرا ، مفصلا ومجلا ، كما يجب .
يرضى من بيان الحق ، وهداية الخلق ، وله الحمد والشكر في كل فاتحة وخاتمة
وصلى الله وسلم على نبي الرحمة وآله وصحبه ، والمهتدين به من خلقه

قد جعلنا آخر هذه السورة آخر الجزء الحادي عشر
وقد تم طبعه في شهر المحرم سنة ١٣٥٣ للهجرة الشريفة .

الجزء الحادي عشر

من

تفسير القرآن الحكيم

الشيخ تقي الدين

الطبعة الأولى صدرت سنة ١٣٥٢

مطبعة المنار بمصر

تفسيهات

للمراجعين في هذا الفهرس

(١) قد روعي الترتيب الهجائي في حروف الكلمة الاولى وفي الكلمة الثانية والثالثة اذا كانت حروفها مماثلة للكلمة التي قبلها ، وأهملت حروف الجر والعطف والتعريف

(٢) ان ترتيب الكلمات، هو على حسب النطق لا المادة وجعلنا للمعاني المهمة عدة ألفاظ تدل عليها ككلمات الدعاء، والشفاعة والاريااء في عبادة غير الله تعالى (٣) اننا وضعنا للآيات المفسرة في الجزء فهرسا خاصا جعلنا فيه عن يمين كل آية عددها من السورة وعن يسارها رقم الصفحة التي بدى فيها بتفسيرها للاستغناء عن بيان عدد الصفحات كلها أحلنا القارئ اليها لمراجعتها

(٤) اننا نعتمد في عدد الآيات على المصحف الرسمي لوزارة المعارف المصرية فمن رأى في مصحف آخر أو كتاب عدد آية مخالفا له وأراد مراجعتها في تفسيرنا فليعتمد على عددها عندنا

وقع في السطور ١٥ و ١٦ و ١٧ من الصفحة ٦٢ خطأ فتصحح كما يأتي :
ويؤخذ من هذا قاعدة هي ان أحكام الاسلام العامة التي عليها مدار الجزاء في الآخرة ويكلف العمل بها كل من بلغته ان كانت من الاحكام الشخصية التي خوطب بها أفراد الامة كلهم، وينفذها أئمتها وأمرؤها فيها، هي ما كانت قطعية الدلالة ببيان من الله الخ